خواطر على الخواطر

(مع الشعراوى فى تفسيره)

خواطر على الخواطر

(مع الشعراوى فى تفسيره)

د. إبراهيم عوض

مكتبة الشيخ أحمد

منشية الصدر - القاهرة

١٤٤٠هـ - ٢٠١٨م

الشعراوى وخواطره حول القرآن الكريم

الشيخ محمد متولى الشعراوى (١٥ ربيع الأول ١٣٢٩هـ/ ١٥ أبريل ١٩١١م- ٢٢ صفر ١٤١٩هـ/ ١٧ يونيو ١٩٩٨م) عالم دين ووزير أوقاف مصرى سابق، ومن أشهر مفسرى القرآن الكريم فى العصر الحديث. وطريقته فى التفسير طريقة مبسطة يستخدم فيها اللهجة العامية مما كفل له الوصول لملايين المسلمين فى أنحاء العالم العربى، وبخاصة أن مجالس تفسيره كانت تُسَجَّل وتُذَاع فى التلفاز حلقة بعد حلقة. وقد لقبه بعض مقدِّرى فضله بـ"إمام الدعاة".

والشيخ من مواليد قرية دقادوس التابعة لمركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية بمصر، وحفظ القرآن الكريم فى الحادية عشرة من عمره، والتحق بمعهد الزقازيق الدينى، وظل يدرس فى الأزهر حتى تخرج من كلية اللغة العربية عام ١٩٤١م. وقد اشتغل رحمه الله، وهو طالب، بالحركة الوطنية. وبعد تخرجه عين فى المعهد الدينى بطنطا، ثم انتقل بعد ذلك إلى المعهد الدينى بالزقازيق ثم المعهد الدينى بالإسكندرية. وبعد فترة انتقل إلى العمل فى السعودية عام ١٩٥٠م ليعمل أستاذًا للشريعة فى جامعة أم القرى. وفى ١٩٦٣ وقع خلاف بين الرئيس جمال عبد الناصر والملك سعود، فلم يرجع الشيخ إلى السعودية، وعين فى القاهرة مديرًا لمكتب شيخ الأزهر الشيخ حسن مأمون. ثم سافر بعد ذلك إلى الجزائر رئيسًا لبعثة الأزهر هناك حيث مكث حوالى سبع سنوات قضاها فى التدريس. وحين عاد إلى القاهرة عين مديرًا لأوقاف محافظة الغربية فترة، ثم وكيلًا للدعوة والفكر، ثم وكيلًا للأزهر، ثم عاد ثانية إلى السعودية ة فى جامعة الملك عبد العزيز.

وفى نوفمبر ١٩٧٦م اختار السيد ممدوح سالم رئيس الوزراء آنذاك أعضاء وزارته، وأسند إلى الشيخ الشعراوى وزارة الأوقاف وشؤون الأزهر، فظل الشعراوى

فى الوزارة حتى أكتوبر عام ١٩٧٨م. وفى سنة ١٩٨٧م اختير عضوًا بمجمع اللغة العربية. وقد منح الإمام الشعراوى وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى بمناسبة بلوغه سن التقاعد فى ١٥ أبريل ١٩٧٦، ووسام الجمهورية من الطبقة الأولى عام ١٩٨٣م.

وللشيخ الشعراوى عدد كبير من المؤلفات قام بعض محبيه بجمعها وإعدادها للنشر، وأشهر هذه المؤلفات تفسير الشعراوى للقرآن الكريم. وكان للشيخ باع فى الشعر أيام شبابه، وبخاصة أيام مشاركته فى العمل الوطنى. وقد بدأ الشيخ رحمه الله تفسيره على شاشات التلفاز قبل سنة ١٩٨٠م واستمر حتى بلغ أوائل سورة "الصف"، ثم حالت وفاته دون إتمام التفسير إلى النهاية. ويقول الشيخ موضحا طريقته فى التفسير إن خواطره حول القرآن الكريم لا تعنى تفسيرًا للقرآن، وإنما هى هبات صفائية تخطر على قلب مؤمن فى آية أو بضع آيات، وإنه لو كان ممكنا تفسير القرآن لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى الناس بتفسيره. إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتفى بأن يبين للناس على قدر حاجتهم إلى معرفة أحكام التكليف فى القرآن الكريم.

وكان الشيخ يلقى على جمهور الحاضرين دروسه التفسيرية باللهجة العامية المصرية، وهى متاحة على اليوتيوب صوتا وصورة. ثم حولها بعض محبى الشيخ نصوصا مكتوبة فى مؤلفات ورقية مصوغة بلغة فصحى قريبة من العامية وتعبيراتها وتراكيبها ونكهتها، وتحمل روح الشيخ وبصمة شخصيته. وقد حُوِّلَتْ هذه الكتب الورقية بدورها كتبا رقمية على المشباك، وعلى هذه الكتب اعتمدتُ فى وضع هذه الدراسة. والملاحظ أن الشيخ كان يحب التفاعل مع جمهوره حين يدلى بخواطره حول كتاب الله الكريم، وكانت له جاذبية خاصة فى هزات رأسه وحركات يديه ولفتات وجهه وتعبيرات عينيه وانحناءات جذعه وتلوينات صوته وسؤالاته لنفسه أو لجمهوره تنشيطا لخاطرهم وإشعارا لهم بأنهم يشاركونه فى هذا الجهد العلمى الكريم، وبتره للجملة فجأة كى يكملها الجمهور، وهو ما لم أستطع البتة فعله مع طلابى فى الجامعة،

إذ هم أعقل وأحكم وأوقر من أن يزعجوا أنفسهم بشيء من هذا الذى لا يرون له أية قيمة ولا يجدون فيه أية جدوى. ولعل تفسير الشيخ هو التفسير العامى الوحيد الذى وصلنا. وأغلب الظن أن كثيرا من التفسيرات التى سبقته أو لحقته كانت تلقى بالعامية، ثم يدونها صاحبها بالفصحى أو يقوم عنه بذلك تلامذته. أما الشيخ الشعراوى فقد بقى لنا تفسيره باللهجة العامية لأن التلفاز سجل كل حلقاته بالصوت والصورة، كما أنها موجودة على اليوتيوب وغيره من المواقع. ولولا التلفاز ما بقى لنا إلا النسخة التى كتبها أحبابه بالفصحى البسيطة السهلة.

وكان الشيخ يمسك بالمصحف الشريف فى يده وهو يفسر القرآن جالسا على أريكة ظريفة بجلبابه وطاقيته المميزة أمام جمهوره الذى يفترش السجاجيد متربعا، فينظر الآية التى يتناولها بالتفسير ثم يغلقه محتفظا به دائما فى يده واضعا إصبعه عند الصفحة التى ينظر فيها، مع الانطلاق فى عملية الشرح والتوضيح موردا فى أثناء ذلك الآيات والأحاديث والقصص والحكايات التى تتعلق بها، ومهتما فى ذات الوقت بتأصيل المفردات والعبارات والصور القرآنية ومستخلصا الأحكام الفقهية ومعالجا القضايا العقيدية التى تتضمنها الآية الكريمة، وموردا الأمثال والأقوال، كل ذلك فى روح شعبية جذابة آسرة مع الاحتفاظ بوقار العلم وسموقه فى ذات الوقت.

والشيخ، رحمه الله، ينسب نفسه إلى أهل البيت. وهذا موجود فى كتاب سعيد أبو العينين: "الشعراوى: أنا من سلالة أهل البيت". ورغم هذا فعبثًا تبحث فى تفسيره عن أى شىء مما يقوله الشيعة عادة فى شرح هذه الآية أو تلك. ذلك أنه لا يقول فى الآيات التى يقول فيها الشيعة ما يخالف أهل السنة إلا ما يقوله السنيون، إذ لا يقوِّل نصا قرآنيا ما ليس فيه بغية تحويل الثناء الموجود فيه إلى علىٍّ وذريته أو الذم الذى يتضمنه إلى أبى بكر وعمر رغم أنه لا صلة بينه وبين أى من هؤلاء الصحابة الكرام لا سلبا ولا إيجابا، أو يحْرِم أمهات المؤمنين من الانضواء فى أهل البيت. إن الشيخ فى الآية رقم ٣٣ من

"الأحزاب"، وهى الآية التى تتحدث عن أهل البيت وإرادة الله أن يذهب الرجس عنهم، يجعل أهل البيت أول ما يجعل زوجته، وهو ما يخالف ما يذهب إليه الشيعة من قصر أهل البيت على عليٍّ وفاطمة والحسن والحسين وإخراج عائشة وحفصة وغيرهما من زوجات النبى من ذلك الشرف. قال رحمه الله: "وكلمة "أهل" تُقَال لعشيرة الرجل، لكنها تُطلَق فى عُرْف الاستعمال على امرأته. ومن بقية الاصطلاحات لهذا المعنى ما نقوله الآن حين نذهب لزيارة صديق مثلًا فنقول: "معى الأهل أو الجماعة"، والبعض يقول: "معى الأولاد"، ونقصد بذلك الزوجة. لماذا؟ قالوا: لأن أمر المرأة مبنى على الستر. فإذا كان اسمها مبنيا على الستر فكذلك معظم تكليفاتها مبنية على الستر فى الرجل، ونادرا ما يأتى الحكم خاصا بها".

وفى هذا الكتاب الذى بين يدى القارئ حاولت دراسة طريقة الشيخ رحمه الله فى تفسير القرآن واستخلاص أهم خصائصها ومناقشة آرائه موضحا ما يحتاج إلى توضيح أو مضيفا إليها متى كان هناك مجال للإضافة أو مستدركا عليها إن كان ثم موضع للاستدراك، وموافقا أو مخالفا لها، وكاشفا الغطاء عن المصادر التى أخذ عنها فضيلته... إلخ، راجيا خلال ذلك كله رضا ربى الكريم، واضعا فى ذهنى خدمة العلم والدين والقرآن، فخدمة العلم إنما تتحقق بالنقاش والحوار وإدلاء كل منا بما عنده بحيث تكون أمام القارئ مائدة حافلة بألوان الطعام وأطايبه المختلفة والمتنوعة، فيوازن بينها ويختار منها ما يناسبه أو ما يراه أشهى من غيره. وقد سميتها "خواطر على الخواطر" اقتداء بالشيخ الكريم، الذى سمى تفسيره للقرآن المجيد: "خواطر"، فقلت فى نفسى: "فَلْأُسَمِّ عملى أنا أيضا: خواطر"، وتكون خواطرى خواطر على خواطر الشيخ رحمه الله. ولعلى بذلك أكون قد قدمت شيئا ذا جدوى فى هذا العصر الذى لا يكاد يرى لشىء جدوى. وما توفيقى إلا بالله. عليه توكلت، وإليه أُنِيب.

سمات عامة فى تفسير الشعراوى:

١ – مسائل لغوية

لعل أظهر سمة من سمات تفسير الشعراوى هى اهتمام الرجل باللغة: نحوا واشتقاقا وتأصيلا وما إلى ذلك. ولنأخذ على هذا بعض الأمثلة: فمن ذلك أنه، فى تعليقه على معنى كلمة "آمين"، التى يردّ بها المأمومون على الإمام عند انتهائه من قراءة "الفاتحة" فى الصلاة الجهرية، يقول رحمه الله: "وكلمة "آمين" معناها "استجب يا رب فيما دعوناك به"، فـ"آمين: دعاء لتحقيق المطلوب". ثم يمضى قائلا إن "كلمة "آمين" اختلف العلماء فيها: أهى عربية أم غير عربية؟ وهنا يثور سؤال: كيف تدخل كلمة غير عربية فى قرآنٍ حَكَمَ اللهُ بأنه عربى؟ نقول: إن ورود كلمة ليست من أصل عربى فى القرآن الكريم لا ينفى أن القرآن كله عربى، بمعنى أنه إذا خوطب به العرب فهموه. وهناك ألفاظ دخلت فى لغة العرب قبل أن ينزل القرآن، ولكنها دارت على الألسن بحيث أصبحت عربية وأَلِفَتْها الاذان العربية. فليس المراد بالعربى هو أصل اللغة العربية وحدها، وانما المراد أن القرآن نزل باللغة التى لها شيوع على ألسنة العرب. وما دام اللفظ قد شاع على اللسان قولا، وفى الآذان سمعا، فإن الأجيال التى تستقبله لا تفرق بينه وبين غيره من الكلمات التى هى من أصل عربى. فاللفظ الجديد أصبح عربيا بالاستعمال، وعند نزول القرآن كانت الكلمة شائعة شيوع الكلمة العربية".

إن كلام الشيخ هنا يوحى، إن لم يعْنِ، أنه موافق على أن كلمة "آمين" كلمة غير عربية. ولكن هل الكلمة غير عربية حقا؟ المعروف أنهم فى الإنجليزية والفرنسية مثلا يستخدمون هذه الكلمة فى هذا المعنى وغيره بلفظها: "Amen". والمستشرقون يقولون دون دليل إنها عبرية أو سريانية تعصبا منهم على اللغة العربية، إذ الملاحظ أنهم كلما رَأَوْا لفظا مشتركا بين العربية وأية لغة سامية أخرى سارعوا تلقائيا إلى القول بأنها

دخلت من تلك اللغة إلى لغة العرب، مع أن اللغتين ساميتان، فضلا عن أن هناك رأيا قويا عند بعض المستشرقين أنفسهم يقول بأن لغة العرب هى أصل اللغات السامية.

جاء فى مادة "آمين" بـ"دائرة المعارف الكتابية" أن هذه الكلمة "عبرية مشتقة من فعل معناه "يثبّت، يبنى، يؤسس، يسند". فمعناها هو "الصادق" أو "الأمين" أو "الراسخ". وقد انتقلت من العبرية إلى كل لغات العالم تقريبًا، واستعلمت فى اليونانية بمعنى "حقا" أو "صدقا" أو "فى الحقيقة" أو "ليكن هكذا" أو "ليتم هذا الأمر". فهى تحمل معنى الموافقة أو التأكيد أو التأييد لما قيل. وتظهر قوتها فى ما أوصى به موسى يشوع بأنه عندما يقرأ الكهنة اللعنات فى شكيم فعلى كل الشعب أن يقولوا: "آمين" (تث ٢٧: ١٥-٢٦) حيث تتكرر هذه العبارة ١٢ مرة، ومن هنا أصبحت عادة عند اليهود فى مجامعهم، ومنهم انتقلت إلى الكنيسة المسيحية. فعندما كان يقْرَأ جزء أو تُرْفَع صلاة لله كان المستمعون يقولون: "آمين" للتعبير عن موافقتهم على ماقيل (انظر "آمين" فى ١ كو ١٤: ١٦). وتستخدم "آمين" فى أول الكلام للتوكيد بمعنى "حقا" أو "صدقا". كما تستخدم "للتمنى" فى ختام الدعاء أو الصلاة أو الشكر بمعنى "ليكن كذلك". وقد استخدمت اسمًا للرب يسوع المسيح (رؤ ٣: ١٤)".

والواقع أن تسمية المسيح بهذه الكلمة كافية وحدها بأن ينفر الإسلام من استعمالها فى العبادة نَأْيًا بأتباعه عن إدخال المسيح فى الصلاة، الذى يعده غالبية النصارى رَبًّا لهم. وحتى لو لم يكن للمسيح عليه السلام بها أية وشيجة فكيف يا ترى انتقلت من اليهودية والنصرانية إلى الإسلام، وقد كان الإسلام حريصا على ألا ينقل عن هاتين الديانتين مثل تلك الأشياء؟ ولقد رأينا كيف تم رفض استعمال الشَّبُّور اليهودى والناقوس النصرانى فى الدعوة إلى صلاة المسلمين وابتداع حل آخر عبقرى يتمثل فى الصوت الإنسانى الندىّ حين وضع أحد الصحابة فى المنام يده على هذا الحل المتفرد، فسُرَّ الرسول بذلك وأخذ به على الفور.

وفى نفس المـادة من "A Dictionary of Islam" للمبشر البريطانى توماس هيوز نجده يقول بعبريتها قولا واحدا. وفى ذات المـادة أيضا من نسخة "ويكيبيديا" العربية نقرأ أنها "كلمة سريانية قديمة، وتعنى "اللّٰهم استجب دعائى". وقد تناقلها أصحاب الديانات الإبراهيمية حتى يومنا هذا. وبما أن العربية لغة سامية كما العبرية والآرامية فقد استخدمها المسلمون فى صلواتهم وأدعيتهم حتى هذا اليوم بكل لغاتهم، وكذلك اليهود والمسيحيين. ففى الإسلام يقول الرسول: "إذا قال الإمام: "غير المغضوب عليهم ولا الضالين" فقولوا: آمين. فإنه من وافق قَوْلُه قَوْلَ الملائكة غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه". رواه البخارى".

ثم لا يكتفى محرر المـادة بهذا بل يضيف قائلا: "هناك ادعاء يقول إنها ليست سريانية الأصل. إنما هى كلمة مصرية قديمة مشتقة من اسم الإله المصرى الفرعونى الشهير: "آمون"، فقيل إن أصحاب الديانات الإبراهيمية يقدسونه. وهذا خطأ فادح لأن "آمين" غير "آمون"، ووجود كلمة مشابهة فى لغة أخرى لا يعنى ولا يفيد بأن أصحاب اللغة الأولى يقصدون المعنى الموجود فى اللغة الثانية".

وهو تعليل وجيه جدا، علاوة على أن "آمون" إله وثنى لا يمكن أن يقبل به الإسلام فى الصلاة البتة، ففى الإسلام حساسية غاية فى الشدة تجاه أى شيء وثنى مهما قل أو صغر. ثم كيف يا ترى انتقل هذا اللفظ إلى صلوات اليهود والنصارى والمسلمين؟ ولو كان المسلمون قد أخذوها عن اليهود أو النصارى ما سلموا من غمزهم ولمزهم ولأقاموا الدنيا ولم يقعدوها متهمين إياهم بأنهم يأخذون من دينهم ويعيبونه. ومن ثم ليس من الممكن أن يكون الإسلام قد نقلها عن هؤلاء أو أولئك. وفوق هذا فرغم أن اللفظ هو اسم فعل فقد اشتقت العربية منه فعلا هو "أَمَّن" بمعنى "وافق قائلا: آمين"، واسم فاعل: "مُؤَمِّن"، ومصدرا: "تأمين".

أما النسخة الإنجليزية من "ويكيبيديا" فلا تقول إن أصل "آمين" يرجع إلى اللغة الفلانية أو اللغة العلانية، بل تكتفى بالإشارة إلى وجودها عند اليهود والنصارى، مضيفة أنه قد قيل بأصلها العبرى. فهى لا تقرر فضلا عن أن تجزم بل تورد ما يقال ليس إلا. وحين أتت إلى اللغة العربية تحدثت عن اشتقاق الكلمة من الجذر: "أ م ن" الدال على الأمانة، ولم تقل إنها منقولة عن أية لغة أخرى... إلخ.

ويذهب د. حسام النعيمى (فى مقال بعنوان "أصل كلمة آمين" على موقع "إسلاميات") نفس المذهب الذى نذهبه، وإن كان كلامه أكثر تفصيلا، فيقول بل يؤكد أن الكلمة عربية صميمة على النحو التالى: "كلمة "آمين"، وهى كلمة عربية النِّجَار صميمية النسبة مثل "هيهات" ومثل "أف" ومثل "صَهْ"، هذه أسماء أفعال. آمين: اسم فعل بمعنى "اللّٰهم استجب"... لأن كلمة "آمين" لم تستعمل إلا مع الله. حتى فى الجاهلية لا تقول لشخص يتكلم: "آمين" بمعنى "استجب لى يا فلان"، لكن "آمين" يعنى "اللّٰهم استجب لكلامه". وحتى قبل نزول القرآن وكلمة "اللّٰهم" كانت مستعملة عندهم ويعنون بها "يا الله":

إنى إذا ما حدثٌ أَلَمّ ... أقول: يااللّهُمّ يااللّهُمّ

لأن هذه الكلمة: "اللّٰهم" جُعِلَتْ خاصة بنداء الله تعالى. ولأنها جُعِلت هكذا أُدخل عليها حرف النداء مع أن الميم هى عوض عن حرف النداء فقال: "يااللهم". هذا شاهد نحوى. إذن "آمين" هى اسم فعل.

هناك إشكال أن كلمة "آمين"، ولعل هذا سبب السؤال المطروح من قِبَل السائل، أننا نسمعها فى الصلوات فى الكنائس من الأوروبيين الآن: يميلونها يقولون: "Amen". هذه الكلمة وجودها فى اللغات الأخرى لا يعنى أنها ليست عربية، وإنما هى موجودة فى اللغة السريانية التى هى الآرامية. والآراميون، كما هو معلوم، خرجوا

مـن جزيـرة العـرب فى حـدود ١٥٠٠ ق.م. هـذه الكلمـة مـستعملة عنـد الـسريان، والإنجيل بالسريانية، وفيها "آمين".

السريانية خرجت من جزيرة العرب. ولذلك نحن نسمى هذه اللغات الخارجة من جزيرة العرب: اللغات الجَزَرِية، ولا نسميها: اللغات السامية كما سماها "شنيغل". ليس عندنا دليل. الأكادية التى هى البابلية والآشورية خرجت أيضًا من جزيرة العرب حوالى ٣٦٠٠ ق.م، وفيها ألفاظ مقاربة للعربية. وينفعنا أن الأكاديين وردت نصوص فى أدبياتهم المسجلة فيها ذكر العربى. معناها أن العربية كانت قديمة موجودة. هؤلاء القوم قدامى، وكان عندهم حروب مع البابليين والآشوريين. وبعد الأكاديين جاءت موجة الكنعانيين ١٥٠٠ ق.م، ومن الكنعانية اللغة الأوغاريتية والفينيقية والعبرية. فإذن العبرية متأخرة عن العربية لأنه قلنا إن العرب ذكرهم الأكاديون. هذه من الكنعانية. موجود "آمين" فى العبرية تدل على أنهم هم الذين أخذوها من العربية لأن العبرية متأخرة بعد ذلك بألف عام. خرجت الآرامية والسريانية فيها "آمين". فإذن هى مأخوذة من لغة أقدم، واللغة الأقدم هى العربية. كما قلنا "آمين" نسميها: أسماء أفعال، ألفاظ جامدة. هكذا تدل على هذه المعانى.

"آمين" بهذا اللفظ دخلت إلى هذه اللغات فلا نتحرّج أنهم هم يستعملونها فنقول: كيف نستعملها؟ هذه هى ملكنا، وهى لغتنا، والرسول حثّ على قول: "آمين"، ثم بعد ذلك صاروا يشتقون منها: "إنى داعٍ فأمّنوا". اشتُقَّ منها فعلٌ، أى قولوا: "آمين"، اللّهم استجب. لهذا الكلمةُ عربيةٌ، وهى اسم فعل. طالما عندنا صفة نشتق منها. "آمين" هى كلمة عربية شأنها شأن "هيهات" وشأن "أف" ثم صارت العرب تولد أسماء" (http://islamiyyat.3abber.com/post/191880).

ولنفترض أن الكلمة ليست عربية فعلا وأنها انتقلت إلى العربية من لغة سامية أخرى فهل هذا يطعن فى عروبية القرآن؟ الواقع أن السؤال لا ينبغى أن يطرح على هذا

الشكل بل الأحرى أن يقال: هل يطعن هذا فى عروبة العربية؟ والحق أنه سؤال سخيف، فما من لغة فى العالم إلا ونسبة من ألفاظها مستعارة من اللغات الأخرى، لا تشذ لغة عن ذلك بما فيها لغات البلاد التى تقود الحضارة الآن: فالإسبانية تضم نسبة كبيرة جدا من الألفاظ العربية. وهو ما ينطبق على الفارسية والأوردية والتركية أيضا وعدد من اللغات الأفريقية كما هو معروف. وفى الإنجليزية والفرنسية كلمات كثيرة مأخوذة من لغتنا. ولم نسمع أن أحدا من أهل تلك اللغات أو من غيرها أفتى بأنها قد فقدت هويتها. ونحن الآن نأكل أطعمة مأخوذة من مطابخ الدول الأخرى كالكشرى والشاورمة والرنجة والتورتة وغيرها، فهل هذا يشكك فى جنسيتى؟ وهل سمع أحد منا قائلا ينفى أسدية الأسد لأنه يأكل الخراف؟ إن الأسد يظل أسدا حتى لو ظل يلتهم ليل نهار ونهار ليل لحوم الخراف لا يأكل غيرها، ولم نر أسدا ينبت له قرون خروف أو يغطيه فراء خروف أو يصدر ثغاء خروف أو يشكك حيوان من حيوانات الغابة أو الصحراء أو الرعى والزرع فى أسديته مثيرا شبهة أنه خروف. فلماذا يثار هذا السؤال بالنسبة للعربية، والعربية وحدها دون غيرها؟ المهم أن تظل أسس شخصية اللغة كما هى: نحوا وصرفا ومعجما. وها هى ذى اللغة العبرية أمامنا الآن، وقد دخلها فى العقود الأخيرة سيل من الألفاظ الأوربية العلمية والسياسية بالذات، فهل سمعنا أحدا يشكك فى عبرانيتها؟ فلم التشكيك فقط فى العربية؟

ثم يستمر الشيخ موضحا موقع "آمين" وأمثالها فى العربية فيقول إن "اللغة ألفاظ يصْطَلح على معانيها بحيث إذا أُطْلِق اللفظ فُهِم المعنى. واللغة التى نتكلمها لا تخرج عن اسم وفعل وحرف. الاسم كلمة، والفعل كلمة، والحرف كلمة. والكلمة لها معنى فى ذاتها. ولكن هل هذا المعنى مستقل فى الفهم أو غير مستقل؟ إذا قلت: "محمد" مثلا فهمت الشخص الذى سُمِّىَ بهذا الاسم فصار له معنى مستقل. وإذا قلت: "كَتَبَ" فهمت أنه قد جمع الحروف لتُقْرَأ على هيئة كتابة. ولكن إذا قلت: "ماذا"، وهى حرف،

فليس هناك معنى مستقل. واذا قلت: "في" دَلَّتْ على الظرفية، ولكنها لم تدلنا على معنى مستقل. بل لا بد أن تقول: "الماء في الكوب" أو "فلان على الفرس". غير المستقل في الفهم نسميه: حرفا لا يظهر معناه إلا بضم شيء له. والفعل يحتاج الى زمن، ولكن الاسم لا يحتاج الى زمن.

إذن الاسم هو ما دل على معنى مستقل بالفهم، وليس الزمن جزءا منه. والفعل ما دل على معنى مستقل بالفهم، والزمن جزء منه. والحرف دل على معنى غير مستقل. ما هي علامة الفعل؟ هي أنك تستطيع أن تسند اليه تاء الفاعل، أي تقول: "كتبتُ"، والفاعل هو المتكلم. ولكن الاسم لا يضاف اليه تاء الفاعل فلا تقول: "محمدت". إذا رأيت شيئا يدل على الفعل، أي يحتاج الى زمن، ولكنه لا يقبل تاء الفاعل، فإنه يكون اسم فعل. "آمين" من هذا النوع ليست فعلا، فهي اسمٌ مدلولُه مدلولُ الفعل معناه "استجب". فأنت حين تسمع كلمة "آه" أنها اسم لفعل بمعنى "أتوجع". وساعة تقول: "أُفّ" اسم فعل بمعنى "أتضجر". و"آمين" اسم فعل بمعنى "اسْتَجِبْ"...". وهو كلام صحيح، إلا فيما يتعلق بـ"ماذا"، التي سها الشيخ فعدها حرفا، بينما هي اسم استفهام حسبما هو معلوم. كما يمكننا أن نسرد من أسماء الفعل "صَهْ (اسكت)، مَهْ (كُفّ)، إيهِ (زدنا)، هيهات (بَعُدَ)، وَيْ (أتعجب)، حاهْ (لِحَثّ الحمار على المشي)، شِيهْ (لحث الحصان)، بِسْ (لِزَجْر القطة)...".

وفي تعليقه على قوله عز شأنه في سورة "البقرة": "قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤)" يقول: "نحن نعلم أن "قد" للتحقيق، و"نرى" فعل مضارع مما يدل على أن الحدث في زمن التكلم. الحق سبحانه وتعالى يعطينا صورة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يحب ويشتاق أن يتجه إلى الكعبة بدلا من بيت المقدس. وكان عليه

الصلاة والسلام قد اعتاد أن يأتيه الوحى من علو. فكأنه صلى الله عليه وسلم كان يتجه ببصره إلى السماء مكان إيتاء الوحى، ولا يأتى ذلك إلا إذا كان قلبه متعلقا بأن يأتيه الوحى بتغيير القبلة، فكأن هذا أمر شغله".

ويهمنى أن أقف عند قول فضيلة الشيخ إن "قد" للتحقيق، فضلا عن أن بقية كلامه توحى بأنها لا تدخل إلا على المضارع. لكن "قد" لا تدخل على المضارع وحده، ولا تدل مع المضارع على هذا المعنى وحده. جاء فى "معجم المعانى الجامع" (على المشباك):

"قَد: حَرْفٌ يفِيدُ التَّوَقُّعَ مَعَ الْمُضَارِعِ: قَدْ ينْزِلُ الْمَطَرُ. قَدْ يعُودُ إِلَى رُشْدِهِ.

قَد: يفِيدُ التَّقْلِيلَ مَعَ الْمُضَارِعِ: قَدْ يصْدُقُ الْكَذُوبُ. أَى قَلَّمَا يصْدُقُ الْكَذُوبُ

قَد: يفِيدُ التَّحْقِيقَ مَعَ الْمَاضِى.

قَد: تَخْتَصُّ بِالْفِعْلِ الْمُتَصَرِّفِ الْخَبَرِى الْمُثْبَتِ الْمُجَرَّدِ مِنْ جَازِمٍ أَوْ نَاصِبٍ، وَتَكُونُ مُلْتَصِقَةً بِالْفِعْلِ، وَيمْتَنِعُ الْفَصْلُ بَينَهَا وَبَينَهُ إِلَّا إِذَا كَانَ مَاضِيا، وَالْفَاصِلُ قَسَمًا: قَدْ وَاللَّهِ أَفْلَحْتَ فِى عَمَلِكَ".

فـ"قد" لا تفيد دائما التحقيق، كما أنها لا تختص بالمضارع. وكنت، وأنا صبى صغير، أتصور أنها لا تفيد التحقيق إلا مع الماضى كما يقول المعجم هنا، أما مع المضارع فتفيد التقليل أو الظن. لكنى لاحظت أنها كثيرا ما تأتى مع المضارع المسند إلى لفظ الجلالة، ولا يعقل أن يكون المقصود بها التقليل أو الظن، فالله سبحانه حين يقال إنه "قد يفعل" فهو بكل يقين يفعل. وهو ما يتحدث عنه الشيخ، لكنه نسى أن الفاعل لا يكون دائما هو الله. وعلى كل حال لقد لاحظت أن طه حسين كثيرا ما يستعملها مع المضارع للتحقيق حتى لو كان الفاعل بشرا. وهذا الاستعمال موجود عند القدماء، أما فى العصر الحديث فلم أتنبه لأحد يستعملها مع المضارع للتحقيق سوى د. طه، تأثرا منه بالقرآن الكريم، الذى لاحظت أنه يترسم خطاه الأسلوبية إلى حد بعيد غير موجود

عند أحد آخر. وهذا مذكور فى الفصل الخاص بمجموعته القصصية: "المعذبون فى الأرض" من كتابى: "دراسات فى النثر العربى الحديث".

وأذكر من باب الطرائف أننى، وأنا فى امتحان الثانوية العامة عام ١٩٦٦، قد أعربت كلمة "قد" على أنها "حرف تأكيد" بدلا من أن أقول: "حرف تحقيق" مع أن المعنيين متقاربان جدا. ولما خرجت من الامتحان تذكرت، بعد أن تخلصت من ضغط الامتحان وتوتره، كلمة "للتحقيق"، فتكدرت نفسى أيما تكدر، وظننت أننى سوف أفقد درجات كثيرة لقاء هذا السهو البسيط. ثم ظهرت النتيجة، وأذكر أننى حصلت على ٤٦ درجة من خمسين.

وكانت لنا زميلة فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية كانت حاصلة على أعلى مجموع كلى بين طلاب تلك السنة، ولعلها قالت لزملائنا الذين بَقُوا فى كلية الاقتصاد بعد أن حولتُ أوراقى إلى الآداب إنها حصلت فى اللغة العربية على ٤٨ درجة. ولكن لما ذهب بعض زملائى لمقابلة الرئيس عبد الناصر فى عيد العلم آنذلك ليتسلموا جوائز أوائل الجمهورية جاؤونى تلك الليلة فى المدينة الجامعية وفى أيديهم كتاب عيد العلم وهم متهللون يقولون: إنك أنت أول الجمهورية فى مادة اللغة العربية. فسرنى هذا سرورا بالغا، وعددته شيئا من التعويض عن تأخرى عن أوائل الجمهورية فى المجموع الكلى بقليل.

بقى شىء آخر، وهو أن أول الجمهورية فى اللغة العربية ذلك العام لم يحصل على النهاية الكبرى فيها، أى لم "يقفِّل" المادة بتعبير طلاب اليوم، بينما لو لم يحصل الطالب منهم على الدرجة النهائية لملأ الدنيا سخطا وانتقادا، إذ هو قد حل كل شىء. وعبثا نفهمه أننا نحن الأساتذة لو دخلنا معه الامتحان وصححنا إجاباتنا بأنفسنا ما أعطيناها الدرجة العليا. ولكن من يقرأ؟ ومن يسمع؟ والشكر للشيخ الشعراوى أنه قد أتاح لى

الفرصة لأثرثر بعض الثرثرة وأستدعى بعض الذكريات الجميلة من أيام الصبا والشباب، رحمه الله. وبالمناسبة لقد كان الشيخ متحدثا لا يمل حديثه.

وفى خواطره حول قوله تعالى: "اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ" (البقرة/ ٢٥٥) يؤكد الشيخ قائلا: "يجب أن نعلم أن "إلا" هنا ليست أداة استثناء لأنها لو كانت أداة استثناء فكأنك تنفى أن توجد آلهة ويكون الله من ضمن هذه الآلهة التى نفيتها. وذلك غير صحيح. وإنما المراد أنه لا آلهة أبدًا غير الله فهو واحد لا شريك له، وأنه لا معبود بحق إلا هو. فكلمة "إلاّ" ليست للاستثناء وإنما هى بمعنى غير، أى لا إله غير الله". وهذا كلام غير مقنع، فـ"غير" أيضا هنا أداة استثناء، ومن ثم فكأننا هربنا من حفرة لنقع فى دحدورة. أما القول بأننا حين نقول: "لا إله" نكون قد أنكرنا الآلهة جميعا بما فيهم الله سبحانه فهو غير صحيح لأننا لا نتوقف بعد هذه العبارة وينتهى الكلام، ولا يمكن أن نقف لأن الكلام لم ينته بعد، إذ هى جزء من جملة مكونة من "لا" النافية للجنس، واسمها الذى هو "إله"، وخبرها الذى هو "إلا الله". ومعروف أن هذا الاستثناء يسمى بـ"الاستثناء المفرغ"، وهو استثناء منفى ناقص لا يكتمل إلا بأداة الاستثناء والمستثنى منه. إننا بهذه الجملة لا ننفى وجود الله كما يظن فضيلة الشيخ بل ننفى أى إله غيره سبحانه ونؤكد تأكيدا شديدا وجوده وحده.

وهو ما يقال أيضا فى الرد على كلام الشيخ التالى فى تفسير قوله عز شأنه: "لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ" (الأنبياء/ ٢٢). قال: "ومعنى "إِلَّا اللَّهُ" (الأنبياء/ ٢٢): "إلا" أداة استثناء تُخرِج ما بعدها عن حكم ما قبلها كما لو قلتَ: "جاء القوم إلا محمدا"، فقد أخرجتَ محمدًا عن حكم القوم، وهو المجىء. فلو أخذنا الآية على هذا المعنى: "لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا" يعنى لو كان هناك آلهة، الله خارج عنها، لفسدت السماوات والأرض. إذن ما الحال لو قلنا: لو كان هناك آلهة والله معهم؟ معنى ذلك أنها لا تفسد. فـ"إلا" إنْ حققت وجود الله فلم

تمنع الشَّرِكة مع الله، وليس هذا مقصود الآية. فالآية تقرر أنه لا إله غيره. إذن "إلا" هنا ليست أداةَ استثناء. إنما هى اسم بمعنى "غير"... فالمعنى: لو كان فيهما آلهة موصوفة بأنها غير الله لَفَسَدَتَا، فامتنع أن يكون هناك شريك".

ويتحفنا الشيخ فى خواطره حول الآية ١٤ من "البقرة" ببعض المعلومات اللغوية حول "القناطير المقنطرة" التى وردت فى تلك الآية، فيقول: "القناطير هى جمع "قنطار"، والقنطار هو وحدة وزن، وهذا الوزن حددتْه كثافة الذهب. إلا أن القنطار قبل أن يكون وزنًا كان حجمًا، لكنهم رأوا الحجم هذا يزن قدرًا كميا، فانتقلوا من الحجم إلى الوزن. وكان علامة الثراء الواسع فى الزمن القديم أن يأتوا بجلد الثور بعد سلخه ويملأوه ذهبا. وملء جلد الثور بالذهب يسمونه: قنطارًا، وكانت هذه عملية بدائية. وبعد ذلك أخذوا ملء الجلد ذهبًا ووزنوه فصار وزنا. إذن فالأصل فيه أنه كان حجمًا، فصار وزنًا. وساعة تسمع "وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ" فهو يريد أن يحقق فيها القنطارية. وذلك يعنى أن القنطار المقنطر هو القنطار الكامل الوزن، وليس مجرد قنطار تقريبًا، كما نقول أيضًا: "دنانير مُدَنَّرَة". وعادةً نجد فى اللغة العربية لفظًا يأتى من جنس اللفظ يضَمّ إليه كى يعطيه قوة، فيقال: "ظلٌّ ظليل"، أى ظل كثيف، ويقال "ليلٌ أَلْيل"، أى أن الليل فى ظلمة شديدة، وهى مبالغة فى كثافة الظلام".

وهذا الكلام يشبه ما جاء فى كتاب "المفردات" للأصفهانى (مادة "ق ط ر"): "الْقَنَاطِيرُ جمع "القَنْطَرَةِ". والقَنْطَرَةُ من المال: ما فيه عبور الحياة تشبيها بالقنطرة، وذلك غير محدود القدر فى نفسه، وإنما هو بحسب الإضافة كالغِنَى، فرُبَّ إنسانٍ يستغنى بالقليل، وآخر لا يستغنى بالكثير. ولِمَا قلنا اختلفوا فى حدّه، فقيل: أربعون أوقية. وقال الحسن: ألف ومائتا دينار. وقيل: مِلْء مَسْكِ ثورٍ ذهبًا... إلى غير ذلك، وذلك كاختلافهم فى حدّ الغنى. وقوله: وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ (آل عمران/ ١٤) أى المجموعة قنطارا قنطارا، كقولك: دراهم مدرهمة، ودنانير مدنّرة".

وقد نقله بهاء الدين العاملى فى كتابه: "الكشكول". وفى "الصحاح" للجوهرى (فى مادة "قنطر"): "القِنْطارُ: مِعيارٌ. ويروى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أنَّه قال: هو ألفٌ ومائتا أوْقية. ويقال: هو مائة وعشرون رطلًا. ويقال: ملءُ مَسْكِ الثورِ ذهبًا. ويقال غير ذلك، والله أعلم. ومنه قولهم: قَناطيرُ مُقَنْطَرَةٌ".

وفى "لسان العرب" لابن منظور: "القِنْطارُ: مِعْيارٌ قيل: وَزْنُ أَربعين أُوقية من ذهب، ويقال: أَلف ومائة دينار، وقيل: مائة وعشرون رطلًا... وقيل: هى جملة كثيرة مجهولة من المال... وهو بالسُّريانية مِلءُ مَسْك ثَوْر ذهبًا أَو فضة، ومنه قولهم :قَناطِيرُ مُقَنْطَرةٌ... أَبو عبيدة: القَناطِير واحدها "قِنْطار". قال: ولا نجد العرب تعرف وزنه، ولا واحد له من لفظه. يقولون: هو قَدْرُ وَزْنِ مَسْكِ ثور ذهبًا. والمُقَنْطَرة : مُفَنْعَلة من لفظه أَى مُتَمَّمة، كما قالوا: أَلفٌ مُؤَلَّفة مُتَمَّمة... وقوله: المُقَنْطرة، يقال: قد قَنْطَرَ زيدٌ إذا ملك أَربعة آلاف دينار، فإِذا قالوا: قَناطِيرُ مُقَنْطَرةٌ فمعناها ثلاثة أَدْوارٍ: دَوْرٌ ودَوْرٌ ودَوْرٌ، فمحصولها اثنا عشر أَلف دينار...".

وواضح أن الشيخ مُنَقِّب كبير، بالإضافة إلى قدرته البارعة على توصيل هذه الدرر العلمية إلى سامعيه من كل ألوان الطيف الاجتماعى والثقافى بأمييه ومتعلميه: سواء أولئك الذين يظهرون معه عند إلقاء الدرس المصور مرئائيا فى المسجد أو الذين يشاهدونه على التلفاز بعد بث هذه الدروس. ويزيد على ذلك لمسته الفنية حين يشرح ذلك الذى حصَّله من الكتب بأسلوبه المتميز البسيط.

والشيخ مغرم بأداء دور المدرس وبارع فيه، وقد كان، رحمه الله، فى الأصل مدرسا فى المعاهد الأزهرية وفى السعودية، فنراه يشرح ويوضح ولا يترك شيئا دون شرح وتوضيح مهما كان الموضوع المشروح بعيدا عن اهتمامات الجماهير أو أعلى من مستوى تفكيرها، تلك الجماهير التى تشكل نسبة كبيرة من مشاهديه ومستمعيه. فمثلا عند تناوله للآية ٤٥ من "آل عمران"، التى وردت فيها عبارة "الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ

مَـرْيمَ" نقـرأ: "ويقـول الحـق: "اسْـمُهُ الْمَسِيحُ عِيـسَى ابْـنُ مَـرْيمَ". إنهـا ثلاثـة أسـماء: "المسيح"، "عيسى"، "ابن مريم". ما معنى المسيح؟ قد يكون الممسوحَ من الذنوب، أو أن تكون من آياته أن يمسح على المريض فيبرأ، أو المسيح المبارك. أما عيسى فهذا هو الاسـم، والمـسيح هـو اللقـب، وابـن مـريم هـى الكُنْيـة. ونحـن نعـرف أن العَلَمَ فى اللغة العربية يأتى على ثلاثة أنواع: اسم أو لقب أو كنية. وابن مالك يقول: "واسمًا أتى وكنيةً ولقبا". إن العَلَم على الشخص له ثلاث حالات: إما اسم، وهو ما يطلق على المسمَّى أولا. والاسم الثانى الذى أطلقناه عليه إن كان يشْعِر بِرفْعَة صاحبه أو بِضَعَته نسميه: لقبـا. أمـا مـا كـان فيـه "أب أو أم" فيقـال لـه: "كنيـة". وجـاءت الثلاثـة فى عيـسى "اسْـمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيمَ": "المـسيح" هـو اللقـب، "عيـسى" هـو الاسـم، و"ابـن مـريم"، وهو الكنية".

فانظر إلى كيفية انتهـازه لفرصـة عـابرة كـى يلقـى عـلى سـامعيه ومشاهديه درسـا فى النحو لا يهم معظم أولئك المشاهدين، ولا يبالى بتوضيحه أحد آخر غيره. بيد أن ها هنا مع ذلك سهوا، إذ قال الشيخ ما معناه أن الكنية هى "أبو فلان" أو "أم فلان"، لكن عيسى عليه السلام لا يمكن أن يكَنَّى لأنه لم يكن له ابن ولا بنت، إذ هو لم يتزوج كـما يعرف الناس كلهم أجمعون. ولهذا أورد الشيخ بدلا من ذلك "ابن مريم". وكأن ذهنه، دون أن يـدرى هـو، قـد حـول "ابـن مـريم" إلى "أم المـسيح"، وهـى كنيـة الـسيدة مـريم العـذراء، فانقلـب الأمـر عـلى الوجـه الآخـر، وصـارت عنـدنا كنيـة إلى جانـب الاسـم واللقب.

وفى الـنص التـالى أيـضا تظهـر مقـدرة الـشعراوى المتميـزة فى الـشرح والتوضـيح وضرب الأمثلة، وكـذلك الـروح العفويـة الـشعبية التـى تـسم شخـصيته وكلامـه. قـال فى الكلام عن استعمال القرآن لكلمة "بَكَّة" بدلا من "مكَّة" فى قوله جل شأنه فى الآية ٩٦ من سورة "آل عمران": "وعندما ندقق النظر فى معنى كلمة "بكة" التى وردت فى هذا

القول الكريم: "إِنَّ أَوَّلَ بَيتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا" فإننا نعرف أن هناك اسما لمكان البيت الحرام هو "بكة"، وهناك اسم آخر هو "مكة". وبعض العلماء يقول إن "الميم" و"الباء" يتعاوران. ونلحظ ذلك فى الإنسان "الأخنف" أو المصاب بزكام. إنه ينطق "الميم" كأنها "باء". والميم و"الباء" حرفان قريبان فى النطق، والألفاظ منهما تأتى قريبة المعنى من بعضها. ولننظر إلى اشتقاق "مكة" واشتقاق "بكة". إننا نقرأ "بكّ المكان" أى ازدحم المكان، وهكذا نعرف من قول الحق: "إِنَّ أَوَّلَ بَيتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا"، أى أنه مكان الازدحام الذى يأتى إليه كل الناس وكل الوفود لتزور بيت الله الحرام، ولا أدل على ازدحام البيت الحرام من أن الرجال والنساء يختلط بعضهم ببعض، والإنسان يطوف بالبيت الحرام ولا يدرى أنه يسير. وقد يلمس امرأة أثناء الطواف".

إن الكلام عن تبادل الميم والباء مكانيهما فى بعض الألفاظ العربية لتقارب مخرجيهما هو كلام معروف لا جديد فيه. لكن الجديد فى كلام الشيخ رحمه الله هو الاستعانة، فى شرح هذه الظاهرة اللغوية، بمريض الزكام والأخن وطريقة نطقهما لحرف الميم واقترابه عندهما من الباء أو تحوله تماما إلى الباء. الواقع أن هذه الطريقة فى الشرح لم تخطر لى بل لم تكن لتخطر لى على بال. لكنه الشيخ الشعراوى بظرفه وذكائه وسحر كلامه.

ولنتابع كلام فضيلة الشيخ. قال رحمه الله: "و"بكة" هى المكان الذى فيه الطواف والكعبة، أى هى اسم مكان البيت الحرام، و"مكة" اسم البلد كله الذى يوجد به البيت الحرام. و"مكة" مأخوذة من ماذا؟ إن "مكة" مأخوذة من "مَكَّ الفصيلُ الضَّرْعَ" أو "امتكَّ الفصيل الضرع"، أى امتص كل ما فيه من لبن. والفصيل، كما نعرف، هو صغير الإبل أو صغير البقر. وما دام الفصيل قد امتص كل ما فى الضرع من لبن فمعنى هذا أنه جائع، ومكة كما نعرف ليس فيها مياه، والناس تجهد وتبالغ فى أن تمتص المياه القليلة

عندما تجدها فى مكة". ولا أظن القارئ قد فاته موهبة الشيخ الفاتنة على التوضيح وإثارة فضول المشاهدين بضرب الأمثلة واستخدام طريقة السؤال والجواب وغير ذلك مما يتميز فيه فضيلته، بغض النظر عن صحة تفسير الاسمين أو لا، فهذا موضوع آخر.

وأذكر، ولعل الذاكرة لم تلعب بى، أنى قرأت قبل بضع عشرات من الأعوام، وأنا فى لندن، حين كنت أكتب فصلا عن ترجمة أبو بكر حمزة إمام جامع باريس وقتذاك للقرآن إلى الفرنسية، أنه قال إن "بكة" هى النطق الأكادى لـ"مكة"، واللغة الأكادية هى لغة إبراهيم عليه السلام، وإبراهيم هو من رفع القواعد من البيت مع ابنه إسماعيل، فأورد القرآن النطق الأكادى فى سياق بناء إبراهيم الأكادى للبيت الحرام. وللأسف ليس متاحا لى الآن مراجعة الترجمة المذكورة، فقد كنت استعرتها من مكتبة كلية الـ"Soas" بالعاصمة البريطانية. وحاولت منذ ذلك الحين الحصول على نسخة شخصية منها، لكنى عجزت، وإن كان أحد الأصدقاء الجزائريين بعد ذلك بزمن قد أرسل لى مشكورا على سبيل الهدية الكريمة نسخة من الترجمة فقط مجردة من الشروح والهوامش، ومن ثم لا يوجد فيها هذا التعليق.

أما ترجمة محمد حميد الله الفرنسية فتذكر ما قاله الشيخ الشعراوى فى التفرقة بين معنى "مكة" و"بكة". وأما ترجمة ريجى بلاشير المستشرق الفرنسى المشهور فتكتفى بالقول بأن "بكة" هى صيغة أخرى من "مكة". وهو ما فعلتْه، ولكن بإيجاز شديد، المستشرقة الفرنسية المسلمة ماسون، إذ قالت فى الهامش: بكة هى مكة. ولم يزد بالمر ولا داود فى ترجمتيها الإنجليزيتين عن ذلك. وفى ترجمة كازيمرسكى الفرنسية أيضا: "بكة هى اسم مكة". وفى ترجمة إدوار مونتيه الفرنسية أن "بكة" اسم آخر لـ"مكة". وفى مادة "Makka" من "The Encyclopaedia of Islam" لا يزيد ما قيل فى هذا الموضوع عن أن القرآن قد ذكر هذا الاسم فى الموضع الفلانى، وذاك الاسم فى الموضع العلانى، ودمتم. وفى ترجمة محمد أسد الإنجليزية المسماة: "The Message of the Qur'ān"

إشارة إلى أن الزمخشرى يرى أن حرفى الميم والباء قد يتبادلان موقعيهما فى بعض الكلمات كما فى هذه اللفظة، وهو ما وافقه عليه الرازى. وهذا يعيدنا مرة أخرى إلى ما قاله الشيخ الشعراوى.

والآن مع ما قاله الزمخشرى فى "كشَّافه": "ومكة وبكة لغتان فيه، نحو قولهم: "النبيط والنميط" فى اسم موضع بالدهناء. ونحوه من الاعتقاب "أمرٌ راتبٌ وراتمٌ"، و"حمى مغمطة ومغبطة". وقيل: "مكة" البلد، و"بكة" موضع المسجد. وقيل: اشتقاقها من "بَكَّهُ" إذا زحمه لازدحام الناس فيها. وعن قتادة "يبُكُّ الناس بعضهم بعضًا الرجال والنساء: يصلى بعضهم بين يدى بعض. لا يصلح ذلك إلا بمكة. كأنها سميت بـ"بكة"، وهى الزحمة". قال:

إذَا الشَّرِيبُ أخذَتْهُ الأَكَّهْ فَخَلِّهِ حَتى يبُكَّ بَكَّهْ

وقيل: تَبُكُّ أعناقَ الجبابرة، أى تدقها. لم يقصدها جبار إلا قصمه الله تعالى".

أما "مفاتيح الغيب" للرازى فيقول: "لا شك أن المراد من "بكة" هو مكة. ثم اختلفوا: فمنهم من قال: "بكة ومكة" اسمان لمسمى واحد، فإن الباء والميم حرفان متقاربان فى المخرج، فيقام كل واحد منهما مقام الآخر، فيقال: هذه "ضربةُ لازمٍ، وضربةُ لازبٍ"، ويقال: "هذا دائمٌ ودائبٌ"، ويقال: "راتبٌ وراتمٌ"، ويقال: "سَمَد رأسه، وسَبَده". وفى اشتقاق "بكة" وجهان: الأول أنه من "البَكّ" الذى هو عبارة عن دفع البعض بعضًا. يقال: "بَكَّه يبُكُّه بَكًّا" إذا دفعه وزحمه، و"تباكَّ القوم" إذا ازدحموا. فلهذا قال سعيد بن جبير: "سميت مكة: "بكة" لأنهم يتباكُّون فيها، أى يزدحمون فى الطواف"، وهو قول محمد بن على الباقر ومجاهد وقتادة. قال بعضهم: رأيت محمد بن على الباقر يصلى، فمرت امرأة بين يديه، فذهبتُ أدفعها، فقال: دعها، فإنها سميت: "بكة" لأنه يبك بعضهم بعضا: تمر المرأة بين يدى الرجل وهو يصلى، والرجل بين يدى المرأة وهى تصلى، لا بأس بذلك فى هذا المكان. الوجه الثانى: سميت: بكة لأنها تبكّ

أعناق الجبابرة. لا يريدها جبار بسوء إلا اندقت عنقه. قال قطرب: تقول العرب: "بَكَكْتُ عنقه أبكُّه بكًّا" إذا وضعت منه ورددت نخوته". ولست بعد هذا فى حاجة إلى برهان لأبين من أين للشيخ بما قال.

ومعروف عن الشيخ، كما يتبدَّى فى تفسيره، غرامه بتتبع أصول معانى الكلمات. ومن هذا قوله فى تفسير "الْمُحْصَنَات" فى الآية ٢٤ مِنَ "النِّسَاءِ": "مَنْ هُنَّ المحصنات من النساء؟ الأصل فى الاشتقاق عادة يوجِد معنى مشتركا. فهذه مأخوذة من "الحصن"، وهو مكان يتحصن فيه القوم من عدوهم. فإذا تحصنوا فيه امتنعوا على عدوهم، أما إذا لم يكونوا متحصنين فهم عرضةٌ أن يغِير عليهم عدوهم ويأخذهم. هذا هو أصل الحصن، والاشتقاقات التى أُخِذَت من هذه كثيرة: منها ما جاء فى قوله تعالى: "وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا" (التحريم/ ١٢). و"أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا" يعنى أنها عَفَّتْ ومنعت أى إنسان أن يقترب منها. وهنا قوله: "وَالْمُحْصَنَاتُ" فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها المقصود بها المتزوجات، فما دامت المرأة متزوجة فيكون بُضْعُها مشغولًا بالغير، فيمتنع أن يأخذه أحد، وهى تمتنع عن أى طارئ جديد يفد على عقدها مع زوجها. هذا معنى "وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَآءِ". فالمحصنات هنا هن العفيفات بالزواج".

ومثل ذلك قوله عند تعرضه لكلمة "فاسقين" فى الآية ٧٤ من "الأنبياء": "والفِسْق: الخروج عن أوامر التكليف. وهذا التعبير، ككُلِّ التعابير القرآنية، مأخوذ من واقعيات الحياة عند العرب. فأصل "الفِسْق" من "فَسقَتِ الرُّطَبَةُ عن قشرتها" حين تستوى البلحة، فتنفصل عنها القشرة حتى تظهر منها الرُّطَبَة. وهذه القشرة جُعِلَتْ لتؤدى مهمة، وهى حِفْظ الثمرة. كذلك نقول فى الفسق عن المنهج الدينى الذى جاء ليؤدى مهمة فى حياتنا، فمَنْ خرج عنه فهو فاسق". والشيخ بهذا الكلام يشير إلى ابتداع

القرآن ذلك التعبير ونقله من ميدان البلح إلى ميدان العقائد والسلوك، أى من الميدان المادى إلى الميدان المعنوى.

ولكن من أين للشيخ بهذا التحليل الاشتقاقى؟ لو رجعنا إلى كتاب "المفردات" للراغب الأصفهانى (مادة "ف س ق") لوجدنا الآتى: "فسق فلان: خرج عن حَجْر الشرع. وذلك من قولهم: فَسَقَ الرُّطَب، إذا خرج عن قشره"، وفيها أيضا: "قال ابن الأعرابى: لم يسْمَع "الفاسق" فى وصف الإنسان فى كلام العرب. وإنما قالوا: فسقت الرُّطَبَةُ عن قشرها". وفى ذات المادة من "أساس البلاغة" للزمخشرى: "فسق عن أمر الله: خرج. وتقول: كان يزيد فِسِّيقًا خِمِّيرًا، ولم يكن للمؤمنين أميرًا. وفسقت الرّكاب عن قصد السبيل: جارت. قال رؤبة:

يَهْوِين فى نجدٍ وغورًا غائرًا فواسِقًا عن قصدها جوائِرا

وفسقت الرطبة عن قشرها، والفأرة عن جحرها. وأضرمت الفويسقة على أهل البيت النار، وهى الفأرة، لعيثها فى البيوت...". وفى "تاج العروس" للزَّبِيدِىّ: "فَسَق: جارَ ومالَ عن طاعَةِ اللهِ عزّ وجلّ. ومنه فَسَقت الرِّكَابُ عن قصد السّبيل، أى جارت. وقولُه تعالى: "فَفَسَق عنْ أمْرِ ربّه"، أى خرَج... وفسَقت الرُّطَبَة عن قِشْرِها، أى خرجَت، كـ"انْفَسَقَت". وهذه عن ابنِ دُرَيد. قيل: ومنه اشتِقاق الفاسِق لانْفِساقِه، أى لانسِلاخِه عن الخَير... وقال أبو عُبَيدة: ففَسَق عن أمرِ ربّه، أى جارَ عن طاعَتِه. وأنشد:

يَهْوِين فى نجدٍ وغورًا غائرًا فواسِقًا عن قصدها جوائِرا

وقد تبنى الشعراوى القول باشتقاق الفسق من فسوق الرطبة عن قشرتها، وكرر هذا الرأى فى أكثر من موضع من تفسيره. وهذا راجع إما إلى أنه لم يقع له سوى هذا التفسير وإما إلى أن هذا التفسير هو الأكثر إقناعا من غيره وإما أنه نسى التفسيرات الأخرى ولم يتذكر إلا هذا.

ومن هذا الوادى أيضا قوله فى تفسير أصل كلمة "التبرج" فى قوله تعالى مخاطبا أمهات المؤمنين: "ولا تَبَرَّجْن تبرُّج الجاهليةِ الأولى" (الأحزاب/ ٣٣): "كلمة "التبرج" من "البُرْج"، وهو الحصن. ومعنى "تبرَّجَ" أى خرج من البرج وبرز منه. والمعنى: لا تخرجن من حصن التستر، ولا تبدين الزينة والمحاسن الواجب سَتْرُها". والملاحظة الوحيدة التى لفتت نظرى هى أن "التبرُّج" هنا هو الخروج من البرج، أى الحصن، على حين أن "التحصُّن" يدل على عكس ذلك، إذ هو الدخول فى الحصن واتخاذه ملجأ ومعتصَما. فلم كان الوزن الواحد فى مادة "ح ص ن" يناقض فى معناه نفس الوزن من مادة "ب ر ج"؟ ولعل الأفضل أن نبحث عن معنى "التبرج" فى قول صاحب "تاج العروس" ضمن مادة "ب ر ج": "والبَرَجُ مُحَرَّكةً: تَباعُدُ ما بينَ الحاجِبَينِ. وكلّ ظَاهِرٍ مُرْتَفِعٍ فقد بَرَجَ، وإنما قيل للبُرُوجِ: "بُرُوجٌ" لِظُهُورِهَا وبَيانِها وارْتِفاعِها... وقيل: البَرَجُ: سَعَةُ العَينِ فى شِدَّةِ بَياضِ صاحِبِها... البَرَجُ: الجَمِيلُ الحَسَنُ الوَجْهِ، أو المُضِيءُ البَيِّنُ المَعْلُومُ". فالتبرج هو اجتهاد المرأة فى إظهار حسنها للناظرين.

ومن المسائل النحوية التى تعرَّض لها فضيلة الشيخ حرف الجر: "مِنْ" فى قوله جل جلاله على لسان لوط مخاطبا قومه: "أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ" (الأعراف/ ٨٠). قال: "إن "مَنْ" قد تأتى مرة زائدة، ويمكنك أن تقول إنها زائدة فى كلام الإنسان، لكن من العيب أن تقول ذلك فى كلام ربنا. وقوله: "مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ" أى ما سبقكم أحد من العالمين. و"أحد" هى الفاعل، وجاءت "من" لتوضح لنا أنه لم يأت بها أحد ابتداءً مثلما قلنا قديما حين تأتى لواحد لتقول له: "ما عندى مال". فأنت قد نفيت أن يكون عندك مال يعْتَدّ به. وقد يكون معك من بداية ما يقال له إنه مال، وقول الحق: "مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ" (الأعراف/ ٨٠) يعنى أنه لم يسبقكم أى أحد من بداية ما يقال له: أحد. وسبحانه يريد بذلك أن ينفيها أكثر. و"مِن" التى فى قوله: "مِن الْعَالَمِينَ" هى تبعيضية. أى ما سبقكم بها أحد "من

بعض" العالمين. فما هذا الأمر؟ لقد سماها: فاحشة. وهى تزيد فى القبح. ووصفه لها بأنها لم يأتها أحد من العالمين جعلها مسألة فظيعة للغاية".

والواقع أن "مِنْ" فى مثل ذلك التركيب ليست زائدة لا فى القرآن وحده كما يريد منا الشيخ أن نفعل، بل ولا فى غير القرآن. وقد قصد النحاة من وصفها بالزيادة أنه من الممكن حذفها فلا يتأثر المعنى. لكن ذلك غير صحيح إلا إذا كان المقصود بالمعنى ها هنا المعنى العام. أما من ناحية المعانى التفصيلية فإن "مِنْ" تفيد التأكيد. فقولنا: "ماعندى مال" أقل فى التأكيد من قولنا: "ما عندى من مال"، التى تعنى أنه "ليس عندى أى مال على الإطلاق". ولتسهيل الأمر أقترح أن نقول إن "مِنْ" فى هذا التركيب وأمثاله تعنى "أىّ". فقولنا: "ما سبقكم بها من أحد من العالمين" يعنى "ما سبقكم بها أىُّ أحدٍ من العالمين".

وهناك ضرب من الكتب تخصصت فى رصد الكلمات التى استعملت فى القرآن بمعان متعددة تسمى: "كتب الأشباه والنظائر". وقد وقف الشيخ فى بعض الأحيان أمام عينات من هذه الألفاظ كما فى لفظة "الروح" فى قوله سبحانه: "يـنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ" (النحل/ ٢). قال: "وكلمة "الروح" وردتْ فى القرآن بمعَانٍ متعددة: فهى مرَّة الروح التى بها الحياة فى المادة ليحدث بها الحسّ والحركة: "فَإِذَا سَوَّيتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ" (الحِجْر/ ٢٩). وهذا النفْخ فى المادة يحدثُ للمؤمن والكافر. وهناك رُوح أُخْرى تعطى حياةً أعلى من الحياة الموقوتة: "وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِى الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يعْلَمُونَ" (العنكبوت/ ٦٤). إذن فالملائكة تنزل بالبلاغ عن الله بما فيه حياة أَرْقى من الحياة التى نعيش بها ونتحرَّك على الأرض. وهكذا تكون هناك رُوحان لا روحٌ واحدة: رُوح للحِسِّ والحركة، وروح تُعْطِى القِيم التى تقودنا إلى حياة أخرى أَرْقى من الحياة التى نحياها، حياة لا فناءَ فيها. ولذلك يسَمِّى الحق سبحانه القرآن: روحًا، فيقول: "وَكَذَلِكَ أَوْحَينَآ إِلَيكَ رُوحًا مِّنْ

أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ" (الشورى/ ٥٢). ويسَمِّى الحقُّ سبحانه المَلَكَ الذى ينزل بالقرآن: روحًا، فيقول: "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ" (الشعراء/ ١٩٣- ١٩٤). ويشرح الحق سبحانه أن القرآن روحٌ تعطينا حياةً أَرْقى، فيقول: "ياأَيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ" (الأنفال/ ٢٤). أى يدخل بكم إلى الحياة الأبدية التى لا موْتَ فيها ولا خَوْف أن تفقد النعمة أو تذهب عنك النعمةُ".

وأهمية هذا الكلام تكمن فى أن كثيرا ممن يقرأون القرآن لا يلتفتون إلى هذه الفروق الدقيقة بين معانى الكلمة الواحدة، فيسيئون الفهم ويضِلّون ويضِلُّون وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. ومعروف أنه ما من كلمة فى اللغة إلا وتعنى عدة معان، والسياق هو الذى يحدد المعنى المقصود فى كل حالة. وبدون معرفة هذا وبدون معرفة السياق الذى استعملت فيه الكلمة يضل الإنسان عن فهم المراد. وهذا عام فى كل كلام، فما بالنا بكلام رب العالمين؟

ومما يحتاج إلى مراجعة واستدراك فى بعض كلام الشيخ ما جاء فى شرحه لقوله تعالى: "وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ" (النحل/ ٣٦). قال: "أى ابتعدوا عن الطاغوت. فيكون المقابل لها: تقرَّبوا إلى الله. و"الطَّاغُوتَ" فيها مبالغة تدل على مَنْ وصل الذِّرْوة فى الطغيان وزادَ فيه. وفَرْق بين الحدث المجرَّد مثل "طغى" وبين المبالغة فيه مثل "طاغوت"، وهو الذى يزيده الخضوعُ لباطله طُغْيانًا على باطل أعلى...

ونلاحظ فى هذا اللفظ: "الطاغوت" أنه لما جمعَ كلَّ مبالغة فى الفعل نجده يتأبّى على المطاوعة، وكأنه طاغوت فى لفظه ومعناه، فنراه يدخل على المفرد والمثنى والجمع، وعلى المذكر والمؤنث، فنقول: "رجل طاغوت، وامرأة طاغوت، ورجلان طاغوت، وامرأتان طاغوت، ورجال طاغوت، ونساء طاغوت"، وكأنه طغى بلفظه على جميع الصِّيغ... وقد وردت هذه الكلمة: "الطَّاغُوتَ" فى القرآن ثمانى مرات منها ستة تصلح

للتذكير والتأنيث، ومرة وردتْ للمؤنث فى قوله تعالى: "وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا" (الزمر/ ١٧). ومرة وردتْ للمذكر فى قوله تعالى: "يرِيدُونَ أَن يتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يكْفُرُوا بِهِ" (النساء/ ٦٠)".

والاستدراك الأول هو أن "الطاغوت" ليست صيغة مبالغة من "طغا"، فـ"الطاغوت" اسم، و"طغا" فعل، وليس بين الاثنين علاقة من هذا الجانب. كذلك فقول الشيخ إن الكلمة تتأبى على التذكير والتأنيث والإفراد والتثنية والجمع قول غير صحيح. لو أنه قال إن القرآن الكريم لم يستخدمها سوى مفردة لقلنا له: نعم، ونعام عين. لكن الشيخ عمم، وهنا موضع الاستدارك الثانى. ذلك أن الكلمة تجمع، وجمعها هو "طواغيت"، وهذا الجمع موجود فى نصوص كثيرة خارج القرآن. فالقرآن لا يشتمل على كل اللغة، وعدم ورود شيء فيه لا يعنى بالضرورة أن استعماله خطأ.

ففى الحديث الشريف: "يا جرير، إنَّه لَمْ يبْقَ مِن طواغيتِ الجاهليةِ إلَّا بيتُ ذى الخَلَصَةِ، فاكفنيه"، "ويتَّبِعُ مَن كان يعبدُ الطَّواغيتَ الطَّواغيتَ"، "البَحِيرةُ: الَّتى يمنَعُ دَرُّها للطَّواغيتِ فلا يحتلِبُها أحَدٌ"، "فادْعُوهُمْ إلى كتابِ اللهِ وسُنَّتِهِ وسُنَّةِ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وإِحْلَالِ ما أَحَلَّ اللهُ لَهُمْ فى كِتابِهِ وتَحْرِيم ما حَرَّمَ اللهُ فى كِتابِهِ وأَنْ يخْلَعُوا الأَنْدَادَ ويبْرَءُوا من الشِّرْكِ والْكُفْرِ والنِّفَاقِ وأَنْ يكْفُرُوا بِعِبادَةِ الطَّوَاغِيتِ واللَّاتِ والْعُزَّى وأَنْ يتْرُكُوا عِبادَةَ عِيسَى ابنِ مَرْيمَ وعُزَيرِ بنِ حَرْوَةَ"...

وفى رسالة من زياد إلى معاوية فى "الأغانى": "إن طواغيت الترابية السابّة رأسهم حُجْر بن عَدِى". وفى "الروض المعطار فى خبر الأقطار" لعبد المنعم الحميرى: "ولأهل عَيذَاب فى الحجاج ظلم الطواغيت، فإنهم يشحنون مراكبهم حتى يجلس بعضهم على بعض، وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج". وفى سيرة ابن هشام: "كانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهى بيوت تعظِّمها كتعظيم الكعبة لها سَدَنَةٌ وحُجّابٌ وتُهْدِى لها كما تهدى للكعبة وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها...". وفيها أيضا:

"قال ابن هشام: "الجِبْت" عند العرب: ما عُبِد من دون الله تبارك وتعالى. الطاغوت: كل ما أضل عن الحق. وجمع الجبت: جبوت، وجمع الطاغوت: طواغيت". وفى "المثل السائر" لابن الأثير: "ولم ينج بها من طواغيت الكفر إلا طاغية ترابلس". وفى "الإحاطة فى أخبار غرناطة" للسان الدين ابن الخطيب: "تداعت الصلبان مُجْلِبَةً عليكم، وتحركت الطواغيت من كل جهة إليكم". وقول أحد الشعراء لما أُخِذَتْ بلنسية يخاطب أبا زكريا ابن عبد الواحد بن أبى حفص:

نادتــك أنـــدلسٌ، فلَـــبِّ نــــداءها   واجعـــل طواغيـــت الـــصليب فـــداءها"

... إلخ.

وكعادته فى الاجتهاد فى إرجاع الألفاظ إلى أصولها الاشتقاقية يحرص الشيخ فى المثال التالى على إرجاع كلمة "سلطان" الموجودة فى قوله سبحانه عن الشيطان: "إِنَّهُ لَيسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يتَوَكَّلُونَ" (النحل/ ٩٩) إلى أصلها الاشتقاقى، فيقول إن "كلمة "السلطان" مأخوذة من السَّلِيط، وهو الزيت الذى كانوا يوقِدون به السُّرُج والمصابيح قبل اكتشاف الكهرباء، فكانوا يضعون هذا الزيت فى إناء مغلق مثل السلطانية يخرج منه فتيلة، وعندما توقد تمتصّ من هذا الزيت وتُضيء. ولذلك سُمِّيتْ الحجة: "سُلْطانًا" لأنها تنير لصاحبها وَجْه الحق". وهذا الكلام أورده صاحب "تاج العروس" ضمن ما أورده من آراء للعلماء المختلفين، ثم أتبعه بقول ابن عباس إن كل "سلطان" فى القرآن هو سلطانُ حُجَّة. ثم يمضى الشيخ قائلا إن "السلطان إما سلطانُ حجةٍ تقنعك بالفعل، فتفعل وأنت راضٍ مقتنع به، وإما سلطانُ قَهْرٍ وغلبةٍ يجبرك على الفعل ويحملك عليه قَهْرًا دون اقتناع به"، ثم يعقب بقوله: "إذن تنفيذ المطلوب له قوتان: قوة الحجة التى تُضِيء لك وتُوَضّح أمامك معالم الحق، وقوة القهر التى تجبرك على تنفيذ المطلوب عن غير اقتناع، وإنْ لم ترهَا".

وإذا كان الشيخ قد أرجع "السلطان" إلى السليط الذى يضيء الظلام ويأتى بالحجة المقنعة فماذا هو فاعل فى السلطان الذى يقوم على قوة القهر لا الإقناع؟ الواقع أن الزبيدى فى معجمه قد ذكر أيضا أن "السَّليط: الفَصِيحُ الحَديدُ اللّسَان... وقِيل: السَّليط: الحَديدُ من كُلِّ شيءٍ. يقَالُ: هو أَسْلَطُهم لِسانًا، أى أَحَدُّهُم، وَقَدْ سَلُطَ سَلاطَةً: احْتَدَّ". فكان عليه أن يذكر هذا الأصل الاشتقاقى أيضا لكلمة "السلطان" ولا يكتفى بإرجاعه إلى "السليط" وحده كما رأينا. لكنى لا أستطيع تجاوز خفة الظل التى يتمتع بها الشيخ والتى ظهرت هنا فى كلامه عن الشيطان حين يتبرأ يوم القيامة ممن اتبعوه من البشر معلنا لهم أنهم لا يستطيعون إعانته مثلما لا يستطيع هو لهم عونا، إذ يفسر الشيخ هذا الكلام من الشيطان قائلا: "أى نحن فى الخيبة سواء". وهى لمسة شعرانية بامتياز تنضح بل تسيل ظرفا وخفة ظل وروحا شعبية أصيلة.

وكعادته أيضا فى كثير من الأحيان يقف الشيخ فى المثال التالى عند إعراب بعض الكلمات المتباعدة محاولا الربط بينها رغم هذا التباعد، فقال عن إعراب "لُوطًا" فى قول الحق: "وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ" (الأنبياء/ ٧٤) إنها "جاءتْ منصوبة لأنها معطوفة على قوله تعالى: "وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَه": وأيضًا آتينا لوطًا رشده"، وكأن الكلام فى النص الكريم هو "ولقد آتينا إبراهيم ولوطا رشدهما". لكن تركيب الكلام لا يسمح بهذا لأن الله قال نصا: "ولوطا آتيناه حكما وعلما"، أى أن ما أوتيه لوط يختلف عما أوتيه إبراهيم. وعليه فلا عطف هنا بين لوط وإبراهيم. بل يسمى التركيب: اشتغالا. والمقصود أن فعل "أتى" فى الجملة الأخيرة قد اشتغل (أى انشغل) عن لوط فلم ينصبه لأنه نصب ضميره: "الهاء" فى "آتيناه"، ومع ذلك فقد عومل "لوط" وكأنه لا يزال مفعولا به لهذا الفعل بسبب أن الجملة التى سبقت هذه الجملة هى جملة فعلية، والغالب حينئذ أن نعامل جملة لوط على أنها هى أيضا جملة فعلية كى يكون هنا اتساق بين الجملتين،

وننصب لوطا على أساس أن الفعل موجود قبله تقديرا وينصبه على المفعولية كما نصب ضميره بعد ذلك، وإلا لكان الأفضل إعراب "لوط" مبتدأ، وحينئذ يرْفَع ولا ينْصَب، فنقول: "ولوطٌ...".

ثم يمضى فضيلة الشيخ فيعمل على إرجاع كلمة "الحُكْم" إلى أصله الاشتقاقى قائلا: "وأصله من "الحَكَمة" التى تُوضَع فى حَنَك الفَرَس لأن الفَرَس قد يشرد بصاحبه أو يتجه إلى جهة غير مرادة لراكبه. لذلك يوضع فى حَنكه اللجامُ أو الحَكَمة، وهى قطعة من الحديد لها طرفان يتم توجيه الفرس منهما يمينًا أو شِمَالًا. ومن ذلك "الحِكْمة"، وهى وَضْع الشىء فى موضعه. ومنه "الحُكْمْ"، وهو وضع الحقَ فى مَوْضعه من الشاكى أو المشكوّ".

وفى قوله جل جلاله: "رُبَمَا يوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ" (الحِجْر/ ٢) يقول شيخنا الجليل: "و"رُبَّ" حرف يستعمل للتقليل، ويستعمل أيضًا للتكثير على حَسْب ما يأتى من بعده. وهو حَرْفٌ الأصلُ فيه أن يدخلَ على المفرد. ونحن نقول: "رُبَّ أخٍ لك لم تلدْه أمك"، وذلك للتقليل، مثلما نقول: "ربما ينجح الكسول". ولكن لو قُلْنا: "ربما ينجح الذكى" فهذا للتكثير. وفى هذا استعمال للشىء فى نقيضه إيقاظًا للعقل كى ينتبه. وهنا جاء الحق سبحانه بـ"رُبَّ" ومعها حرف "ما" ومن بعدهما فعل. ومن العيب أن تقول إن "ما" هنا زائدة. ذلك أن المتكلم هو ربُّ كل العباد".

ولكن هل يمكن أن نقول عن "ما" فى مثل هذا التركيب إنها زائدة حتى لو كان الكلام كلاما بشريا؟ أبدا. ذلك أن "رُبَّ" حرف جر، ويراد لها أن تدخل على فعل، وحروف الجر لا تدخل على الأفعال بل على الأسماء فقط. وعلى هذا فلا بد من الاستعانة بـ"ما"، وهى غير "ما" الموجودة مثلا فى "فبِمَا رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم"، التى يقال عنها اصطلاحا فى النحو إنها زائدة، بمعنى أنك لو حذفتها ما اختل تركيب الكلام، وإن فاته بعض المعانى التفصيلية كما أشرنا آنفا. إنها "ما" المصدرية، وهى التى

تُؤَوَّل مع ما بعدها بمصدر، فتتحول الجملة هنا من فعل وفاعل ومفعول به إلى مصدر، أى اسم، حتى تستطيع "رب" الدخول على الجملة الفعلية. ويكون المعنى حينئذ "رُبَّ وُدٍّ من الذين كفروا لو كانوا مسلمين...".

ومن الأمثلة على اهتمام الشيخ بإرجاع الكلمة إلى أصلها الاشتقاقى أيضا قوله فى "وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ" (العنكبوت/ ٤٦): "الحق تبارك وتعالى يعلِّمنا كيف نجادل أهل الكتاب. وقبل أن نتكلم عن ألوان الجدل فى القرآن الكريم نقول: ما معنى الجَدَل؟ الجدل مأخوذ من الجَدْل، وهو فَتْل الشيء ليشتد بعد أنْ كان لينًا كما نفتل حبالنا فى الريف. فالقطن أو الصوف مثلًا يكون منتفشًا يأخذ حيزًا واسعًا، فإذا أردْنا أن نأخذ منه خيطًا جمعنا بعض الشعيرات ليقوِّى بعضها بعضًا بلفِّها حول بعضها، وبجَدْل الخيوط نصنع الحبال لتكون أقوى، وعلى قَدْر الغاية التى يراد لها الحبل تكون قوته.

ومن الجَدْل أُخِذ الجِدَال والجدَل والمجادلة... فإذا كان المقصود هو الحق فى الجدال أو الحِجَاج أو المناظرة فهذا الاسم يكفى. لكن إنْ دخل الجدال إلى مِراءٍ أو لجاجة فليس القصد هو الحق. إنما أنْ يتغلَّب أحد الفريقين على الآخر... لكن إذا فَتَلْنا الشيء المنفوش حتى صار مُضْمَرًا، وأخذ من الضمر قوة أأنت تجعل فى الجدل خَصْمك قويا؟ إنك تحاول أنْ تُقوِّى نفسك فى مواجهته. قالوا: حين أنهاه عن الباطل وأعطفه ناحية الحق فإنه يقوى يقينه فى شيء ينفعه، وكأنه كان منتفشًا آخذًا حيزًا أكبر من حجمه بالباطل الذى كان عليه، فأنا قوّيته بالحق. وفى العامية نقول: "فلان منفوخ على الفاضى" أو نقول: "فلان نافش ريشه" كأنه أخذ حيزًا أكبر من حجمه... أو أن الجدل مأخوذ من الجدالة، وهى الأرض كأن يطرح القوى الضعيف أرضًا فى صراع مثلًا".

وفى "تعريفات" الجرجانى فى "ج د ل": "الجِدَال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من "جَدَلْتُ الحبل"، أى أحكمتُ فَتْلَه. ومنه الجَدِيل (الأرض). وجَدَلْتُ البناء: أحكمته. ودِرْعٌ مَجْدُولَةٌ. والأَجْدَل: الصقر المُحْكَم البِنْية. والمِجْدَل: القَصْر المحكم البناء. ومنه الجِدَال، فكأنّ المتجادِلَين يفتل كلّ واحد الآخر عن رأيه. وقيل: الأصل فى "الجِدَال" الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجَدَالَة، وهى الأرض الصُّلْبَة".

ومثل ذلك أيضا بحثه عن الأصل الاشتقاقى لـ"التثريب" عند تعرضه لقوله عز شأنه: "قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ" (يوسف/ ٩٢)، إذ قال: "والتثريب هو اللوم العنيف، وهو مأخوذ من الثَّرْب. فحين يذبحون ذبيحة ويخرِجون أمعاءها يجدون حول الأمعاء دُهْنًا كثيفًا. هذا الدُّهْن يسمَّى: ثَرْب. أما إن كانت هزيلة ولم تتغذَّ جيدًا فأمعاؤها تخرج وقد ذاب مِنْ عليها هذا الثَّرْب. والتثريب يعنى أن اللوم العنيف قد أذابَ الشحم من لحمه، وجعل دمه ينزّ، ويكاد أن يصل بالإنسان إلى أن ينزل به ويسلّه. وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا زنت أَمَةُ أحدِكم فتبينَ زناها فلْيجْلِدْها الحَدّ، ولا يثَرِّب عليها، ثم إن زنت فليجلدها الحد، ولا يثَرِّب عليها، ثم إنْ زنت الثالثة فتبين زِناها فَلْيبِعْها، ولو بحبلٍ من شعر". أى لا يقولن لها: "يا مَنْ فعلتِ كذا وكذا"، بل فليعاقبها بالعقاب الذى أنزله الله لمثل هذه الجريمة. فإن لم ترتدع عن الفعل فَلْيبِعْها. وهكذا نفهم أن التثريب أو اللوم العنيف قد يولِّد العِناد".

وبالعودة إلى "مفردات" الراغب الأصفهانى نجد أنه، رغم حديثه عن الثرب والتثريب، لم يتطرق إلى الصلة بين الكلمتين. قال الراغب: "التَّثْرِيب: التقريع والتقرير بالذنب. قال تعالى: "لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ" (يوسف/ ٩٢)، ورُوِى: "إذا زنت أَمَةُ أحدكم فليجلدها ولا يثَرِّبْها". ولا يعْرَف من لفظه إلا قولهم: "الثَّرْبُ"، وهو شحمة

رقيقة. وقوله تعالى: "يا أَهْلَ يثْرِبَ" (الأحزاب/ ١٣)، أى أهل المدينة، يصح أن يكون أصله من هذا الباب. والياء تكون فيه زائدة". كذلك بينما يصف الأصفهانى "الثَّرْب" بأنه شحمة رقيقة يقول الشعراوى إنه دهن كثيف.

ومن حب الشيخ للصرف أيضا نراه، عند قول يوسف عليه السلام: "رَبِّ، قد آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ" (يوسف/ ١٠١)، ينتهز الفرصة السانحة فيوضح الفرق بين ثلاث صيغ صرفية من حيث المعنى، وهى "مُلْك" و"مِلْك" و"ملكوت"، فيقول: "(وهذا) يقتضى أن نفهم معنى "المُلْك" ومعنى "المِلْك"، ولنا أن نعرف أن كل إنسان له شىء يملكه، مثل ملابسه أو قلمه أو أثاث بيته ومثل ذلك من أشياء. وهذا ما يسمَّى: "المِلْك"، أما "المُلْك" فهو أن تملك مَنْ يملك. وقد ملَّك الله بعضًا من خَلْقه لخلقه، ملَّكهم أولًا ما فى حوزتهم، وملَّكهم غيرهم. وسبحانه ينزع المُلْك من واحد ويهبه لآخر كيلا تصبح المسألة رَتَابة ذات. ومثال هذا هو ما حدث لشاه إيران، وكان له المُلْك، وعنده كل أسباب الحضارة، وفى طَوْعه جيش قوى، ثم شاء الحق سبحانه أن ينزع منه المُلْك، فقام غيره بتفكيك المسامير غير المرئية التى كان الشاه يثبِّت بها عرشه، فزال عنه المُلْك.

وبجانب "المُلْك" و"المِلْك" هناك "الملكوت"، وهو ما لا تراه بأجهزة الحواس. وسبحانه يقول: "وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ" (الأنعام/ ٧٥). أى أن الحق سبحانه قد كشف لإبراهيم أسرار العالم الخفية من المخلوقات. وأنت ترى العلماء وهم يتتبعون أسرار ممالك النباتات والحيوانات، فتتعجب من دِقَّة خَلْق الله. ومَنْ وهبه الله دِقَّة العلم وبصيرة العلماء يرى بإشعاعات البصر والعلم عالم الملكوت، ويستخرج الأسرار، ويستنبط الحقائق".

وفى "المفردات" للراغب الأصفهانى (مادة "م ل ك"): "المَلِكُ هو المتصرّف بالأمر والنّهى فى الجمهور، وذلك يختصّ بسياسة الناطقين، ولهذا يقال: مَلِكُ الناسِ،

ولا يقال: مَلِك الأشياءِ. وقوله: "مَلِكِ يومِ الدّين" (الفاتحة/ ٣) فتقديره: المَلِك فى يوم الدين، وذلك لقوله: "لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ" (غافر/ ١٦). وَالمِلْكُ ضربان: مِلْكٌ هو التملك والتّولّى، ومِلْك هو القوّة على ذلك، تولّى أو لم يتولّ. فمن الأوّل قوله: "إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها" (النمل/ ٣٤)، ومن الثانى قوله: "إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا" (المائدة/ ٢٠)، فجعل النّبوّة مخصوصة، والمِلْكَ عامّا. فإن معنى الملك هاهنا هو القوّة التى بها يترشّح للسياسة لا أنه جعلهم كلّهم متولّين للأمر، فذلك منافٍ للحكمة كما قيل: لا خير فى كثرة الرّؤساء. قال بعضهم: المَلِك اسم لكلّ من يملك السياسة: إما فى نفسه وذلك بالتّمكين من زمام قواه وصرفها عن هواها، وإما فى غيره: سواء تولّى ذلك أو لم يتولّ على ما تقدّم. وقوله: "فَقَدْ آتَينا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيناهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا" (النساء/ ٥٤). والمُلْكُ: الحقّ الدّائم لله. فلذلك قال: "لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ" (التغابن/ ١)، وقال: "قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ" (آل عمران/ ٢٦). فالمُلْك ضبط الشىء المتصرَّف فيه بالحكم، والمِلْكُ كالجنس للمُلْكِ، فكلّ مُلْك مِلْك، وليس كلّ مِلْكٍ مُلْكًا. قال: "قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ" (آل عمران/ ٢٦)، "وَلا يمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَياةً وَلا نُشُورًا" (الفرقان/ ٣)، وقال: "أَمَّنْ يمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ؟" (يونس/ ٣١)، "قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلا ضَرًّا" (الأعراف/ ١٨٨)، وفى غيرها من الآيات. والمَلَكُوتُ: مختصّ بملك الله تعالى، وهو مصدر "مَلَكَ" أدخلت فيه التاء، نحو "رحموت ورهبوت". قال: "وَكَذلِكَ نُرِى إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" (الأنعام/ ٧٥)، وقال: "أَوَلَمْ ينْظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ؟" (الأعراف/ ١٨٥). وواضح، إذا كان الشيخ قد رجع إلى الأصفهانى، وهو راجح جدا، أنه قد نقل أشياء، وترك أشياء، وتصرَّف فى أشياءَ مما فى كتاب الرجل، واضعا بصمته على ما أخذ.

ومن حب الشيخ كذلك لقواعد اللغة يقف عند عبارة "آيات الكتاب" فى الآية التالية محللا ما فيها من إضافة ومنطلقا منها إلى شرح درس الإضافة كله فى كُلَيـِمَاتٍ شفافةٍ: "تِلْكَ آياتُ الْكِتَابِ" (الرعد/ ١). قال: "أى أن السورة القادمة إليك هى من آيات الكتاب الكريم: القرآن، وهى إضافة إلى ما سبق وأُنْزِل إليك... ونعلم أن الإضافة تأتى على ثلاثة مَعَانٍ: فمرَّة تأتى الإضافة بمعنى "مِنْ" مثل قولنا: "أردب قمح"، والمقصود: أردب من القمح. ومرة تأتى الإضافة بمعنى "فى" مثل قولنا: "مذاكرة المنزل" والمقصود: مذاكرة فى المنزل. ومرة ثالثة تأتى الإضافة بمعنى "اللام"، وهى تتخذ شَكْلينِ: إمَّا أن تكون تعبيرًا عن ملكيةٍ كقولنا: "مالُ زيدٍ لزيد". والشكل الثانى أن تكون اللام للاختصاص كقولنا: "لجام الفرس". أى أن اللجام يخص الفرس، فليس معقولًا أن يملك الفرس لِجَامًا. إذن فقول الحق سبحانه هنا: "تِلْكَ آياتُ الْكِتَابِ" (الرعد/ ١) يعنى: "تلك آياتٌ من القرآن" لأن كلمة "الكتاب" إذا أُطلِقتْ... ينصرف فى العقائد إلى القرآن الكريم، وكلمة "الكتاب" إذا أُطلِقت فى النحو انصرفتْ إلى كتاب سيبويه الذى يضم قواعد النحو".

وهذا الدرس النحوى الظريف يذكِّرنى بكل قوة ووضوح بصباى حين كنت أتعلم "شرح الآجرومية" فى النحو بمسجد السيد البدوى أول عام لى فى الجامع الأحمدى بطنطا حيث كنا نجلس على الأرض مفترشين الحصير فى المسجد نستمع إلى الشيخ وهو جالس على الدكة على فراء خروف نظيف دون أن يجرؤ أحد منا على أن يفتح فمه حتى إنك لتلقى الإبرة على الأرض فترنّ بل تجلجل وتوقظ الموتى. وهذا المعهد هو الذى درَّس فيه الشيخ فترة من حياته. وكان علينا آنذاك أن نقرأ ونفهم ونحفظ هذا الكلام، الذى كان بالنسبة لنا وقتها شيئا جديدا، إذ كنا أطفالا ريفيين آتين لتوهم من كتاب سيدنا الشيخ مرسى وجمعية المحافظة على القرآن الكريم بقريتنا كتامة الغابة بالغربية بعُجَرنا وبُجَرنا: الدهشة ملء عيوننا، والحزن ملء قلوبنا، والحيرة ملء

كياننا. ولكن شاءت إرادة سيدى وسيدك وسيد الكل أن نُفْلِح بعض الفلاح. فاللهم حمدا وشكرا.

وإلى قواعد النحو والصرف أيضا ينتمى ما يقوله الشيخ فى كلمة "مغاضِبا" من قوله تعالى عن ذى النون عليه السلام: "إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا" (الأنبياء/ ٨٧). يقول رحمه الله: "مادة "غضب" نأخذ منها الوصف للمفرد. نقول: "غاضب وغضبان". أمّا "مُغَاضِب: فتعطى معنى آخر لأنها تدل على المفاعلة، فلا بُدَّ أن أمامك شخصًا آخر: أنت غاضب، وهو غاضب، مثل "شارك فلان فلانًا". لكن فى أصول اللغة رَجَّحْنا جانب الفاعلية فى أحدهما، والمفعُولية فى الآخر، كما نقول: "شارك زيدٌ عَمْرًا". فالمشاركة حدثتْ منهما معًا، لكن جانب الفاعلية أَزْيد من ناحية زَيد، فكلٌّ واحد منهما فاعلٌ مرة، ومفعولٌ أخرى.

واللغة أحيانًا تلحظ هذه المشاركة فتُحَمِّل اللفظ المعنيين معًا: الفاعل والمفعول، كما جاء فى قَوْل الشاعر العربى الذى يصف السَّير فى أرض معقربة، والتى إذا سِرْتَ فيها دون أنْ تتعرض للعقارب فإنها تسالمك ولا تؤذيك، فيقول:

قَدْ سَالَمَ الحياتُ مِنْه القَدَمَا الأفْعُوانَ والشُّجاعَ القَشْعَمَا

أى أنه سَالَمَ الحيات، فالحيات سالمتْه. فالمسالمة منهما معًا، لكنْ غلب جانب الحيات، فجاءت فاعلًا لأن إيذاءَها أقوى من إيذائه. فلما أَبْدَلَ من الحيات "الأفعوان والشجاع القشعما"، وهما من أسماء الحيات، كان عليه أنْ يأتى بالبدل مرفوعًا تابعًا للمبدل منه، إلا أنه نصبه فقال: "الأُفْعَوانَ والشجاعَ القشعمَا" لأنه لاحظ فى جانب الحيات أنها أيضًا مفعولٌ".

هذا ما قاله الشيخ رحمه الله. وفى "الكتاب" نرى سيبويه بعد أن أورد قول عبد بنى عبس:

قَدْ سَالَمَ الحياتُ مِنْه القَدَمَا الأفْعُوانَ والشُّجَاعَ القَشْعَمَا

وذات قرنين ضَمُوزًا ضِرْزِما

يقول إنه "إنما نصب الأفعوان والشجاع لأنه قد علم أن القدم هٰهنا مسالَمَة كما أنها مسالِمَة، فحمل الكلام على أنها مسالِمة".

وفى "الانتخاب لكشف الأبيات المشكلة الإعراب" لعلى بن عدلان: "أنشد سيبويه للدبيرى:

قَدْ سَالَمَ الحياتُ مِنْه القَدَمَا الأفْعُوانَ والشُّجَاعَ القَشْعَمَا

وذات قرنين ضَمُوزًا ضِرْزِما

الأفعوان: ذكر الأفاعى، والميم فى الشجعم زائدة، والضموز: الساكنة، والضرزم: المسنّة. وذلك أخبث لها. وقد أنشد سيبويه برفع "الحيات" ونصب "القدم". وذلك يقتضى رفع "الأفعوان" وتِلْوِه على جهة البدل. وإنما نصبه حملًا على المعنى لأنّ الحيات إذا سالمت القدم فقد سالمتها القدم لأن المفاعلة لا تكون إلا من اثنين غالبًا. وأنشد الفرّاء بنصب "الحيات" على أنها مفعول بها، والفاعل "القدمان"، وأسقط النون كقول الآخر:

هما خُطَّتا إمّا إسارٌ ومنّةٌ

على رواية الرفع. يصف رجلًا بخشونة قدمه وأنّ هذه الأنواع من الحيات لا تؤثر فيها".

وفى "الحُلَل فى إصلاح الخَلَل من كتاب الجمل" للبطليوسى: "وأنشد أبو القاسم فى هذا الباب:

قَدْ سَالَمَ الحياتُ مِنْه القَدَمَا الأفْعُوانَ والشُّجَاعَ القَشْعَمَا

وَذَاتَ قَرْنَين ضَمُوزًا ضِرْزِمَا

هذا الرجز لمساور العبسى... و"مساور" اسم منقول لأنه اسم فاعل من "ساوره": إذا واثبه. هجا رجلًا بغلظ القدمين وصلابتهما لطول الحفاء، فذكر أنه يطأ

على الحيات والعقارب فيقتلها، فقد سالمت قدميه لذلك! وكان القياس أن يرفع "الأفعوان وما بعده" على البدل من الحيات، غير أنه حمله على فعل مضمر يدل عليه "سالَمَ" لأن المسالمة إنها تكون من اثنين فصاعدا. وإذا قلت: "سالَمَ زيدٌ عَمْرًا" عُلِم أيضًا أن عَمْرًا سالَمَه، فكأنه قال: "وسالمت القدمُ الأفعوانَ...". وكان الفراء يروى: "قد سالمت الحياتِ" وينصبها على أنها مفعولة، ويجعل "القدم" هى الفاعلة، وقال: أراد "القدمان"، فحذف نون التثنية ضرورة... وأبدل "الأفعوان وما بعده" من الحيات".

وهذا كله جميل وعلى العين والرأس، وقد استفدنا منه فائدة جُلَّى. ويمكن أن نضيف إلى هذه الحلول الإعرابية إعرابا آخر مباشرا وبسيطا لا لف فيه ولا دوران ولا تكلف. ألا وهو أن نعرب "الأفعوانَ والشجاعَ القشعما وذاتَ قرنين ضَمُوزًا ضِرْزِما" على أن "الأفعوان" مفعول به والاسمين الآخرين معطوفين. وفعل المفعول به محذوف تقديره: "أعنى". وهو يشبه فعل الاختصاص فى قولنا مثلا: "نحن المصريين أصحابُ فكاهة"، إلا أن فعل الاختصاص إنها يقدر بعد ضمير، أما الفعل: "أعنى" فمع غير الضمير، زيادة على أنه يمكن أن يأتى بعد انتهاء الجملة أيضا لا فى وسطها فقط. وهذا اجتهاد منى، وأظنه لا يخلو من الوجاهة.

وفى تفسيره لقوله جل جلاله: "قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيرٌ أَمَّا يشْرِكُونَ" (النمل/ ٥٩) يستطرد قائلا: "ونلحظ هنا الفرق بين "فَتَحَ لك، وفَتَحَ عليك": "فتح لك" يعنى فتح فى صالحك. ومنه "إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا" (الفتح/ ١). أما "فتح عليهم" يعنى: بالسوء نكايةً فيهم. فمعنى "فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيءٍ" (الأنعام/ ٤٤): أعطاهم الخير ليهلكهم به، وهم فى حال نعمة ومكانة، حتى إذا أخذهم الله كان أَخْذه أليمًا شديدًا"

فالشيخ هنا يتعرض لتغير معنى الفعل إذا تغير حرف الجر الذى يليه، مثل قولنا: "رغب فى كذا": أحب الحصول عليه، و"رغب عن كذا" إذا نفر منه وكرهه، و"رغب

إلى فلان": اتجه إليه. وفي رأيه أن "فتح الله لفلان كذا" هي أنه سبحانه أكرمه بهذا، بخلاف "فتح الله عليه"، التي تعني أن الفتح هنا نقمة واستدراج إلى العذاب.

ولكن يبدو أن الشيخ لم يستقص الأمر كما ينبغي. ففي القرآن الكريم عن بني إسرائيل: "وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" (البقرة/ ٧٦). وفيه أيضا: "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦)" (الأعراف)، "وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥)" (الحِجْر).

وفي الحديث: "عن عمرَ أنَّه حين فُتِحَ عليه الفتوحات قالت له ابنتُهُ حفصةُ رضي اللهُ عنها: البَسْ ألينَ الثِّيابِ إذا وفدَتْ عليك الوفودُ من الآفاقِ... قال: ناشَدْتُكِ اللهَ... هل تعلمينَ أنَّ النَّبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لبِثَ في النُّبوَّةِ كذا وكذا سنةً لم يشبعْ من التَّمرِ هو وأهلُهُ حتَّى فتح اللهُ عليه خيبرَ؟"، "فيفْتَحُ اللهُ عليه من الثناءِ عليه والتحميدِ والتمجيدِ ما لم يفْتَحْ لأحدٍ من الخلائقِ"، "فُتِح على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فَتْحٌ". وفي الحديث كذلك "أنَّ رجلًا قالَ يومَ فتحِ مكَّةَ: يا رسولَ اللَّهِ، إنِّي نذرتُ إنْ فتحَ اللَّهُ عليكَ مَكَّةَ أن أصلِّيَ في بيتِ المقدسِ"، وفيه "أن النبي لما فتح مكةَ ودخلها قام على الصفا يدعو، وقد أحدقت به الأنصارُ فتهامسوا فيما بينهم: أترون رسولَ اللهِ إذ فتح اللهُ عليه أرضَه وبلدَه يقيمُ بها؟". وفي تفسير بعض الصحابة لقوله تعالى: "إذا جاء نصر الله والفتح" أنه سبحانه قد "أمر نبيه صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ إذا فُتِح عليه أن يستغفرَه ويتوبَ إليه". وعن الطفيل السدوسي: "لم أزل مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتى فتح اللهُ عليهِ مكةَ". وفي غزوة تبوك: "ثمَّ أخذ الرَّايةَ سيفٌ من سيوفِ اللهِ خالدُ بنُ الوليدِ، ففتح اللهُ عليه". وفي يوم

خيبر قال رسول الله مشيرا إلى على بن أبى طالب: "لأُعْطِيَنَّ هذه الرايةَ غدًا رجلًا يفتحُ اللهُ على يديه".

ثم كيف ينسى الشيخ عبارة "فَتَحَ اللهُ عليك"، التى كان المشايخ فى الأزهر ولا يزالون يدعون بها لطلابهم؟ وفى مادة "ف ت ح" من "تاج العروس": "فَتَحَ عليه: عَلَّمَه وعَرَّفَه"، و"فُتِحَ على فلان: جُدَّ وأقبلت عليه الدنيا". وعلى الناحية الأخرى نجد أن "فتح لـ..." قد تأتى للعذاب كما فى الحديث التالى: "ثمَّ يفتَحُ له بابٌ مِن أبوابِ النَّارِ فيقالُ له: هذا مقعَدُك منها وما أعَدَّ اللهُ لك فيها لو عصَيتَه".

ومن التفسيرات الاشتقاقية فى تفسير الشعراوى قوله، لدن تناوله للآية ٦٠ من سورة "الأحزاب"، وفيها ذكر المنافقين وتهديدهم إن لم يرعووا عن سفالتهم وعَيثِهم فى الأرض الفساد، قائلا إن "كلمة "المنافقون" مفردها "منافق"، مأخوذ من "نَافَقِاء اليربوع"، واليربوع حيوان صغير يشبه الفأر، يعرفه أهل البادية، يعيش فى جحور، فيترصدونه ليصطادوه ساعة يخرج من جُحْره. لكن هذا الحيوان الصغير فيه لُؤْم ودهاء، فماذا يفعل؟ يجعل لجُحْره مدخلين: واحد معروف، والآخر مستتر بشىء. فإذا أحس بالصياد على هذا المدخل ذهب إلى المدخل الآخر. لذلك أشبه المنافق تمامًا الذى له قلب كافر، ولسان مؤمن".

وهو كلام مشهور فى تفسير لفظ "المنافق"، ووجه الصلة هو كلمة "نافقاء"، أى جحر اليربوع. وليس كلام الشيخ واضحا تماما فى هذه النقطة إذ انشغل باليربوع عن نافقائه. وفى "لسان العرب": "والنُّفَقةُ والنَّافِقاء: جُحْر الضَّبّ واليرْبوع، وقيل: النُّفَقةُ والنافِقاء موضع يرقِّقه اليربوع من جُحْره، فإذا أُتِى من قبل القاصِعاء ضرب النافِقاء برأْسه فخرج. ونَفِقَ اليربوع ونَفَق وانْتَفَق ونَفَّق:خرج منه. وتَنَفَّقَه الحارِشُ (الصائد) وانْتَفقه: استخرجه من نافِقائه. واستعاره بعضهم للشيطان فقال:

إذا الشيطانُ قَصَّعَ فى قَفاها تَنَفَّقْناهُ بالحَبْلِ التُّؤَامِ

أَى إذا سكن فى قاصعاء قفاها تنفَّقناه، أَى استخرجناه كما يسْتَخْرَج اليربوع من نافقائه. قال الأَصمعى فى "القاصعاء": إنما قيل له ذلك لأَن اليرْبوع يخرج تراب الجحر ثم يسدّ به فم الآخر، من قولهم: "قَصَع الكَلْمُ بالدم" إذا امتلأَ به. وقيل له: الدامَّاء لأنه يخْرِج تراب الجحر ويطْلِى به فم الآخر، من قولك: ادْمُمْ قِدْرك، أَى اطْلِها بالطِّحال والرَّماد. ويقال: "نافَقَ اليربوعُ" إذا دخل فى نافِقائه، و"قَصَّع" إذا خرج من القاصِعاء. وتَنَفَّق: خرج. قال ذو الرمة:

إذا أرادوا دَسْمَهُ تَنَفَّقا

أَبو عبيد: سمى المنافقُ: "مُنافقًا" للنَّفَق، وهو السَّرَب فى الأَرض. وقيل: إنما سمى: "مُنَافِقًا" لأنه نافَقَ كاليربوع، وهو دخوله نافقاءه. يقال: قد نفق به ونافَقَ. وله جحر آخر يقال له: القاصِعاء. فإذا طُلِبَ قَصَّع فخرج من القاصِعاء. فهو يدخل فى النافِقاء ويخرج من القاصِعاء، أو يدخل فى القاصِعاء ويخرج من النافِقاء، فيقال: هكذا يفعل المُنافق. يدخل فى الإسلام ثم يخرج منه من غير الوجه الذى دخل فيه... و"النِّفاق" بالكسر: فعل المنافِق. والنِّفاقُ: الدخول فى الإسلام من وَجْه، والخروُج عنه من آخر، مشتقّ من "نَافِقَاء اليربوع". إسلامية. وقد نافَقَ مُنافَقَةً ونِفاقًا. وقد تكرر فى الحديث ذكر النِّفاق وما تصرّف منه اسمًا وفعلًا. وهو اسم إسلامى لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وهو الذى يسْتُرُ كُفْره ويظهر إيمانَه، وإن كان أَصله فى اللغة معروفًا. يقال: نافَقَ ينافِق مُنافقة ونِفاقًا، وهو مأْخوذ من النافقاء لا من النَّفَق، وهو السَّرَب...".

وفى الكلام تفصيل وتكرار مما دعانى إلى حذف بعض ما قيل. أما فى "مفردات الراغب الأصفهانى فالكلام فى هذه النقطة مختصر ملموم: "النَّفَقُ: الطريقُ النَّافِذُ، والسَّرَبُ فى الأَرْض النَّافِذُ فيه. قال: فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِى نَفَقًا فِى الْأَرْضِ (الأنعام/ ٣٥). ومنه "نَافِقَاءُ اليرْبُوعِ". وقد نَافَقَ اليرْبُوعُ ونَفَقَ. ومنه النِّفَاقُ، وهو الدّخولُ فى

الـشَّرْعِ مـن بـابٍ والخـروجُ عنـه مـن بـابٍ. وعـلى ذلـك نبَّـه بقولـه: "إِنَّ الْمُنَـافِقِينَ هُـمُ الْفاسِـقُونَ" (التوبـة/ ٦٧)، أى الخـارجون مـن الـشَّرْعِ، وجعـل اللَّهُ المنـافقين شرًّا مـن الكـافرين فقـال: "إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الـدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّـارِ" (النساء/ ١٤٥)...". وقـد اختصر الشيخ ما قيل فى الموضوع وشرحه شرحا مبسطا قَرَّبَه جدا من الفهم والتصور، وبخاصة أنه نـأى عن الألفاظ الغريبة والشرح المعقد الخاص بوصف كل من نافقاء اليربوع وقاصعائه وكيفية إنشاء اليربوع لهما.

واهتبـل الـشيخ سـانحة ذكـر الـسؤال فى قولـه تعـالى: "ويـسألونك عـن الـساعة" (الأحزاب/ ٦٣) فانطلق يدلى بملاحظاته على الطريقة التى عالج بها القرآن موضوع الأسئلة التى كانت تطرح على النبى عليه السلام، فقال: "ومادة السؤال جاءت كثيرًا فى كتـاب الله لأن القـرآن لم ينـزل عـلى رسـول الله جملـةً واحـدة. إنـما نـزل مُـنجَّمًا حَـسْب الأحـداث ليعطيهـم الفرصـة للـسؤال، وجـاء الـسؤال إمـا لتحـدى رسـول الله، وإمـا للاستزادة من أحكام الله التى أنزلها على رسوله صلى الله عليه وسلم...

والقـرآن حينما عـرض لهـذه الأسـئلة قـال مـرة: "وَيـسْأَلُونَكَ عَـنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُـوَ أَذًى" (البقرة/ ٢٢٢). فرسول الله صلى الله عليه وسلم حينما سُئِل هذا السؤال لم يقُلْ: "هـو أذى" لأن الجـواب لـيس مـن عنـده، إنـما هـو مُبَلِّغ عـن الله، والله هـو الـذى يقـول، فقال: "قُلْ هُوَ أَذًى" (البقرة/ ٢٢٢). فكلمة "قُلْ" هذه من مقول الله تعالى، وأنا أقولها كما هى. لـذلك نعجـب ممن ينادى بحـذف كلمـة "قُلْ" من القرآن بحجة أنها لا تـضيف جديـدًا للمعنـى فى حين أنهـا دليـل عـلى صـدق سـيدنا رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم، ودليل على أن ما جاء به ليس من عنده. إنما من عند الله، وهو مبلِّغ فحسب. فرَبُّه قال له: قُلْ. وهو يقولها كما هى: "وَيسْأَلُونَكَ مَاذَا ينفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ" (البقرة/ ٢١٩). وفى موضـع آخـر: "يـسْأَلُونَكَ مَـاذَا ينْفِقُـونَ قُـلْ مَـآ أَنْفَقْـتُمْ مِّـنْ خَيرٍ فَلِلْوَالِـدَينِ وَالأَقْـرَبِينَ" (البقرة/ ٢١٥).

لكنْ قد تأتى مرة مقترنة بالفاء، ومرة أخرى غير مقترنة بها، فلماذا؟ هذا مَلْمح إعجازى فى أداء القرآن لأن الجواب بـ"قُلْ" يعنى أن السؤال قد حدث بالفعل، مثل "يسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِى مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ" (البقرة/ ١٨٩). أما الجواب حين يقترن بالفاء فإنه يعنى وجودَ شرطٍ. فالسؤال لم يحدث بالفعل، إنما سيحدث فى المستقبل كما فى قوله تعالى: "وَيسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ ينسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا" (طه/ ١٠٥). والمعنى: إن سألوك فى المستقبل عن الجبال فقُلْ: ينسفها ربى نَسْفًا. فالجواب مُعَدٌّ مُسْبقًا لسؤال لم يسْأل بَعْد، لكنه لا بُدَّ أنْ يسْأَل، وأنْ يقع منهم، وهذا وجه آخر من وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم، وإلا فقد كان بإمكانهم ألَّا يسألوا. لكن هيهات أنْ ينْقُضَ أحدٌ كلامَ الله أو ينقض علمه تعالى. ما دام الله قال فلا بُدَّ أنْ يقولوا".

وإشارة الشيخ هنا إلى من اقترحوا حذف كلمة "قل" من القرآن الكريم هى للقذافى، فقد كان يزعم أن الصواب هو ألا نقول: "قل هو الله أحد" بل أن نقول مباشرة: "هو الله أحد" على أساس أن الله أمر رسوله بأن يقول هذا، وها نحن أولاء نقوله كما أُمِر وأُمِرْنا، ولا داعى بالتالى أن نقول: "قل"، فهذا الأمر قد انتهى ساعة نزول القرآن. وكان حاكم ليبيا صاحب بدوات وتصرفات وأفكار عجيبة ما أنزل الله بها من سلطان. وفى أواخر حياته كان يرتدى ملابس شاذة توحى بأن بعقل صاحبها مسا أو خبلا. ولم يكن يظهر عليه أى شىء من الخجل أو الحياء.

ثم فرق الشيخ رحمه الله بين "ويسألونك عن الأَهِلّة قل هى مواقيتُ للناس والحَجّ" وبين "ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفًا": ففى الأولى قد وقع السؤال وانتهى الأمر ما دامت تخلو من الفاء، أما الثانية فتعنى أنهم لم يسألوا بعد، ولكنهم سوف يسألون. ودليله على هذا وجود الفاء. وهو ما قاله القرطبى مثلا: "قوله تعالى: "ويسألونك عن الجبال"، أى عن حال الجبال يوم القيامة، فقل:... جاء هذا بفاء. وكل سؤال فى القرآن "قل" بغير فاء إلا هذا، لأن المعنى إن سألوك عن الجبال

فقل. فتضمن الكلام معنى الشرط. وقد علم الله أنهم يسألونه عنها فأجابهم قبل السؤال، وتلك أسئلة تقدمت سألوا عنها النبى صلى الله عليه وسلم، فجاء الجواب عقب السؤال، فلذلك كان بغير فاء، وهذا سؤال لم يسألوه عنه بعد. فتَفَهَّمْه".

ولست أدرى ما علاقة وجود الفاء بوجوب أن تكون الجملة شرطية، إذ أستبعد أن يخبر الله سبحانه رسوله بأمر كهذا لا يوجد ما يدل على أنه سوف يتم السؤال عنه، وبخاصة أن الكلام عن تحرك الجبال يوم القيامة تكرر فى القرآن، وعلى هذا فكما أن آية السؤال عن الأهلة لم تنزل إلا ردا على ذلك السؤال فكذلك لم تنزل آية السؤال عن الجبال إلا بعد أن وقع السؤال وكان لا بد من الإجابة عليه. أما الفاء التى دفعت الشيخ إلى افتراض الشرطية فى الكلام فتوجيهها جد سهل، وهو "ما داموا قد سألوك عن الجبال فقل: ينسفها ربى نسفا".

ثم لم يشأ الشيخ الشعراوى أن يغادر الآية دون أن يضع لمسته، فقال إن فى الآية ملمحا إعجازيا، إذ أخبرتِ النبىَّ بأن المشركين سوف يسألونه عن مصير الجبال فى آخر عمر الدنيا، وكان يستطيع المشركون ألا يسألوا ويخيبوا ظن القرآن، ولكنهم سألوا. وهذا مصداق لما جاء فى القرآن من أنهم سيسألونه، وقد كان، وسألوه كما قال. لكننا نقرأ فى تفسير ابن كثير: "أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: قالت قريش: يا محمد كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة؟ فنزلت الآية". وفى "مفاتيح الغيب" للرازى: "قال الضحاك: نزلت فى مشركى مكة. قالوا: يا محمد كيف تكون الجبال يوم القيامة؟ وكان سؤالهم على سبيل الاستهزاء". وفى تفسير "الميزان" للطباطبائى الاثنى عشرى: "قوله تعالى: "ويسألونك عن الجبال" إلى قوله: "ولا أَمْتًا" تدل الآية على أنهم سألوه صلى الله عليه وآله وسلم عن حال الجبال يوم القيامة، فأُجِيب عنه بالآيات". ويقول الهوارى الإباضى (القرن الثالث): "قوله عز وجل: "وَيسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ": قال المشركون للنبى صلى الله عليه وسلم: يا محمد، كيف هذه الجبال فى ذلك اليوم الذى

تَـذْكُر؟ فـأنزل الله: وَيـسْأَلُونَكَ عَـنِ الجِبَـالِ...". أى أن الآيـة ليـست اسـتباقا لمـا سـوف يقوله مشركو قريش، بل ردا على سؤالهم الذى كان قد تـم، وانتهى الأمر. أما الفاء (فى "فَقُلْ") فهى للتعقيب بمعنى ألا تنتظرْ بالجواب بل بادرهم به على الفور. وفى تفسير الـرازى أنه سبحانه وتعالى "إنما قال: "فَقُلْ" مع فاء التعقيب لأن مقصودهم من هـذا السؤال الطعن فى الحشر والنشر، فلا جَرَمَ أَمَرَه بالجواب مقرونًا بفاء التعقيب لأن تأخير البيان فى مثل هذه المسألة الأصولية غير جائز، أما فى المسائل الفروعية فجائزة. لـذلك ذكر هناك "قل" من غير حرف التعقيب".

ويتبقى المثال التالى، وهو قول السماوات والأرض لله سبحانه حين أمرهما أن ائتيا طوعا أو كرها: "أتينا طائِعِين" (فُصِّلَتْ/ ١١). وقد شرحه الشيخ المفضال على النحو التالى: "هـذا كلام السماء والأرض، وكان القياس أنْ يقول: "طائعَيْنِ" بالمثنى. إنما قال: "طَآئِعِينَ" بصيغة الجمع. والسماء والأرض مؤنَّث، فكان القياس أنْ يقول: "طائعات". إذن خالف فى أمرين. لمـاذا؟ قالوا: لأن الشيء يكون مفردا، لكنه تحته جمع. فإذا نظرتَ إلى المفرد جئتَ بالمفرد، وإذا نظرتَ إلى ما تحته جئتَ بالجمع. قال تعالى: "وَإِنْ طَآئِفَتَانِ مِـنَ ٱلْمُـؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُـوا فَأَصْـلِحُوا بَيـنَهُمَا" (الحجـرات/ ٩)، فلـم يقـل: "اقتتلتـا" بـالمثنى المؤنـث، إنـما "ٱقْتَتَلُوا" لأن أمر القتال راجعٌ إلى رؤساء كل طائفة، هـم الـذين يقررون القتال أو عدم القتال، وساعةَ القتال لا يمسك كل فريق بسيف واحد يقاتل به الفريق الآخـر، إنـما يمـسك كـلُّ فـرد بـسيفه. فالطائفـة هنـا مفـرد تحتـه جمـع، فقـال فى القتـال: "ٱقْتَتَلُوا"، لكن عند الصلح قال: "فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا" لأن أمر الصلح لا يكون مع أفراد الجيش، إنما يكون مع القادة لكل طائفة الذين يصرِّفون الأمر حربًا أو سِلْمًا".

وهـذا التوجيه يمكن أن يصنف تحت اسم "النقد النفسى"، الذى يبحث فى أحد مجالاتـه عـن علـل التعبير فى خبايـا الـنفس ومـا إلى ذلـك. وبطبيعـة الحـال لم يكـن فى بـال الـشيخ هـذا النقـد النفسى، لكنـه توصـل إليـه بفطرتـه وذكائـه ومـا فى بـاطن الـنص مـن

إضـاءات. وهنـاك ملاحظـة لا أحـب أن أغـادر هـذا الفـصل دون التنبيـه إليهـا، إذ قـال الـشيخ، أو قـال مـن حولـوا كـلام الـشيخ العـامى إلى كـلام فـصحوى، عـن جـواب الـسماء والأرض على ربهما بأنهما كـان ينبغـى أن تقـولا: "طائعَين" بـالمثنى. وهـو سـهو، وصـوابه: "طائعتين" لأنهما مؤنثتان لا مذكران. كما سها الشيخ فلم يوضح الجمع الذى تحت هذا المثنى، ألا وهـو جميع المخلوقات التى تـسكن الـسماء والأرض. وقـد غُلِّـب العقـلاء مـن بشر وملائكة وجن ومن يدرى ماذا أيضا على الجمادات والحيوانات، كـما غُلِّـب المـذكر على المؤنـث طبقـا لتقاليـد البشر ولغـاتهم، إذ حين تكـون هنـاك جماعـة مـن النـساء، ومعهـن رجـل واحـد قيـل: هُـمْ، وقـاموا ويـأكلون واسـمعوا... وهلـم جـرا، كـل ذلـك بـصيغة التذكير.

٢- استعانة الشعراوى بالنصوص الأدبية

وفى تفسير الشعراوى ملمح آخر هو أنه ينتهز الفرصة بين الحين والحين فيستشهد بنص أدبى يعضد به ما هو بسبيله من النص القرآنى أو من تفسير هذا النص: ومن ذلك قوله عن يوسف عليه السلام فى الآية المائة من السورة المعروفة باسمه، قائلا: "ويثْنِى على الله شاكرًا إحسانه فيقول: "وَقَدْ أَحْسَنَ بَى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ" (يوسف/ ١٠٠)، وهو إحسان له فى ذاته، ثم يذكر إحسان الله إلى بقية أهله: "وَجَآءَ بِكُمْ مِّنَ الْبَدْوِ" (يوسف/ ١٠٠). وكلمة "أَحْسَنَ"، كما نعلم، مرة تتعدى بـ "إلى" فنقول: "أحسن إليه"، ومرة تتعدى بالباء فنقول: "أحسن به"، وهو هنا فى مجال "أحسن بى". أى أن الإحسان بسببه قد تعلَّق بكل ما اتصل به: فجعله حاكمًا، وجاء بأهله من البدو. أما الإحسان إليه فيكون محصورًا فى ذاته لا يتعداه.

وجعل الحق سبحانه الإحسان هنا قسمين: قسم لذاته، وقسم للغير، واعتبر مجىء الأهل من البدو إحسانًا إليه، لأن البَدْو قوم يعيشون على الفطرة والانعزالات الأسرية، ولا تَوَطُّن لهم فى مكان، ولا يضمُّهم مجتمع، وليس لهم بيوتٌ مبنية يستقِرُّون فيها، ولكنهم يتبعون أرزاقهم من منابت الكلإ ومساقط المياه، ويحملون رِحَالهم إلى ظهر الجمال متنقلين من مكان لآخر. وتخلو حياتهم من نِعَم الحضارة. ففى الحضارة يحضر إليك كل ما تطلب، ولكن الحياة فى البدو تُحتِّم أن يذهب الإنسان إلى حيث يجد الخير. ولذلك تستقر الحياة فى الحضر عنها فى البادية".

هذا ما قاله الشيخ عن يوسف وإحسان الله به، لكنه لا يتوقف هنا بل يمشى فيستشهد بشعر لأمير الشعراء يقارن فيه بين الحضارة والبداوة، وهو الموضوع الذى كان الشيخ منهمكا فيه كما رأينا، فيقول: "ويعطينا الشاعر أحمد شوقى، رحمة الله عليه،

صورة تبين الفارق بين البدو والحضر حين صنع مناظرة بين واحدة تتعصب للبدو وأخرى تتعصب للحضر، فقال:

فأنا مِنَ البِيدِ يا ابن جُرَيجٍ ومن هذه العِيشَة الجَافِيهْ
ومن حَالِبِ الشاة فى موضعٍ ومن مُوقِد النارِ فى نَاحِيهْ
مُغَنِّيكُمو مَعْبَدٌ والغريق وقَيْنَتُنا الضبُع العَاوِيهْ
هُمْ يأكلونَ فُنونَ الطهاةِ ونأكل ما طَهَتِ المَاشِيهْ

فابن ذريح يشكو السَّأم من حياة البادية حيث لا يرَى إلا المناظر المُعَادة من حَلْبِ شاةٍ أو إشعال نار، ولا يسمع كأهل الحضر صوت المُغَنِّين المشهورين فى ذلك الزمن، بل يسمع صوت الضِّبَاع العاوية، ولا يأكل مثل أهل الحضر ما قام بِطَهْيهِ الطُّهاة، بل يأكل اللبن، وهو ما تقدمه لهم الماشية. وتردُّ ليلى المتعصِّبة للبادية:

قد اعتسفتْ هِنْدُ يا ابنَ ذَرِيحٍ وكانت على مَهْدِها قاسيهْ
فَمَا البِيدُ إلاّ دِيارُ الكِرَامِ ومنزِلةُ الذِّمَمِ الوَافيهْ
لها قُبْلةُ الشمسِ عند البُزُوغِ وللحَضَر القبلة الثانيهْ
ونحنُ الرَّيَاحِينُ مِلء الفضاءِ وهُنَّ الرَّيَاحِينُ فى آنِيهْ
ويقْتُلنا العِشْقُ، والحَاضِراتُ يقُمْنَ من العِشق فى عافيهْ

وقولها: "اعتسفت" يعنى "ظلمت". أى أن هندًا ظلمت البيد يا ابن ذريح. ثم جاءت بميزات البدو فأوضحت أن بنات البادية كالرياحين المزروعة فى الفضاء الواسع عكس بنات الحَضَر التى تشبه الواحدة منهن الريحانة المزروعة فى أُصُص الزرع أو أى آنية أخرى. ثم تأتى إلى القيم فتفخر أن بنت البادية يقتلها العِشْق، ولا تنال ممَّنْ تعشق شيئًا، فتنسلّ وتموت، أما بنت الحضر فصحتها تأتى على الحب. وهنا، فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها، يشكر يوسف ما مَنَّ به الله عليه وعلى أهله الذين جاء بهم

سبحانه من البادية ليعيشوا فى مصر ذات الحضارة الواسعة. وبذلك يكون قد ضخَّم الفرق بين ما كانوا يعيشون فيه من شَظَف العيش إلى حياة اللين والدَّعة".

وواضح اتساع محفوظ الشيخ الشعرى، وقد بولغ فى هذا المحفوظ مبالغة شديدة من قِبَل بعض من كتبوا عنه، إلا أن لهذه المبالغة دلالتها التى لا تخفى على أن ذاكرة الشيخ كانت ملأى بالشعر. ولا ننس أنه هو نفسه شاعر. وهذه الأبيات مقتبسة من مسرحية "مجنون ليلى"، التى تدور وقائعها فى البادية صَدْرَ دولة بنى أمية، وأهم شخصياتها قيسٌ مجنون ليلى وليلى وأبوها ووردٌ زوجها وابن عوف أمير الصدقات فى الحجاز أيام الأمويين. والناس فى المقارنة بين الحضر والبادية مذاهب. فإذا كنا نحن الحضريين نفضل المدن والقرى فإن البدو بوجه عام لا يرضَوْن ببراديتهم بديلا. وفى "إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بنى العباس" للإتليدى: "ولما اتصلت ميسون بنت بحدل بمعاوية رضى الله عنه ونقلها من البدو إلى الشام كانت تكثر الحنين على ناسها والتذكر لمسقط رأسها، فاستمع عليها ذات يوم فسمعها تنشد وتقول:

لَبَيْتٌ تخفق الأرواح فيهِ ... أحبُّ إلى من قصرٍ مُنِيفِ
وأَكْلُ كُسَيرةٍ فى كِسْر بيتى ... أحب إلى من أكل الرغيفِ
وأصواتُ الرياح بكل فَجٍّ ... أحب إلى من نقر الدفوفِ
ولُبْسُ عباءة وتَقَرَّ عينى ... أحبُّ إلى من لبس الشفوفِ
وكلبٌ ينبح الطُّرّاق حولى ... أحب إلى من قطٍّ أَلُوفِ
وبَكْرٌ يتْبَع الأظعانَ صعبٌ ... أحب إلى من بغل زَفُوفِ
وخرق من بنى عمى نحيفٌ ... أحب إلى من عِلْجٍ عنيفِ

قال الراوى: فلما سمع معاوية الأبيات قال: ما رضيت ابنة بحدل حتى جعلتنى علجًا عنيفًا".

وقد كان المتنبى يفضل جمال البدويات على جمال المتحضرات بحجة أن جمالهن فطرى لا يعرف الزواق والتصنع. وله أبيات مشهورة فى هذا المعنى يقول فيها:

كم زورةٍ لى فى الأعراب خافية ... أدهى، وقد رقدوا، من زَوْرَة الذِّيبِ
أزورهمْ، وسواد الليل يشفع لى ... وأنثنى، وبياض الصبح يغرى بى
قد وافقوا الوحش فى سكنى ... وخالفوها بتقويضٍ وتطنيبِ
فؤاد كل محب فى بيوتهمو ... ومال كل أخيذ المال محروبِ
ما أوجُه الحضر المستحسنات به ... كأوجه البدويات الرعابيبِ
حُسْنُ الحضارة مجلوبٌ بتطريةٍ ... وفى البداوة حسنٌ غير مجلوبِ
أفدى ظباء فلاة ما عَرَفْنَ بها ... مَضْغَ الكلام ولا صبْغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلة ... أوراكهن صقيلات العراقيبِ
ومِنْ هوى كلِّ من ليست مموَّهةً ... تركتُ لون مشيبى غير مخضوبِ
ومن هوى الصدق فى قولى ... رغبتُ عن شعرٍ فى الوجه مكذوبِ

لكن المتحضرين يرون أن المرأة المتبدية ينقصها الكثير من الصقل والتجميل فى الشكل والملبس والعقلية والمشاعر واللغة حتى تحظى برضاهم. ويحمل القرآن على الأعراب أهل البوادى حملة شديدة فى سورة "التوبة" متهما إياهم بأنهم "أشدّ كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدودَ ما أنزل الله على رسوله"، وأن منهم من يعُدّ إنفاقَه فى سبيل الإسلام مغرما باهظا وخسارة مؤلمة، فهو منافق لم يتغلغل الإيمان فى قلبه ولايعرف معنى لمثل تلك القيمة العظيمة. وفى تعليق الشعراوى على الأبيات التى تعيب العيشة البدوية يعزو هذه الأبيات إلى ابن ذريح، فى حين أنها لهند كما هو واضح من رد ليلى عليها.

وقد ذكر الشيخ الشعراوى فى حوار له مع سعيد أبو العينين أنه شاهد هذه المسرحية فى شبابه عشرين مرة إعجابا ببطلتها فاطمة رشدى وبأدائها ونطقها الصحيح

للغة العربية وسلامة مخارج حروفها، وشهد لها بأنها كانت فى ذلك الوقت جميلة. وكذلك شاهد، جراء هذا الإعجاب، بقية مسرحيات أمير الشعراء التى مثلتْها. بل إنه فى هذا الحوار قد استشهد بالشعر الموجود هنا وشَرَحَه واستطرد إلى الكلام عن أشياء أخرى فى المسرحية، ثم تطرق إلى مسرحية "دماء على أستار الكعبة"، التى حضر تمثيلها على خشبة المسرح بدعوة من مؤلفها فى أخريات حياته (انظر الفصل الأخير من كتاب سعيد أبو العينين: "الشعراوى والفنانات- أسرار لقاء الهداية وحجاب المليون دولار"/ سلسلة "كتاب اليوم"/ دار أخبار اليوم/ عدد نوفمبر ١٩٩٩/ ١٨٣ وما يليها. وهو عن فاطمة رشدى كله).

ولدن وقوفه أمام قول رب العزة لرسوله الكريم: "وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لمن اتبعك من المؤمنين" (الحِجْر/ ٨٨) يقول الشيخ إن هذه الصورة مأخوذة من "خَفْض جناح الطائر". "فالطائر يرفع جناحه عند الطيران، ولكن ما إنْ يلْمِس هذا الطائرُ فَرْخَه الصغيرَ حتى يخْفِض جناحه له ليضمه إليه. إذن فالطاقة التى كنتَ تُوجِّهها يا رسول الله إلى مَنْ لا يستحق عليك أنْ تُوجِّهها لِمَنْ يستحقها، فيكفيك أن تُبلِّغ الناس جميعًا برسالتك. ومَنْ يؤمن منهم هو مَنْ يستحق طاقةَ حنانِك ورحمتك. وخَفْضُ الجناح لِمَنْ آمن برسالتك لا يورِثه كِبْرًا عليك، بل يزيده أدبًا معك. وقد جاء فى الأثر: "إذا عَزَّ أخوك فَهُنْ". أى أنك إذا رأيتَ أخاك فى وضع يعِزّ عليك فَهُنْ له أنت. ومن قبل الإسلام قال الشاعر العربى:

صَفَحْنَا عَنْ بَنِى ذُهْلٍ	وقُلْنَا: القَوْمُ إخْوانُ
عَسَى الأيامُ أنْ يرْجِعْـ	ـنَ قَوْمًا كَالذِى كَانُوا
فَلَمَّا صَرَّح الشَّرُّ	فَأَمْسَى وَهْوَ عُرْيانُ
مَشَينَا مِشْيةَ الليثِ	غَدَا، والليثُ غَضْبَان
بِضَرْبٍ فِيهِ تَوْهِينٌ	وتَخْضِيعٌ وإقْرانُ

وَطَعْــــــنٍ كَفَــــــمِ الـــــــزِّقِّ   غَــــــدَا، والـــــــزِّقُّ مَــــــلآنُ

وَفِي الــــــشَّرِّ نَجَــــــاةٌ حِيــــــ   ــــــنَ لاَ يُنْجِيــــــكَ إِحــــــسَانُ

وبعــــضُ الحلــــمِ عِنْــــدَ الجَهــــ   ــــــلِ لِلذِّلــــــةِ إِذْعَــــــانُ"

وأولا صاحب هذا الشعر هو الفِنْد الزِّمَّانِيّ، وهو سيد بكر وقائدها وفارسها، ومات قبل الإسلام بنحو ثمانين عاما، وقد ناهز عمره المائة. و"الفِنْد" لقب أطلق عليه لأنه كان عظيم الخلقة كفند الجبل، أى القطعة منه.

وتعليقا على قول الشيخ عن عبارة "إذا عَزَّ أخوك فهُنْ" أنقل ما قرأته فى كتاب "الأمثال" لأبى عبيدة من "باب مياسرة الإخوان وترك الخلاف معهم" عن قصة هذا المثل: "قال الأصمعى وعِدَّةٌ من علمائها: من أمثالهم السائرة فى هذا قولهم: "إذا عز أخوك فهُنْ". قال أبو عبيد: معناه أنَّ مياسرتك صديقَك ليس لضَيمٍ ركبك به، فتدخلك الحمية منه، إنّما هو حسن خلق وتفضُّل. فإذا عاسَرَك فياسِرْهُ. وكان المفضَّل مع هذا يخبر بأصله. قال: المثل للهذيل بن هبيرة التغلبى، وكان سببه أنه أغار على بنى ضَبَّة فغَنِمَ وأقبل بالغنائم، فقال له أصحابه: اقسمها بيننا. فقال: إنى أخاف إن تشاغلتم بالاقتسام أن يدرككم الطلب. فأَبَوْا، فعندها قال الهذيل: "إذا عز أخوك فهُنْ". فذهبت مثلا، ونزل فقسم بينهم الغنائم".

ويرى السيوطى (فى "المزهر") أنه ينبغى نطق الفعل "هِنْ" بكسر الهاء، من "هان يهين" بمعنى "لان" لا من "هان يهون" بمعنى الذلة. قال: "وقلت: "إذا عزَّ أخوك فهُنْ"، والكلام "فَهِنْ"، وهو من "هان يهين" إذا لان. ومنه قيل: "هَيْنٌ لَيْنٌ" لأن "هُنْ" من "هانَ يهون"، و"هان يهون" من "الهوان"، والعربُ لا تأمرُ بذلك، ولا معنى هنا فصيح لو قلته. ومعنى "عزَّ" ليس من العِزَّة التى هى مَنَعَةٌ وقُدْرة، وإنما هى من قولك: "عزَّ الشيءُ" إذا اشتدَّ. ومعنى الكلام "إذا صعب أخوك واشتدَّ فَذِلّ له" من الذّل، ولا معنى للذُّلّ هٰهنا كما تقول: إذا صعُب أخوك فهِنْ له". ولست أرى بأسا فى ضم هاء

"هُنْ" حتى يلفت المثلُ الأسماعَ بغرابة الأمر بالهوان، فضلا عن أن الهوان مع الإخوان والأحباب فى الظروف الصعبة هو من حسن السياسة والكياسة".

وفى خواطره حول قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام مهددا قومه الوثنيين: "وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ" (الأنبياء/ ٥٧) يقول الشيخ: "بعدما حدث منهم من لجج وجدال بالباطل أقسم إبراهيم عليه السلام: "وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ" (الأنبياء/ ٥٧). وهل الأصنام تُكَاد؟ أم أن المراد: لأكيدنكم فى أصنامكم؟ فالأصنام، كمخلوق من مخلوقات الله، تُسبِّح لله، وتشكر إبراهيم على هذا العمل. وما أجمل ما قاله الشاعر فى هذا المعنى حين تكلَّم بلسان الأحجار فى غار حراء وغار ثور حيث كانت الحجارة تَغَارُ وتحسد حِرَاء لأن المصطفى صلى الله عليه وسلم كان يتعبَّد به قبل البَعْثة. فحِراء شاهدُ تعبُّدٍ لرسول الله يزهو بهذه الصحبة، فلما نزل رسول الله بغار ثور عند الهجرة فرح ثور لأنه صار فى منزلة حراء:

كَمْ حَسَدْنَا حِرَاءَ حِينَ تَرَى الـ ... ـرُّوحَ أمينًا يغذوك بالأَنْوارِ
فَحِرَاءٌ وثَوْرُ صَارَا سَوَاءً ... بِهِمَا تَشفَّعُ دولةِ الأحْجَارِ
عَبَدُونا ونحْنُ أَعْبَدُ للـ ... ـه مِنَ القَائِمِينَ بالأسْحَارِ
تَخِذُوا صَمْتَنَا علينَا دَليلًا ... فَغَدَوْنا لَهُمْ وقُودَ النَّارِ

(لأن الله قال: "وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ"- البقرة/ ٢٤)

قَدْ تَجَنَّوْا جَهْلًا كما قَدْ تَجَنَّوْ ... هُ عَلَى ابْنِ مَرْيمِ والحَوارِى
لِلْمُغَالِى جَزَاؤُهُ، والمغالَى ... فِيهِ تُنْجِيهِ رَحْمَةُ الغَفَّارِ

إذن فتحطيم الأصنام ليس كَيدًا للأصنام، بل لعُبَّادها الذين يعتقدون فيها أنها تضرُّ وتنفع، وكأن إبراهيم عليه السلام يقيم لهؤلاء الدليل على بطلان عبادة الأصنام، الدليل العملى الذى لا يدْفَع. وكأن إبراهيم يقول بلسان الحال: حين أُكسِّر الأصنام إنْ

كنتُ على باطل فليمنعُونى وليردّوا الفأْسَ من يدى، وإنْ كنتُ على حق تركونى وما أفعل".

وهذه الأبيات التى استشهد بها الشعراوى هى جزء من قصيدة له هو نفسه بعنوان "موكب الدعوة" تشتمل على عشرات الأبيات، وتبدأ بقوله:

أَرْيَحِيُّ السماحِ والإيثارِ   لَكِ إرثٌ ياطَيِّبَةَ الأنوارِ

وهى متاحة كاملة فى العدد ٢١٠ من مجلة "دعوة الحق" المغربية الشهرية. وقد كان الشيخ شاعرا وبدأ نظم الشعر صغيرا وهو طالب بالأزهر. وقرأت للدكتور إبراهيم بدران وزير الصحة الأسبق، وكان زميلا للشيخ فى مجلس الوزراء ويجلس بجواره، أن الشيخ كان يحفظ مائة ألف بيت من الشعر (انظر محمد زايد/ مذكرات إمام الدعاة/ ط٣/ دار الشروق/ القاهرة وبيروت/ ١٩٩٨/ ١٣٢). وهى مبالغة كبيرة، إلا أنها تشير إلى كثرة محفوظه الشعرى على أية حال.

ولدن تعرضه للآية ٦١ من سورة "النمل" يقول رحمه الله: "يقول سبحانه: "وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَينِ حَاجِزًا" (النمل/ ٦١). البحرين:، أى العَذْب والمالح لأن الماء منه العَذْب، ومنه المالح. ومن قدرته تعالى وحكمته أنْ يحجز بينهما، وإنْ كان الماء المالح هو مصدر الماء العَذْب. لذلك جعل الله تعالى مساحة السطح للماء ثلاثة أرباع الكرة الأرضية، وكلما اتسع سطح الماء اتسع البَخْر الذى يكوِّن السحاب، بحيث يسقط المطر الكافى لمعيشة أهل الأرض. وما أجملَ قول الشاعر المادح:

أُهْدِى لمجلسه الكريم، وإنَّما   أُهْدِى لَهُ مَا حُزْتُ مِنْ نَعْمائِهِ

كَالبَحْرِ يمْطِرُهُ السَّحابُ، ومَا   لَه فَضْلٌ عليه لأنَّه مِنْ مَائِهِ

ولكى تعلم فضل الله علينا فى إنزال المطر وتوفير الماء العَذْب انظر إلى التكلفة والمشقة التى تعانيها لتقطير عدة سنتميترات من الماء فى حين أنك لا تدرى بعملية التقطير الواسعة التى تسقى البلاد والعباد فى كل أنحاء الدنيا".

ويهمنى الوقوف أمام هذين البيتين لنعرف صاحبهما والسياق الذى نظمهما وألقاهما فيه. وناظمهما هو البديع الأسطرلابى، وقد ترجم له صلاح الدين الصفدى مثلا فى "الوافى بالوفيات". وهاك ما قاله: "هبة الله بن الحسين بن يوسف أبو القاسم البديع الأسطرلابى. كان وحيدَ عصره وفريدَ دهره فى معرفة الهيئة والهندسة وصنعة الآلات الفلكية كالأسطرلاب والكُرَة والرخامة والطرجهارة، ومعرفة الرصد وتجزئة أوقات الليل والنهار وساعاتها، وعمل طلاسِمَ للملوك والسلاطين، فأبدع فيها وأعجبتهم، وحصَّل بذلك أموالًا طائلة، وتُوُفِّى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، وله شعر رائق وأدبٌ غزير، واختار شعر ابن حجاج وبَوَّبَه مائةً وواحدا وأربعين بابًا، وقَفَّاه وسمَّاه: "دُرّة التاج من شعر ابن حجاج". وكان ظريفًا فى جميع حركاته، ومن شعره:

كُن فى زمانك مودودًا لو ... له شكاةٌ بكاه من يعاديهِ
ولا تكن مَقِتًا لو جُبَّ غاربُه ... لكان أكبر مسرورٍ مُصافِيهِ

ومنه:

ولما بدا خَطٌّ بخدّ معذِّبى ... كظُلْمةِ ليلٍ فى بياضِ نهارِ
تهتَّك سترى فى هواه، ولم أزل ... خليعَ عِذارٍ فى جديدِ عذارِ

ومنه:

قيل لى: قد عَشِقْتَه أمردَ الخد ... دِ، وقد قيل: إنه نكريشُ
قلتُ: فَرْخُ الطاؤوس أحسنُ ماكا ... ن إذا ما علا عليه الرِّيشُ

ومنه:

جُدِّر ثمّ التحى حبيبى ... فهاج فى عِشْقِه خُصُومى
وأرجفوا بالسلوّ عنّى ... وشنَّعوا عنده لشُومِى
وكيف أسلو، وقد رمانى ... خدّاه بالمُقعَد المقيمِ
وفَرْوَزَ الوَرْدَ بالغوالى ... ونَقَّط البدرَ بالنجومِ؟

ومنه:

لنـا صـاحب يهـوى محـل فنائـه ولا يهتـدى ضَـيفٌ محـلّ فنائـهِ

نزلـتُ عليـه مـرّةً، فأضـافنى ولكـن إلى الأَقْـصَين مـن بُعَدائـه

ومنه:

مـتيقِّظٌ، فـإذا استُـضِيـ ـفَ بـه يـصيرُ مـن النِّيـام

وتـراه فى عـدد الطَّغـا م إذا رأى مَـضْغ الطَّعـام

تبـدو مـصائبه العظـا مُ أوانَ تجريـد العِظـام

ومنه:

إن لى فى هـوى ذوى العُـذُر عُـذرا كُلَّـما أعـتَمَ المـلامُ تـبَلَّجْ

كـان قَـتْلِى وَرْدُ الخـدود، فقـد صـا ر بلائـى وَردٌ عليـه بَنَفـسَجْ

ومنه:

صَـبَّها صِرْفًـا، فلـما قابلَـتْ ضـوءَ الـسِّراج

ظَنَّهـا فى الكـأس نـارًا فطفاهـا بـالمِزاج

وإزاء قول الحق تبارك وتعالى عن النبى موسى: "إِذْ أَوْحَينَا إِلَى أُمِّكَ مَا يوحَى ❁ أَنِ اقْذِفِيهِ فِى التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيمِّ فَلْيلْقِهِ الْيمُّ بِالسَّاحِلِ يأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيتُ عَلَيكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَينِى" (طه/ ٣٨-٣٩) قال الشيخ ضمن ما قال: "فاجتمع لموسى محبة الزوجة، ومحبة البنت، وهما بالذات أصحاب الكلمة المسموعة لدى فرعون بحيث لا يرد لهما طلبًا. وفى انصياع فرعون لرغبة زوجته وابنته وضعفه أمامهما رغم ما يعلم من أمر الطفل دليلٌ على أن الزوجة والأولاد هما نقطة الضعف عند الرجل، ووسيلة السيطرة على شهامته وحزمه، والضغط على مراداته. لذلك يطمئننا الحق تبارك وتعالى على نفسه، فيقول سبحانه وتعالى: "مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا" (الجن/ ٣).

ذلك لأن الصاحبة غالبًا ما تستميل زوجها بوسيلة أو بأخرى، أما الولد فيدعو الأب إلى الجُبْن والخضوع. والحق، تبارك وتعالى، لا يوجد لديه مراكز قوى تضغط عليه فى أى شىء، فهو سبحانه مُنزَّه عن كل نقص. وحَكَوْا فى دعابات أبى نواس أن أحدهم وسَّطه ليشفع له عند الخليفة هارون الرشيد، فشفع له أبو نواس، لكن الخليفة لم يجِبْه إلى طلبه، وانتظر الرجل دون جدوى، ففكر فى وساطة أخرى، واستشفع بآخرَ عند زبيدة زوجة الرشيد، فلما كلَّمته أسرع إلى إجابة الرجل، وهنا غضب أبو نواس وعاتب صاحبه الرشيد، لكنه لم يهتم به، فقال له: اسمع إذن:

ليسَ الشَّفِيعُ الذى يأتِيكَ مُؤْتَزِرًا   مثْلَ الشَّفِيع الذى يأتِيكَ عُرْيانا"

والمقصود بالشفيع المؤتزر هو الرجل، أما الشفيع العريان فهو المرأة. يريد أن يقول إن الخليفة خضع لتأثير زوجته لما للمرأة على الرجل من سلطان الإثارة والشهوة. ولكن هل قائل هذا البيت هو أبو نواس فعلا؟ لا، بل ما كان لأبى نواس لدى الرشيد دالة، بل لم يكن من المقربين إليه. والقصة هى قصة الفرزدق وامرأته النَّوَار فى خصومة بينهما التجأ كل منهما فيها إلى ابن الزبير ليعْدِيه على خصمه. قال صاحب "الأغانى": "خطب النوارَ ابنةَ أعين المجاشعية رجلٌ من قومها، فجعلت أمرَها إلى الفرزدق، وكان ابنَ عمها دِنْيَةً، ليزوجها منه، فأشهد عليها بذلك وبأن أمرها إليه شهودًا عدولًا. فلما أشهدتْهم على نفسها قال لهم الفرزدق: فإنى أُشْهِدكم أنى قد تزوجتها. فمنعتْه النوارُ نفسَها وخرجتْ إلى الحجاز إلى عبد الله بن الزبير فاستجارت بامرأته بنت منظور بن زبان، وخرج الفرزدق فعاذ بابنه حمزة، وقال يمدحه:

يا حمزَ، هل لك فى ذى حاجةٍ   أنضاؤه بمكان غير ممطورِ؟
فأنت أولى قريش أن تكون لها   وأنت بين أبى بكر ومنظورِ

فجعل أمرُ النوار يقْوَى، وأمرُ الفرذدق يضْعُف، فقال الفرزدق فى ذلك:

أما بنوه فلم تنفع شفاعتُهم   وشُفِّعَتْ بنتُ منظور بن زبَّانا

ليس الشفيعُ الذى يأتيك مؤتزرًا   مثلَ الشفيع الذى يأتيك عريانا

فبلغ ابنَ الزبير شعرُه، ولقيه على باب المسجد وهو خارج منه فضغط حلقه حتى كاد يقتله، ثم خلاه وقال:

لقد أصبحتْ عِرْسُ الفرزدق   ولو رَضِيتْ رمحَ اسْتِهِ لاسْتَقَرَّتِ

ثم دخل إلى النوار فقال لها: إن شئتِ فرقتُ بينك وبينه ثم ضربت عنقه فلا يهجونا أبدًا. وإن شئتِ أمضيتُ نكاحه، فهو ابن عمك وأقرب الناس إليك. وكانت امرأةً صالحةً، فقالت: أوغير هذا؟ قال: لا. قالت: ما أحب أن يقْتَل، ولكنى أُمْضِى أمره، فلعل الله أن يجعل فى كرهى إياه خيرًا. فمضتْ إليه وخرجتْ معه إلى البصرة".

ولدن الآية التاسعة من سورة "القَصَص" وقول زوجة فرعون عن الرضيع موسى الذى التقطه آل فرعون من صندوق كان راقدا فيه يسير به موج النهر: "وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَينٍ لِى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يشْعُرُونَ" يقول الشيخ الجليل: "معنى "قُرَّةُ عَينٍ" (القصص/ ٩): مادة "قرَّ" تقول: "قَرَّ بالمكان" يعنى أقام وثبت به. ومنه "قرور" يعنى ثبات. وتأتى "قرَّ" بمعنى البرد الشديد. ومنه قول الشاعر:

أوْقِدْ فإنَّ الليلَ ليلٌ قُرُّ   والرِّيحُ يا غُلامُ رِيحٌ صِرُّ

إنْ جَلَبَتْ ضَيْفًا فأنتَ حُرُّ

إذن "قرة العين" إما بمعنى ثباتها وعدم حركتها، وثبات العين واستقرارها إما يكون ثباتا حسيا أو معنويا. والثبات المعنوى أنْ تستقر العين على منظر أو شىء بحيث تكتفى وتقنع به، ويغنيها عن التطلُّع لغيره. ومنه قولهم: "فلان ليس له تطلعات أخرى". يعنى: اكتفى بما عنده. ومنه ما قال تعالى مخاطبًا نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم: "وَلاَ تَمُدَّنَّ عَينَيكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ" (طه/ ١٣١). لذلك يسَمُّون الشىء الجميل الذى يجذب النظر، فلا ينظر إلى غيره: "قَيد النظر". يقول الشاعر:

سَـــــمَّرْتُ عَيِنِــــى فى القَمَـــــرْ فَنَـــالَ مِنِّـــى مـــن نَظَـــرْ
يــــا ليـــتَ لائمـــى عَـــذَرْ فحُـــسْنُه قَيـــدُ النَّظَـــرْ"

وقائل الشعر الأول هو حاتم الطائى. ولذلك الشعر قصة رواها، بين من رَوَوْها، ابن حمدون فى "التذكرة الحمدونية". قال: "الذين انتهى إليهم الجود فى الجاهلية حاتم بن عبد الله بن سعد الطائى، وهرم بن سنان المرى، وكعب بن مامة الإيادى. وضُرِب المثل بحاتم وكعب، وحاتم أشهرهما. فأما كعب فجاد بنفسه وآثر رفيقيه بالماء فى المفازة فمات عطشًا، وليس له خبر مشهور غيره. وأما حاتم فأخباره كثيرة، وآثاره فى الجود مشهورة. وكان إذا اشتد البرد وكَلِبَ الشتاء أمر غلامَه يسارًا، فأوقدَ نارًا فى يفَاعٍ من الأرض لينظر إليها مَنْ أضلَّه الطريق ليلًا فيصْمُد نحوها، فقال فى ذلك:

أَوْقِـــدْ، فـــإن الليـــلَ ليـــلٌ قُـــرُّ والـــريح، يـــا واقـــدُ، ريـــحٌ صِرُّ
عـــسى يـــرى نـــارَك مـــن يمـــرُّ إن جلبـــتْ ضـــيفًا فأنـــت حُـــرُّ

قالوا: ولم يكن حاتم يمسك شيئًا ما عدا فرسه وسلاحه، فإنه كان لا يجود به، ثم جاد بفرسه فى سنة

أزمة...". وفى رواية أخرى أن قائل هذا هو أبو التيار الراجز. أما البيتان الأخيران فلا أعرف لمن هما.

وفى خواطره حول قوله سبحانه عن قوم فرعون: "وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِى هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ" (القَصَص/ ٤٢) يقول شيخنا الشعراوى: "ويكون المعنى إذن "هُمْ مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ" (القصص/ ٤٢)، أى الذين تشوَّهَتْ وجوههم بعد نعومة الجلد ونضارته. وقد عبَّر القرآن عن هذا التشويه بصور مختلفة: يقول تعالى: "وَوُجُوهٌ يوْمَئِذٍ عَلَيهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ" (عبس/ ٤٠- ٤١). ويقول سبحانه: "يوْمَ تَبْيضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ" (آل عمران/ ١٠٦). ويقول: "وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يوْمِئِذٍ زُرْقًا" (طه/ ١٠٢). ومعلوم أن زُرْقة الجسم لا تأتى إلا نتيجة ضربات شديدة

وكدَمات تُحْدِث تفاعلات ضارة تحت الجلد، فتُسبِّب زُرْقته، وكذلك زُرْقة العين. ومن أمراض العيون المياه الزرقاء، وهى أخطر من البيضاء. لذلك يقول الشاعر:

وَلِلْبخيـــــلِ عَـــــلَى أَمْوالـــــه عِلَـــــلٌ   زُرْقُ العُيـــونِ عَليهـــا أَوْجُـــهٌ سُـــودُ

لأنـه حـريص عـلى أموالـه ولا يريـد إنفاقهـا. ويـسْتَخْدَم اللـون الأزرق للتبـشيع والتخويـف، وقـد كـانوا فى العـصور الوسـطى يطْلُـون وجـوه الجنـود بـاللون الأزرق لإخافـة الأعـداء وإرهـابهم، وتعـارف النـاس أنـه لَـوْن الـشيطان. لـذلك نقـول فى لغتنـا العامية: "العفاريت الزرق". ونقول فى الذم: "فلان نابُه أزرق".ويقول الشاعر:

أَيَقْتُلُنِـــــى والمَـــــشْرَفى مُـــــضَاجِعى   ومَـــسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأنْيـــابِ أغْـــوالِ؟

أمـا الـسواد فيقْـصَد بـه الوجـه المـشوّه المنفِّـر، وإلا فالـسواد لا يـذَمّ فى ذاتـه كلَـوْنٍ. وكثيرا ما نـرى صـاحب البشرة الـسوداء يشِعّ جاذبية وبشاشة بحيث لا تزهد فى النظر إليه. ومعلوم أن الحُسْن لا لونَ له. والله تعالى يهبُ الحُسْن والبشاشة ويشِعّهما فى جميع الصور. وقد ترى للون الأسود فى بعض الوجوه أَسْرًا وإشراقًا، وترى صاحب اللون الأبيض كالحًا لا حيوية فيه".

هذا ما قاله الشعراوى. وأما العبد لله فيقول: أما البيت الأول فقد نُسِب لكل من بشار بن برد وحماد عَجْرَد، وكلاهما من شعراء مخضرمى الدولتين: الأموية والعباسية. وهو واحد من مقطوعة صغيرة هذا نصها:

ظِــلُّ اليــسَارِ عَــلى العَبّــاسِ مَمْــدودُ   وَقَلبُـــهُ أَبَـــدًا بِالبُخْـــلِ معقـــودُ

إِنَّ الكَـــريمَ لَـــتَخْفى عَنــكَ عُـــسْرَتُهُ   حَتّـــى تَـــراهُ غَنِيـــا وَهْـــوَ مَجهـــودُ

وَلِلْبَخيـــلِ عَـــلى أَموالِـــهِ عِلَـــلٌ   زُرْقُ العُيـــونِ عَلَيهـــا أَوْجُـــهٌ ســـودُ

إِذا تَكَرَّهْـــتَ أَن تُعْطِـــى القَليـــلَ، وَلَمْ   تَقْـــدِرْ عَـــلى سَـــعَةٍ لَم يظْهَـــرِ الجـــودُ

أَوْرِقْ بِـــخَيرٍ تُرَجَّـــى لِلنَّـــوَالِ، فَـــما   تُرْجَـــى الـــثِّمارُ إِذا لَمْ يـــورِقِ العـــودُ

بُـــثَّ النَّـــوَالَ، وَلا تَمْنَعْـــكَ قِلَّتُـــهُ   فَكُـــلُّ مـــا سَـــدَّ فَقْـــرًا فَهْـــوَ مَحمـــودُ

وأما البيت الآخر فهو للمَلِك الضِّلّيل، الشاعر الجاهلى المشهور امرئ القيس، قاله استهزاء بمن هدده لتعرضه لامرأته. وهو من قصيدة مطلعها:

ألا عِمْ صباحًا أيها الطللُ البالى   وهل يَعِمَنْ من كان فى العُصُر

وفيها البيت الشهير فى عِلْم البيان بما فيه من تشبيه مركب:

كأن قلوبَ الطيرِ رَطْبًا ويابسًا   لدَى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البالى

وفى حديثه حول آية "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ" (العنكبوت/ ١٤) يقول الشيخ: "والطوفان: أن يزيد الماء عن الحاجة الرتيبة للناس، فبعد أنْ كان وسيلة حياة، ومنه كل شىء، يصبح وسيلة موت وهلاك. وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يلفت أنظارنا إلى المتقابلات فى الخَلْق حتى لا نظنَّ أن الخَلْق يسير برتابة، فسيدنا موسى عليه السلام ضرب البحر بالعصا فتجمَّد فيه الماء حتى صار كالجبل، وضرب بها الحجر فانبجس منه الماء. إنها طلاقة القدرة التى لا تعتمد على الأسباب، فالمسبِّب هو الله سبحانه يفعل ما يشاء. فليست الأشياء بأسبابها، إنما بمراد المسبِّب فيها. لذلك يقول أحمد شوقى فى قصيدة النيل:

مِنْ أى عَهْدٍ فى القُرَى تتدفقُ؟   وبأى كفٍّ فِى المدائن تُغْدِقُ؟

ومِنَ السماءِ نَزَلْتَ أم فُجِّرْتَ من   عُلْيا الجِنَان جداولا تترقرقُ؟

إلى أنْ يقول:

الماء تَسْكُبه، فيصبح عَسْجَدًا   والأرضُ تُغْرِقُها، فيحيا المُغْرَقُ"

وهى من روائع شوقى، وقد اختارت كوكب الشرق أم كلثوم طائفة من أبياتها فغنتها من تلحين رياض السنباطى.

وفى خواطره حول آية "إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا" (الآحزاب/ ٥٧) يتطرق الشيخ إلى مسألة غيرة الرجال

على النساء، فيقول: "ومسألة غَيرة الرجل على المرأة لها جذور فى تاريخنا وأدبنا العربى. ومن ذلك قول الشاعر:

أَهِيــمُ بِدَعْــدٍ مَــا حييــتُ، فــإن أَمُــتْ فــوَا أَسَــفَا! مَــنْ ذَا يهيــمُ بهَــا بَعْــدِى؟

فهو مشغول بها حتى بعد أنْ يموت، لكن يؤْخَذ عليه أنه شُغِل بمن يحل محله فى هيامه بمحبوبته. لذلك كان أبلغَ منه قَوْلُ الآخر:

أَهِيــمُ بدَعْــدٍ مَــا حَييــتُ، فــإن أَمُــتْ فَــلاَ صَــلَحَتْ دَعْــدٌ لــذِى خُلَّــةٍ بَعْــدِى

إذن فهذه الغيرة مراتب ودرجات. ويحدِّثنا التاريخ أن أحد الخلفاء العباسيين، أظنه الهادى، كان يحب جارية اسمها غادر، ولشدة حبه لها قالوا إنه تزوجها. وفى خلوة من خلوات الهيام والعِشْق قال لها: "عاهدينى (لأن صحته لم تكُنْ على ما يرام) إذا أنا مِتُّ أن لا تتزوجى بعدى. وفعلًا أعطتْه هذا العهد. فلما مات الهادى لم تلبث أن نَسِيتْ غادرُ عشقَها للهادى، ونسيتْ حُزْنَها عليه. وهذا من رحمة الله بنا أن كل شىء يبدأ صغيرًا ثم يكبر إلا المصائب، فإنها تبدأ كبيرة ثم تصغر. بعدها تزوجت غادر من أخى الهادى. وفى يوم من الأيام استيقظت فَزِعة صارخة حتى اجتمع عليها مَنْ فى القصر وسألوها: ماذا بك؟ قالت: جاءنى الهادى فى المنام وقال لى:

خَالَفْــتِ عَهْــدِى بَعْــدَمَا جَــاوَرْتُ سُــكَّانَ المقَــابرْ
ونكحْــتِ، غــادرةً، أخِــى صَــدَقَ الــذِى سَــمَّاكِ: غَــادِرْ
لا يهْنِــكِ الإلْــفُ الجديــدُ ولا عَــدَتْ عَنْــك الــدَّوائرْ
وَلَحِقْــتِ بــى مُنْــذُ الــصَّباح وصِرْتِ حَيــثُ ذهَبْــتُ صــائِر

وما كادت تنتهى من قولها حتى لفظت أنفاسها الأخيرة وماتت".

وقد وردت هذه القصة فى عدد من كتب التاريخ والأدب منها "تزيين الأسواق فى أخبار العشاق" لداود الأنطاكى، و"المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم" لابن الجوزى،

و "البداية والنهاية" لابن كثير، و "ثمرات الأوراق فى المحاضرات" لابن حجة الحموى، و "إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بنى العباس" للإتليدى، و "النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة" لابن تغرى بردى، و "نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن" للشروانى، "والمرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها" لعبد الله عفيفى.

وهذه رواية ابن الجوزى فى "المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم": "حكى جعفر بن قدامة قال: كان لموسى الهادى جارية يقال لها: غادر، وكانت من أحسن النساء وجهًا وغناءً، وكان يحبها حبا شديدا، فبينا هى تغنيه يومًا عرض له فكر وسهو تغير له لونه، فسأله من حضر عن ذلك، فقال: وقع فى فكرى أنى أموت، وأن أخى هارون يلى الخلافة ويتزوج جاريتى هذه. فقيل له: نعيذك بالله، ونقدّم الكل قبلك. فأمر بإحضار أخيه وعرَّفه بما خطر له، فأجابه بما يوجب زوال هذا الخاطر، فقال: لا أرضى حتى تحلف لى إنى متى مت لم تتزوجها. فأحلفه واستوفى عليه الأيمان من الحج راجلًا وطلاق نسائه وعتق المماليك وتسبيل ما يملكه، ثم نهض إليها فأحلفها بمثل ذلك. فما لبث إلا نحو شهر حتى توفى، وولى الرشيد فبعث يخطب الجارية، فقالت: كيف يمينى ويمينك؟ فقال: أُكَفِّر عن الكل وأحجّ راجلًا. فتزوجها وزاد فى شغفه بها على شغف أخيه حتى إنها كانت تضع رأسها على حجره وتنام ولا يتحرك حتى تنتبه. فبينا هى ذات يوم على ذلك انتبهت فزعة تبكى، فسألها عن ذلك، فقالت: رأيت أخاك الساعة وهو يقول:

أَخْلَفْتِ وعدى بعدما ... جاورتُ سكان المقابرْ

ونسيتِنى وحَنَثْتِ فى ... أيمانك الكُذُبِ الفواجرْ

ونكحتِ، غادرةً، أخى! ... صَدَقَ الذى سَمَّاكِ: غادرْ

أمسيت فى أهل البلا ... د، وعدت فى حور الغرائرْ

لا يهنك الألف الجديـ ... ـد ولا تَدُرْ عنك الدوائرْ

ولحقــــت بـــــى قبـــــل الــــصباح فــــصرتِ حيـــث غـــدوتُ صـــائرْ

والله يا أمير المؤمنين فكأنى لما سمعتُها كتبها قلبى، فما أُنْسِيتُ منها كلمة. فقال لها الرشيد: أضغاث أحلام. فقالت: كلا. ثم لم تزل تضطرب وترتعد حتى ماتت بين يديه".

٣- تحليلات بلاغية ونقدية

للشيخ الشعراوى رحمه الله لمحات بلاغية ونقدية يوردها فى تفسيره عفو الخاطر. ولا ينبغى أن ننسى أنّ تخصص الشيخ هو اللغة العربية، فمن الطبيعى أن تصدر عنه تلك الملاحظات حتى لو لم يقصدها قصدا. وكثير من ملاحظاتنا الصحيحة تصدر تلقائيا دون تخطيط أو تدبير، إذ نكون ممتلئين بها حتى لتفيض من نفسها من غير التنبه إلى ذلك: فهو مثلا فى النص التالى يستخلص من الآية الكريمة بعض الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التى كانت سائدة فى بلاد العرب فى ذلك الزمان، وهو ما يهتم به المنهج الاجتماعى فى النقد الأدبى، ثم النقد الثقافى حاليا. يعلق فضيلة الشيخ على قوله جل شأنه فى سورة "النحل": "وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢)" قائلا: "الحق تبارك وتعالى يضرب لنا فى هذه الآية مثلا توضيحيا للذين ينقضون العهد والأَيمان ولا يوفُون بها بهذه المرأة القرشية الحمقاء رَيطَة بنت عامر، وكانت تأمر جواريها بغَزْل الصوف من الصبح إلى الظهر، ثم تأمرهُنَّ بنقض ما غزلنه من الظهر حتى العصر. والمتأمل فى هذا المثل يجد فيه دروسًا متعددة:

أولًا ما الغزل؟ الغَزْل عملية كان يقوم بها النساء قديمًا، فكُنَّ يُحْضِرْن المادة التى تصلح للغزل مثل الصوف أو الوبر ومثل القطن الآن، وهذه الأشياء عبارة عن شعيرات دقيقة تختلف فى طولها من نوع لآخر يسمُّونها: التيلة، فيقولون: "هذه تيلة قصيرة" و"هذه طويلة". والغَزْل هو أن نُكوِّن من هذه الشعيرات خَيطًا طويلًا ممتدا وانسيابيا دون عُقَد فيه لكى يصلح للنسج بعد ذلك. وتتم هذه العملية بآلة بدائية تسمى: المغزل. تقوم المرأة بخلط هذه الشعيرات الدقيقة ثم بَرْمِها بالمغزل، ليخرج فى

النهاية خيطٌ طويلٌ مُنْسابٌ متناسق لا عُقَد فيه. والآية هنا ذكرتِ المرأةَ فى هذا العمل لأنه عمل خاص بالنساء فى هذا الوقت دون الرجال، فكانت المرأة تكنّ فى بيتها وتمارس مثل هذه الصناعات البسيطة التى تكوِّن منها أثاث بيتها من فَرْش وملابس وغيره.

وإلى الآن نرى المرأة التى تحافظ على كرامتها من زحمة الحياة ومُعْترك الاختلاط، نراها تقوم بمثل هذا العمل النسائى. وقد تطور المغزل الآن إلى ماكينة تريكو أو ماكينة خياطة مما ييسِّر للنساء هذه الأعمال، ويحفظهُنَّ فى بيوتهن، وينشر فى البيت جَوًّا من التعاون بين الأم وأولادها. وأمامنا مثلًا مشروع "الأسر المنتجة" حيث تشارك المرأة بجزء كبير فى رُقِى المجتمع. فلا مانع إذن من عمل المرأة إذا كان عملًا شريفًا يحفظ عليها كرامتها ويصُون حرمتها. فالقرآن ضرب لنا مثلًا بعمل المرأة الجاهلية، هذا العمل الذى يحتاج إلى جَهْد ووقت فى الغزل، ويحتاج إلى أكثر منه فى نَقْضه وفكِّه، فهذه عملية شاقة جدا، وربما أمرت الجوارى بفكِّ الغزل والنسيج أيضًا. ولذلك أطلقوا عليها: حمقاء قريش".

وقد وردت قصة هذه المرأة الحمقاء التى يضْرَب بها المثل فى الخُرْق ونقض ما اجتهد الإنسان نفسه فى فعله لتعود الأمور إلى نقطة الصفر من جديد فى كثير من الكتب القديمة. وهو ما يذكرنا ببينيلوب زوجة الملك الإغريقى أوديسيوس، الذى ذهب للحرب الطروادية ثم انقطعت أخباره، وانطلق ابنه تليماك يبحث عنه فى رحلة مشهورة فى عالم الأدب والأساطير، وانتهز كبار رجال الدولة غياب الملك وصاروا يترددون على القصر طامعا كل منهم فى أن تكون بينيلوب والعرش له، فكانت تخبرهم معتذرة أنها مشغولة بغزْل بعض القماش، وحين تفرغ منه سوف تنظر فى الأمر، لكنها كانت تأتى إلى ما غزلته أمام الناس نهارا، فتنقضه ليلا، وظلت تصنع هذا إلى أن رجع زوجها، وعاد الأمر إلى مجراه الطبيعى. ولكنْ هناك بطبيعة الحال فرق هائل بين نقض ونقض.

فالقصة العربية تتحدث عن حماقة ريطة بنت عامر، أما أسطورة بينيلوب فتشير إلى وفائها لزوجها ودهائها وحسن تخلصها من المأزق الذى أَلْفَتْ نفسها فيه.

وقد وردت قصة ريطة بنت عامر هذه فى طائفة كبيرة من الكتب القديمة، مثل "أخبار الحمقى والمغفلين" لابن الجوزى، و"أخبار الزَّجَّاجِىّ"، و"مجمع الأمثال" للميدانى، علاوة على كتب التفسير. وبعضهم يقول: ريطة بنت كعب، وبعضهم: ريطة بنت سعد.

وتحت عنوان "رَيْطَة الحمقاء" فى كتاب "أخبار الحمقى والمغفلين" يكتب ابن الجوزى ما يلى: "قال مقاتل بن سليمان: هى امرأة من قريش تسمى: ريطة بنت عمرو بن كعب. كانت إذا غزلت نقضته. قال ابن السائب: اسمها رايطة. وقال أبو بكر بن الأنبارى: اسمها ريطة بنت عمرو المرية، ولقبها الجعرا، وهى من أهل مكة، وكانت معروفة عند المخاطَبين، فعرفوها بصنعتها. ولم يكن لها نظير فى فعلها، وكانت متناهية الحمق: تغزل الغزل من القطن أو الصوف فتُحْكِمه، ثم تأمر خادمها بنقضه. قال بعضهم: كانت تغزل هى وجواريها، ثم تأمرهن أن ينقضن ما غزلن".

ويقف الشيخ الجليل أمام المثل الخاص بريطة الحمقاء مستخرجا منه جانبا من جوانب الحياة العربية القديمة كما يصنع النقاد فيما يسمونه بـ"القراءة الثقافية" للنصوص التى فى أيديهم، إذ يجتهدون فى استخلاص مظاهر الحضارة والثقافة فى المجتمع الذى يدور حوله النص من عادات وتقاليد ودين وأدب وصناعات وحِرَف وقيم ومبادئ ونظام سياسى... إلخ. وبطبيعة الحال لا يعنى هذا أن الشيخ كان واعيا بمايسمى بـ"النقد الثقافى" أو حتى سمع به أو بمصطلحه، بل كان رحمه الله يقول ذلك بفطرته ودون أى شىء من حذلقات النقاد الثقافيين بعدما غبر عليهم وعلى أمثالهم زمن طويل كانوا ينفّرون القراء من التعرض فى النقد لمضامين النص المختلفة، إلى أن تغير كلام النقاد الغربيين فتغير معهم "ببغاؤونا" ضِحَال العلم عديمو الثقة بالذات وبالهوية.

وقد استخلص الشيخ الشعراوى من قصة المثل الذى بأيدينا أن المرأة فى ذلك الوقت كانت تعمل لكسب رزقها، وأن الغَزْل كان بابا من أبواب الرزق تلجه المرأة بكل سهولة ويسر مع المحافظة على كرامتها والمراعاة لظروفها الرقيقة التى لا يناسبها التزاحم والتشاحن الخشن. فهى تؤدى مثل ذلك العمل فى بيتها دون أن تضطر إلى الخوض فيما لا تستطيعه من الصراع والتدافع والاحتكاك.

وقد قرأت لمحمد لطفى جمعة فى كتابه: "نظرات عصرية فى القرآن الكريم" أن قوله تعالى فى الآية التى معنا الآن: "وَلاَ تَكُونُوا كالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيمَانَكُمْ دَخَلا بَينَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِي أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ. إِنَّمَا يبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِ، وَلَيبَينَنَّ لَكُمْ يوْمَ ٱلْقِيامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ" هو إشارة إلى بينيلوب زوجة الملك الإغريقى أوديسيوس وما كانت تصنعه كى تذود عن نفسها كبار رجال الدولة الطامعين فى الزواج منها وفى تبوُّإ عرش المملكة كما سبق بيانه قبل قليل. ولا أظن هذا صحيحا، إذ نَقْضُ الغَزْل فى الآية رمز على الغدر والخيانة بينما فى حكاية بينيلوب هو رمز على الوفاء والصبر والعفة واحترام الزوج الغائب. ثم إن كتب التفسير تذكر صراحة أن تلك إشارة إلى امرأة خرقاء بمكة كانت تغزل صوفها ثم تعود فتنقض ما كانت غَزَلَتْه. فتصرُّفها هذا دليلُ الخُرْق والحماقة لا الوفاء والإخلاص. ثم أين الإغريق وأساطيرهم وملاحمهم من العرب وثقافتهم؟ إننا لم نعرف شيئا عن بينيلوب وأوديسيوس إلا فى العصر الحديث، أما علماؤنا القدامى فلم يكونوا على علم بشىء من هذا. ولا أذكر أننى قابلت أية إشارة إلى ذلك الموضوع على أى نحو من الأنحاء أو أى ذكر لأبطاله فى الكتب القديمة.

وهذه القراءة الثقافية للنص القرآنى تتبدَّى أيضا فى حديث الشيخ التالى عن قصة موسى مع المرأتين المَدْينيتَين اللتين قابلهما على ماء قومهما تسقيان غنم الأسرة بأنفسهما نظرا لكبر سن أبيهما والمعاناة التى كانتا تتحملانها فى هذا الأمر جراء الزحام الشديد

حول الماء مما عرضتْ له وصورتْه الآيات ٢٣ وما بعدها من سورة "القَصَص". قال الشيخ: "عَرَضَ القرآن الكريم هذه القصة فى إيجاز بليغ، ومع إيجازها فقد أوضحتْ مهمةَ المرأة فى مجتمعها، ودورَ الرجل بالنسبة للمرأة، والضرورةَ التى تُلجىء المرأة للخروج للعمل.

معنى "وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ" (القصص/ ٢٣) يعنى جاء عند الماء. ولا يقتضى الورود أن يكون شَرِب منه. والورود بهذا المعنى حَلَّ لنا الإشكال فى قوله تعالى: "وَإِنْ مِنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا" (مريم/ ٧١). فليس المعنى دخول النار ومباشرة حَرِّها، إنما ذاهبون إليها، ونراها جميعنا. إذن "وردْنا العَين" يعنى جئنا عندها ورأيناها، لكن الشرب منها شيء آخر. "وَجَدَ عَلَيهِ" (القصص/ ٢٣)، أى على الماء "أُمَّةً" (القصص/ ٢٣): جماعة "يسْقُونَ" (القصص/ ٢٣) أى مواشيهم "وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ" (القصص/ ٢٣) يعنى بعيدًا عن الماء "امْرَأَتَينِ تَذُودَانِ" (القصص/ ٢٣) أى تكفّان الغنم وتمنعانها من الشُّرْب لكثرة الزحام على الماء "قَالَ: مَا خَطْبُكُمَا؟" (القصص/ ٢٣)، أى ما شأنكما؟ وفى الاستفهام هنا معنى التعجُّب. يعنى: لماذا تمنعان الغنم أنْ تشربَ، وما أتيتُما إلا للسُّقْيا؟ "قَالَتَا: لاَ نَسْقِى حَتَّى يصْدِرَ الرِّعَآءُ، وَأَبُونَا شَيخٌ كَبِيرٌ" (القصص/ ٢٣). وقولها: "حَتَّى يصْدِرَ الرِّعَآءُ" (القصص/ ٢٣) يعنى ينصرفوا عن الماء. فـ"صَدَرَ" مقابل "وَرَدَ"، فالآتى للماء "وارد"، والمنصرف عنه "صادر". نقول: صدر يصْدُر، أى بذاته، وأصدر يصْدِر، أى غيرَه. فالمعنى: لا نَسْقِى حتى يسقى الناس وينصرفوا. و"الرِّعَآءُ" (القصص/ ٢٣): جمع "رَاعٍ". ثم تذكران العلَّة فى خروجها لِسَقْى الغنم ومباشرة عمل الرجال: "وَأَبُونَا شَيخٌ كَبِيرٌ" (القصص/ ٢٣)".

ويمضى الشيخ فى استنطاق النص القرآنى واستخلاص دلالاته الاجتماعية أو الثقافية فيقول عن آية "فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَى مِنْ خَيرٍ فَقِيرٌ" (القصص/ ٢٤): "معنا إذن فى هذه القصة أحكام ثلاثة: "لاَ نَسْقِى حَتَّى يصْدِرَ

الرِّعَآءُ" (القصص/ ٢٣) أعطَتْ حكمًا، و "وَأَبُونَا شَيخٌ كَبِيرٌ " (القصص/ ٢٣) أعطتْ حُكْمًا، و "فَسَقَى لَهُمَا" (القصص/ ٢٤) أعطت حكمًا ثالثًا. وهذه الأحكام الثلاثة تنظم للمجتمع المسلم مسألة عمل المرأة، وما يجب علينا حينما تُضْطَرّ المرأة للعمل: فمن الحكم الأول نعلم أن سَقْى الأنعام من عمل الرجال، ومن الحكم الثانى نعلم أن المرأة لا تخرج للعمل إلا للضرورة، ولا تؤدى مهمة الرجال إلا إذا عجز الرجل عن أداء هذه المهمة: "وَأَبُونَا شَيخٌ كَبِيرٌ" (القصص/ ٢٣). أما الحكم الثالث فيعلم المجتمع المسلم أو حتى الإنسانى إذا رأى المراة قد خرجت للعمل فلا بد أنه ليس لها رجل يقوم بهذه المهمة. فعليه أن يساعدها وأنْ ييسِّر لها مهمتها.

وأذكر أننى حينما سافرت إلى السعودية سنة ١٩٥٠ ركبتُ مع أحد الزملاء سيارته، وفى الطريق رأيته نزل من سيارته، وذهب إلى أحد المنازل، وكان أمامه طاولة من الخشب مُغطَّاة بقطعة من القماش، فأخذها ووضعها فى السيارة، ثم سِرْنا فسألتُه عما يفعل، فقال: من عاداتنا إذا رأيت مثل هذه الطاولة على باب البيت فهى تعنى أن صاحب البيت غير موجود، وأن ربة البيت قد أعدَّتْ العجين، وتريد مَنْ يخبزه. فإذا مَرَّ أحدنا أخذه فخبزه، ثم أعاد الطاولة إلى مكانها.

وفى قوله تعالى: "لاَ نَسْقِى حَتَّى يصْدِرَ الرِّعَآءُ" (القصص/ ٢٣) إشارة إلى أن المرأة، إذا اضْطُرَّتْ للخروج للعمل وتوفرْت لها هذه الضرورة، عليها أنْ تأخذَ الضرورة بقدرها فلا تختلط بالرجال، وأنْ تعزل نفسها عن مزاحمتهم والاحتكاك بهم. وليس معنى أن الضرورة أخرجتْ المرأة لتقوم بعمل الرجال أنها أصبحتْ مثلهم، فتبيح لنفسها الاختلاط بهم.

وقوله تعالى: "ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَى مِنْ خَيرٍ فَقِيرٌ" (القصص/ ٢٤)، فكان موسى عليه السلام طوال رحلته إلى مَدْين مسافرًا بلا زاد حتى أجهده الجوع، وأصابه الهزال حتى صار جِلْدًا على عظم، وأكل من بقل الأرض، وبعد

أن سقى للمرأتين تولَّى إلى ظلِّ شجرة ليستريح، وعندها لَهَج بهذا الدعاء: "رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيرٍ فَقِيرٌ" (القصص/ ٢٤)". لكنى مع هذا كله لا أستطيع أن أوافق الشيخ على ما وصف به موسى من أنه من شدة الجوع والمعاناة قد صار جلدا على عظم، فإن رجلا بهذا الشكل لا يمكنه المزاحمة على الماء والمدافعة لسقى مواشى الفتاتين. ثم من أخبره بأن موسى كان كذلك؟ الواقع أننا ينبغى أن نتريث فى تصديق مثل تلك الأخبار التى تقابلنا فى بعض الكتب، فما كل ما يكتبه الكاتبون صحيحا بالضرورة.

وبين الحين والآخر يقف الشيخ فى الآية أمام عبارة أو صورة محللا لها مثلما حدث مع قوله تعالى فى الآية ١١٣ من سورة "النحل" عن المشركين ومسارعتهم بتكذيب الرسول دون تفكير أو دراسة. ونص الآية هو "وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فأَخَذَهُم العَذَابُ وهُمْ ظَالِمُون". قال الشيخ: "وكان المفترض فيهم أن يستقبلوه بما علموا عنه من صفات الخير والكمال، وبما اشتهر به بينهم من الصدق والأمانة. ولكنهم، كما كفروا بالنعم المادية، كفروا أيضًا بالنعم القيمية متمثلة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقوله: "فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ" (النحل/ ١١٣): مَنِ الذى أخذهم؟ لم تقُلْ الآية: "أخذهم الله بالعذاب" بل "أخذهم العذاب" كأن العذابَ نفسه يشتاق لهم، وينقضُّ عليهم، ويسارع لأخذهم. ففى الآية تشخيص يوحِى بشدة عذابهم. كما قال تعالى فى آية أخرى: "يوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأَتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ" (ق/ ٣٠)". يشير الشيخ إلى ما فى الآية الأخيرة من تشخيص لجهنم، فهى تسمع وتفهم وتتكلم وتعبر عن مشاعرها. أى أنها لم تعد شيئا ماديا بل تلبستها الروح والحياة وصارت بشرا من البشر. لقد انقلبت من شيء إلى شخص. وهذا معنى التشخيص الذى ذكره الشيخ فى معرض حديثه عن قوله تعالى: "فأخذهم العذاب".

ويدخل فى التحليل البلاغى أيضا ما قاله رحمه الله عند تناوله للآية ١٢٦ من "النحل" حول تسمية القرآن لما نزل بالمسلمين من ظلم وعدوان: "عقابا" مثلما سُمِّىَ

ما يفعلونه من رد هذا الظلم والعدوان: "عقابا" رغم أن الأمرين مختلفان تمام الاختلاف. وهو ما يسمى فى البلاغة العربية، وتحديدا فى علم البديع، بـ"المشاكلة". أى التسوية فى التسمية بين أمرين متصاحبين رغم تناقضهما، وذلك تبعا لتشاكلهما الظاهرى. وتعريفها عند علماء البلاغة هو أن يذْكَر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبة ذلك الشيء. ونص الآية المذكورة، والخطاب فيها للمسلمين، هو "وإنْ عاقبتم فعاقِبوا بمثل ما عوقبتم به". يقول الشيخ: "وكلمة "مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ" (النحل/ ١٢٦): نلاحظ أن الردَّ على الاعتداء يسمَّى: "عقوبة"، لكن الاعتداء الأول لماذا نُسميه أيضًا: عقوبة؟ قالوا: لأن هذه طريقة فى التعبير تسمَّى: "المشاكلة"، أى جاءت الأفعال كلها على شاكلة واحدة. ومن ذلك قوله تعالى: "وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا" (الشورى/ ٤٠) لأن ردَّ السيئة لا يسمَّى: سيئة.

ولسائل فى هذه القضية أن يسأل: طالما أن الإسلام يسعى فى هذه المسألة إلى العفو فلماذا لم يقرِّره من البداية؟ وما فائدة الكلام عن العقوبة بالمثل؟ نقول: لأن المجتمع لا يكون سليم التكوين إلا إذا أَمِن كل إنسان فيه على نفسه وعِرْضه وماله... إلخ، وهذا الأمن لا يتأتَّى إلا بقوة تحفظه. كما أن للمجتمع توازنًا. هذا التوازن فى المجتمع لا يُحْفَظ إلا بقوة تضمن أداء الحقوق والواجبات، وتضمن أن تكون حركة الإنسان فى المجتمع دون ظلم له. كما أن للحق سبحانه حكمة سامية فى تشريع العقوبة على الجرائم. فهدف الشارع الحكيم أن يحُدَّ من الجريمة ويمنع حدوثها. فلو علم القاتل أنه سيقْتَل ما تجرّأ على جريمته. ففى تشريع العقوبة رحمة بالمجتمع وحفظ لسلامته وأَمْنه".

وهذا كلام جميل، إلا أن هناك موضعا من مواضع المشاكلة فى القرآن لم يتوقف الشيخ أمامه بوصفه مشاكلة، بل اكتفى بتحليله تحليلا شديد الإيجاز دون تصنيف رغم أن حاجته إلى تسليط الضوء عليه أشد وألح لأن المشاكلة فيه ليست بين اثنين من البشر

بل بين بعض البشر ورب البشر، وهو قوله تعالى فى سورة "الجاثية" مخاطبا المشركين، والكلام فيه عن اليوم الآخر: "وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٤)". يقول الشيخ: "الحق سبحانه لا ينسى. فالمعنى: نترككم فى العذاب مهمَلين ولا نلتفت إليكم بالرحمة كما يترك الناس الأمر فلا يخطر ببالهم لأنه لو خطر بباله ربما أخذته الرحمة بهم. ثم يبين الحق سبحانه علة هذا النسيان: "كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا" (الجاثية/ ٣٤). يعنى: ننساكم فى العذاب كما نسيتم هذا اليوم وكما تركتم العمل له". فقد شاكل الأسلوب القرآنى بين الله وعباده، فنسب النسيان إلى الطرفين رغم أن الله لا ينسى ولا يمكن بتاتا أن ينسى. وكما نرى فإن فضيلة الشيخ لم يهتم بتصنيف "نسيان الله" تحت بند "المشاكلة".

وعلى العكس من ذلك نجده قد استفاض وفرَّع واستطرد فى الحديث عن المشاكلة فى قول الحق تبارك وعلا فى "آل عمران": "وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)". وهذا نص كلامه بعد أن حذفتُ بعض فقراته الاستطرادية: "إن الأشياء التى يدركها العقل هى مسميات، ولها أسماء، وتكون أولا بالحس لأن الحس هو أول مصاحب للإنسان لإدراك الأشياء، وبعد ذلك تأتى المعانى عندما نكبر ونعرف الحقائق. إن البداية دائما تكون هى الأمور المُحَسَّة، ولذلك يقول الله عن المنهج الإيمانى: إنه طريق مستقيم. أى أننا نعرف الغاية والطريق الموصل إليها. وكلمة "الطريق المستقيم" من الأمور المحسة والتى يتعرف الناس عليها بالتطبيق لقواعد المنهج.

إن كلمة "مكر" مأخوذة من الشجر، فساعة أن ترى الشجرة التى لا تلتف أغصانها على بعضها فإن الإنسان يستطيع أن يحكم أن ورقة ما هى من فرع ما، ولكنْ هناك نوع من الأشجار تكون فروعه ملفوفة على بعضها بحيث لا يستطيع الإنسان أن يعرف أى ورقة من أى فرع هى. ومن هذا المعنى أخذنا كلمة "المكر". فالرجل الذى

يلف ويدور هو الذى يمكر. فالذى يلف على إنسان من أجل أن يستخلص منه حقيقة ما، والذى يحتال من أجل إبراز حقيقة، فإن كان ذلك بغير قصد الضرر نسميه: حيلة، وإن كان بقصد الضرر فهذا هو المكر السيئ. ولذلك فالحق يقول: "وَمَكْرَ السَّيىءِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيىءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ ينظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا" (فاطر/ ٤٣).

ومعنى ذلك أن هناك مكرًا غير سيئ. أى أن المكر الذى لا يقْصَد منه إيقاع الضرر بأحد فإننا نسميه: مكرَ خير. أما المكر الذى يقْصَد منه إيقاع الضرر فهو "المكر السيئ". ولنا أن نسأل: ما الذى يدفع إنسانا ما إلى المكر؟ إن الذى يمكر يدارى نواياه، فقد يظهر لك الحب بينما هو مبغض، ويريد أن يزين لك عملا ليمكر بك، فيحاول مثلا أن يصحبك إلى مكان بعيد غير مأهول بالناس ويريد أن يوقع بك أبلغ الضرر، وقد يكون القتل. إذن فمِنْ أُسُس المكر التبييت، والتبييت يحتاج إلى حنكة و خبرة لأن الذى يحاول التبييت قد يجد قبالته من يلتقط خبايا التبييت بالحدس والتخمين، وما دام المكر يحتاج إلى التبييت فإن ذلك علامة على الضعف فى البشر لأن القوى لا يمكر ولا يكيد، ولكن يواجه.

إن القوى لحظةَ أن يمسك بخصم ضعيف فمن الممكن أن يطلقه لأن القوى مطمئن إلى أن قوته تستطيع أن تؤذى هذا الضعيف. لكن الضعيف حين يملك قويا فإنه يعتبر الأمر فرصة لن تتكرر. ولذلك فالشاعر يقول:

وضعيفة، فإذا أصابت فرصةً قتلتْ. كذلك قدرة الضعفاءِ!

إن الضعيف هو الذى يمكر ويبيت. والذى يمكر قد يضع فى اعتباره أن خصمه أقوى منه حيلة وأرجح عقلا، وقد ينكل به كثيرا. لذلك يخفى الماكر أمر مكره أو تبييته. فإذا ما أراد خصوم المنهج الإيمانى أن يمكروا فعلى من يمكرون؟ إن الرسول لا يكون فى المعركة بمفرده، ولكن معه الله: "يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا

أَنْفُسَهُم وَمَا يشْعُرُونَ" (البقرة/ ٩). فالله يعلم ما يبيت أى إنسان. ولذلك فعندما يريد الله أن يبرز شيئا ويوجده فلن يستطيع أحد أن يواجه إرادة الله وأمره. إذن فمكر الله لا قِبَل لأحد بمواجهته: "وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيرُ الْمَاكِرِينَ" (آل عمران/ ٥٤).

وساعة تجد صفة تستبعد أن يوصَف بها الله فاعلم أنها جاءت للمشاكلة فقط، وليست من أسماء الله الحسنى. إن المؤمنين بإمكانهم أن يقولوا للكافرين: إنكم إن أردتم أن تبيتوا لنا فإن الله قادر على أن يقلب المكر عليكم. أما أسماء الله وصفاته فهى توقيفية نزل بها جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم. لكن إذا وُجِد فعل لله لا يصح أن نشتق نحن منه وصفا ونجعله اسما لله: "وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيرُ الْمَاكِرِينَ"، فليس من أسماء الله "مخادع أو ماكر". إياك أن تقول ذلك لأن أسماء الله وصفاته توقيفية، وجاء القول هنا بمكر الله كمقابل لفعل من البشر ليدلهم على أنهم لا يستطيعون أن يخدعوا الله ولا يستطيعون أن يمكروا بالله لأن الله إذا أراد أن يمكر بهم فهم لا يستطيعون مواجهة ذلك. إن الحق يقول: "وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيرُ الْمَاكِرِينَ".

إذن فهناك "مكر خير"، وذلك دليل على أن هناك من يصنع المكر ليؤدى إلى الخير... لقد مكر أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن الله مكر بهم: "وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ" (إبراهيم/ ٤٦). إن مكرهم، رغم عنفه وشدته والذى قد يؤدى إلى زوال الجبال، هذا المكر يبور عند مواجهته لمكر الله، الذى يحمى رسله وعباده الصالحين. لقد جاء مكر بنى إسرائيل وأنزل فيه الله قوله الحكيم: "وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيرُ الْمَاكِرِينَ" لأنهم أرادوا أن يتخلصوا من سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام، فقال الحق سبحانه: "إِذْ قَالَ اللَّهُ ياعِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَى وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا...".

وقبل أن أغادر هذا المثال أود أن أوضح أن الضعيفة التى متى وجدت فرصة قتلت ليست إنسانة كما قد يظن بعض القراء بل هى الخمر. والبيت لأبى تمام من مقدمة قصيدة له استطرد فيها إلى الحديث عن بنت الحان والعنب على النحو التالى:

قَدْكَ اتَّئِب. أَرْبَيْتَ فى الغُلَواءِ   كَم تَعْذِلونَ وَأَنْتُمُو سُجَرائى
لا تَسقِنى ماءَ المَلامِ، فَإِنَّنى   صَبٌّ قَدِ استَعذَبْتُ ماءَ بُكائى
وَمُعَرَّسٍ لِلغَيثِ تَخفِقُ بَينَهُ   راياتُ كُلِّ دُجُنَّةٍ وَطْفاءِ
نَشَرَتْ حَدائِقَهُ، فَصِرنَ مَآلِفًا   لِطَرائِفِ الأَنواءِ وَالأَنداءِ
فَسَقاهُ مِسْكَ الطَلِّ كافورُ الصَّبا   وَانْحَلَّ فيهِ خَيْطُ كُلِّ سَماءِ
عُنِى الرَبيعُ بِرَوْضِهِ، فَكَأَنَّما   أَهْدَى إِلَيهِ الوَشْىَ مِن صَنعاءِ
صَبَّحتُهُ بِسُلافَةٍ صَبَّحتُها   بِسُلافَةِ الخُلَطاءِ وَالنُدَماءِ
بِمُدامَةٍ تَغْدو المُنَى لِكُؤوسِها   خَوَلًا عَلى السَّرّاءِ وَالضَّرّاءِ
راحٌ إذا ما الراحُ كُنَّ مَطِيَّها   كانَت مَطايا الشوقِ فى الأَحشاءِ
عِنَبِيَّةٌ ذَهَبِيَّةٌ سَكَبَت لَها   ذَهَبَ المَعانى صاغَةُ الشُعَراءِ
أَكَلَ الزمانُ لِطُولِ مُكْثِ بَقائِها   ما كانَ خامَرَها مِنَ الأَقْذاءِ
صَعُبَت، وَراضَ المَزجُ سَيِّئَ خُلْقِها   فَتَعَلَّمَت مِن حُسْنِ خُلقِ الماءِ
خَرْقاءُ يلعَبُ بِالعُقولِ حَبابُها   كَتَلَعُّبِ الأَفعالِ بِالأَسماءِ
وَضَعيفَةٌ، فَإِذا أَصابَت فُرصَةً   قَتَلَتْ. كَذَلِكَ قُدْرَةُ الضُعَفاءِ!

ومن المواضع التى أصَّل الشيخُ فيها المكرَ هذا التأصيل اللغوى أيضا قوله فى تفسير الآية ٩٩ من "الأعراف": "والمكر أصله الالتفاف. وحين نذهب إلى حديقة أو غابة نجد الشجر ملتف الأغصان وكأنه مجدول بحيث لا تستطيع أن تنسب ورقة فى أعلى إلى غصن معين لأن الأغصان ملفوفة بعضها على بعض. وكذلك نرى هذا الالتفاف فى النباتات المتسلقة، ونجد أغصانها مجدولة كالحبل. إذن فالمكر مؤدَّاه أن

تلفّ المسائل فلا تجعلها واضحة. ولكى تتمكن من خصمك فأنت تبيت له أمرًا لا يفطن إليه". ومن تلك المواضع كذلك تفسيره للآية ٥٠ من سورة "النمل": "وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ"، إذ قال: "والمكْر مأخوذ من قولهم: شجرةٌ ممكورةٌ. وهذا فى الشجر رفيع السَّاق المتسلق حين تلتفُّ سيقانه وأغصانه بعضها على بعض، فلا تستطيع أن تُميِّزها من بعضها، فكُلٌّ منها ممكور فى الآخر مستتر فيه. وكذلك المكر أن تصنع شيئًا تداريه عن الخصم".

هذا ما قاله الشعراوى رحمه الله، وقد حاولت التوصل إلى مدى صحة ما قاله الشيخ عن أصل معنى "المكر" وعلاقته بالشجر الملتف الأغصان المتداخل الأوراق فى عدد من المعاجم الشهيرة فى القديم والحديث كـ"أساس البلاغة" للزمخشرى، و"المفردات" للراغب الأصفهانى، و"لسان العرب" لابن منظور، و"تاج العروس" للفيروزابادى، و"محيط المحيط"، و"المعجم الوسيط"، فلم أجده، اللّهم إلا النص التالى فى "المحيط فى اللغة" للصاحب بن عباد على قِصَره وعدم وضوح المراد منه تماما، إذ لا ندرى بالضبط هل سُمِّىَ نبات المكر: "مكْرا" لشبهه بمكْر البشر فى التوائه والتفافه أم العكس هو الصحيح. قال: "والمَكْرُ: ضَرْبٌ من النَّبات، الواحدة مَكْرَةٌ، وسُمِّيتْ بذلك لالْتِوائها ومُكُورِ أغْصَانِها. وضُرُوْبٌ من الشَّجَرِ تُسَمّى: المُكُورَ". وهذا إن كانت الكلمة هى "لالتوائها" لا "لارتوائها" كما فى المعاجم الأخرى.

وهناك موضع فى تفسير الشيخ عَدَّ ما فيه لونا من التعريض لا ينبغى أن يؤخَذ على ظاهره. جاء ذلك عند تناوله بالتحليل قوله تعالى فى سورة "القصص": "وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يلْقَى إِلَيكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (٨٦)". قال غفر الله له ولنا وألحقنا به على خير: "وفى بعض الآيات نجد فى ظاهرها قسوةً على رسول الله وشِدَّةً مثل "وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَينَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ" (الحاقة/ ٤٤- ٤٦).

وكل ما يكون فى القرآن من هذا القبيل لا يقْصَد به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. إنما الحق سبحانه يريد أن يعطى للأمة نموذجًا يلفت أنظارهم، وكأنه تعالى يقول لنا: "انتبهوا! فإذا كان الخطاب لرسول الله بهذه الطريقة فكيف يكون الخطاب لكم؟"، كأن يكون عندك خادم يعبث بالأشياء حوله، فتُوجِّه الكلام أنت إلى ولدك: "والله لو عبثتَ بشىء لأفعلنَّ بك كذا وكذا". فتوجِّه الزجر إلى الولد، وأنت تقصد الخادم على حَدِّ المثل القائل: "إياك أعنى، واسمعى يا جارة". لذلك يقول بعض العارفين:

مَا كان فى القرآن مِنْ نِذَارهْ
إلى النبىّ صَاحبِ البِشَارهْ
فكُنْ لبيبًا وافْهَم الإشَارهْ
إياكِ أعنى، واسْمعِى يا جَارهْ

يعنى: اسمعوا يا أمة محمد كيف أخاطبه وأُوجِّه إليه النذارة مع أنه البشير".

والحق لقد بدا لى كلام الشيخ لأول وهلة غاية فى الوجاهة رغم مخالفته لما كان استقر فى النفوس من أن هذا الأسلوب الشديد فى مخاطبة النبى عليه السلام أو فى الحديث عنه من أكبر الأدلة على صدقه صلى الله عليه وسلم، إذ لا يوجد إنسان يكشف أمر نفسه على هذا النحو ويشمت به أعداءه بإظهار حجمه الحقيقى عند الله، الذى أرسله، وأنه ليس إلا عبدا له سبحانه رغم اختيار الله له لتبليغ آخر رسالاته إلى البشر. لكنى سرعان ما تراجعت عن موافقتى للشيخ، إذ التعريض إنما يصلح فى الأمور العامة التى لا تخص النبى صلى الله عليه وسلم وحده ولم تحدث له فى الواقع.

أما العتاب هنا للرسول فعلى شىء لا يمكن أن يقع من غيره، إذ لم يكن هناك نبى سواه آنذاك يمكن أن يقال إنه قد يتقول على ربه ويضيف من عند نفسه أشياء للوحى لهذا السبب أو لذاك. كما أن المشركين قد اتهموه عليه السلام فعلا بأنه قد تقول القرآن

من لدنه هو، ولم يأته من لدن الله تعالى. ومن هنا فإنى لا أظن فى العتاب تعريضا، وإلا فتعريضٌ بمن؟ الواقع أنه لا يوجد فى الصورة أحد غيره صلى الله عليه وسلم مما يمكن أن ينطبق عليه الأمر. ومثله قوله تعالى: "عبس وتولى * أن جاءه الأعمى..."، إذ إنها حادثة تاريخية صحيحة بطلاها هما الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وابن أم مكتوم. ومن نفس الباب قوله عز شأنه حين شرع الرسول يستغفر لرأس النفاق والضلال ابن أبى سلول بعد موته رحمة منه صلى الله عليه وسلم بالضعف البشرى، لكن كان للسماء كلمة أخرى هى هذه الآية العنيفة: "استغفرْ لهم أو لا تستغفرْ لهم. إن تستغفرْ لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم". وهناك أيضا قوله تعالى: "ليس لك من الأمر شىءٌ أو يتوبَ عليهم أو يعذّبَهم، فإنهم ظالمون". فلا يمكن إذن الادعاء بأن الكلام تعريض يقوم على مخاطبة النبى، والمراد شخص آخر. إن ربنا جل وعلا يريد أن يقول لنا إن محمدا، وإن كان نبيه ورسوله وحبيبه وأفضل النبيين عنده، هو فى نهاية المطاف عبد له لا يصح أن يتجاوز حدوده. وهذا كلام يكْتَب بالإبَر على آماق البَصَر كما يقال فى أدبنا الشعبى. إن الإسلام لا يعرف القول ببنوته عليه الصلاة والسلام لرب العالمين ولا أنه سوف يجلس على يمينه جل وعلا ويشترك معه فى محاسبة الخلق. الإسلام دين عبقرى صادق لا يقول، ولا يصح ولا يمكن أن يقول، شيئا كهذا.

أما ما كان من الوحى شديدا وفى أمر ليس خاصا بالنبى عليه السلام ولم يحدث له فى الواقع فيُحْمَل على أن المراد بالحديث فيه أمته صلى الله عليه وسلم رغم أن الخطاب فى الظاهر موجه إليه فمنه قوله عز شأنه: "فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ" (يونس/ ٩٤). يقول الشيخ: "والخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم. ونحن نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال من البداية إنه لا يشك فى رسالته، وحين

وعده أهله بالسيادة قال: "والله لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته".

نقول: إن الحق سبحانه وتعالى يضمر خطاب الأمة فى خطاب رسوله صلى الله عليه وسلم لأن الأتباع حين يقرأون ويسمعون الخطاب وهو موجَّه بهذا الأسلوب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فهم لن يستنكفوا عن أى أمر يصدر إليهم. ومثال ذلك: لو أن قائدًا يصدر أمرًا لاثنين من مساعديه اللذين يقودان مجموعتين من المقاتلين، فيقول القائد الأعلى لكل منهما: إياك أن تفعل كذا أو تصنع كذا. والقائد الأعلى بتعليماته لا يقصد المساعدين له، ولكنه يقصد كل مرءوسيهم من الجند. وجاء الأمر هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لتفهم أمته أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما كان ليتأبَّى على أمر من أوامر الله، بل هو صلى الله عليه وسلم ينفّذ كل ما يؤْمَر به بدقة، وذلك من باب خطاب الأمة فى شخصية رسولها صلى الله عليه وسلم.

وقول الحق سبحانه: "فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ" (يونس/ ٩٤)، هذا القول دليل على أن الذين عندهم علم بالكتاب من السابقين على رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرفون الحقائق الواضحة عن رسالته صلى الله عليه وسلم، وأن الذين يكابرون ويكفرون برسول الله صلى الله عليه وسلم ورسالته إنما يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. وقد قال عبد الله بن سلام: "لقد عرفت محمدًا حين رأيته كمعرفتى لابنى. ومعرفتى لمحمد أشد". إذن فالحق عندهم واضح مكتوبٌ فى التوراة من بشارةٍ به صلى الله عليه وسلم. وهذا يثبت أنك يا محمد صادق فى دعوتك بشهادة هؤلاء".

ويتصل بهذا ما لاحظته خلال الخواطر الشعراوية من التفات الشيخ وتنبيهه إلى جماليات الكون بوصف ذلك قيمة إسلامية. فمثلا أمام قول الحق جل وعلا فى الآية ٦٠ من سورة "النمل" عن الغيث: "فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ" يقول الشيخ: "للماء فوائد

كثيرة فى حياتنا، بل هو قِوَام الحياة. لذلك اقتصرت الآيةُ على ذكْر الحدائق لأنها قوام حياة الإنسان فى الأكل والشرب. فإنْ قُلْتَ: "نحن نعتبر الآن الحدائق الجميلة من باب الكماليات، وليس بها مُقوِّمات حياتنا" نقول: نعم هى كذلك الآن، لكن فى الماضى كانوا يسمون كل أرض زراعية محوطة بسور: حديقة، أو حائط. وقال: "ذَاتَ بَهْجَةٍ" (النمل/ ٦٠) مع أنك لو نظرتَ إلى القمح مثلًا، وهو عَصَبُ القوت، لوجدته أقل جمالًا من الورد والياسمين والفُلّ مثلًا، وكأن ربك عز وجل يقول لك: لقد تكفلتُ لك بالكماليات وبالجماليات، فمن بابٍ أَوْلَى أُوَفِّر لك الضروريات. والحق تبارك وتعالى يريد أن يرتقى بِذَوْق عباده وبمشاعرهم. واقرأ مثلًا قوله تعالى: "انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ" (الأنعام/ ٩٩) يعنى: "قبل أن تأكل من هذه الثمار تأمل فى جمالها ومنظرها البديع"، وكأنها دعوة للرقى بالذوق العام والتأمل فى بديع صُنْع الله.

أَلاَ ترى أن الله تعالى أباح لك النظر إلى كل الثمار لتشاهد جمالها، ولم يبِحْ لك الأكل إلاّ مما تملك؟ لذلك قال: "انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ" (الأنعام/ ٩٩). فإنْ لم تكونوا تملكونه فكفاكم التمتُّع بالنظر إليه. ومن هذا الارتقاء الجمالى قوله تعالى بعد أنْ حدَّثنا عن الضروريات فى الأنعام: "وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ" (النحل/ ٦). وقال: "وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً" (النحل/ ٨). فأعطانا ربنا عز وجل ضروريات الحياة، وأعطانا كمالياتها وجمالياتها".

وتعليقى على هذا الكلام الجميل هو أن الذوق قد لا يهتم به المتدينون كثيرا، مع أن الإسلام يحرص على أن يكون المسلم رقيق المشاعر حساس اللغة متيقظا لكل ما هو جميل فى الكون. وكثيرة هى الآيات الكريمة التى تلفتنا إلى ما فى الكون من جمال كالحدائق والشمس والقمر والكواكب والنجوم والأنهار والبحار والسحاب والمطر والأشجار والنباتات. وكثيرة هى الأحاديث المشرَّفة التى تدعو المؤمن إلى توخى الطهارة والنظافة والإتقان وتسويك الأسنان والتعطر وتمشيط الشعر وحسن الهندام

والانتظام فى الصلاة وتسوية صفوفها وخفض الصوت وتجنب البذاءة وكل قبيح من قول أو عمل والرفق بالنساء، التى شبههن عليه الصلاة والسلام بالقوارير لرقتهن وضعف تكوينهن. بل لقد وصل الأمر أَنْ نَصَحَ الرسولُ المسلمين بإحسان اختيار الأسماء لأبنائهم حتى لا يتأذَّوْا فى كبرهم بها إذا كانت قبيحة أو ذات معنى مسىء. كما أنه عليه السلام وضع للمسلمين ما يمكن تسميته: "بروتوكولا" لتبادل التحية عند اللقاء، إذ على الصغير والراكب والماشى مثلا أن يكونوا هم البادئين بالسلام على الكبير والجالس والواقف... وهكذا. وأذكر أننى حين ألفت كتابى: "الحضارة الإسلامية" وخصصت فيه فصلا طويلا عن الذوق فى الإسلام تحدثت فيه أيضا عن الفنون التشكيلية والغناء والموسيقى كان هناك استغراب من بعض من قرأوه على اعتبار أنهم لم يتلقَّوْا الإسلام ممن رَبَّوْهم وعلموهم على هذا النحو، ومن ثم بدا ما كتبته فى هذا المجال غريبا.

٤- أمثلة واقعية ذات نكهة شعبية

ومن سمات تفسير الشيخ الشعراوى أيضا أنه كثيرا ما يورد خلال خواطره أمثلة أو حكايات أو ذكريات أو عبارات أو اعتقادات أو أحداثا أو حوارات من الواقع يطعم بها ما يقول ويكسبه نكهة شعبية ويقرب بها البعيد ويوضح الغامض، حاكيا إياها فى بساطة متناهية، وكأنه يستعيدها فى ذهنه بينه وبين نفسه ولا يكشفها للآخرين. فالرجل متواضع تلقائى لا ينسى أصوله الريفية ولا بيئته الشعبية ولا يرى فيما يورده من أمثلة ووقائع وذكريات ما ينال منه أدنى منال. وهذه السمة تضفى على تفسيره نكهة لا نجدها فى أى تفسير آخر. وكل من يعرفه يمدحه بخفة الظل وحب الدعابة وبراعته فى الكلام وقدرته فى الاستيلاء على القلوب فى أى مجلس يحل به.

وإلى القارئ بعض أمثلة من هذه الخصيصة التى تميز تفسيره: فعند كلامه عن "الصراط المستقيم" فى سورة "الفاتحة" والتحذير من الانحراف عنه نراه يقول: "ولا تحسب أن البعد عن الطريق المستقيم يبدأ باعوجاج كبير، بل باعوجاج صغير جدا، ولكنه ينتهى الى بُعْد كبير. ويكفى أن تراقب قضبان السكة الحديد عندما يبدأ القطار فى اتخاذ طريق غير الذى كان يسلكه، فهو لا ينحرف فى أول الأمر إلا بضعة ملليمترات. أى أن أول التحويلة ضيقٌ جدا، وكلما مشيتَ اتسع الفرق وازداد اتساعا بحيث عند النهاية تجد أن الطريق الذى مشيتَ فيه يبعد عن الطريق الأول عشرات الكيلو مترات، وربما مئات الكيلو مترات. إذن فأى انحراف مهما كان بسيطا يبعدك عن الطريق المستقيم بعدا كبيرا. ولذلك فإن الدعاء: "اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ" أى الطريق الذى ليس فيه اعوجاج ولو بضعة ملليمترات، الطريق الذى ليس فيه مخالفة تبعدنا عن طريق الله المستقيم.

وفى معنى التفضيل المذكور فى آية "تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ" (البقرة/ ٢٥٣) يعلق قائلا: "فلما كان قول الله: "وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ" يؤكد لنا أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين الرسل فلا تأخذ هذا الأمر على أساس أن كل الرسل متساوون فى المكانة وتقول إنهم متماثلون فى الفضل. لا! إن الله قد فضل بعضهم على بعض. وما هو التفضيل؟... إن التفضيل هو أن تؤثر وتعطى مزية ولكن لحكمة، وأما المحاباة فهى أن تؤثر وتعطى مزية، ولكن لهوًى فى نفسك. فمثلا هب أنك اشتريت قاربا بخاريا وركبته أنت وابنك الصغير، ومعك سائق القارب البخارى، وأراد ابنك الصغير أن يسوق القارب البخارى، وجلس مكان السائق وأخذ يسوق، ولكن جاءت أمواج عالية واضطرب البحر، فنهضتَ أنت مسرعا وأخذت الولد وأمرت السائق أن يتولى القيادة، وهنا قد يصرخ الولد، فهل هذه محاباة منك للسائق؟ لا. فلو كانت محاباة لكانت لابنك، لكنك أنت قد آثرت السائق لحكمة تعرفها، وهى أنه أعلم بالقيادة من الولد الصغير. إذن إذا نظرت إلى حيثية الإيثار وحيثية التمييز لحكمة فهذا هو التفضيل، ولكن فى المحاباة يكون الهوى هو الحاكم".

وفى خواطره عن نفس الآية السابقة يقول الشيخ: "وعندما يقول الحق: "اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِى وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ" (السجدة/ ٤) فهل جلوس الحق كجلوس الخلق؟ أو هل يكون كرسى الخالق ككرسى المخلوق؟ طبعا لا. ونحن المؤمنين نأخذ كل صفة عن الله فى نطاق التنزيه. سبحان الله، وليس كمثله شيء! فليس استواء الله مثل استواء البشر، وليس جلوس الحق مثل جلوس الإنسان. ونضرب هذا المثل، ولله

المثل الأعلى من قبل ومن بعد: هب أن صاحبًا لك دعاك لتأكل عنده، ثم دعاك أحد كبراء القوم لتأكل عنده. لا بد أنك تجد الطعام متفاوتا فى جودته وأصنافه بين كل مائدة من موائد من دَعَوْك. فإذا كان البشر أنفسهم تتفاوت بينهم الأمور الوصفية تبعًا لمقاماتهم وقدراتهم وإمكاناتهم فإذا ما ترقيت بالصفة إلى خالق كل الأشياء أيقنت أنه سبحانه مُنَزَّهٌ عن كل من سواه، وليس كمثله شيء...

ونحن نعرف أن القهر يُخْضِع القوالب، لكنه لا يخضع القلب. فأنت تستطيع أن تهدد إنسانًا بمسدس وتقول له: "اسجد لى"، فيسجد لك. لكنك لا تستطيع أن تقول له وهو تحت التهديد: "أَحِبَّنى". فالحق سبحانه وتعالى يترك لنا الإيمان بالاختيار، ويترك لنا الطاعة والمعصية اختيارًا، ليعلم من يأتيه حبًّا، ومن يأتيه قهرًا. والعالم كله يأتى لله قهرا. وأنت أيها الإنسان فى ذاتك أشياء أنت مقهور فيها. ومن هنا ثبتت لله تعالى القدرة، وبقى أن تثبت له الحب. والعبد الصالح هو الذى يطيعه عن حب. ونحن قد سبق لنا أن ضربنا مثلًا، ولله المثل الأعلى، وقلنا: إن إنسانا عنده خادمان: واحد اسمه سعد، والآخر اسمه سعيد. سعد قيده صاحبه بحبل ويجره قائلا: "يا سعد"، فهل لسعد ألا يجيء؟ لا. لكنّ صاحب العبدين ترك لسعيد الحرية، وعندما يناديه فهو يأتيه. إذن أيهما يحبه: الذى جاء بالحبل أم الذى جاء بالمحبة؟

وفى خواطره حول قوله جل شأنه: "اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُ الْقَيومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِى يشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يعْلَمُ مَا بَينَ أَيدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يحِيطُونَ بِشَىءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَأُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِى الْعَظِيمُ" (البقرة/ ٢٥٥) يستطرد إلى مفهوم استعمار الأرض ومعناه ولوازمه، فيقول: "لذلك عندما أرادوا أن يقْصِروا الإسلام فى العبادات الطَّقْسِية التى هى شهادة لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والصلاة، والصوم، والزكاة، والحج قالوا: هل هذا هو كل الإسلام؟ وقالوا: إنه دين يعتمد على

المظاهر فقط. قلنا لهم: لا. إن الإسلام هو كل حركة فى الحياة تناسب خلافة الإنسان فى الأرض لأن الله يقول فى كتابه الكريم: "هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا" (هود/ ٦١). "وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا"، أى طلب منكم أن تعمروها. فكل حركة فى الحياة تؤدى إلى عمار الأرض فهى من العبادة، فلا تأخذ العبادة على أنها صوم وصلاة فقط لأن الصوم والصلاة وغيرهما هى الأركان التى ستقوم عليها حركة الحياة التى سَيبْنَى عليها الإسلام. فلو جعلت الإسلام هو هذه الأركان فقط لجعلت الإسلام أساسا بدون مبنى. فهذه هى الأركان التى يبْنَى عليها الإسلام. فإذن الإسلام هو كل ما يناسب خلافة الإنسان فى الأرض. يبين ذلك ويؤكده قول الله تعالى: "هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا" (هود/ ٦١).

ويخرج إلينا أناس يقولون: نحن ليس لنا إلا أن نعبد ولا نعمل. ونقول لأى منهم: كم تأخذ الصلاة منك فى اليوم؟ ساعة مثلا. والزكاة كم تأخذ منك فى العام؟ يومًا واحدًا فى العام. والصوم كم يأخذ منك من وقت؟ نهار أيام شهر واحد. وفريضة الحج أتأخذ منك أكثر من رحلة واحدة فى عمرك؟ فبالله عليك ماذا تفعل فى الباقى من عمرك من بعد ذلك، وهو كثير؟... ستأكل وتلبس، ستطلب رغيف الخبز للطعام فمن الذى سيصنعه لك؟ إن هذا الرغيف يمر بمراحل حتى يصير لقمة تأكلها، ويحتاج إلى أكثر من علم وأكثر من حركة وأكثر من طاقة. إن المحل الذى يبيعه فقط ولا يخبزه يحتاج إلى واجهة من زجاج أو غيره، ولابد أن يعمل فيه من يذهب بعربته إلى المخبز ليحمل الخبز وينقله إلى المحل ويبيعه. وإذا نظرت إلى الفرن فسوف تجد مراحل عدة من تسليم وتسلم للدقيق، ثم إلى العجين، وإلى النار التى توقد بالمازوت، ويقوم بذلك عمال يحتاجون لمن يخطط لهم. وقبل ذلك كان الدقيق مجرد حبوب، وتم طحنها لتصير دقيقًا. وهناك مهندسون يديرون الماكينات التى تطحن، ويعملون على صيانتها. وبعد ذلك الأرض التى نبت فيها القمح وكيف تم حرثها وتهيئتها للزراعة وريها وتسميدها

وزرعها وحصدها، وكيف دُرِسَ القشر والسنابل، وكيف تتم تذريته من بعد ذلك لفصل الحبوب عن التبن، وتعبئة الحبوب إلى غير ذلك؟ انظر كم من الجهد أخذ رغيفُ الخبزِ الذى تأكله، وكم من الطاقات وكم رجال للعمل. فكيف تستسيغ لنفسك أن يصنعوه لك، وأنت فقط جالس لتصلى وتصوم؟ لا، إياك أن تأخذ عمل غيرك دون جهد منك.

وفى قوله تعالى شأنه: "يا أَيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَينَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيمْلِلِ الَّذِى عَلَيهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يبْخَسْ مِنْهُ شَيئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يسْتَطِيعُ أَنْ يمِلَّ هُوَ فَلْيمْلِلْ وَلِيهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَينِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يكُونَا رَجُلَينِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَينَكُمْ فَلَيسَ عَلَيكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايعْتُمْ وَلَا يضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىءٍ عَلِيمٌ" (البقرة/ ٢٨٢) يقول فضيلة الشيخ: "إنها أطول آية فى آيات القرآن. ويستهلها الله بقوله: "ياأَيهَا الَّذِينَ آمَنُوا". وهذا الاستهلال، كما نعرف، يوحى بأن ما يأتى بعد هذا الاستهلال من حكم يكون الإيمان هو حيثية ذلك الحكم. فما دمت قد آمنت بالله فأنت تطبق ما كلفك به لأن الله لم يكلف كافرا. فالإنسان، كما قلنا سابقًا، حر فى أن يقْبل على الإيمان بالله أو لا يقْبل. فإن أقبل الإنسان بالإيمان فليستقبل كل حكم من الله بالتزام. ونضرب هذا المثل، ولله المثل الأعلى: إن الإنسان حين يكون مريضا هو حر فى أن يذهب إلى الطبيب أو لا يذهب. ولكن حين يذهب الإنسان إلى الطبيب ويكتب له الدواء فالإنسان لا يسأل الطبيب، وهو مخلوق مثله: لماذا كتبتَ هذه

العقاقير؟ إن الطبيب يمكن أن يرد: إنك كنت حرا فى أن تأتى إلى أو لا تأتى، لكن ما دمت قد جئت إلىَّ فاسمع الكلام ونفذه. والطبيب لا يشرح التفاعلات والمعادلات. لا. إن الطبيب يشخص المرض، ويكتب الدواء، فما بالنا إذا أقبلنا على الخالق الأعلى بالإيمان؟ إننا ننفذ أوامره سبحانه. والله لا يأمر المؤمن إلا عن حكمة، وقد تتجلى للمؤمن بعد ذلك آثار الحكمة ويزداد المؤمن ثقة فى إيمانه بالله".

وخلال خواطره حول آية "تُولِجُ اللَّيلَ فِى النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيلِ وَتُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيتِ وَتُخْرِجُ الْمَيتَ مِنَ الْحَى وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيرِ حِسَابٍ" (آل عمران/ ٢٧) يقول الشيخ: "إن الحق يقول لنا: عندكم ظاهرة تختلف عليكم، وهى الليل والنهار، وظاهرة أخرى هى الحياة والموت. إن ظاهرة الليل والنهار كلنا نعرفها لأنها آية من الآيات العجيبة، والحق يقول عنها: "تُولِجُ اللَّيلَ فِى الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِى الْلَّيلِ". إن الحق لم يصنع النهار بكمية محدودة من الوقت متشابهة فى كل مرة. لا. إنه سبحانه شاء لليل أن ينقص أحيانا عن النهار خمس ساعات، وأحيانا يزيد النهار على الليل خمس ساعات.

ولنا أن نتساءل: هل تنقص الخمس الساعات من الليل أو النهار مرة واحدة، وفجأة؟ هل يفاجئنا النهار بعد أن يكون اثنتى عشرة ساعة ليصبح سبع عشرة ساعة؟ هل يكون الليل مفاجئًا لنا فى الطول أو القصر؟ لا. إن المسألة تأتى تباعا بالدورة بحيث لا تحس ذلك. إن هناك نوعا من الحركة اسمها الحركة التُّرْسِية. إننا عندما ننظر إلى الساعة هل ننظر إليها فى كل الزمن؟ لا. إن كل تُرْس له زمن يتوقف فيه، وعندما يتوقف فإننا ندفع به ليعيد دورته ويعمل. وإذا دققنا النظر فى عقرب الدقائق فإننا نستطيع أن نلحظ ذلك.

إذن هناك فترة توقف وسكون بين انتقال عقرب الدقائق من دقيقة إلى أخرى، وهذا اللون من الحركة نسميه: "حركة ترسية". وهناك حركة أخرى ثانية نسميها:

"حركة انسيابية" بحيث يكون كل جزء من الزمن له حركة. كما يحدث الأمر فى ظاهرة النمو بالنسبة للإنسان والنبات والحيوان. إن الطفل الوليد لا يكبر من الصباح إلى المساء بشكل جزئى أو محسوس. إنه يكبر بالفعل دون أن نلحظ ذلك، وقد يزيد بمقدار ملليمتر فى الطول، وهذا الملليمتر شائع فى كل ذرات الثوانى من النهار. إن الطفل لا يظل على وزنه وطوله أربعا وعشرين ساعة من النهار، ثم يكبر فجأة عند انتهاء اليوم. لا. إن نمو الطفل كل يوم يتم بطريقة تشيع فيها قدرة النمو فى كل ذرات الثوانى من النهار. وهذه العملية تحتاج إلى الدقة المتناهية فى توزيع جزيئات الحدث على جزيئات الزمان. وهذه هى العظمة للقدرة الخالقة التى يظل الإنسان عاجزا عنها إلى الأبد.

وقد قلت لكم مرة: إن الواحد منكم إن نظر إلى ابنه الوليد، وظل ناظرًا له طوال العمر، فلن يلحظ الإنسان منكم كبر ابنه على الإطلاق. لكن عندما يغيب الإنسان عن ابنه شهرا أو شهورا ثم يعود، هنا يرى فى ابنه مجموع نمو الشهور التى غاب فيها عنه وقد أصبح واضحا. ولو زرع الإنسان نباتا ما، وجلس ينظر إلى هذا النبات، فهو لن يرى أبدا نمو هذا النبات. لماذا؟ لأن الجزيئات تكبر دون قدرة على أن يلمس الإنسان طريقة نموها".

وحين تناول شيخنا الجليل الظريف قوله جل جلاله فى سورة "يوسف": "قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥)" انطلق يتحدث بأريحية عظيمة حتى لتهبّ من كلامه روائح الفلافل التى قرّحت معداتنا وأمعاءنا أيام التلمذة والفقر والبساطة المتناهية، وما زلت أحبها وأموت فيها حتى الآن، ومن ثم فإنى أشعر بالسرور البالغ وأنا أقرأ تعليق الشيخ هنا، وقد بلغ القمة فى البساطة والتواضع والتلقائية والشعبية. قال: "وهذا القول تأكيد لثقة يوسف أن القادم فى هذا البلد يحتاج لحكمة إدارة لا تبعثر ما سوف يأتى فى سنين الخصب لتضمن الاطمئنان فى سنين الشدة. وتلك مهمة تتطلب الحفظ والعلم. وقد تقدم ما يثبت أن هاتين الصفتين يتحلَّى

بهما يوسف عليه السلام. وقد يقول قائل: أليس فى قول يوسف شبهة طلب الولاية؟ والقاعدة تقول: إن طالب الولاية لا يوَلَّى. فيوسف عليه السلام لم يطلب ولاية، وإنما طلب الإصلاح ليتخذ من إصلاحه سبيلًا لدعوته وتحقيقًا لرسالته حيث أنه كان آمرًا فيستجاب، ولم يكن مأمورًا للإيجاب حيث إنه كان واثقًا بالإيمان، ومؤمنًا بوثوق. وقد تأتى ظروف لا تحتمل التجربة مع الناس، فمن يثق بنفسه أنه قادر على القيام بالمهمة فله أن يعرض نفسه. ومثال ذلك: لنفترض أن قومًا قد ركبوا سفينة، ثم هاجت الرياح وهبَّتْ العاصفة، وتعقَّدت الأمور وارتبك القبطان، وجاءه مَنْ يخبره أنه قادر على أن يحل له هذا الأمر، ويُحْسِن إدارة قيادة المركب، وسبق للقبطان أن علم عنه ذلك. هنا يجب على القبطان أن يسمح لهذا الخبير بقيادة السفينة، وبعد أن ينتهى الموقف على القبطان أن يوجِّه الشكر لهذا الخبير ويعود لقيادة السفينة. إذن فمن حقِّ الإنسان أن يطلب الولاية إذا تعين عليه ذلك بأن يرى أمرًا يتعرض له غير ذى خبرة يفْسِد هذا الأمر، وهو يعلم وَجْه الصلاح فيه. وهنا يكون التدخل فرض عين من أجل إنقاذ المجتمع...

وقالوا: إن يوسف طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض لوضع سياسة اقتصادية يواجهون بها سبع سنين من الجَدْب، وتلك مسألة تتطلب حكمة وحِفْظًا وعِلْمًا. وكان يوسف عليه السلام يأخذ من كل راغبٍ فى المِيرَة الأثمان من ذهب وفضة، ومَنْ لا يملك ذهبًا وفضة كان يُحْضِر الجواهر من الأحجار الكريمة أو يأتى بالدواب ليأخذ مقابلها طعامًا. ومَنْ لا يملك كان يُحْضِر بعضًا من أبنائه للاسترقاق. أى يقول رَبُّ الأسرة الفقيرة: خُذْ هذا الولد ليكون عبدًا لقاءَ أن آخذ طعامًا لبقية أفراد الأسرة. وكان يوسف عليه السلام يُحْسِن إدارة الأمر فى سنوات الجَدْب ليشُدّ كلُّ إنسانٍ الحزامَ على البطن، فلا يأكل الواحد فى سبعة أمعاء بل يأكل فى مِعًى واحدٍ كما يقول رسولنا صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف: "المؤمن يأكلَ فى مِعًى واحد، والكافر يأكل

فى سبعة أمعاء". وكان التموين فى سنوات الجَدْب يقتضى دِقَّة التخطيط، ولا يحتمل أى إسراف. وما دام لكل شيء ثمن يجب أن يدْفَع فكل إنسان سيأخذ على قَدْر ما معه. وبعد أن انتهت سنوات الجَدْب، وجاءت سنوات الرخاء، أعاد يوسف لكل إنسان ما أخذه منه. وحين سُئِل: ولماذا أخذتَ منهم ما دُمْتَ قد قررت أن تردَّ لهم ما أخذته؟ أجاب: كى يأخذ كل إنسان فى أقلّ الحدود التى تكفيه فى سنوات الجدب.

ومثل هذا يحدث عندنا حين نجد البعض وهو يشترى الخبز المُدَعَّم ليطْعِم به الماشية، وحين يرتفع ثمن الخبز نجد كل إنسان يشترى فى حدود ما معه من نقود، ويحرص على ألَّا يلْقِى مما اشترى شيئًا. وكانت قدرة الدولة أيام الجفاف محدودة. لذلك وجب على كل فرد أن يعمل لنفسه. ونحن نرى ذلك الأمر وهو يتكرر فى حياتنا: فحين لا يجد أحد ثمن اللحم فقد لا تهفو نفسه إلى اللحم، وقد يعلن فى كبرياء: "إن معدتى لم تَعُدْ تتحمل اللحم". وقد يعلن الفقير حُبَّه للسمك الصغير لأن لحمه طيب، عكس السمك الكبير الذى يكون لحمه "مُتَفِّلًا"، أو يعلن إعجابه بالفُجْل الطازج لأنه لذيذ الطعم. وقديمًا فى بدايات العمر كنا حين ندخل إلى المنزل، ونحن نعيش بعيدًا عن بيوت الأهل فى سنوات الدراسة، ولا نجد إلا قرصًا واحدًا من الطعمية، كنا نقسم هذا القرص ليكفى آخر لقمة فى الرغيف، أما إذا دخلنا ووجدنا خمسة أقراص من الطعمية، فكان الواحد منا يأكل نصف قرص من الطعمية مع لقمة واحدة. وهكذا يتحمل كل واحد على قَدْر حركته وقدرته".

ولدن قوله تعالى: "وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ" (يوسف/ ٥٦) نجد الشيخ يتحدث عن الأوضاع فى مصر أوانذلك وكأنه يتحدث عن أوضاع مصر المعاصرة، فيقول: "نفهم منه أنه جعل لنفسه بيتًا فى أكثر من مكان. ولا يظُنَّنَّ ظَانٌّ أن هذا لَوْنٌ من اتساع أماكن التَّرَف. لكن لماذا لا ننظر إليها بعيون تكشف حقيقة رجال الإدارة فى بعض البلاد؟ فما أنْ يعلموا بوجود بيت للحاكم فى منطقة ما،

وقد يزوره، فهم يعتنون بكل المنطقة التى يقع فيها هذا البيت. وهذا ما نراه فى حياتنا المعاصرة، فحين يزور الحاكم منطقة ما فَهُمْ يعِيدون رَصْف الشوارع، ويصلحون المرافق، وقد يحضِرون أُصَص الزرع ليجمّلوا المكان. فما بَالُك إنْ عَلِموا بوجود بيت للحاكم فى مكان ما؟ لا بُدَّ أنهم سَيوالُون العناية بكل التفاصيل المتعلقة بالمرافق فى هذا الموقع...

وتلك لقطة توضح أن التَّبَوُّء حيث يشاء ليس رحمةً به فقط، ولكنه رحمةٌ بالناس أيضًا. ولذلك يقول الحق سبحانه فى نفس الآية: "نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَشَآءُ" (يوسف/ ٥٦): فَمَنْ كان يحيا بلا مياه صالحة للشرب ستصله المياه النقية، ومَنْ كان يشقى من أجل أن يعيش فى مكان مُريح ستتحول المنطقة التى يسكن فيها إلى مكان مُريح به كل مُستلزمات العصر الذى يحيا فيه. فيوسف المُمَكَّن فى الأرض له مسكن مجاور له، وسيجد العناية من قِبَل الجهاز الإدارى حيثما ذهب، وتغمر العناية الجميع رحمةً من الله له وللناس من حوله".

وتبلغ خفة ظل الشيخ مبلغا عاليا لدن تعليقه على قوله جل شأنه: "فَتَحَسَّسُوا مِن يوسُفَ وَأَخِيهِ" (يوسف/ ٨٧) فى الربط بين تحسس أخبار يوسف المفقود منذ صغره وبين قولنا فى العامية: "شمشم لنا يا فلان على كذا". يقول: "يعنى "أَعْمِلوا حواسَّكم بكل ما فيها من طاقة كى تصلوا إلى الحقيقة". ونعلم أن كلمة "الجاسوس" قد أُطلِقَتْ على مَنْ يتَنَصَّت ويرى ويشُمُّ رائحة الأخبار والتحرُّكات عند معسكر الأعداء، ويقال له: "عين" أيضًا. وفى عُرْفنا العام نقول لمن يحترف التقاط الأخبار: شَمْشِمْ لنا على حكاية الأمر الفلانى".

وفى الآية ١١١ من سورة "يوسف" أيضا يقول: "ويضيف الحق سبحانه فى نفس الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها: "وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيءٍ" (يوسف/ ١١١). فالقرآن يصدِّق الكتب السابقة، ويفصِّل كل شىء، أى يعطى كل جزئية من الأمر حُكْمها فى

جزئية مناسبة لها. فهو ليس كلامًا مُجْملًا، بل يجرى تفصيل كل حُكْم بما يناسب أى أمر من أمور البشر. وفى أعرافنا اليومية نقول: "فلان قام بشراء بذلة تفصيل". أى أن مقاساتها مناسبة له تمامًا، ومُحْكمة عليه حين يرتديها".

وقال الشيخ فى موضع آخر: "وكلمة "الله" عَلَمٌ على واجب الوجود مَطْمورة فيه كُلُّ صفات الكمال. ولحظةَ أنْ تقول: "الله" كأنك قُلْتَ: "القادر الضار النافع السميع البصير المُعْطى" إلى آخر أسماء الله الحسنى. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "كُلُّ عمل لا يبدأ باسم الله هو أبتر" لأن كل عمل لا يبدأ باسمه سبحانه لا تستحضر فيه أنه سبحانه قد سَخَّر لك كُلَّ الأشياء، ولم تُسخِّرْ أنت الأشياء بقدرتك. ولذلك فالمؤمن هو مَنْ يدخل على أى عمل بحيثية "بسم الله الرحمن الرحيم" لأنه سبحانه هو الذى ذلَّلَ للإنسان كل شىء، ولو لم يذلِّلها لَمَا استجابتْ لك أيها الإنسان. وقد أوضح الحق سبحانه ذلك فى أمثلة بسيطة: فنجد الطفل الصغير يمسِك بحبل ويربطه فى عنق الجمل، ويأمره بأن "ينِخّ" ويركع على أربع، فيمتثل الجمل لذلك. ونجد البرغوث الصغير يجعل الإنسان ساهرًا الليل كُلَّه عندما يتسلل إلى ملابسه. ويبذل هذا الإنسان الجَهْدَ الجَهِيد لِيمسِك به، وقد يستطيع ذلك، وقد لا يستطيع".

وفى خواطره حول قوله جل شأنه: "وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ" (النحل/ ٧١) يقول: "ينظر الناس إلى الرزق من ناحية واحدة. فهو عندهم المال: فهذا غنى، وهذا فقير. والحقيقة أن الرزق ليس المال فقط، بل كُلّ شىء تنتفع به فهو رِزْقُك. فهذا رِزْقُه عقله، وهذا رِزْقُه قوته العضلية. هذا يفكر، وهذا يعمل. إذن يجب ألَّا ننظر إلى الرزق على أنه لَوْن واحد، بل ننظر إلى كل ما خلق الله لخَلْقه من مواهب مختلفة: صحة، قدرة، ذكاء، حِلْم، شجاعة. كل هذا من الرزق الذى يحدث فيه التفاضل بين الناس. والحق سبحانه وتعالى حينما تعرَّض لقضية الرزق جعل التفاضل هنا مُبْهَمًا، ولم

تحدد الآية مَنِ الفاضل ومَنِ المفضول. فكلمة "بَعْضٍ" مُبْهمة لنفهم منها أن كل بعض من الأبعاض فاضل فى ناحية، ومفضول فى ناحية أخرى. فالقوى فاضل على الضعيف بقوته، وهو أيضًا مفضول. فربما كان الضعيف فاضلًا بما لديه من علم أو حكمة... وهكذا.

إذن فكلٌّ واحد من خَلْق الله رَزَقه الله موهبة. هذه الموهبة لا تتكرر فى الناس حتى يتكامل الخَلْق ولا يتكررون. وإذا وجدت موهبة فى واحد، وكانت مفقودة فى الآخر، فالمصلحة تقتضى أن يرتبط الطرفان لا ارتباط تفضُّل، وإنما ارتباط حاجة. كيف؟ القوى يعمل للضعيف الذى لا قوةَ له يعمل بها، فهو إذن فاضل فى قوته، والضعيف فاضل بما يعطيه للقوى من مال وأجر يحتاجه القوى ليقُوتَ نفسه وعياله. فلم يشأ الحق سبحانه أنْ يجعلَ الأمر تفضُّلًا من أحدهما على الآخر، وإنما جعله تبادلًا مرتبطًا بالحاجة التى يستبقى بها الإنسان حياته. وهكذا يأتى هذا الأمر ضرورة، وليس تفضَّلًا من أحد على أحد لأن التفضُّل غير مُلْزَم به... وبذلك تندكُّ سِمَة الكبرياء فى الناس، فكلٌّ منهما يكَمِّل الآخر. وقد ضربنا لذلك مثلًا بالباشا الغنى صاحب العظمة والجاه والذى قد تُلْجِئه الظروف وتُحْوِجه لعامل بسيط يصلح له عُطْلًا فى مرافق بيته، وربما لم يجده أو وجده مشغولًا، فيظل هذا الباشا العظيم نَكِدًا مُؤَرَّقًا حتى يسْعِفه هذا العامل البسيط، ويقضى له ما يحتاج إليه. هكذا احتاج صاحب الغنى والجاه إلى إنسان ليس له من مواهب الحياة إلا أنْ يقضى مثل هذه المهام البسيطة فى المنزل. وهو فى نفس الوقت فاضل على الباشا فى هذا الشيء...

هذا العامل البسيط ماسح الأحذية ينظر إليه الناس على أنهم أفضل منه وأنه أقل منهم، ولو نظروا إلى علبة الورنيش التى يستخدمها لوجدوا كثيرين من العمال والعلماء والمهندسين والأغنياء يعملون له هذه العلبة، وهو فاضل عليهم جميعًا حينما يشترى علبة الورنيش هذه. لكن الناس لا ينظرون إلى تسخير كل هؤلاء لهذا العامل البسيط.

فقوله تعالى: "لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيا" (الزخرف/ ٣٢). مَنْ مِنّا يسَخّر الآخر؟ كُلٌّ منا مُسخَّر للآخر: أنت مُسخَّر لى فيما تتقنه، وأنا مُسخَّر لك فيما أتقنه... فليس فينا أَعْلى وأَدْنى، وإياك أنْ تظنَّ أنك أعلى من الناس. نحن سواسية، ولكن مِنَّا من يتقِن عمله، ومِنَّا مَنْ لا يتقن عمله. ولذلك قالوا: قيمة كل امرئ ما يُحْسِنه".

وفى كلام الشيخ عن قوله عز وجل: "أُدْعُ إلى سبيلِ ربِّك بالحكمةِ والموعظةِ الحَسَنَةِ" (النحل/ ١٢٥) يستطرد قائلا: "يقول أهل الخبرة فى الدعوة إلى الله: النصح ثقيل، فلا تُرْسِله جبلًا، ولا تجعله جدلًا. والحقائق مُرّة، فاستعيروا لها خِفّة البيان. وكان صلى الله عليه وسلم إذا سمع عن شيء لا يرضيه من ذنب أو فاحشة فى مجتمع الإيمان بالمدينة كان يصعد منبره الشريف ويقول: "ما بالُ أقوامٍ قالوا كذا وكذا؟"، ويكتفى بالتوجيه العام دون أنْ يجرحَ أحدًا من الناس على حَدِّ قولهم فى الأمثال: إياكِ أَعْنِى، واسمعى يا جارة. ومن ذلك ما كان يلجأ إليه العقلاء فى الريف حينما يتعرض أحدٌ للسرقة أو يضيع منه شيء ذو قيمة، فكانوا يعتلون عن فَقْد الشيء الذى ضاع أو سُرِق ويقولون: ليلة كذا بعد غياب القمر سوف نرمى التراب. ومعنى "نرمى التراب" أن يحضر كل منهم كمية من التراب يلقيها أمام بيت صاحب هذا الشيء المفقود، وفى الصباح يبحثون فى التراب حتى يعثروا على ما فُقِد منهم ويصلوا إلى ضالَّتهم دون أنْ يفتضحَ الأمر، ودون أن يُحْرَج أحد. وربما لو واجهوا السارق لأنكر وتعقدت المسألة".

وخلال خواطره عن قوله تعالى فى سورة "الأنبياء": "وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢)" يقول: "قال فى خَلْق السماء: "وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ" (الذاريات/ ٤٧). وفى آية أخرى قال سبحانه: "وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ" (الذاريات/ ٧). يعنى: محبوكة ومحكمة. والحبكة معناها أن ذراتها التى لا تُدْرَك ملتحمة مع بعضها، ليس التحامًا كليا، إنما التحام ذرات. لذلك ترى السماء ملساء. ولذلك قال عنها الخالق عز وجل: "رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا" (النازعات/ ٢٨). ولك أن تلاحظ صنعة البشر إذا

أراد أحدنا أنْ يبنى مثلًا أو يصنع سقفًا. فالبناء يَبْنَى بمنتهى الدقة، ومع ذلك ترى طوبة بارزة عن طوبة، فيأتى عامل المحارة فيحاول تسوية الجدار ويزنه بميزان الماء، ومع ذلك نجد فى الجدار تعاريج، ثم يأتى عامل الدهانات فيحاول إصلاح مثل هذه العيوب فيعد لها معجونًا ويكون له فى الحائط دور هام. وبعد أن يستنفد الإنسان كل وسائله فى إعداد بيته كما يحب تأتى بعد عدة أيام، فترى الحق سبحانه وتعالى يعَدِّل على الجميع، ويظهر لهم عيوب صنعتهم مهما بلغتْ من الدِّقة بقليل من الغبار ينزل عموديا فيرُيك بوضوح ما فى الحائط من عيوب.

وإذا كانت صنعة البشر تختلف باختلاف مهارة كل منهم وحذقه فى عمله فما بالك إنْ كان الصانع هو الله الذى يبنى ويسَوِّى ويزَين؟... وانظر إلى أمهر الصُّنّاع الآن يسَوِّى سقفًا لعدة حجرات، ويستخدم مادة واحدة ويلوِّنها بلون واحد، لا بُدَّ أن تجد اختلافًا من واحدة للأخرى. حتى إنْ خَلَطَ العاملُ اللونَ مرة واحدة لكل الحجرات يأتى اللون مختلفًا. لماذا؟ لأنه حين يأخذ من هذا الخليط تجد ما يتبقى أكثر تركيزًا. فإذا لم يكمل العمل فى نفس اليوم تجد ما تبقّى إلى الغد يفقد كمية من الماء تؤثر أيضًا فى درجة اللون".

ولدن تناوله للآية ٧٣ من سورة "الأنبياء": "وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَينَا إِلَيهِمْ فِعْلَ الْخَيرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ" يقول فيما قال: "وقوله تعالى: "وَأَوْحَينَآ إِلَيهِمْ فِعْلَ الْخَيرَاتِ" (الأنبياء/ ٧٣) أى يفتح لهم أبواب الخير وييسِّر لهم ظروفه لأن الموفَّق الذى يتوفر لديه الاستعداد للخير يفتح الله له مصارف الخير ويعِينه عليه... ومع ذلك نجد مَنْ يتشاغل عن الصلاة، ويعتذر بالعمل وعدم الوقت... إلخ. وكلها أعذار واهية، فكنتُ أقول لبعض هؤلاء: بالله عليك لو احتجتَ دورة المياه أتجد وقتًا أم لا؟ يقول: أجد الوقت. فلماذا إذن تحتال فى هذه المسألة وتدبر الوقت اللازم، ولا تحتال فى وقت الصلاة؟

وربك عز وجل لو علم منك أنك تُجيب نداءه لَسهَّل لك الإجابة. وقد رأينا الحق سبحانه يسَخِّر لك حتى الكافر ليعينك على أمر الصلاة. ففى إحدى سفرياتنا إلى بلجيكا رأينا أن أولاد المسلمين هناك لا يدرسون شيئًا من الدين الإسلامى فى المدارس، بل يدرِّسون لهم الدين المسيحى، فطلبنا مقابلة وزير المعارف عندهم، وتكلمنا معه فى هذا الأمر. وكانت حُجَّتنا أنكم قبلتُم وجود هؤلاء المسلمين فى بلادكم لحاجتكم إليهم وإسهامهم فى حركة حياتكم، ومن مصلحتكم أن يكون عند هؤلاء المسلمين دين يراقبهم قبل مراقبتكم أنتم، وأنتم أوّلُ المستفيدين من تدريس الدين الإسلامى لأولاد المسلمين. وفعلًا فى اليوم التالى أصدروا قرارًا بتدريس الدين الإسلامى فى مدارسهم لأولاد المسلمين".

وعند آية "لَا يسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ" (الأنبياء/ ١٠٢) يقول الشيخ: "وهذا يشوِّق أهل الخير والصلاح للجنة ونعيمها حتى نعمل لها ونُعِدّ العُدَّة لهذا النعيم. وسبق أن قلنا: إن الإنسان يتعب فى أول حياته، ويتعلم صنعة أو يأخذ شهادة لينتفع بها فيما بعد ويرتاح فى مستقبل حياته. وعلى قَدْر تعبك ومجهودك تكون راحتك، فكل ثمرة لا بُدَّ لها من حَرْث ومجهود. والله عز وجل لا يضِيع أجرَ مَنْ أحسن عملًا. وكنا نرى بعض الفلاحين يقضى يومه فى حقله مهملَ الثياب رثَّ الهيئة لا يشغله إلا العمل فى زرعه، وآخر تراه مُهنْدمًا نظيفًا يجلس على المقهى سعيدًا بهذه الراحة، وربما يتندر على صاحبه الذى يشْقِى نفسه فى العمل، حتى إذا ما جاء وقت الحصاد وجد العامل ثمرة تعبه، ولم يجد الكسول غير الحسرة والندم".

وتعليقا على قوله تعالى فى سورة "النمل": "أَمَّنْ يجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيكْشِفُ السُّوءَ وَيجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢)" يقول شيخنا المِفْضَال: "فالإنسان من طبيعته العجلة والتسرع، فلا بُدَّ للرب أن يتدخل فى أقدار عبده بما يصلحه وأنْ يختار له ما يناسبه لأنه سبحانه الأعلم بعواقب الأشياء وبوقتها

المناسب، ولكل شيء عنده تعالى موعد وميلاد. واقرأ قول الله تعالى: "وَلَوْ يعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِي إِلَيهِمْ أَجَلُهُمْ" (يونس/ ١١). أَلاَ ترى بعض الأمهات تحب الواحدة ولدها وتشفق عليه، فإنْ عصاها في شيء أو ضايقها تقول رافعةً يديها إلى السماء: "إلهي أشرب نارك" أو "إلهي أعمى ولا أشوفك"؟ فكيف لو أجاب الله هذه الحمقاء؟ إذن من رحمته تعالى بنا أنْ يختار لنا ما يصلِحنا من الدعاء، ويعافينا من الحمق والعجلة.

وقوله تعالى: "وَيكْشِفُ السُّوءَ" (النمل/ ٦٢)، فكما أنه لا يجيب المضطر إلا الله لا يكشف السوء إلا الله. ولو كان هناك إله آخر يجيب المضطر ويكشف السوء لتوجَّه الناسُ إليه بالدعاء، لكن حينما يصَاب المرء لا يقول إلا "يا رب"، ولا يجد غير الله يلجأ إليه لأنه لن يغشَّ نفسه في حال الضائقة أو المصيبة التي ألمت به. وقد مثَّلنا لذلك، ولله المثل الأعلى، بحلاق الصحة في الماضي، وكان يقوم بعمل الطبيب الآن، فلما أنشئت كلية الطب وتخرَّج فيها أحد أبناء القرية اتجهتْ الأنظار إليه، فكان الحلاق يذمُّ في الطب والأطباء وأنهم لا خبرةَ لديهم لتبقى له مكانته بين أهل القرية. لكن لما مرض ابن الحلاق ماذا فعل؟ إنْ غَشَّ الناس فلن يغُشَّ نفسه: أخذ الولد في ظلام الليل ولفّه في البطانية، وذهب به إلى الدكتور الجديد. لذلك يقول كل مضطر وكل مَنْ أصابه سوء: "يا رب يا رب". حتى غير المؤمن لا بُدَّ أن يقولها، ولا بُدَّ أنْ يتجه بعينه وقلبه إلى السماء إلى الإله الحق، فالوقت جِدٌّ لا مساومة فيه".

ويتذكر الشيخ خلال خواطره حول قوله سبحانه: "فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (العنكبوت/ ٢٦) حوارا دار بينه وبين أحد مشايخه في الأزهر فيقول: "وأذكر أن الشيخ موسى رحمه الله عليه، وكان يدَرِّس لنا التفسير، وجاءت قصة لوط عليه السلام، فقلت له: لماذا ننسب رذيلة قوم لوط إليه فنقول: "لُوطِي"، وما جاء لوط إلا ليحارب هذه الرذيلة ويقضي عليها؟ فقال الشيخ:

فماذا نقول عنها إذن؟ قلت: إن اللغة العربية واسعة الاشتقاق: فمثلًا عند النسب إلى عبد الأشهل قالوا: أشهلى، ولعبد العزيز قالوا: عبدزى، ولبختنصر قالوا: بختى، والآن نقول فى النسب إلى دار العلوم: دَرْعمى... إلخ. فلماذا لا نتبع هذه الطريقة فنأخذ القاف المفتوحة والواو الساكنة من قوم، ونأخذ الطاء من لوط، ثم ياء النسب فنقول "قَوْطى"، ونُجنِّب نبى الله لوطًا عليه السلام أن ننسب إليه ما لا يليق أن ينسب إليه؟ وقد حضرت احتفالًا لتكريم طه حسين، فكان مما قلته فى تكريمه: "لك فى العلم مبدأٌ طَحَسْنى" لأنه كثيرًا ما نجد بين العلماء اسم طه، واسم حسين".

وخلال تناوله قوله عز شأنه: "إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى" (العنكبوت/ ٢٦) يورد قصة وقعت له يوم كان موظفا فى الأزهر وتعسف معه هو وزملائه رئيسهم وأراد أن يوقع بهم عقابا قاسيا: "وأذكر أنه كان لهذه المسألة واقع فى تاريخنا، وكنا جماعة من سبعين رجلًا، وقد صدر منا أمر لا يناسب رئيسنا، فأصدر قرارًا بنقلنا جميعًا وشتَّتنا من أماكننا، فذهبنا عند التنفيذ نستعطفه عَلَّه يرجع فى قراره، لكنه صمم عليه، وقال: كيف أكون رئيسًا ولا أستطيع إنفاذ أمرى على المرؤوسين؟ فقال له أحدنا، وكان جريئًا: سنذهب إلى حيث شئتَ، لكن اعلموا أنكم لن تذهبوا بنا إلى مكان ليس فيه الله. وكانت هذه كلمة الحق التى هزَّتْ الرجل، وأعادت إليه صوابه، فالحقُّ له صَوْلة. وفعلًا سارت الأمور كما نريد، وتنازل الرئيس عن قراره".

وأثناء كلامه حول قوله جل شأنه: "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا" (الأحزاب/ ٤٩) يتذكر حكاية أخرى وحوارا دار بينه وبين بنات بعض المسلمين فى ألمانيا فيقول: "وأذكر حين سافرنا إلى الخارج كنا نُسْأَل: لماذا أبحتُم لأنفسكم أنْ تتزوجوا الكتابية، ولم تبيحوا لنا أن نتزوج المسلمة؟ وكان بعض الآباء يأتون ببناتهم اللائى وُلِدْن فى ألمانيا مثلًا، وكانت البنت تُحَاجُّ والدَها بهذه

المسألة: لماذا لا أتزوج ألمانيا كما تزوجْتَ أنت ألمانية؟ فكنا نرد على بناتنا هناك بأن المسلم له أن يتزوج كتابية لأنه يؤمن بكتابها، ويؤمن بنبيها، لكن كيف تتزوجين أنت من الكتابى، وهو لا يؤمن بكتابك ولا يؤمن بنبيك؟ إذن فالمسلم مُؤْتَمَن على الكتابية، وغير المسلم ليس مُؤتمنًا على المسلمة".

ولدن قوله سبحانه فى "الأحزاب": "يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣)" يعلق الشيخ بما يلى: "لذلك كثيرًا ما نسمع: "دَعوْتُ فلم يستجب لى"، خصوصًا السيدات. جاءتنى إحداهن تشتكى أنها توجهت إلى الله بالدعاء، ومع ذلك البنت لم تتزوج، والولد كذا، والزوج كذا. فكنت أقول لها: "كتر خيرك أولًا أنك عرفت أن لك ربا تفزعين إليه وقت الشدة كما قال سبحانه: "فَلَوْلا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا" (الأنعام/ ٤٣). إنما أسألكِ: هل أنتِ أجبتِ الله أولًا فيما طلبه منك كى تنتظرى منه أنْ يجيبك إلى ما طلبتِ؟ أأجبت الله فى شعرك هذا؟ أأجبتِ الله فى "شفايفك" وتغييرك لِخِلْقة الله؟ فكانت لا تجد جوابًا إلا أنْ تقول: والله أنا قلبى "صافى" ولا أوذى أحدًا... إلخ. إذن أخذتم على الله أنكم دعوتُم فلم يسْتَجِب لكم، ولم تأخذوا على أنفسكم أنه سبحانه دعاكم أولًا وناداكم فلم تستجيبوا لندائه. احرصوا أولًا على إجابة نداء الله، وثقوا أنه سبحانه سيجيبكم".

٥- الرد على افتراءات المستشرقين والمبشرين

ولا تقتصر خواطر الشعراوى على تفسير الكتاب الكريم، بل نراه بوجه عام، كلما واتته سانحة، يرد على من يسيئون إلى الإسلام، وإن لم يذكر أسماءهم مكتفيا بإيراد الإساءة والرد عليها. ومن ذلك قوله عن آية "قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (آل عمران/ ٣١) ومن يقترحون فى وقاحةٍ حَذْفَ الفعل: "قُلْ" منها ومن أمثالها: "ولنا أن نعرف أن كُلَّ "قُلْ" إنما جاءت فى القرآن كدليل على أن ما سيأتى من بعدها هو بلاغ من الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه: بلاغ للأمر وللمأمور به. إن البعض ممن فى قلوبهم زيغ يقولون: كان من الممكن أن يقول الرسول: "إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ". لهؤلاء نقول: لو فعل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك لكان قد أدى "المأمور به" ولم يؤد "الأمر" بتمامه. لماذا؟ لأن الأمر فى "قل"، والمأمور به: "إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ"، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم فى كل بلاغ عن الله بدأ بـ"قل" إنما يبلغ "الأمر" ويبلغ "المأمور به" مما يدل على أنه مبلِّغ عن الله فى كل ما بَلَغَه من الله. إن الذين يقولون: يجب أن تحذف "قل" من القرآن، وبدلا من أن نقول: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" فلننطقها: "الله أحد"، لهؤلاء نقول: إنكم تريدون أن يكون الرسول قد أدى "المأمور به" ولم يؤد "الأمر". إن الحق يقول: "قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ". هذه الآية تدل على ماذا؟ إنهم لا بد قد ادعوا أنهم يحبون الله، ولكنهم لم يتبعوا الله فيما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكأنهم جعلوا الحب لله شيئا، واتباع التكليف شيئا آخر. والله سبحانه وتعالى له على خلقه إيجاد وإمداد، وتلك نعمة. ولله على خلقه فضل التكليف لأن التكليف إن عاد على "المُكَلَّف"، ولم يعد منه شيء على "المُكَلِّف" فهذه نعمة من المكلِّف. إن الحق سبحانه لا يحتاج إلى أحد ولا من أحد. إن الحق سبحانه عندما كلفنا إنما يريد لنا أن نتبع

قانون صيانة حياة الإنسان. وقد ضربنا المثل، ولله المثل الاعلى، بالآلة المصنوعة بأيدى البشر. إن المهندس الذى صممها يضع لها قانون صيانة ما، ويضع قائمة تعليمات عن كيفية استعمالها، وهى تتلخص فى "افعل كذا" و"لا تفعل كذا"، ويختار لهذه الآلة مكانا محددا، وأسلوبا منظما للاستخدام".

وإلى جانب ما قاله الشيخ ردا على هذا الباطل الذى كان القذافى المجنون هو مُتَوَلِّى كِبْره لا بد أن نلتفت إلى الاعتبارات التالية: أن الرسول كان مأمورا أن يؤدى كل ما ينزل عليه ويسمعه من جبريل عليهما السلام ولم يكن له بأى حال أن يتصرف فى نصوص الوحى. فكان لا بد أن ينقل ما سمعه كما سمعه دون نقص أو زيادة أو تبديل أو اختصار أو شرح. لديه السنة النبوية يستطيع أن يتحرك خلالها على حريته فيشرح ويوضح ويفصل ويستخلص الأحكام ويبين وجهة نظره... إلخ. أما الوحى القرآنى فعليه تبليغه كما هو. ولو كان الأمر بالسخف الذى يتساخفه هؤلاء لحذف المسلمون كلمة "قل" من جميع مواضعها. لكن الوحى القرآنى شىء مقدس لا يمكن أن يفكر مسلم فى مس شىء منه، إذ ينحصر عمله فى تلاوته وحفظه واستخلاص الأحكام منه.

ثانيا: لو كان كلام هؤلاء المتنطعين صحيحا لما أوحى الله سبحانه لرسوله الآيات التالية الموضوع تحتها خط: "تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيا (٦٣) وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيا (٦٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيا (٦٥) وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيئًا (٦٧)" (مريم)، "وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَى الْقَيومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَنْ يعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يقْضَى إِلَيكَ وَحْيهُ

وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧)" (طه)، "وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠)" (الصافات)، "كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (١٥) لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١)" (القيامة). ذلك أن تلك الآيات هى جمل اعتراضية لا وشيجة بينها وبين النص التى وردت أثناءه كما هو واضح.

وثالثا: لو صح ما ذهب هؤلاء المتشدقون لما أمر الله رسوله بـ"قل" البتة فى القرآن ولأصدر أوامره ونواهيه مباشرة منه للمسلمين فى كل المواضع، فقال لهم: "افعلوا كذا، ولا تفعلوا كذا" دون الحاجة إلى كلمة "قل". فكونه اختص آيات بـ"قل" وأعفى آيات أخرى معناه أن هذه الكلمة جزء من الوحى. رابعا: لو كان الأمر على ما يقول الواهمون لما كانت هناك حاجة إلى تبليغ النصوص التى تعاتب النبى عليه السلام، فهى أمر خاص به صلى الله عليه وسلم، وكان يكفى أن يسمعها من جبريل ثم يعمل بما فيها، ودمتم، ولا لزوم لإدخال المسلمين والناس جميعا فى الأمر، فهو لا يهم أحدا منهم. وأخيرا لا آخرا، وهذا هو البند الخامس: لو كان الرسول قد أخطأ بذكر

كلمة "قل" فى الآيات المشار إليها لما سكت الوحى ولصحح له ما وقع فيه ونبهه إلى تجنب هذا فى المستقبل كما فى قوله عز وجل فى سورة "القيامة" حين لوحظ تحريك الرسول لسانه بما يسمعه من الوحى عن جبريل، إذ كان كلما سمع آية أسرع بترديدها وراءه فى الحال كيلا ينساها: "لا تحرِّك به لسانك لِتَعْجَلَ به. إن علينا جَمْعَه وقُرْآنَه...". ومن الجلىّ أنها لا صلة بينها وبين الموضوع الذى نزل به جبريل آنذاك.

وقد عاد الشيخ إلى هذا الموضوع عند تناوله قول الحق جل جلاله فى "آل عمران": "قُلْ يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨)"، إذ قال: "وحين تسمع "قل" فهى أمر من الله لرسوله كما قلنا من قبل. إنك إذا كلفت إنسانا أن يقول جملة لمن ترسله إليه فهل هذا الإنسان يأتى بالأمر: "قل" أو يؤدى الجملة؟ إنه يؤدى الجملة. ومثال ذلك حين تقول لابنك مثلا: "قل لعمك: إن أبى سيأتيك غدا"، فابنك يذهب إلى عمه قائلا: "أبى يأتيك غدا".

وقد يقول قائل: ألم يكن يكفى أن يقول الله للرسول: "قل يا محمد"، فيبلغنا رسول الله: "يا أهل الكتاب لم تكفرون"؟ كان ذلك يكفى، ولكن الرسول مبلغ الأمر نفسه من الله، فكأنه قال ما تلقاه من الله، والذى تلقاه الرسول من الله هو "قُلْ يا أَهْلَ الْكِتَابِ". وهذا يدل على أن الرسول يبلغ حرفيا ما سمعه عن الله. وهناك آيات كثيرة فى القرآن تبدأ بقول الحق: "يا أَهْلَ الْكِتَابِ" ولا يأتى فيها قول الحق: "قل"، وهناك آيات تأتى مسبوقة بـ"قل". ما الفرق بين الاثنين؟

نحن نجد أن الحق مرة يتلطف مع خلقه، فيجعلهم أهلا لخطابه، فيقول: "ياأَهْلَ الْكِتَاب". إنه خطاب من الله لهم مباشرة. ومرة يقول لرسوله: "قل لهم يا محمد" لأنهم لم يتسامَوْا إلى مرتبة أن يخاطَبوا من الله مباشرة: فإذا ما وجدنا خطابا من الحق للخلق مرة مسبوقا بـ"قل"، ومرة أخرى غير مسبوق، فلْتعلم أن الحق سبحانه حين يخاطب خلقه الذين خلقهم يتلطف معهم مرة، ويجعلهم أهلا لأن يخاطبهم، ومرة حين يجد

منهم اللجاج فإنه يبلغ رسول صلى الله عليه وسلم: قل لهم. والمثال على ذلك، ولله المثل الأعلى: فى حياتنا نجد الواحد منا يقول لمن بجانبه: قل لصاحب الصوت العالى أن يصمت. إن هذا القائل قد تَعَالَى عن أن يخاطب هذا الإنسان صاحب الصوت المرتفع فيطلب ممن يجلس بجانبه أن يأمر صاحب الصوت العالى بالسكوت".

لكن هل كان موقف اليهود أو النصارى متفاوتا من ظرف إلى آخر حتى يتفاوت أسلوب مخاطبة الله لهم ما بين "قل: يا أهل الكتاب" وبين "يا أهل الكتاب"مباشرة؟ فكيف؟ الواقع أنهم لم يكن أمامهم إلا أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا: فإن آمنوا لا يعودون أهل كتاب، وبالتالى لن يقال فى حقهم: "قل: يا أهل الكتاب" ولا "يا أهل الكتاب"، ببساطة لأنهم انتقلوا من خانة "أهل الكتاب" وصاروا مسلمين. وإن ظلوا على كفرهم بالإسلام فلن يكون لهم إلا أسلوب "قل: يا أهل الكتاب"، الذى يعنى أن المولى سبحانه لا يتلطف معهم.

كذلك فات الشيخ أيضا أن أسلوب "قل" كثيرا ما يستعمل فى كتاب الله للمؤمنين: "قُلْ لِعِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا يقِيمُوا الصَّلَاةَ وَينْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يأْتِىَ يوْمٌ لَا بَيعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ" (إبراهيم/ ٣١)، "قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيوبِهِنَّ وَلَا يبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ..." (النور/ ٣٠- ٣١)، "يا أَيهَا النَّبِى قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَينَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا" (الأحزاب/ ٢٨)، "يا أَيهَا النَّبِى قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يدْنِينَ عَلَيهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يعْرَفْنَ فَلَا يؤْذَينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا" (الأحزاب/ ٥٩)، "قُلْ يا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيرِ حِسَابٍ" (الزُّمَر/ ١٠)، "قُلْ

يا عِبَادِى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" (الزمر/ ٥٣)، "قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يرْجُونَ أَيامَ اللَّهِ لِيجْزِى قَوْمًا بِمَا كَانُوا يكْسِبُونَ" (الجاثية/ ١٤).

ولدن تعرضه بالتفسير لقوله تعالى فى "الأعراف": "إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يغْشِى اللَّيلَ النَّهَارَ يطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)" يقول الشيخ: "والله سبحانه وتعالى يعطينا خبر خلقه السموات والأرض. وأوضح سبحانه أن السموات سبع، وقد جاءت مجموعة. أما الأرض فجاء بها مفردة. لكنه جل وعلا قال فى آية أخرى: "اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ" (الطلاق/ ١٢). فكما خلق سبع سماوات خلق سبع أَرَضِين. ولماذا جاء بالسماء بالجمع، وترك لفظ الأرض مفردًا؟ لماذا لم يقل: سبع أرضين؟ لأن كلمة "أرضين" ثقيلة على اللسان، فتركها لثقلها، وأتى بالسماوات مجموعة لخفتها ويسر نطقها...

وسبحانه خالق السماء التى فوقنا، وهو جل وعلا خالق الأرضين. وأين هى هذه الأرضين؟ أهى أرضين مبعثرة؟ ولقد أثبت العلم أن كل مجرّة من المجرّات فيها مليون مجموعة شمسية، وكل مجموعة شمسية فيها أرض، إذن فهناك أراضٍ عديدة، ونلحظ أن الحق سبحانه حين يتكلم عن الأرض فكل مخاطب بالأرض التى هو فيها، ولذلك قال بعض العلماء: إن فى هذا العالم العالى توجد أراضٍ، وكل أرض أرسل لهم الحق رسولًا. والحق هو القائل: "وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يشَآءُ قَدِيرٌ" (الشورى/ ٢٩). ويعطينا العلم كل يوم مزيدًا من الاكتشافات. وهكذا تكون السماء هى كل ما علاك، والأرض كل ما أقلك. وما دامت سبع سموات، والسماء الأولى فراغ كبير وفضاء، وتأتى بعدها السماء الثانية تُظِلّ السماء

الأولى، وكل سماء فيها أرض وفيها سماء أخرى. ونحن غير مكلفين بهذا، نحن مكلفون بأن نعلم أن الأرض التى نحن عليها مخلوقة لله.

والحق يقول: "خَلَقَ السَمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيامٍ" (الأعراف/ ٥٤)... وتلك هى الآيات المحكمات فى القرآن بالنسبة لزمن الخلق: ستة أيام. ولكن آية التفصيل للخلق جاءت فى ظاهر الأمر أنها ثمانية أيام. اقرأ معى: "قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يوْمَينِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِى مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ وَهِى دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَينَا طَآئِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِى يوْمَينِ" (فصلت/ ٩-١٢). والظاهر من آية التفصيل أنها ثمانية أيام، أما آيات الإجمال فكلها تقول: إنها ستة أيام، ومن هذه النقطة دخل المستشرقون، وادَّعَوْا زورًا أن القرآن فيه اختلاف، وحاولوا أن يجعلوها ضجة عالية.

ونقول: إنه سبحانه خلق الأرض وما فيها فى أربعة أيام كاملة بلا زيادة ولا نقصان. فالمراد أن ذلك حصل وتم فى تتمة أربعة أيام، ويضم إليها خلق السماوات فى يومين فيكون عدد الأيام التى تم فيها خلق السماوات والأرض ستة أيام، أو نحمل المفصل على المجمل، فحين يقول الحق: "إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيامٍ" (الأعراف/ ٥٤)، فهل خَلْق الله يحتاج إلى علاج حتى يتطلب الزمن الممتد؟ إن ربنا يخلق بـ"كن"، ونحن البشر على حسب قدرتنا لنخلق شيئًا، وكل عملية نقوم بها تأخذ زمنًا، لكن من يخلق بكلمة "كن" فالأمر بالنسبة له هين جدا سبحانه وتعالى. لكن لماذا جاء الخلق فى ستة أيام؟ نعلم أن هناك فرقًا بين ميلاد الشيء وبين تهيئته للميلاد.

وكنا قد ضربنا المثل سابقا، ولله المثل الأعلى، بصانع الزبادى، الذى يأتى بأكواب اللبن الدافئ، ثم يضع فى كل منها جزءا من خميرة الزبادى، ويضع تلك

الأكواب فى الجو المناسب. فهل يؤدى هذا الرجل عملًا لمدة اثنتى عشرة ساعة فى كل كوب، وهى المدة اللازمة لتخمُّر الكوب؟ طبعًا لا، فقد اكتفى بأن فى كل كوب عناصر التخمر لتتفاعل بذاتها إلى أن تنضج. ولننظر إلى خلق الجنين من تزاوج بويضة وحيوان منوى. ويأخذ الأمر تسعة شهور، وسبحانه جل جلاله لا يعمل فى خلق الجنين تسعة شهور، لكنه يترك الأمر ليأخذ مراحل تفاعلاته. إذن فخلق الله السماوات والأرض فى ستة أيام لا يعنى أن الستة أيام كلها كانت مشغولة بالخلق، بل قال سبحانه: "كن"، وبعد ذلك ترك مكونات السموات والأرض لتأخذ قدرها ومراحلها لأن ميلادها سيكون بعد ستة أيام".

وأولا لقد لاحظتُ أن كلمة "أراضين" قد كتبت عدة مرات بألف بعد الراء، وهذا خطأ قد يكون مطبعيا، وقد يكون غير ذلك. وقد صححتها هنا لأنى أستبعد تماما أن يقع الشيخ فى مثل تلك الغلطة. كما لاحظت أنها تُكْتَب "أراضين" بالياء دائما حتى لو كانت مرفوعة. أى أن هاهنا خطأين. و"أرضون/ أرضين" هى جمع "أرض" كأنها جمع مذكر سالم، فهى ترفع بالواو والنون، وتنصب وتجر بالياء والنون. وهناك من يجمعها على "أراضٍ (فى حالة الرفع والجر)/ أراضِيَ (فى حالة النصب)/ الأراضِى (بكسر الضاد وإثبات الياء رفعا وجرا إذا دخلت عليها الألف واللام، وبفتح الياء فى حالة النصب)". وهناك من يخطِّئ هذا الجمع بحجة أن الأسماء التى على وزن "فَعْل" لا تجمع على وزن "فَعَالِى". ونسى هؤلاء أن جمع "أرض" على "أرضون/ أرضين" هو أيضا جمع شاذ لأن الأرض جماد، أى غير عاقل، فلا تجمع جمع مذكر سالما. كما وجدت الشيخ عبد الخالق عضيمة فى كتابه العظيم: "دراسات أسلوبية فى القرآن الكريم" قد ذكر أنها هى وجمع "أَهْل" على "أهالى" صواب لا خطأ فيه. ووجدت بعض كتابنا القدماء يستعملون هذا الجمع، ومنهم ياقوت الحموى كما لاحظت فى الفصل الخاص

به وبكتابه: "معجم البلدان" فى "ذخائر المكتبة العربية"، الذى ألفته فى الطائف فى بداية تسعينات القرن المنصرم.

ثانيا: يقول الشيخ رحمه الله إن الأرضين سبع مثلما أن السماوت سبع، وإن السبب فى أن الله لم يورد "أرض" مجموعة فى القرآن (على "أرضين") أن هذه الصيغة ثقيلة على اللسان. لكنه للأسف لم يوضح لنا معيار الثقل هنا. وأنا مثلا لا أراها كذلك. فهو إذن تعليل غير مقنع. ثم إنه ينسى بعد قليل فيقول إن كل مجرّة من المجرّات فيها مليون مجموعة شمسية، وكل مجموعة شمسية فيها أرض. ومعنى هذا بكل بساطة أن فى الكون ملايين الأرضين، بينما القرآن، والشيخ أيضا بالتبعية، يقول إن الأرضين سبعٌ لا غير. فكيف يزيل هذا التناقض؟ الحق أنه ما كان ينبغى لنا أن نتجاوز معارفنا شِبْه الصِّفْرِية فى علم الفلك حتى لا نسىء من حيث نحسب أننا نحسن صنعا.

ونأتى إلى موضوع الستة الأيام التى خلق الله فيها السماوات والأرض. ولست أرى أى تناقض بين النصين اللذين أوردهما فضيلته: فالأرض خلقت فى يومين. هذا صحيح. أما تشكيل رواسيها ومباركتها وتقدير أقواتها فى أربعة أيام فهذا لا يدخل فى خلق الأرض كما هو واضح، ولا علاقة له بحسبة الأيام الستة على الإطلاق، فالأرض كانت قد خلقت وانتهى الأمر. ثم يبقى اليومان اللذان قضى فيهما الله السماء سبع سماوات. وهما أيضا لا يدخلان فى حسبة الأيام الستة لأن السماء لم تخلق فيهما، إذ كانت السماء موجودة، وكل ما حدث أن الله سبحانه قد استوى إليها وأمرها هى والأرض أن تأتياه طوعا أو كرها. وهو ما يدل على أنها كانت كالأرض موجودة قبل ذلك. أى أن اليومين هما مسألة تنظيم ليس إلا. إذن فهذا النص لا يذكر من أيام الخلق الستة سوى يومى خلق الأرض فحسب.

وقد عاد الشيخ إلى معالجة هذا الموضوع كرة أخرى عند تناوله قول الحق فى الآية السابعة من سورة "هود": "وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيامٍ وَكَانَ

عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ"، فقال: "وقد تعرض القرآن الكريم لمسألة خلق الأرض والسماء أكثر من مرة. وقلنا من قبل: إن الحق سبحانه وتعالى قد شاء أن يخلق الأرض والسموات فى ستة أيام من أيام الدنيا، وكان من الممكن أن يخلقها فى أقل من طرفة عين بكلمة "كن"، وعرفنا أن هناك فارقًا بين إيجاد الشىء وطرح مكونات إيجاد الشىء. ومثال ذلك، ولله المثل الأعلى، حين يريد الإنسان صنع "الزبادى"، فهو يضع جزءًا من مادة الزبادى، وتسمى: "خميرة"، فى كمية مناسبة من اللبن الدافىء، وهذه العملية لا تستغرق من الإنسان إلا دقائق، ثم يترك اللبن المخلوط بخميرة الزبادى، وبعد مضى أربع وعشرين ساعة يتحول اللبن المخلوط بالخميرة إلى زبادى بالفعل.

وهذا يحدث بالنسبة لأفعال البشر، فهى أفعال تحتاج إلى علاج، ولكن أفعال الخالق سبحانه وتعالى لا علاج فيها لأنها كلها تأتى بكلمة "كن". أو كما قال بعض العلماء: إن الله شاء أن يجعل خلق الأرض والسموات فى ستة أيام. وقد أخذ بعض المستشرقين من هذه الآية ومن آيات أخرى مجالًا لمحاولة النيل من القرآن الكريم، وأن يدَّعوا أن فيه تعارضًا، فالحق سبحانه وتعالى هنا يقول: "وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيامٍ" (هود/ ٧). وجاءوا إلى آية التفصيل وجمعوا ما فيها من أيام، وقالوا: إنها ثمانية أيام، وهى قول الحق سبحانه: "قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِى مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ وَهِى دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِى يوْمَيْنِ" (فصلت/ ٩.١٢).

وهنا قال بعض المستشرقين: لو كانت هذه قصة الخلق للأرض والسموات لطابقت آية الإجمال آية التفصيل. وقال أحدهم: لنفرض أن عندى عشرة أرادب من القمح، وأعطيت فلانًا خمسة أرادب، وفلانًا ثلاثة أرادب، وفلانًا أعطيته إردبين، وبذلك ينْفَدُ ما عندى لأن التفصيل مطابق للإجمال. وادَّعى هذا البعض من المستشرقين أن التفصيل لا يتساوى مع الإجمال، ولم يفطنوا إلى أن المتكلم هو الله سبحانه وتعالى، وهو يكلم أناسًا لهم ملكة أداء وبيان وبلاغة وفصاحة. وقد فهم هؤلاء ما لم يفهمه المستشرقون. هم فهموا، كأهل فصاحة، أن الحق سبحانه وتعالى قد خلق الأرض فى يومين، ثم جعل فيها رواسى وبارك فيها، إما فى الأرض أو فى الجبال، وقدَّر فيها أقواتها، وكل ذلك تتمة للحديث عن الأرض. ومثال ذلك: حين أسافر إلى الإسكندرية فأنا أصل إلى مدينة طنطا فى ساعة مثلًا وإلى الإسكندرية فى ساعتين. أى أن ساعة السفر التى وصلت فيها إلى طنطا هى من ضمن ساعتى السفر إلى الإسكندرية. وكذلك خلق الأرض والرواسى وتقدير القوت، كل ذلك فى أربعة أيام متضمنة يوْمَىْ خَلْق الأرض، ثم جاء خلق السماء فى يومين".

وقبل أن أغادر هذه المسألة أضع بين يدى القارئ ما كتبه الشيخ عن عملية صنع تخلق الجنين براحته دون تدخل من الله على مدى الأشهر التسعة التى يبقاها فى رحم أمه. قال رحمه الله: "ولننظر إلى خلق الجنين من تزاوج بويضة وحيوان منوى. ويأخذ الأمر تسعة شهور، وسبحانه جل جلاله لا يعمل فى خلق الجنين تسعة شهور، لكنه يترك الأمر ليأخذ مراحل تفاعلاته. إذن فخلق الله السماوات والأرض فى ستة أيام لا يعنى أن الستة أيام كلها كانت مشغولة بالخلق، بل قال سبحانه: "كن"، وبعد ذلك ترك مكونات السموات والأرض لتأخذ قدرها ومراحلها لأن ميلادها سيكون بعد ستة أيام". وأسأل القارئ الكريم: هل ترى فرقا جوهريا بين ما قاله الشيخ هنا وما قاله

المفكرون القائلين بأن الله بعد أن أتم خلق العالم وبث فيه قوانينه قد ترك العالم يصرف أموره بنفسه دون تدخل منه؟

وفى خواطر الشيخ حول آية "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" (الحِجْر/ ٩) يقول ردا على من يحاولون التشكيكَ فى صحة النص القرآنى أو العبثَ به: "لم يشَأ الحق سبحانه أن يترك مهمة حفظ القرآن كتكليف منه للبشر لأن التكليف عُرْضة أن يطاع وعُرْضة أنْ يعْصَى، فضلًا عن أن القرآن يتميز عن الكتب السابقة فى أنه يحمل المنهج، وهو المعجزة الدالة على صِدْق بلاغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفس الوقت. ولذلك قال الحق سبحانه: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" (الحجر/ ٩). والذِّكْر إذا أُطلِق انصرف المعنى إلى القرآن، وهو الكتاب الذى يحمل المنهج. وسبحانه قد شاء حِفْظَه لأنه المعجزة الدائمة الدالة على صدق بلاغ رسوله صلى الله عليه وسلم. وكان الصحابة يكتبون القرآن فَوْرَ أن ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ووجدنا فى عصرنا من هم غير مؤمنين بالقرآن، ولكنهم يتفنّنون فى وسائل حفْظه: فهناك مَنْ طبع المصحف فى صفحة واحدة، وسخَّر لذلك مواهب أُناسٍ غير مؤمنين بالقرآن. وحدث مثل ذلك حين تَمّ تسجيل المصحف بوسائل التسجيل المعاصرة. وفى ألمانيا، على سبيل المثال، توجد مكتبة يتم حِفْظ كل ما يتعلق بكل آية من القرآن فى مكان مُعين مُحدّد. وفى بلادنا المسلمة نجد مَنْ ينقطع لحفظ القرآن منذ الطفولة، وينهى حِفْظَه وعمره سبع سنوات. وإنْ سألته عن معنى كلمة يقرؤها فقد لا يعرف هذا المعنى. ومن أسرار عظمة القرآن أن البعض مِمَّنْ يحفظونه لا يملكون أية ثقافة. ولو وقف الواحد من هؤلاء عند كلمة فهو لا يستطيع أن يستكملها بكلمةٍ ذات معنى مُقَارب لها إلى أنْ يردّه حافظٌ آخر للقرآن.

ولكى نعرف دِقّة حِفْظ الحق سبحانه لكتابه الكريم نجد أن البعض قد حاول أن يدخِل على القرآن ما ليس فيه، وحاول تحريفه من مدخلٍ يروْنَ أنه قريب من قلب كل

مسلم، وهو توقير الرسول صلى الله عليه وسلم، وجاءوا إلى قول الحق سبحانه: "مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ" (الفتح/ ٢٩)، وأدخلوا فى هذه الآية كلمة ليست فيها، وطبعوا مصحفًا غيروا فيه تلك الآية بكتابتها "محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم"، وأرادوا بذلك أن يسرقوا عواطف المسلمين، ولكن العلماء عندما أمسكوا بهذا المصحف أمروا بإعدامه وقالوا: "إن به شيئًا زائدًا"، فردَّ مَنْ طبع المصحف: "ولكنها زيادة تحبونها وتُوقّرونها"، فردَّ العلماء: "إن القرآن توقيفى: نقرؤه ونطبعه كما نزل". وقامت ضَجَّة، وحسمها العلماء بأن أى زيادة، حتى ولو كانت فى توقير رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحبته، لا تجوز فى القرآن لأن علينا أن نحفظ القرآن كما لقَّنه جبريل لمحمد صلى الله عليه وسلم".

وإذا كان لى أن أثق فى ذاكرتى فإنى أقول إن مصحفا قد طُبِع وانتشر فى بعض البلاد الأفريقية فى ستينات القرن البائد بعدما عبثت به أيدى يهود فبدلت آية تلعن اليهود وجعلتها شهادة لهم بأنهم مأمونون. وهاج العالم الإسلامى وماج، وسُحِبت تلك المصاحف على الفور من الأسواق وأعدمت. ومنذ سنوات قريبة ثارت ضجة أخرى حول بعض المنسوخات القرآنية التى عُثِر عليها فى مخزن أحد المساجد بصنعاء، وقيل إن فيها قراءة لبعض الآيات تختلف عما نعرف، وهو ما وَلَّد منه مثيرو الفتن ضجة تصم الآذان مؤداها أن النص القرآنى ليس نصا واحدا. وفاتهم أنه لا يمكن أن تُجْمِع المصاحف فى الدنيا كلها على نص واحد ويشذ ما يسمى بـ"مصحف صنعاء" وحده عنها وبعد عدة قرون من نزول القرآن وحفظ المسلمين له فى صدورهم وفى الورق أيضا.

كما نسى أصحاب الفتنة أن أى واحد منا قد ينسى أو يسهو وهو يكتب نصا قرآنيا فيكتبه خطأ، وهو ما يمكن فى ضوئه تفسير ما لاحظوه على تلك المنسوخات القرآنية لو

كان الأمر كما قيل بالضبط. أى أن ما وجدوه ليس مصاحف بل منسوخات قرآنية. وكنا ونحن صغار نخطئ فى كتابة القرآن ونحن ننسخه من المصحف لنحفظه، فكان الفقيه يسمعنا ونحن نتلوه أمامه فيصححه لنا، ثم نذهب فنحفظ النص الذى صححه لنا، ثم نعود إليه ليسمعه منا سليما تمام السلامة، وإلا ضربنا بالخيزرانة دون تفاهم. فتلك المنسوخات القرآنية هى من ذاك القبيل. كل ما هنالك أن حافظى القرآن هناك لم يكونوا يستعملون اللوح الذى يمسح منه ما يكتب عليه أولا بأول، وكانوا يستخدمون الورق والريشة، فبقيت أخطاؤهم فى الورق، وهى أخطاء شحيحة جدا لا تكاد تذكر. وأنا نفسى كثيرا ما أقع فى هذا الآن بعدما شحبت الذاكرة ولم أعد أراجع محفوظى من القرآن على شيخ الكتاب، ولم يعد يضربنى على أخمص قدمى بالخيزرانة كما كان يفعل مع الأطفال والصبيان فى الماضى لأنه رحمه الله قد مات منذ زمن طويل. ولذلك صرت أراجع المصحف مهما أكن متأكدا من ذاكرتى. وفى بعض الأحيان أجد أن هذه الثقة بالذاكرة ثقة فى غير موضعها للأسف.

وفى مقدمة كتاب "تلخيص البيان فى مجازات القرآن" للشريف الرضى أشار محمد عبد الغنى حسن إلى ما يمكن أن يقع فيه كبار الكتاب أنفسهم فى الخطإ إذا اعتمدوا على الذاكرة ولم يرجعوا إلى المصحف. وضرب أمثلة من كتاب "الحيوان" للجاحظ الكاتب العظيم. قال الأستاذ حسن، وهو عالم محقق مدقق: "على أن كثيرا من الآيات القرآنية وردت محرفة من الناسخ فى المصورة المطبوعة، وقد فات المحقق الفاضل أن يصحح خطأها ويقيم عوجها. ولعله أحسن الظن بناسخ المخطوطة فوثق به فى مقام لا يحمد فيه الوثوق، وخاصة حين يحقق المرء نصا قرآنيا كريما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ! ولسنا هنا بسبيل تعداد الآيات المحرفة فى المخطوطة المصورة، والتى فات المحقق الفاضل أن يردها إلى صواب موضعها وصحة أصلها، ولكننا نذكر هنا بعض

هذه التحريفات دفعا لتهمة التجنى على رجل لا تحملنا أسباب التقدير لعمله إلا إلى الثناء عليه والإشادة بجهده، وسبحان من تنزه عن السهو وتعالى عن الخطأ!".

ثم أورد غفر الله له بعض أمثلة من تلك الأخطاء مشفوعا فيها كل مثال بتصويبه، ثم عقب قائلا: "إن هذه الكثرة من الآيات القرآنية الكريمة المحرفة تؤكد ما ندعو إليه ويدعو إليه التحقيق العلمى من شدة الحذر فى الاطمئنان إلى نص المخطوط، وخاصة فيما يتصل بالقرآن الكريم والحديث الشريف والآثار والأشعار، فإن المرء قد يكون جيد الحفظ لكتاب اللّه تعالى، ومع هذا فقد يلتبس عليه الأمر، فيخلط آية بآية أو يبدل حرفا بحرف مما يوسوس به الوهم أو يوحى به الظن. وأسلم الطرق فى ذلك هى الرجوع إلى كتاب اللّه نفسه أو إلى طبعة موثقة من الحديث نفسه حتى تطمئن النفس إلى عملها.ولقد لقى صديقنا المحقق المدقق الأستاذ عبد السلام محمد هارون، جزاه اللّه عن العلم خيرا، كثيرا من التحريفات لآيات من القرآن وهو يحقق طبعته الثمينة من كتاب "الحيوان" للجاحظ، وهى تحريفات تؤكد لنا أن الاعتماد على الحافظة فى رواية القرآن الكريم قد يفضى غالبا إلى الوقوع فى الخطأ، وهو مما لا يجوز للمسلم ارتكابه مع توفر حسن النية لديه. فلا بد دائما من الرجوع إلى المصحف، ولا بد من أن يطمئن الناقل شيئا من القرآن إلى أنه نقل عن المصحف نفسه لا عن حافظٍ أو راوٍ مهما كان حفظه، فإن أمور الذاكرة عجيبة فى هذا الباب".

وفى صحيفة "المصريون" اليوم الثلاثاء ١٧ يوليه ٢٠١٨ خبر عن خطإ فى مصحف مطبوع بأُخَرَةٍ واكتُشِف فيه خطأٌ طباعيٌّ، وهذا نص الخبر، وعنوانه: "مفتى القدس يحذر من تداول هذه النسخة من المصحف": "طالب المفتى العام للقدس والديار الفلسطينية ورئيس مجلس الإفتاء الأعلى الشيخ محمد حسين بعدم تداول نسخة من القرآن الكريم لوجود خطأ مطبعى فيها، والذى ورد فى صفحة رقم ١٣ فى الآية رقم ٨٥ من سورة "البقرة". وظهر الخطأ بكتابة كلمة "مجرم" بدل كلمة "محرّم" فى

قوله تعالى: "وإن يأتوكم أُسَارَى تُفَادُوهم وهو محرَّمٌ عليكم إخراجُهم". وأكد المفتى فى بيان له اليوم الثلاثاء أن هذه النسخة صادرة عن المطبعة التوفيقية بتصريح رقم ٥٩ الصادر فى ٢٠/٥/٢٠١٥م بإذن من مجمع الأزهر للبحوث الإسلامية فى جمهورية مصر العربية. وناشد المكتبات والمطابع والأشخاص الذين يملكون مصاحف من هذه الطبعة بضرورة تسليمها لدار الإفتاء لإجراء اللازم بشأنها حسب الأصول منوهًا بضرورة مراعاة الدقة عند طباعة المصاحف، خاصة عند استخدام طريقة التصوير السريع لبعض الطبعات". فهل يصح أن يطْلُع علينا تافهٌ مدخولُ الضمير فيزعم بناء على هذا أن المسلمين لم يتفقوا على نص واحد للقرآن الكريم أو أن المصحف قد تم العبث به؟

كما اهتبل الشيخ الشعراوى الفرصة لَدُنْ كلامه عن المادة التى خُلِق منهاالإنسان فقام بالرد على من يتهمون القرآن بأنه يقول فى هذا الموضوع كلاما مختلفا فى كل مرة يتناوله فيها. وكان ذلك فى تفسيره لقوله تعالى: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ" (الحجر/ ٢٦)، إذ قال: "وسبحانه يتكلّم هنا عن خَلْق الإنسان من بعد أن تكلم عن خَلْق الكون وما أعدَّه له فيه... وقد تناول الحق سبحانه كيفية خَلْق الإنسان فى الكثير من سُور القرآن: "البقرة، الأعراف، الحجر، الإسراء، الكهف، وسورة ص". قال سبحانه، على سبيل المثال، فى سورة البقرة: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يفْسِدُ فِيهَا وَيسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ" (البقرة/ ٣٠). وجاء هذا القول من الله للملائكة ساعةَ خَلْق الله لآدم من قبل أن تبدأ مسألة نزول آدم للأرض. وقد أخذتْ مسألة خَلْق الإنسان جدلًا طويلًا من الذين يريدون أن يستدركوا على القرآن متسائلين: كيف يقول مرة إن الإنسان مخلوق من ماء، ومرة من طين، ومرة من صلصال كالفخار؟

ونقول: إن ذلك كله حديث عن مراحل الخَلْق، وهو سبحانه أعلم بمَنْ خلق، كما خلق السماوات والأرض، ولم يشهِد الحق أحدًا من الخلق كيف خلق المخلوقات: "مَآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا" (الكهف/ ٥١). ومن رحمته سبحانه أنه ترك فى مُحسَّات الحياة وماديتها ما يثبت صِدْقه فى غيبياته. فإذا قال مرّة إنه خلق كل شىء من الماء فهو صادق فيما قال لأن الماء يكوِّن أغلبَ الجسد البشرى على سبيل المثال، وإذا أوضح أنه خلق الإنسان من طين فالتراب إذا اختلط بالماء صار طينًا، وإذا مرّ على الطين وقتٌ صار صلصالًا...

وكُلُّ هذا من الأمور الغيبية التى يشرحها لنا نقيضُها فى الواقع المادى الملموس. فحين يحدث الموت، وهو نَقيض الحياة، نجد الروح هى أول ما يخرج من الجسم، وكانت هى آخر ما دخل الجسم أثناء الخَلْق. ومن بعد ذلك تبدأ الحيوية فى الرحيل عن الجثمان، فيتحول الجثمان إلى ما يشبه الصَّلْصال، ثم يتبخّر الماء من الجثمان ليصير من بعد ذلك ترابًا. وهكذا نشهد فى الموتِ، نقيضِ الحياة، كيفيةَ بَدْء مراحل الخَلْق وهى معكوسة: فالماء أولًا ثم التراب ثم الطين ثم الصلصال الذى يشبه الحمأ المسنون ثم نَفْخ الروح. وقد صدق الحق سبحانه حين أوضح لنا فى النقيض المادى ما أبلغنا عنه فى العالم الغيب".

وعند تعرضه لقوله جل شأنه: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ" (الحِجْر/ ٢٨) أعاد القول فى هذه المسألة وحاول تقريبها بضرب مثال من عالم النحاتين، فقال: "عرفنا فى مواقع متفرقة من خواطرنا كيف نفهم هذه الآية. ونعلم أن البشر فى زماننا حين يريدون صُنْع تمثال ما فَهُم يَخْلِطون التراب بالماء ليصير طينًا، ثم يتركونه إلى أنْ يختمرَ ويصيرَ كالصَّلْصَال، ومن بعد ذلك يشكل المَثَّالُ ملامح مَنْ يريد أن يصنع له تمثالًا".

وأنا أستطيع أن أفهم حديث الشيخ عما قاله القرآن عن خلق الإنسان، إذ قال مرة إنه مخلوق من ماء، ومرة من تراب، ومرة من طين وحمإ مسنون، لكنى أرى ما قاله عن الموت والمراحل التى يمر بها الجسد البشرى بعده اعتسافا لا داعى له، وكلاما إنشائيا لا يصلح فى مثل هذا السياق. فأين الحمأ المسنون مثلا من جثة الإنسان فى القبر؟ صحيح أن الجسد الإنسانى يستحيل مع الأيام ترابا، لكن يبقى العظم آخر شىء يتحلل مع أنه لم يظهر عند الخلق أول شىء. ومن ثم فالكلام عن مرور الجثة بمراحل الخلق الأولى على نحو مقلوب هو تكلف وحشو ما كان أغناه عن التطرق إليه.

وفى قوله تعالى: "وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ" (الحجر/ ٢٧) يقول الشيخ: "نعلم أن كلمة "السَّمُوم" هى اللهب الذى لا دُخانَ له، ويسمّونه: "السَّمُوم" لأنه يتلصَّص فى الدخول إلى مسَامِّ الإنسان. وهكذا نرى أن للعنصر تأثيرًا فى مُقوِّمات حياة الكائنات: فالمخلوق من طين له صفات الطينية، والمخلوق من نارٍ له صفات النارية. ولذلك كان قانون الجن أخفَّ وأشدَّ من قانون الإنس. والحق سبحانه يقول: "إِنَّهُ يرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ" (الأعراف/ ٢٧). وهكذا نعلم أن قانون خَلْق الجن من عنصر النار التى لا لهبَ لها يوضح لنا أن له قدرات تختلف عن قدرات الإنسان. ذلك أن مهمته فى الحياة تختلف عن مهمة الإنسان، ولا تصنع له خيريةً أو أفضليةً لأن المهام حين تتعدد فى الأشياء تمنع المقارنة بين الكائنات.

والمَثَلُ على ذلك هو غلبة مَنْ عنده عِلْم بالكتاب على عفريت الجن حين سأل سليمانُ عليه السلام عمَّن يأتيه بعرش بلقيس: "قَالَ ياأَيها الْمَلأُ أَيُّكُمْ يأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يأْتُونِى مُسْلِمِينَ" (النمل/ ٣٨)، وقال عفريت من الجن إنه قادر على أن يأتى بالعرش قبل أن يقومَ سليمان من مُقَامه، ولكن مَنْ عنده عِلْم بالكتاب قال إنه قادر أنْ يأتى بعرش بلقيس قبل أن يرتدَّ طَرْف سليمان. وهكذا غلب مَنْ عنده علم بالكتاب قدرة عفريت الجن. وقد قصَّ علينا الحق سبحانه هذا فى كتابه الكريم، فقال: "قَالَ

عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِى أَمِينٌ * قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّى" (النمل/ ٣٩-٤٠)".

ولقد كان حريا بالشيخ ألا يدخل فى مثل تلك القضايا التى لا تجرى على قوانيننا ولم نحضر شيئا منها. كذلك نحن لا نعرف شيئا عن هذا الذى عنده علم من الكتاب: من هو؟ وما جنسه؟ وأى كتاب ذاك يا ترى الذى كان عنده علم منه؟ وبالمثل نرى الشيخ يقول عن السَّمُوم، التى خُلِق منها الجن، إنها لهب لا دخان له، ليعود بعد قليل فى نفس النص فيقول إن الجن مخلوق من نار لا لهب لها. وهذا تناقض عجيب لا أدرى كيف وقع. ثم هناك كلامه عن "السَّمُوم" وتلصصها فى الدخول إلى مسامّ الإنسان. فما معنى التلصص هنا؟ هل تُغَافِلُ السَّمُومُ الإنسانَ منتهزةً فرصةَ انشغاله بأمر من الأمور فتدخل فى مسامّه، فإذا تنبه الإنسان توقفت وجرت بعيدا؟ والسَّمُوم، كما قال، لهب لا دخان له. فهل الجسم الإنسانى يتحمل دخول اللهب فيه؟ وهل يمكن أن يدخل مثل هذا اللهب من مسام الإنسان أصلا؟ وهل إذا افترضنا أنه يدخل من مسام الإنسان ألا يحرقه حرقا؟ ولعل أقرب ما قالته المعاجم التى نظرتُ فيها إلى ما قاله الشيخ أنها "الحرّ الشديد النافذ فى المَسَامّ" على ما جاء فى "المعجم الوسيط". وقبل هذا كله ما معنى قول الشيخ إن قانون الجن أخف وأشد من قانون الإنس؟ هل القوانين الكونية تخفّ وتثقل وتلين وتشتدّ؟ فكيف بالله؟ وكيف تتبدى خصائص الطين والنار فى الإنسان والجان على التوالى؟ ترى ما ضَرَّ الشيخَ لو كان تناوَلَ هذه المسألةَ تناولا عاما مركِّزا على الشرح اللغوى، ومفوضا أمر علم تفاصيلها إلى الله سبحانه؟

وفى خواطره حول قوله تعالى فى سورة "النحل": "وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَىءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)" قال: "ونذكر هنا أن الإمام محمد عبده، رحمه

الله، حُدِّث عنه وهو فى باريس أن أحد المستشرقين قال له: أليس فى آيات القرآن "مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيءٍ" (الأنعام/ ٣٨)؟ قال: بلى. قال له: فهات لى من القرآن كم رغيفًا يوجد فى أردب القمح. فقال الشيخ: نسأل الخباز، فعنده إجابة هذا السؤال. فقال المستشرق: أريد الجواب من القرآن الذى ما فَرَّط فى شىء. فقال الشيخ: هذا القرآن هو الذى علَّمنا فيما لا نعلم أن نسأل أهل الذكر، فقال: "فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ" (الأنبياء/ ٧). إذن القرآن أعطانى الحجة، وأعطانى ما أستند إليه حينما لا أجد نصًّا فى كتاب الله. فالقرآن ذكر القواعد والأصول، وأعطانى حَقَّ الاجتهاد فيما يعِنّ لى من الفروع وما يستجدّ من قضايا. وإذا وُجِد فى القرآن حكم عام وجب أن يؤْخَذ فى طيه ما يؤْخَذ منه من أحكام صدرت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الله وَكَّلَه".

وهذه القصة كنا نسمعها فى صبانا مع بعض الاختلافات، إذ كانت تقول إن أحد الخواجات فى مصر سأل شيخا من الشيوخ عن كيفية التوصل من خلال القرآن إلى عدد الأرغفة التى تخبزها الأفران فى العاصمة يوميا ما دام الله سبحانه يقول فى الكتاب العزيز: "ما فرَّطنا فى الكتاب من شىء"، فما كان من الشيخ إلا أن قال إن القرآن أعطانا الجواب قائلا: "فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون". فعندئذ سُقِط فى يد الخواجة وسكت. فالسؤال والجواب تما فى القاهرة لا فى باريس، والشيخ مجرد شيخ وليس محمد عبده بالذات، وكان السؤال عن عدد الأرغفة التى تنتجها الأفران فى العاصمة ولم يكن عن عدد الأرغفة التى ينتجها الأردب.

وعند تفسيره للآية ٤٧ من سورة "الأنبياء"، وهى عن الموازين القِسْط التى يضعها الله عز وجل ليزن بها أعمال العباد يوم القيامة، يفتح الشيخ موضوع التناقض الذى يدعيه على القرآن بعض المستشرقين والمبشرين. قال: "ومسألة الموازين هذه من المسائل التى وجد فيها المستشرقون تعارضًا فى ظاهر الآيات، فجعلوا منها مَأخَذًا على

كتاب الله. من ذلك قولهم بالتناقض بين الآيتين: "وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ" (الأنبياء/ ٤٧) وقوله تعالى: "فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا" (الكهف/ ١٠٥) حيث أثبت الميزان فى الأولى، ونفاه فى الثانية. وقلنا: إن هؤلاء معذورون لأنهم لا يملكون الملكَة اللغوية التى تمكِّنهم من فَهْم كلام الله. ولو تأملنا اللام فى "نُقِيمُ لَهُمْ" (الكهف/ ١٠٥) لانحلَّ هذا الإشكال، فاللام للملك والانتفاع، كما يقولون فى لغة البنوك: له وعليه. والقرآن يقول: "لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ" (البقرة/ ٢٨٦). فالمعنى: "فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يوْمَ الْقِيامَةِ وَزْنًا" (الكهف/ ١٠٥) أى وزنًا فى صالحهم، إنما نقيم عليهم وندينهم. كذلك نجد أن كلمة الوزن تُسْتَعْمَل فى اللغة إمَّا للوزن المادى، أو لوزن المعنى كما نقول: فلان لا وَزْنَ له فى الرجال. وعلى هذا يكون المعنى أنهم لا وَزْنَ لذواتهم ومادتهم، إنما الوزن لأعمالهم، فلا نقول: كان من الأعيان، كان أصله كذا وكذا. وهذه المسألة واضحة فى قصة ابن نوح عليه السلام: "قَالَ يانُوحُ إِنَّهُ لَيسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيرُ صَالِحٍ" (هود/ ٤٦). فالبنوة هنا بُنُوّة عمل وإيمان لا بُنُوّة ذات.

وقد ظَنَّ الكفار والعصاة أن لهم وَزْنًا عند الله، ومنزلة ستكون لهم فى الآخرة كما كانت لهم فى الدنيا كما جاء فى قصة صاحب الجنتين الذى قال لأخيه متباهيا مفتخرًا: "أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَدًا * وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا" (الكهف/ ٣٤- ٣٦). لكن هيهات أنْ يكون لهم وَزْنٌ فى الآخرة، فالوزن فى القيامة للأعمال لا للأعيان. إذن المعنى لا نقيم لذواتهم، إنما نزن أعمالهم. لذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لقرابته: "لا يأتينى الناس بأعمالهم، وتأتونى بأحسابكم". وقال صلى الله عليه وسلم: "يا فاطمة بنت محمد، اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئًا". فالذوات والأحساب والأنساب لا قيمة لها فى هذا الموقف". وليس لى أى تعليق هنا، فالشيخ قد قال ما ينبغى أن يقال فى هذا السياق.

لكن الأمر يختلف فى تفسير الشيخ للآية التالية من سورة "الأنبياء": "لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)"، فقد فسرها قائلا: "معلوم أن الزفير هو الخارج من عملية التنفس، فالإنسان يأخذ فى الشهيق الأكسجين، ويخرج فى الزفير ثانى أكسيد الكربون، فنلحظ أن التعبير هنا اقتصر على الزفير دون الشهيق لأن الزفير هو الهواء الساخن الخارج، وليس فى النار هواء للشهيق، فكأنه لا شهيقَ لهم. أعاذنا الله من العذاب. "وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ" (الأنبياء/ ١٠٠). وهذه من الآيات التى توقف عندها المستشرقون لأن هناك آياتٍ أخرى تُثْبِت لهم فى النار سَمْعًا وكلامًا كما فى قوله سبحانه: "وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ" (الأعراف/ ٤٤). نعم هم يسمعون، لكن لا يسمعون كلامًا يسُرُّ، إنما يسمعون تبكيتًا وتأنيبًا كما فى قوله تعالى: "وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ" (الأعراف/ ٥٠)".

فأما أن فى جهنم زفيرا فحسب وليس فيها شهيق فهو يخالف ما جاء فى سورة "هود" من قوله جل جلاله: "فأما الذين شَقُوا ففى النار لهم فيها زفيرٌ وشهيقٌ". وأما بالنسبة إلى ما قاله الشيخ الفاضل من أن معنى "لا يسمعون" هو أنهم لا يسمعون كلاما يسر فهو موجود فى الطبرى وابن كثير والقرطبى وغيرهم، مثلما يوجد أيضا تفسير آخر مؤداه أنهم سيكونون فى عدة توابيت كل تابوت داخل الآخر بحيث يكونون منعزلين تماما عن غيرهم فلا يرَوْن شيئا ولا يسمعون. ولكن ألا يمكن تفسير الآيات على نحو آخر لا يحوج إلى هذا التأويل؟ فلننظر أولا فى الآيات التى وردت ضمنها آيتنا: "وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ

(٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آَلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)".

وكما يرى القارئ فإن الكلام عن الأوثان التى كان يعبدها المشركون ويظنون أنها تسمع دعاءهم وتنفعهم وتنقذهم من المعاطب، فبين لهم القرآن أن تلك الأوثان ليست آلهة وأنها ستكون معهم فى النار، لكنها لن تسمعهم أو تنفعهم بل ستكون وبالا عليهم، إذ قد استحالت مثلهم حَصَبًا لجهنم، وصارت تزفر كما تزفر جهنم بعدما أصبحت جزءا منها، فهى ترسل كتل اللهيب من جوفها مثلما تفعل جهنم: "تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ" (المؤمنون/ ١٠٤)، "بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢)" (الفرقان)، ثم هى لا تسمعهم ولا تنفعهم كما كانوا يظنون فى الدنيا: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣)" (الشعراء)، "إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ" (فاطر/ ١٤). هذا تفسيرٌ عَنَّ لى، وأتصور أنه لا يخلو من وجاهة، فضلا عن أنه لا يحوج إلى تأويل، إذ هو تفسير مباشر رجعت فيه إلى آيات القرآن الأخرى لأن القرآن يفسر بعضه بعضا.

وفى قوله عز شأنه من سورة "الأحزاب": "وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦)" يقول الشعراوى ضمن ما قال: "سبق أنْ ذكرنا قصة زيد بن حارثة، وملخصها أنه سُرِق من أهله وبيع فى سوق العبيد على أنه عبد، فاشتراه حكيم بن حزام ثم وهبه للسيدة خديجة أم المؤمنين، فوهبته خديجة رضى الله عنها لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصار مَوْلًى لرسول الله. وبينما هو ذات يوم بالسوق إذ

رآه جماعة من قومه فعرفوه وأخبروا أباه أنه بالمدينة، فجاءه أبوه وأعمامه وحكَوْا لرسول الله قصته، وطلبوا عودته معهم، فقال رسول الله: خَيروه. فإن اختاركم فهنيئًا لكم، وإن اختارنى فَمَا كان لى أنْ أُسْلِمه. فردَّ زيد وقال: والله ما كنت لأختار على رسول الله أحدًا. فأراد سيدنا رسول الله أنْ يكافىء زيدًا على هذا التصرف، فنسبه إليه على عادة العرب فى هذا الوقت، فسمَّاه: زيد بن محمد.

فلما أراد الحق سبحانه أن ينْهِى هذه العادة... نزل قوله سبحانه: "مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ" (الأحزاب/ ٤). فكما أن الرجل لا يكون له إلا قلب واحد كذلك لا يكون له إلا أب واحد. وشاء الله أن يبدأ بمُتَبَنَّى رسول الله ليكون نموذجا تطبيقيا عمليا أمام الناس. وكانت هذه الظاهرة يترتب عليها أنْ يرث المتبنَّى من المتبنِّى بعد موته، وأنْ تُحَرَّم زوجة المتبنَّى أنْ يتزوجها المتبنِّى. صحيح أن القضاء على هذه العادة قضاءٌ على نظام اجتماعى فاسد موجود فى الجزيرة العربية، لكنه فى الوقت نفسه دليل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تبنَّى كما يتبنَّى العرب، وأن الله تعالى أبطل من رسول الله هذا التصرّف. وهذا سيفتح الباب أمام معاندى رسول الله أنْ يشْمَتوا فيه، وأن تتناوله ألسنتهم.

لذلك عالج الحق سبحانه هذه القضية علاج ربٍّ بإنفاذ الأمر فى نُصْرة حبيب له، فلم يشوِّه عمل الرسول، إنما جعل فِعْله عَدْلًا، وحكمه سبحانه أعدل، فقال: "ادْعُوهُمْ لآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ" (الأحزاب/ ٥). والمعنى: إنْ كُنتم جعلتم من العدل والمحبة أنْ تكفلوا هؤلاء الأولاد وأنْ تنسبوهم إليكم فهذا عَدْل بشرى، لكن حكم الله أعدل وأقْسَط. وشرفٌ لرسول الله أنْ يردَّ اللهُ حكمه إلى حكم ربه، وشرفٌ لرسول الله أن يكون له الأصل فى المسألة وأنه يحكُم، فيردّ الله حكمه إلى حكمه. فهذا تكريم لرسول الله...

أما زيد فقد عوَّضه الله عما لحقه من ضرر بسبب انتهاء نسبه إلى رسول الله، فصار زيدَ بن حارثة بعد أنْ كان زيدَ بن محمد، عوَّضه الله وأنصفه بأنْ جعله العَلَم الوحيد من صحابة رسول الله الذى ذُكِر اسمه فى القرآن الكريم بنَصِّه وفَصِّه، فقال سبحانه: "فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا" (الأحزاب/ ٣٧)، فَخُلِّد زيد فى كتاب يتْلَى ويتَعَبَّد بتلاوته إلى يوم القيامة. وعلاقة زيد بن حارثة بما نحن بصدده من قوله تعالى: "وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ" (الأحزاب/ ٣٦) أنه تزوج من السيدة زينب بنت جحش: زوَّجه إياها رسول الله. وقد نزلتْ هذه الآية فى زينب وفى أخيها عبد الله...

وقصة طلاق زيد وزينب ثم زواج سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم منها قصة خاضَ فيها المستشرقون والمغرضون كثيرًا، وتجرأوا على سيدنا رسول الله بكلام لا ينبغى فى حقه صلى الله عليه وسلم. ومن قولهم أن محمدًا أحبَّ زينب وأرادها لنفسه، فأمرها أن تشاغب زيدًا حتى يطلقها فيتزوجها. ونقول لهؤلاء الأغبياء: أولًا زينب بنت جحش الأسدية هى بنت عمة رسول الله، وكان صلى الله عليه وسلم مُكلَّفًا بإدارة أموالها ورعاية شؤونها، وقد نشأتْ تحت عينه، ولو أرادها لنفسه لتزوَّجها بدايةً، وهذا بنصِّ القرآن: "وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ" (الأحزاب/ ٣٧). فإن أردت أن تعرف ما أخفاه رسول الله فخذه مما أبداه الله. والذى أبداه الله قوله تعالى: "لِكَى لاَ يكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَآئِهِمْ" (الأحزاب/ ٣٧). وهذا يهدم كلَّ ادعاءاتكم على رسول الله.

أما قولهم بانشغال قلب رسول الله بزينب، فنقول: ولماذا تجعلون انشغالَ قلب محمد انشغالًا جنسيا؟ ولو تتبعتُم القصة من أولها لظهر لكم غير ذلك. فحينما أرسل رسول الله مَنْ يخطب زينب ظنَّ أخوها عبد الله وأختها حَمْنَة أنه جاء ليخطبها لرسول الله، فلما علموا أنه يخطبها لمولاه زيد غضبوا جميعًا، فكيف تتزوج السيدة القرشية وبنت عمة رسول الله من عبد؟ لكن لما علموا أن الأمر من الله أذعنُوا له ووافقوا. ثم بعد أنْ

تزوجتْ زينب من زيد تعالتْ عليه، بل وشعر أنها تحتقره لهذا الفارق بينهما، فكان زيد يشتكى لرسول الله سوءَ معاملة زوجته له، وأنها كما نقول "منكِّدة عليه عيشته"، وأنها تعيش معه فى بيت الزوجية بالقالب لا بالقلب، لكن حبه لرسول الله كان يمنعه من طلاقها. وهو أيضًا لا يريد أن يخسر هذا الشرف الذى ناله بالزواج من ابنة عمة رسول الله. وكان سيدنا رسول الله فى كل مرة يشتكى فيها زيدٌ من زينب يقول له: "أَمْسِكْ عَلَيكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ" (الأحزاب/ ٣٧). ولو أرادها الرسول لنفسه لقال له: "طَلِّقها" ولوجد الفرصة أمامه سانحة...

وقد وصل زيد مع زينب إلى مرحلة فَقَدَ فيها السَّكَن والمودَّة والرحمة بسبب ما بينهما من فارق. أمر آخر: إنْ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فكَّر فى أمر زينب فلماذا تعدلون به إلى التفكير فى الغريزة؟ ولماذا لا تعدلون به إلى مرتبة الإنصاف، وهو الذى أرغم زينب على الزواج من زيد، وهى الشريفة القرشية، وهو العبد المملوك؟ فلما وضعها فى هذا المأزق أراد أنْ يطيب خاطرها، ويصلح ما كان منه بأنْ يضمها إليه، فتصير إحدى أمهات المؤمنين. ثم مَنِ الذى منع رسولًا قال الله عنه إنه بشر من أن تكون له هذه الرغبة، وكل الرسل السابقين كان لهم هذه. هذا على فرض رغبة رسول الله فى زينب. لكن الناس لم يحسِنُوا الظن...

ثم تأتى العلة فى هذه المسألة: "لِكَى لاَ يكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا" (الأحزاب/ ٣٧) ثم تختم الآية بما لا يدع مجالًا للشك فى رسول الله: "وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا" (الأحزاب/ ٣٧). أى لا بُدَّ أن يحدث، ولن يترك لأى شخص آخر حتى لا تفسد القضية فى إلغاء عادة التبنى. إذن فزواج رسول الله من امرأةِ مُتبنَّاهُ ما كان إلا لرفع الحرج عن جميع المؤمنين، والآن يصح لكل مُتَبَنٍّ أن يتزوج امرأة مُتَبَنَّاه".

وقد أحسن الشيخ الرواية والتحليل والدفاع عن الحق. ويمكن أن نضيف إلى ما قال أن زيدا لو أحس أن فى الأمر ما يريب لما ظل على ولائه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولَلَحِقَ بأهله وأنهى كل ما بينه وبين محمد من صلة. لكننا ننظر فنجده باقيا مع محمد ويدافع عن محمد ودين محمد فى وفاء وإقدام نادرين حتى مات فى غزوة مؤتة بطلا صنديدا مؤمنا مؤثرا الآخرة على الدنيا مضحيا بأغلى شىء، وهو الحياة. فعلام يدل هذا؟ أما محمد فلو كان فى سلوكه وقلبه ما لا يليق ما حزن على زيد حين سقط فى ميدان القتال مع الروم بل لرأى فيه فرصة عظيمة للتخلص من كل ما يذكره بهذا الموضوع، ولما وجدناه صلى الله عليه وسلم يحب أسامة بن زيد كل ذلك الحب الذى نعرفه ويفيض عليه من خزانة عواطفه الكريمة الكثير.

كذلك لو كان فى الأمر أية ريبة لانعكس ذلك فى تفكير زينب وعواطفها. لقد صارت زوجة لمحمد، فلو كانت شعرت بشىء من السوء فيه فى هذا الموقف لتبين ذلك فى نفسيتها وسلوكها ارتيابا وترددا. لكننا ننظر فنجدها تقية نقية تحب دينها وربها وزوجها وتعطف على المساكين عطفا كبيرا. أتراها كانت تكون كذلك لو شمت فى محمد رائحة ريبة؟ إن الزوجة لتعرف مثل تلك الأمور من زوجها أفضل من غيرها. بل لقد نزل القرآن فوق ذلك يحرم عليها وعلى كل زوجاته صلى الله عليه وسلم الزواج من بعده بتاتا، فانصاعت لهذا التشريع فى إيمان تام لا تلجلج فيه. ولو كانت قد أحست من جانب محمد بشىء غير مريح ما بقيت فى الدولة الناشئة ولهربت ولحقت بالروم أو بالفرس حتى تستطيع أن تعيش حياتها على ما تحب غير محرومة من حق طبيعى لأى بشر: ذكرا كان أو أنثى، وبخاصة أنها لم يكن لها ولد من الرسول يمكنها أن تفرغ فيه عواطفها وحرمانها من الرجال بقية حياتها. بل إن الرسول لم يورث زوجاته مالا حتى يمكنهن أن يجدن فى هذا المال شيئا من التعويض عن الحرمان الجنسى.

ثم كيف لا يستحى المستشرقون والمبشرون الذين يصدعون رؤوسنا بهذا التنطع الدنس، وفى كتابهم المقدس ما فيه عن أنبيائهم من ارتكابهم كل فحش مجرم فى هذا السبيل؟ نعم كيف يقولون هذا، ومحمد إنما تزوج زينب زواجا ولم يزن بها ولا مد يده نحوها ابتغاء لمسها مجرد لمس مثلا، بينما الكتاب المقدس الذى يقدسونه ويؤمنون به ويتعبدون بما فيه ينبئنا بما صنعه داود من التلصص من فوق سطح قصره على بتشبع زوجة قائده الحربى الذى يدافع عنه وعن دولته بينما كانت تستحم عارية تماما فى فناء بيتها، وهو ما لا يليق برجل عادى؟ فما بالنا بنبى وحاكم كبير؟ ومع من؟ مع زوجة قائده وجاره اللصيق. ثم لا يكتفى داود بهذا بل يرسل إلى المرأة فتأتيه فيزنى بها، ثم يضع خطة تآمرية يتخلص بها من الزوج المسكين الوفى الكريم النبيل لتخلو له المرأة تماما، فتنجح الخطة الوضيعة ويتزوج المرأة وينجب منها سليمان. أنعم وأكرم! فالعجب كل العجب ممن تكون الخشبة فى عينه فلا يشعر بها ولا يبالى، ويروح فيعيب عيون الآخرين السليمة الواسعة الجميلة.

وفى أثناء نثر خواطره حول آية "وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيهِ أَمْسِكْ عَلَيكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَى لَا يكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا" (الأحزاب/ ٣٧) استطرد الشيخ إلى الحديث عن تعدد الزوجات فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام قائلا: "هَبُوا جدلًا أن محمدًا فعلها، ما العيب فيها، وقد كان التعدُّد موجودًا، ولم ينشئ رسول الله تعدُّدًا؟ كان التعدُّد موجودًا فى الأنبياء والرسل، وفيكم وعندكم. أما الذين يتهمون رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه وسَّع على نفسه فتزوَّج تسعًا، وضيق على أمته بأربع، فالرد على ذلك أن الله تعالى حكم بأن زوجات الرسول أمهاتٌ للمؤمنين، وما دُمْنَ أمهاتٍ للمؤمنين، فليس لأحد أنْ يتزوَّجهُنَّ بعد رسول الله، أمّا غيرهن من

المؤمنات فإنْ كان مع الرجل سبعة مثلًا فعليه أنْ يفارق ثلاثة منهن، وهؤلاء الثلاثة سيجدْنَ مَنْ يتزوج بهنَّ. إذن على الرسول أنْ يمسِك زوجاته كلهن، وعلى غيره من المؤمنين أنْ يفارقوا ما زاد على أربع.

شيء آخر: تظنون أن رسول الله وسَّع الله له هذه المسألة، والحقيقة أن الله ضيق عليه إذا ما قارنّاه بغيره من عامة المؤمنين. فالمؤمن له أنْ يمسك أربعَ زوجات: فإذا ماتت إحداهن تزوج بأخرى، وإنْ طلَّق إحداهن تزوج بدلًا منها، فإن مُتْنَ جميعًا أو طلَّقهن فله أنْ يتزوَّج غيرهن حتى يكمل الأربعة. وهكذا يكون للمؤمن أن يتزوَّج بعدد كثير من النساء. أما رسول الله نعم تزوج تسعًا، لكنْ خاطَبَه ربه بقوله: "لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَآءُ مِن بَعْدُ وَلآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ" (الأحزاب/ ٥٢). فمَن الذى ضُيقَ عليه إذن: محمد أم أمته؟ ثم يا قوم تنبهوا إلى الفرق بين الاستثناء فى العدد والاستثناء فى المعدود. هل استثنى الله نبيه فى العدد من أربع إلى تسع أم استثناه فى معدود بذاته؟ استثناه فى المعدود لا فى العدد لأنه لو استثناه فى العدد لكان له إذا ماتتْ إحدى زوجاته أنْ يتزوَّج بأخرى. إنما وقف به عند معدود بذاته بحيث لو متن جميعًا ما كان له صلى الله عليه وسلم أنْ يتزوَّج بعدهن. وبعد ذلك أَظَلَّ الحكمُ على رسول الله هكذا؟ لا. إنما كان فى بداية الأمر، وبعد ذلك حينما استقرتْ الأمور وأَمِن الله رسولَه قال له: افعل ما تشاء لأنك مأمون على أمتك".

وينبغى أن نلاحظ أولا أن تشريعَ الاقتصار على أربع نساء تالٍ لاقتران النبى بزوجاته التسع، فهو لم يخرج على التشريع بعد نزوله، لكنه ظل على ما كان عليه قبلا. ولكن لماذا لم يسرّح الرسول مَنْ زِدْن على الأربع من زوجاته فى هذه الحالة؟ لقد أشار الشيخ إلى أن زوجاته صلى الله عليه وسلم ورضى عنهن كن أمهات للمؤمنين، ولم يكن لهن من ثم التزوج بعده صلى الله عليه وسلم. فلو طلقهن لكان فى هذا ظلم لهن وإعنات، وأى إعنات؟ وثانيا لقد كان للرسول أمور ينفرد بها عن أمته كانت تجعل حمله

ثقيلا: فمثلا لم يكن من حقه قبول الزكاة أو الصدقة. كما كان من حقه مواصلة الصوم ليومين متتاليين بينما لم يكن ذلك جائزا لأى أحد من أمته. ولم يكن من حقه أيضا استعمال خائنة الأعين على العكس من سائر المسلمين. وبالمثل لم يكن من حقه أن يستبدل زوجة جديدة بأى من زوجاته اللاتى على ذمته لأى سبب من الأسباب. وهذا الأمر لا يلزم أحدا آخر غيره. كذلك حين تطلعت زوجاته إلى شىء من الترفيه نزلت الآيات تخيرهن بين الرضا بمستوى المعيشة النبوى الزهيد وبين تسريحهن. وقد آثرن كلهن بحمد الله البقاء فى عصمة النبى الكريم على حظوظ الدنيا.

فقهيات الشعراوى

تعرض الشيخ الشعراوى فى تفسيره لعدد كبير من القضايا الفقهية، إذ ما أكثر الآيات القرآنية التى تقدم للمسلم أحكاما شرعية. وفى هذا الفصل نتحدث عن الجانب الفقهى فى تفسير الشيخ رحمه الله. وسوف أسوق نصوصا من ذلك التفسير تحمل آراء الشيخ وفتاواه الفقهية مع مناقشتها. وليست هذه النصوص هى كل ما فى الكتاب بل طائفة منها فقط تمثل ما وراءها، وهو كثير كما قلت. ونبدأ بما قاله الشيخ عن قوله تعالى فى موضوع الربا من سورة "البقرة": "الَّذِينَ يأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يقُومُونَ إِلَّا كَمَا يقُومُ الَّذِى يتَخَبَّطُهُ الشَّيطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥)". يقول الشيخ: "جاء وقت أصبح الناس يرَوْن فيه أن المال هو كل شيء حتى صار هدفا، وتعلق الناس به. وفى الحق أنّ المال ليس غاية، ولا ينفع أن يكون غاية بل هو وسيلة. فإن فقد وسيلته وأصبح غاية فلا بد أن يفسد الكون، فَعِلَّةُ فساد الكون كله فى القدر المشترك الذى هو المال حيث أصبح المال غاية، ولم يعد وسيلة. والحق سبحانه وتعالى يريد أن يطهر حياة الاقتصاد للناس طهارة تضمن حِلّ ما يطعمون وما يشربون وما يكتسون حتى تصدر أعمالهم عن خليات إيمانية طاهرة مصفاة. ذلك أن الشيء الذى يصدر عن خلية إيمانية طاهرة مصفاة لا يمكن أن ينشأ عنه إلا الخير.

ومن العجيب أن نجد القوم الذين صدَّروا لنا النظام الربوى يحاولون الآن جاهدين أن يتخلصوا منه لا لأنهم ينظرون إلى هذا التخلص على أنه طهارة دينية، ولكن لأنهم يرون أن كل شرور الحياة ناشئة عن هذا الربا. وليست هذه الصيحة حديثة عهد بنا. فقديما، أى من عام ألف وتسعمائة وخمسين، قام رجل الاقتصاد العالمى

شاخت فى ألمانيا، وقد رأى اختلال النظام فيها وفى العالم، فوضع تقريره بأن الفساد كله ناشئ من النظام الربوى، وأن هذا النظام يضمن للغنى أن يزيد غنى. وما دام هذا النظام قد ضمن للغنى أن يزيد غنى، فمن أين يزداد غنى؟ لا شك أنه يزداد غِنًى من الفقير. إذن فستؤول المسألة إلى أن المال سيصبح فى يد أقلية فى الكون تتحكم فى مصائره كلها، ولا سيما المصائر الخلقية. لماذا؟ لأن الذين يحبون أن يستثمروا المال لا ينظرون إلا إلى النفعية المالية، فهم يديرون المشروعات التى تحقق لهم تلك النفعية. وهناك رجل اقتصاد آخر هو كينز، الذى يتزعم فكرة "الاقتصاد الحر" فى العالم يقول قولته المشهورة: إن المال لا يؤدى وظيفته فى الحياة إلا إذا انخفضت الفائدة إلى درجة الصفر. ومعنى ذلك أنه لا ربا.

وإذا ما نظرنا إلى عملية عقد الربا فى ذاتها وجدناها عقدًا باطلًا لأن كل عقد من العقود إنما يوجد لحماية الطرفين المتعاقدين، وعقد الربا لا يحمى إلا الطرف الدائن فقط. وهناك أمر خلقى آخر وهو أن الإنسان لا يعطى رِبًا إلا إذا كان عنده فائض زائد على حاجته. ولا يأخذ إنسان من المرابى إلا إذا كان محتاجًا. فانظروا إلى النكسة الخلقية فى الكون. إن المعدم الفقير الذى لا يجد ما يسد جوعه وحاجته يضْطَرّ إلى الاستدانة، وهذا الفقير المُعْدِم هو الذى يتكفل بأن يعطى الأصل والزائد إلى الغنى غير المحتاج. إنها نكسة خلقية توجِد فى المجتمع ضِغنًا، وتوجِد فى المجتمع حقدًا، وتقضى على بقية المعروف وقيمته بين الناس، وتنعدم المودة فى المجتمع. فإذا ما رأى إنسان فقيرٌ إنسانًا غنيا عنده المال، ويشترط الغنى على الفقير المعدم أن يعطيه ما يأخذه وأن يزيد عليه فعلى أية حال ستكون مشاعر وأحاسيس الفقير؟ كان يكفى الغنى أن يعطى الفقير، وأن يسترد الغنى بعد ذلك ما أخذه الفقير، ولكن الغنى المرابى يطلب من الفقير أن يسدد ما أخذه ويزيد عليه. وكانوا يتعللون ويقولون: إن النص القرآنى إنما يتكلم عن الربا فى الأضعاف المضاعفة، فإذا ما منعنا القيد فى الأضعاف المضاعفة لا يكون حرامًا! أى

أنهم يريدون تبرير إعطاء الفقير مالًا وأن يرده أضعافًا فقط لا أضعافًا مضاعفة حتى لا يصير ذلك الاسترداد بالزيادة حرامًا. ولهؤلاء نقول: إن الذين يقولون ذلك يحاولون أن يتلصصوا على النص القرآنى، وكأن الله قد ترك النص ليتلصصوا عليه ويسرقوا منه ما شاءوا دون أن يضع فى النص ما يحول دون هذا التلصص، ولو فطنوا إلى أن الله يقول فى آخر الأمر: "وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ" (البقرة/ ٢٧٩) هذا القول الحاسم يوضح أن الله لم يستثن ضِعْفًا ولا أضعافًا. إذن فقوله الحق: "يآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (آل عمران/ ١٣٠) إن هذا القول الحكيم لم يجئ إلا ليبين الواقع الذى كانوا يعيشونه، ولم يستثن الله ضِعْفًا أو أضعافًا لأن الحق جعل التوبة تبدأ من أن يأخذ الإنسان رأس ماله فقط، فلا يسمح الله لأحد أن يأخذ نصف الضعف أو الضعف أو الضعفين، ولا يسمح بالأضعاف ولا بالمضاعفات.

وكانوا يتعللون أن اتفاق الطرفين على أى أمر يعتبر تراضيا ويعتبر عقدًا. وقد يكون ذلك صحيحًا إن لم يكن هناك مشرِّع أعلى من كل الخلق يسيطر على هذا التراضى. فهل كلما تراضى الطرفان على شىء يصير حلالًا؟ لو كان الأمر كذلك لكان الزنا حلالًا لأنهما طرفان قد تراضيا. وكل ذلك لا يتأتى، أى رضاء الطرفين، إلا فى الأمور التى ليس فيها تشريع صدر عن المشرع الأعلى، وهو الله الحى القيوم. إن الله قد فرض أمرًا يقضى على التراضى بينى وبينك لأنه هو المسيطر، وهو الذى حكم فى الأمر، فلا تراضى بيننا فيما يخالف ما شرع الله أو حكمه فيه.

وإذا نظرنا نظرة أخرى فإننا نجد أن التراضى الذى يدَّعونه مردود عليه. إنه "تراضٍ" باطل بالفحص الدقيق والبحث المنطقى. لماذا؟ لأننا نقول إن التراضى إنما ينشأ بين اثنين لا يتعدى أمرُ ما تراضَيا عليه إلى غيرهما، أما إذا كان الأمر قد تعدى مَنْ تراضيا عليه إلى غيرهما فالتراضى باطل. فهَبْ أن واحدًا لا يملك شيئا، وواحدًا آخر

يملك ألفا، والذى يملك ألفا هى ملكه، وأدار بها عملا من الأعمال، وحين يدير صاحب الألف عملا فالمطلوب له أجر عمله ليعيش من هذا الأجر. أما الذى لا يملك شيئا إذا ما أراد أن يعمل مثلما عمل صاحب الألف، فذهب إلى إنسان وأخذ منه ألفا ليعمل عملا كعمل صاحب الألف، فيشترط من يعطيه هذه الألف من الأموال أن يزيده مائة حين السداد، فيكون المطلوب من الذى اقترض هذه الألف أجر عمله كصاحب الألف الأول، ومطلوب منه أيضا أن يزيد على أجره تلك المائة المطلوبة لمن أقرضه بالربا. فمن أين يأتى من اقترض ألفا بهذه المائة الزائدة؟ إن سلعته لو كانت تساوى سلعة الآخر فإنه يخسر، وإن كانت سلعته أقل من سلعة الآخر فإنها تكسد وتبور.

إذن فلا بد له من الاحتيال النكد، وهذا الاحتيال هو أن يخلع على سلعته وصفا شكليا يساوى به سلعة الآخر، ويعمد إلى إنقاص الجواهر الفعالة فى صنعة سلعته، فيسحب منها ما يوازى المائة المطلوب سدادها للمرابى. فمن الذى سيدفع ذلك؟ إنه المستهلك. إذن فالمستهلك قد أضير بهذا التراضى، فهو الذى سيغرم لأنه هو الذى يدفع أخيرًا قيمة قرض الرجل المتاجر بالسلعة وقيمة النسبة الربوية التى حددها المرابى. إذن فالعقد بين المقترض والمرابى، حتى فى عرفهم، عقد باطل رغم أن الاثنين: المقترض والمرابى قد اعتبرا هذا العقد تراضيا. إذن فالحق سبحانه وتعالى أراد أن يشيع فى الناس الرحمة والمودة. وأن يشيع فى الناس التعاطف. إنه الحق سبحانه صاحب كل النعمة أراد أن يشيع فى الناس أن يعرف كل صاحب نعمة فى الدنيا أنه يجب عليه أن تكون نعمته متعدية إلى غيره، فإن رآها المحروم علم أنه مستفيد منها، فإذا كان مستفيدًا منها فإنه لن ينظر إليها بحقد ولا أن ينظر إليها بحسد ولا يتمنى أن تزول لأن أمرها عائد إليه. ولكن إذا كان السائد هو أن يريد صاحب النعمة فى الدنيا أن يأخذ بالاستحواذ على كل عائد نعمته ولا يراعى حق الله فى مهمة النعمة ولا تتعدى هذه

النعمة إلى غيره فالمحروم عندما يرى ذلك يتمنى أن تزول النعمة عن صاحبها وينظر إليها بحسد، ويشيع الحقد ومعه الضغينة، ويجد الفساد فرصة كاملة للشيوع فى المجتمع كله.

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يسيطر على الاقتصاد عناصر ثلاثة: العنصر الأول الرِّفْد والعطاء الخالص، فيجد الفقيرُ المُعْدِمُ غنيا يعطيه لا بقانون الحق المعلوم المفروض فى الزكاة، ولكن بقانون الحق غير المعلوم فى الصدقة، هذا هو الرفد. العنصر الثانى يكون بحق الفرض، وهو الزكاة. العنصر الثالث هو بحق القرض، وهو المداينة. إذن فأمور ثلاثة هى التى تسيطر على الاقتصاد الإسلامى: إما تطوع بصدقة، وإما أداءٌ لمفروض من زكاة، وإما مداينة بالقرض الحسن. وذلك هو ما يمكن أن ينشأ عليه النظام الاقتصادى فى الإسلام. ولننظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى حين عرض هذه المسألة وبشّع هيئة الذين يأكلون الربا بأنهم لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه ويصرعه الشيطان من المسّ... فقال الله القول الفصل الحاسم: "وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَآءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ فَانْتَهَى..." (البقرة/ ٢٧٥). وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: "لَعَنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله".

هذا ما قاله الشعراوى. وفى "التفسير الوسيط" للدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر السابق، عند تفسيره لآيات الربا فى سورة "البقرة" أيضا، حملة شعواء على الربا ومن يتعاملون به أيا كان نوعه دون تردد أو تلجلج. إلا أنه قد أصدر بعد ذلك فتوى تحلل التعامل مع المصارف بما تأخذه من فوائد. فللرجل إذن رأيان. وكان المفروض أن يحسم الأمر على وجه واحد: فإما يغير رأيه الموجود فى تفسير آيات سورة "البقرة" مثلا وإما أن يتراجع عن فتواه المحللة لفوائد البنوك. وقد وقعت على عرض لرأيه فى موقع "إسلام أون لاين" كتبه محمد البنا ووسام فؤاد بتاريخ ٢٠/ ١٢/ ٢٠٠٢. وهذا نص

العرض المذكور، وعنوانه: "فوائد البنوك- سجالات التحريم والإباحة- فتوى إباحة فوائد المصارف من د. طنطاوى إلى مجمع البحوث":

"فى شهر أكتوبر من العام ٢٠٠٢ تجددت قضية الحكم الشرعى الخاص بفوائد المصارف بعد أن كانت قد خمدت نارها إثر تتالى ردود العلماء الشرعيين وعلماء الاقتصاد الإسلامى على الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى ترده إلى الحكم الشرعى فى هذه القضية. وقد بدا آنذاك، ومع تتالى ردود العلماء على أطروحة أ.د. محمد سيد طنطاوى، ومع تزايد كثافةِ وثِقَلِ وحِدَّة هذه الردود، أن الدكتور محمد سيد طنطاوى قد تراجع عن هذه الفتوى بعد أن كان قد أصدر كتابًا يحوى نظرة أكثر عمقًا فى تناوله لها، وهو الكتاب الشهير: "معاملات البنوك وأحكامها الشرعية"، وكانت مظنة رجوعه عن رأيه فى تصريحه: "من اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر". لكن تجددت القضية فى إطار ظرفى مختلف حيث أرسل الأستاذ الدكتور حسن عباس زكى عضو مجمع البحوث الإسلامية ووزير الاقتصاد الأسبق رئيس مجلس إدارة بنك الشركة المصرفية العربية الدولية كتابا بتاريخ ٢٠٠٢/١٠/٢٢ إلى فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر يعيد فيه السؤال عن حكم استثمار الأموال فى المصارف التى تقوم على تحديد الربح مقدمًا.

وقد أحال فضيلة الإمام الأكبر الكتاب ومرفقه للعرض على مجلس مجمع البحوث الإسلامية. وقد انعقدت جلسة مجلس المجمع فى يوم الخميس ٢٥ من شعبان سنة ١٤٢٣هـ الموافق ٣١ من أكتوبر سنة ٢٠٠٢م وعرض عليه الموضوع المذكور. وبعد مناقشات الأعضاء ودراستهم قرر مجلس المجمع، فى جلسة الخميس ٢٣ من رمضان ١٤٢٣هـ الموافق ٢٨ من نوفمبر ٢٠٠٢م، الموافقة على أن استثمار الأموال فى البنوك التى تحدد الربح مقدما حلال شرعا ولا بأس به. وقد صدرت الفتوى ممهورة بتوقيع الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى.

من فتوى مجمع البحوث إلى تأصيل شيخ الأزهر: بالرغم من أن الفتوى محل التناول هى الفتوى التى أصدرتها الجلسة المذكورة لمجمع البحوث الإسلامية، وبالرغم من أن الدكتور محمد سيد طنطاوى أحد أعضاء هذا المجمع، فإن الفتوى لم تكن من الاتساع والتفصيل بحيث أحاطت بكل الأدلة الأساسية التى توفرت لدى المنافحين عن حكم إباحة فوائد المصارف. ومن هنا كان الكتاب الذى أصدره أ.د. محمد سيد طنطاوى يمثل مرجعية للفتوى محل التناول بما يمثله من تناولٍ أعمقَ، وجمعٍ أكثرَ شمولا للأدلة التى تناصر هذا الرأى. ولهذا رأينا أنه من الأفضل الاستناد لتحليل الأدلة التى أوردها أ. د. محمد سيد طنطاوى فى كتابه الشهير: "معاملات البنوك وأحكامها الشرعية" فى إطار مناقشة هذه الرؤية وعرض استجابات العلماء لها.

ويرى الشيخ محمد سيد طنطاوى أنه لا مانع من التعامل مع البنوك أو المصارف التى تحدد الربح مقدمًا فيقول: "إننا لا نرى نصا شرعيا ولا قياسًا نطمئن إليه يمنع من تحديد الربح مقدمًا ما دام هذا التحديد قد تم باختيار الطرفين ورضاهما المشروع. ومع هذا من أراد أن يتعامل مع البنوك التى تحدد الأرباح مقدمًا فله ذلك، ولا حرج عليه شرعا، إذ المقياس فى الحرمة والحل ليس التحديد أو عدم التحديد للربح، وإنما المقياس هو خلو المعاملات من الغش والخداع والربا والظلم والاستغلال وما يشبه ذلك من الرذائل التى حرمتها شريعة الإسلام".

أدلته على ما ذهب إليه: واستدل على ما ذهب إليه بعدد من الأدلة نجملها فيما يأتى:

١ - أن مسألة التحديد للربح مقدمًا أو عدم التحديد ليست من العقائد، أو العبادات التى لا يجوز التغيير أو التبديل فيها، وإنما هى من المعاملات الاقتصادية التى تتوقف على تراضى الطرفين.

٢- أن الشريعة الإسلامية تقوم على رعاية مصالح الناس فى كل زمان ومكان، وقد تبدو هذه الرعاية فى ظاهرها مخالفة لبعض النصوص عن النبى صلى الله عليه وسلم. واستشهد فى ذلك بحديث التسعير الذى رواه أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم، قال: "قال الناس: يا رسول الله، غلا السعر، فسَعِّر لنا. فقال صلى الله عليه وسلم: إن الله هو المسعِّر القابض الباسط الرازق، وإنى لأرجو أن ألقى الله وليس أحد منكم يطالبنى بمظلمة فى دم أو مال". ثم قال بعد الحديث: فبالرغم من أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجبهم إلى ما طلبوه منه من تسعير السلع، إذ الأصل عدم التسعير، نجد كثيرًا من الفقهاء أجازوا لولى الأمر تسعير السلع إذا غالى التجار فى الأسعار أو احتكروا ما لا غنى للناس عنه. وخرج فضيلته بقياس غريب على ما تقدم فقال: وقياسًا على ما تقدم فإن لولى الأمر إذا رأى، بعد استشارة أهل العلم والخبرة، أن مصلحة الناس تقتضى أن تحدد البنوك الأرباح مقدمًا لمن يتعاملون معها، فله أن يكلفها بذلك رعاية لمصالح الناس، وحفظًا لأموالهم وحقوقهم من الضياع، ومنعًا للنزاع والخصام بين البنوك والمتعاملين معها، وهى مقاصد شرعية معتبرة.

٣- لا مانع فى الشرع من أن يقوم البنك المستثمِر للمال بتحديد ربح معين مقدما فى عقد المضاربة الذى يكون بينه وبين صاحب المال الذى يضعه فى البنك بنيةٍ وبقصدِ الاستثمار.

٤- أن البنك لم يحدد الربح مقدما إلا بعد دراسة مستفيضة ودقيقة لأحوال السوق العالمية وبتعليمات وتوجيهات من البنك المركزى، الذى يعَدّ بمنزلة الحَكَم بين البنوك والمتعاملين معها.

٥- تحديد الربح مقدما فيه منفعة لصاحب المال ولصاحب العمل: لصاحب المال لأنه يعرِّفه حقه معرفة خالية من الجهالة، ولصاحب العمل لأنه يحمله على أن يجدّ ويجتهد فى عمله.

٦- أن هذا التحديد للربح مقدما لا يتعارض مع احتمال الخسارة من جانب المستثمر، وهو البنك أو غيره، لأنه من المعروف أن الأعمال التجارية المتنوعة إن خسر صاحبها فى جانب ربح من جوانب أخرى.

٧- خراب الذمم مما يجعل صاحب المال تحت رحمة صاحب العمل المستثِمر للمال، وهو البنك أو غيره، والذى قد يكون غير أمين فيقول مثلا: "ما ربحتُ شيئا"، وقد ربح الكثير، مما يوقع فى الظلم الذى نهت عنه الشريعة.

٨- كما تدخل الحكام والفقهاء فى تضمين الصناع لِمَا يهلك تحت أيديهم بسبب إهمالهم فلولى الأمر أن يتدخل فى عقود المضاربة بتحديد نسبة الربح مقدما وأن يكون رأس المال مضمونا. وهذا اللون يندرج تحت باب "المصالح المرسلة".

٩- لم يقل أحد من الأئمة: إن تحديد الربح مقدما فى عقود المضاربة يجعله معاملة ربوية يحرم فيها الربح الناشئ عن العمل فى المال المستثمر.

هذه هى الأدلة التى استند فضيلة الدكتور طنطاوى إليها فى فتواه بإباحة فوائد البنوك والتى أسماها: أرباحا".

على أن القضية لا تنتهى هنا إذ تسأل إحدى السيدات الشيخ الشعراوى فى كتابه: "١٠٠ سؤال وجواب فى الفقه الإسلامى"، وهو السؤال الرابع والسبعون، "عن فوائد البنوك وشهادات الاستثمار: هل هى حلال أو حرام؟ وهل يمكن الحج منها؟"، وكانت إجابة الشيخ كالآتى: "أما ما تدخره فى البنوك بفوائد فمن الأفضل أن ينقل السائل ماله إلى بنك إسلامى ليخرج من حيرة الارتياب. والحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهة. فمن ترك الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه. وعلى فرض أنه وُجِد رأى يقول: هذا حلال، ورأى آخر يقول: هذا حرام، فمن يريد أن يستبرئ لدينه وعرضه فليبتعد عن المشكوك فيه، وخصوصا إذا وُجِد البديل، وهو البنك الإسلامى الذى

يعمل بنظام المضاربة. وأما الحج من هذا المال فهو حرام، ولا بد أن يكون مال الحج حلالا خالصا لا شبهة فيه أبدا. وفى هذا قال الشاعر:

إذا حججتَ بمالٍ أصلُه دنِسٌ فما حججتَ، ولكن حَجَّتِ العِيرُ

أى حجت الجمال والركائب فقط".

وواضح أن رأى الشيخ هنا ليس قاطعا، وإلا لما قال: "من الأفضل أن ينقل السائل ماله إلى بنك إسلامى" ولما جعل الأمر أمر حيرة وارتياب بل أمر يقين حاسم، ولَطَلَبَ من السائلة أن تنقل أموالها فورا إلى بنك إسلامى. كذلك رأيناه يفترض أن هناك من يقول بحلية فوائد البنوك، مع أن الأمر ليس افتراضا بل الرأى المشار إليه موجود فعلا على الساحة. ومع هذا التردد نفاجأ فى النهاية بالشيخ يقول بلهجة قاطعة إن الحج من مال البنوك حرام. وأخيرا فتعقيبا على قوله، رحمه الله، إن البنوك الإسلامية تعمل بنظام المضاربة أذكر أننى، حين عدت من الخارج عام ١٩٨٢، وضعت مالى القليل فى بنك فيصل الإسلامى، فلاحظت أن الفائدة عندهم ثابتة لكنها فى ذات الوقت أقل من فائدة البنوك الأخرى العادية، فسألت الموظف عن هذا، فقال إنهم لا يعطون فائدة أكثر من ذلك، ولم يشر بتاتا إلى نظام المضاربة هذا، فقد كان الأمر واضحا، وهو أن الفائدة مثبتة مبدئيا ولا تتغير بتغير الظروف.

وفى قوله تعالى فى سورة "النساء" عن زنا الإماء: "فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ (٢٥)" يقول الشيخ: "إذا تزوجت الإماء وجاءت الواحدة منهن بفاحشة فلها عقاب. أما إن لم تُحْصَن فليس عليهن حكم، ويقوم سيدها بتعزيرها وتأديبها لأن الأمة عادة مبتذلة. لكن عندما تتزوج تصير محصنة، فإن أتت بفاحشة نقول لها: أنت لك عقابك الخصوصى. لن نعاقبك عقاب الحرّة لأن الحرة يصعب عليها الزنا، لكن الأَمَة قد لا يصعب عليها أن يحدث منها ذلك، فليس لها أب

ولا أخ ولا أسرة، فقال: "فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ"، أى نصف ما على الحرائر من العذاب.

لكن الخوارج أخذوا الكلمة فى معنًى من معانيها ليخدم قضيةً عندهم وقالوا: إن "الْمُحْصَنَاتِ" هن المتزوجات. هم يريدون أن يأخذوها بمعنى المتزوجات كى يقولوا: ما دامت الأمة عليها نصف ما على المتزوجة إذن فالمتزوجة ليس عليها رجم لأن الرجم لا ينَصَّف. والخوارج أخذوا هذه وقالوا: إن القرآن لا يوجد فيه رجم، واكتفَوْا بجَلْد الزانية مائة جلدة. ونقول لهم: أنتم أخذتم "الْمُحْصَنَة" على معنى أنها المتزوجة، ونَسِيتم "وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ". فالمحصنات هن الحرائر، فلماذا أخذتم "المحصنات" هناك بمعنى الحرائر، و"المحصنات هنا" بمعنى المتزوجات؟ إن عليكم أن تأخذوها بمعنى الحرائر، ولا حجة لكم فى مثل هذا الباطل. وبذلك تسقط الحجة. فالدليل إذا تسرب إليه الاحتمال سقط به الاستدلال.

ثم نبحث بحثًا آخر، نقول: يقول الحق: "فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ". لو أن الحكم على إطلاقه لما قال الحق: "مِنَ الْعَذَابِ"، فكأن الذى عليها فيه النصف هو العذاب، وما هو العذاب؟ العذاب هو إيلام من يتألم، والرجم ليس فيه عذاب لأنه عملية إنهاء حياة، والآية تبين المناصفة فيما يكون عذابًا، أما ما لا يكون عذابًا فهو لا ينصَّف والحكم غير متعلق به. فالعذاب إنما يأتى لمن يتألم، والألم فرع الحياة. والرجم مُزِيلٌ للحياة، إذن فالرجم لا يعتبر من العذاب. والدليل على أن العذاب مقابل للموت أن الحق سبحانه وتعالى حينما حكى عن سيدنا سليمان وتفقده الطير قال: "مَالِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ" (النمل:/ ٢٠- ٢١). فالذبح وإزهاق الحياة مقابل للعذاب. فقوله: "نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ" فالمتكلَّم فيه الآنَ العذابُ، وليس الرجم، وليس إزهاق الحياة. وبهذا يسقط الاستدلال.

والذين يقولون: إن آيات القرآن لا تدل على رجم نقول لهم: ومن الذى قال لكم إن القرآن جامع لكل أحكام منهج الله فى الإسلام وأنه فَصَّل كل شىء؟ القرآن لم يجئ كتاب منهج فقط، وإنما جاء معجزة وكتاب منهج للأصول، ثم ترك للرسول صلى الله عليه وسلم أن يبين للناس ما نزل إليهم، فضلا على أن الرسول صلى الله عليه وسلم بنص القرآن عنده تفويض من الله أن يشرّع. وتلك ميزة تميز بها صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين. فالله قد أعطاه الحق فى أن يشرع بدليل أنه سبحانه قال فى صلب القرآن الذى يشتمل على أصول منهج الإسلام: "وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا" (الحشر/ ٧). إذن فللرسول عمل مع القرآن، وإلا فليقل لى من يدّعى أنّ فى القرآن كل حكم من أحكام دين الله: من أين أخذ تفصيل حكم الصلوات الخمس؟ ومن أى آية أخذ أن الصبح ركعتان؟ وأخذ الظهر أربعًا وأخذ العصر أربعًا، والمغرب ثلاثًا، والعشاء أربعًا، من أين أخذها؟ إذن لا يوجد شىء من ذلك، فما معنى ذلك؟ معنى ذلك أن القرآن جاء كتاب معجزة، وفيه منهج يتعلق بالأصول. وما دام المنهج الذى يتعلق بأصول الأشياء قد أَعْطَى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشرِّع إذن فتشريعه مأمور به ومأذون فيه من صلب القرآن. ولذلك إذا جاء لك حكم من الأحكام وقال لك المتعنت: "هات لى هذا الحكم من القرآن"، ونظرتَ فى كتاب الله فلم تجد، فقل له: دليل الحكم فى القرآن هو قول الله: "وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا". وأى حكم من الأحكام يأتى ولا تجد له سندًا من كتاب الله ويقال لك: ما سنده؟ قل: "وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا"...

وإذا كان لله أمر إجمالى، وللرسول أمر تفصيلى كالصلاة والزكاة والحج، إذن فتطيع الله وتطيع الرسول. وإذا لم يكن لله أمر فيه بل جاء من باطن التفويض فى قوله سبحانه: "وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا" فهذا الأمر أطيع فيه الرسول لأنه جاء فى آية أخرى قوله: "مَّنْ يطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ". لماذا؟ لأن

الرسول عمل بالتفويض الذى أعطاه الله له حسب قول الحق: "وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا "... أرجم رسول الله أم لم يرجم؟ قد فعل رسول الله ذلك، وفعله هو نص عملى. إنّ الفعل ليس نَصًّا قوليا يتَأَوَّل فيه. لقد رجم الرسول ماعزًا والغامدية ورجم اليهودى واليهودية، وكانا قد أُحْصِنا بالزواج والحرية. وفِعْل الرسول هو الأصل فى الحكم. فدليل الخوارج إذن قد سقط به الاستدلال وبقى ما فعله المشرع، وهو الرسول المفوض من الله فى أن يشرع قولًا أو فعلًا أو تقريرًا، أى يرى أحدًا يفعل فعلًا فيقرّه عليه. ثم نبحثها بالعقل: إذا كنت تريد ألا يوجد فى الزنا حد إلا الجلد أتسوى بين من لم يتزوج ومن تزوج؟ إن المتزوجة لها عرض ولها زوج ولها نسب ونسل. هل هذه مثل تلك التى لم تتزوج؟ إن هذا لا يتأتى أبدا بالعقل، إذن فحكم الرجم موجود من فعل الرسول، والدليل الذى استدل به الخوارج هو دليل تسرب إليه الاحتمال. والدليل إذا تسرب إليه الاحتمال سقط به الاستدلال".

هذا ما قاله الشيخ الشعراوى. ولكن إذا كانت المحصنات اللاتى تعاقَب الأَمَة بنصف عقابهن هنّ الحرائر لا المتزوجات فالسؤال هو: وكيف جعل القرآن عقاب الحرائر شيئا واحدا، وهو الجلد؟ لقد أراد الشيخ أن يخرج من مأزق فوقع فى آخر. وفى نساء النبى عليه السلام يقول تعالى: "يانِسَآءَ النّبِى مَن يأْتِ مِنكُنّ بِفَاحِشَةٍ مّبَيّنَةٍ يضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ"، أى مائتا جلدة. أما القائلون بأن عقوبة المتزوجة هى الرجم فنسألهم: كيف نضاعف الرجم هنا؟ ترى هل يقْتَل الشخص مرتين؟ ثم إن تشريعات القرآن تعامل الرجل والمرأة الزانيين على أنهما يظلان حيين بعد معاقبتهما، إذ القرآن الكريم يحرم تزويج الزانى أو تزويج الزانية من الشرفاء، فلا يصح لمؤمن طاهر أن يتزوج زانية، ولا يصح لمؤمنة طاهرة أن تتزوج زانيا حسب الآية الثالثة من سورة "النور": "الزّانِى لاَ ينكِحُ إِلاّ زَانِيةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزّانِيةُ لاَ ينكِحُهَآ إِلاّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ". فهل يمكن أن يحدث هذا لو كانت عقوبة الزنا هى الرجم؟

ولقد فسر فضيلته قوله عز شأنه عن الإماء: "فإذا أُحْصِنَّ" بمعنى "فإذا تزوجن" فلماذا لا يفسر "المحصنات" فى قوله جل جلاله فى جواب شرط تلك العبارة نفسها: "فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب" بأنهن المتزوجات؟ أيفسر الكلمة الواحدة فى نفس الجملة تفسيرين مختلفين؟ فلماذا؟ وما الحجة التى استند إليها؟ ثم إنه يقول بأن الرجم لا عذاب فيه. سبحان الله. أويظن الشيخ أن الرعب الذى يعيش فيه الزانى فى فترة انتظار الرجم أمر هين لا عذاب فيه؟ هل العذاب عنده هو العذاب المادى فقط من ضرب وجلد؟ بسيطة! تاهت والتقيناها! فهل تساقُط الأحجار كالرصاص على رأس المرجوم ووجهه أمر هين لا عذاب فيه، وهو عذاب مادى تمام المادية؟ أَوَلَمْ يأته نبأ الصحابى الذى قيل إنه كان يرْجَم واستطاع أن يخرج من الحفرة التى وضعوه فيها كى يرجموه وفر هاربا من شدة آلام الرجم؟ أكان بالله يفر من العذاب أم من التدليل والعتاب؟ أما رجم ماعز والغامدية فمن الممكن توجيه الأمر بأن الحكم أولا كان الرجم، ثم تغير وصار الجَلْد، والجلد هو ما نص عليه القرآن، بينما يخلو تماما من الرجم. وبهذا نوفق بين المتناقضات فى هذه القضية. أما إن قال الشيخ بأن السنة مثل القرآن فيمكن الرد بأن هذا يصح إذا لم يكن هناك تعارض بينها وبينه. أى حين تكون شرحا أو تفصيلا أو نصا فى موضوع لم يتناوله القرآن أصلا. أما إذا قال القرآن شيئا فهل يصح أن نهمل ما قاله استنادا إلى أن هناك حديثا يقول بعكسه؟ كيف ذلك؟ أنخضع القرآن للسنة، ونستنكف أن نخضع السنة للقرآن؟ ما لكم؟ كيف تحكمون؟ ألا إن هذا لشىء عجاب! ثم ألم يقل الرسول عليه الصلاة والسلام: "ادرأوا الحدود بالشبهات"؟ فأى شبهة أشد من الشبهة التى نحن فيها الآن ما بين القائلين بالرجم والقائلين بالجلد؟ كذلك فالخوارج ليسوا وحدهم القائلين بالجلد، بل يشْرَكُهم فقهاء غير خوارجيين منهم مثلا الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا والشيخ شلتوت والشيخ عبد المتعال الصعيدى والشيخ محمد سعاد جلال...

وهناك من يستندون فى الرجم على الرواية التالية المنسوبة إلى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: "لقد نزلت آيةُ الرَّجمِ ورضاعةُ الكبيرِ عَشْرًا، ولقد كان فى صحيفةٍ تحتَ سريرى. فلمَّا ماتَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليهِ وسلَّمَ وتشاغلنا بموتِهِ دخلَ داجنٌ فأَكَلَها". ولن أدخل فى مسألة الإسناد والجرح والتعديل بل سوف أتناولها بالمنطق المجرد وبالنظر إلى الأوضاع التاريخية والاجتماعية التى أحاطت بتلك الحادثة إن كانت قد وقعت فعلا ولم تكن من صنع خيال بعض الناس.

وأول شيء أن الرواية تقول إن الداجن قد أكلت الورقة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومعنى ذلك أن القرآن لم يحفظ كما ينبغى على النقيض مما تعهد به الله سبحانه كما رأينا آنفا. فكيف لم يهج المسلمون للواقعة وتركوها تمر وكأن أمرا جللا لم يقع ينسف هذا التعهد من الأساس؟ لقد كان الأحرى بهم أن تتزلزل الأرض تحت أقدامهم. لكننا ننظر فلا نرى انفعالا ولا ضجة ولا غضبا وكأن نصا قرآنيا لم يضع فى بطن الداجن إلى الأبد. وأين عمر مثلا من تلك المصيبة وقت حدوثها أو وقت علمه بها؟ أتراه كان سيلوذ بالصمت، وهو الغيور العنيف الذى لا تأخذه فى الله لومة لائم، ولا يبالى بأحد متى كان هناك خطأ أو تقصير؟ فهل هذا مما يعقله العاقلون؟

الغريب أن يسكت عمر حتى يموت أبو بكر ويتولى هو الخلافة بعده ثم يوشك أن يموت، وهنا وهنا فقط يتذكر عمر قصة اختفاء نص الرجم حسبما تقول الحكاية التالية: "لما صدر عن عمر بن الخطاب من مِنًى أناخ بالأبطح، ثم كوَّم كومة بطحاء ثم طرح عليها رداءه واستلقى، ثم مد يديه إلى السماء فقال: اللّهم كبرتْ سنى، وضعفتْ قوتى، وانتشرتْ رعيتى، فاقبضنى إليك غير مضيع ولا مفرِّط. ثم قَدِم المدينةَ فخطب الناس فقال: أيها الناس، قد سُنَّتْ لكم السنن، وفُرِضَت الفرائض، وتُرِكْتُمْ على الواضحة إلا أن تضلّوا بالناس يمينا وشمالا. وضرب بإحدى يديه على الأخرى ثم قال: إياكم أن تهلكوا عن آية الرجم أن يقول قائل: لا نجد حَدَّين فى كتاب الله. فقد

رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد رجمنا. والذى نفسى بيده لولا أن يقول الناس: "زاد عمر بن الخطاب فى كتاب الله" لكتبتُها: "الشيخ والشيخة فارجموهما ألبتة"، فإنا قد قرأناها. قال مالك: قال يحيى بن سعيد: قال سعيد بن المسيب: فما انسلخ ذو الحجة حتى قُتِل عمر رحمه الله".

فهل نصدق أن عمر كان يعلم أن هذه آية من القرآن ثم يخشى أن يعيدها إلى كتاب الله؟ ترى ما الذى منعه من ذلك؟ تقول الحكاية: لقد خاف أن يقول المسلمون عنه: زاد فى القرآن. فهل صحيح أنه لو كتبها فى المصحف سيكون قد زاد شيئا على القرآن؟ بطبيعة الحال لا لأنها فعلا من القرآن حسب الرواية التى بأيدينا. ثم لقد صرح أمام المسلمين بأنها من القرآن، فهل أنكر عليه أحد ذلك؟ لا. فلم الخوف إذن من الانتقال إلى الخطوة التالية وكتابتها، ونحن نعرف أن الكتابة ليست شيئا آخر غير القول مُثْبَتًا فى ورق؟ فهل هناك فرق بين هذا وذاك؟ وهل كان عمر وحده هو الذى يعرف أن هناك نصا قرآنيا برجم الشيخ والشيخة الزانيين؟ طبعا لا. فلماذا لم يستشهد بمن يشاطرونه هذه المعرفة ليحسم الأمر ويعيد كتابة الآية فى موضعها؟

ترى هل يمكن أن يهمل عمر اختفاء نص قرآنى طوال هاتيك السنين دون أن يحْرَج ضميرُه فيعيش خالى البال وكأن شيئا لم يكن؟ فما الذى جد يا ترى فجعله يتذكر الأمر بغتة ويخشى توابعه؟ إن معنى هذا أن عمر قد مات وهو يعرف أن هناك نصا قرآنيا ضاع، ولا سبيل لإعادته إلى مقره، ولم ير فى هذا ما ينبغى تصحيحه. فهل هذا مما يتقبله عقل عاقل؟ لقد كان عمر أشجع من هذا وأحزم وأعزم، ولم يكن ممن يعملون للمعترضين حسابا متى اقتنع بشىء. لقد أوقف مثلا سهم المؤلفة قلوبهم بعد قوة الإسلام دون أن يتردد لحظة. ومن قبلُ حين أراد الهجرة من مكة رأيناه يذهب إلى الكعبة حيث كانت قريش تعقد مجالسها فيصارحهم بنيته متحديا إياهم بقوله: من أراد

أن تثكله أمه أو ترمل زوجته أو ييتم ولده فليلقنى وراء هذا الوادى. كما اعترض فى البداية على نصوص معاهدة الحديبية رغم موافقة الرسول عليها.

ترى هل يمكن عمر، الذى يثور لمثل ما ثار له فى الرواية التالية على قلة شأن المسألة بالقياس إلى موضوعنا الحالىّ، أن يكون موقفه من هذا الموضوع الخطير بهذا الهدوء بل بهذا البرود؟ تقول الرواية على لسانه: "سمعتُ هشامَ بنَ حكيمٍ يقرأ سورةَ "الفرقانِ" فى حياة رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فاستمعتُ لقراءته، فإذا هو يقرؤها على حروفٍ كثيرةٍ لم يقْرِئْنيها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كذلك، فكدتُ أساورُه فى الصلاة، فانتظرتُه حتى سلَّم، ثم لَبَّبْتُه بردائِه أو بردائى، فقلتُ: من أقرأك هذه السورةَ؟ قال: أقرأنيها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ. قلتُ له: كذبتَ. فواللهِ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنى هذه السورةَ التى سمعتُك تقرؤها. فانطلقتُ أقوده إلى رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنى سمعتُ هذا يقرأ بسورة "الفرقانِ" على حروفٍ لم تُقْرِئْنيها، وأنت أقرأتنى سورةَ "الفرقانِ". فقال رسول الله صلى الله عليهِ وسلَّمَ: أرسِلْه يا عمرُ. اقرأْ يا هشامُ. فقرأ عليه القراءةَ التى سمعتُه يقرؤها، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: هكذا أُنْزِلَتْ. ثم قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: اقرأْ يا عمرُ. فقرأتُ، فقال: هكذا أُنْزِلَتْ. ثم قال: إنَّ هذا القرآنَ أُنْزِل على سبعةِ أحرفٍ، فاقرؤوا ما تيسَّر منه".

ثم لماذا لم يفصح عمر عما فى نفسه بخصوص رجم الشيخين حين تجرد زيد بن ثابت لجمع القرآن فى عهد الصديق بناء على اقتراحه هو نفسه خوفا من ضياع شىء من الكتاب المجيد بسبب استحرار القتل فى صفوف قُرّاء القرآن فى حروب الردة؟ لماذا لم يقل، بعدما انتهى زيد من مهمته، إن هناك نصا فات زيدا أن يضعه فى المصحف؟ لقد كان عمر، كما قلت آنفا، رجل حزم وعزم، فلم يكن ليضيع تلك الفرصة ويضيع معها تلك الآية. أَوَبعدما انتهى زيد واللجنة التى كانت معه من عملها، ومرت على ذلك

أعوام وأعوام، يأتى عمر فى الوقت الضائع ويتذكر أن هناك آية قرآنية سقطت من كتاب الله، ثم لايكتفى بهذا بل يعلن عن خشيته من إعادتها إلى موضعها؟ لقد كان إيمانه وحصافته جديرين بأن يجعلاه يسلك سبيلا أقوم من هذا رشدا، أو ما دام يخشى العوام إلى هذا الحد لقد كان ينبغى أن يتكتم الأمر حتى لا يثير فتنة بين المسلمين بتذكيرهم أن الله لم يحفظ قرآنه خلافا لما وعد به. الواقع أن تصرف عمر معناه أنه أراد تجنب الفتنة بإشعالها. فهل يمكن أن تكون هذه هى شخصية عمر؟

وهذه هى رواية جمع زيد للقرآن فى عهد أبى بكر، وموقف عمر من ذلك الجمع، وهو موقف يتناقض مع موقفه الذى نحن بصدده تمام التناقض، إذ كيف يكون حريصا على ألا يضيع شىء من النص القرآنى هناك، ولا يبالى بذلك هنا؟ لقد أقر زيد ولجنته آخر سورة "التوبة" رغم أنهم لم يجدوه إلا عند أبى خُزَيمَة. فلماذا يا ترى لم ينبر عمر ويقول: وأنا أيضا عندى آية ينبغى ضمها إلى كتاب الله؟ ولا أظن شهادة عمر أقل من شهادة أبى خزيمة. وهذا لو لم تكن هذه الآية لدى أحد سواه، وهو أمر مستبعد. يقول زيد بن ثابت فى الرواية المذكورة: "أرسَل إلى أبو بكرٍ مَقْتَلَ أهلِ اليمامةِ، فإذا عمرُ بنُ الخطابِ عِندَه. قال أبو بكرٍ رضى اللهُ عنه: إنَّ عُمَرَ أتانى فقال: إنَّ القتلَ قدِ اسْتَحَرَّ يومَ اليمامةِ بقُرَّاءِ القرآنِ، وإنى أخشى أن يستَحِرَّ القتلُ بالقُرَّاءِ بالمواطنِ، فيذهَب كثيرٌ منَ القرآنِ. وإنى أرى أن تَأمُرَ بجمعِ القرآنِ. قلتُ لعُمَرَ: كيف تفعَلُ شيئًا لم يفعلْه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ قال عُمَرُ: هذا واللهِ خيرٌ. فلم يزَلْ عُمَرُ يراجِعُنى حتى شرَح اللهُ صدرى لذلك، ورأيتُ فى ذلك الذى رأى عُمَرُ. قال زيدٌ: قال أبو بكرٍ: إنك رجلٌ شابٌّ عاقلٌ لا نَتَّهِمُك، وقد كنتَ تكتُبُ الوحى لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتتبَّعِ القرآنَ فاجمَعْه. فواللهِ لو كلَّفونى نقلَ جبلٍ من الجبالِ ما كان أثقلَ على مما أمَرنى به من جمعِ القرآنِ. قلتُ: كيف تفعلونَ شيئًا لم يفعَلْه رسولُ اللهِ؟ قال: هو واللهِ خيرٌ. فلم يزَلْ أبو بكرٍ يراجِعُنى حتى شرَح اللهُ صدرى للذى شرَح له

صدرَ أبى بكرٍ وعُمَرَ رضى اللهُ عنهما، فتتبَّعتُ القرآنَ أَجْمَعُه مِنَ العُسُبِ واللِّخافِ وصدورِ الرجالِ حتى وجَدتُ آخِرَ سورةِ "التوبةِ" معَ أبى خُزَيمَةَ الأنصارى، لم أجِدْها معَ أحدٍ غيرِه: "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيهِ مَا عَنِتُّمْ"... حتى خاتمةِ بَراءَة. فكانَتِ الصُّحُف عِندَ أبى بكر حتى توفَّاه اللهُ، ثم عندَ عُمَرَ حياتَه، ثم عِندَ حفصةَ بنتِ عُمَرَ رضى اللهُ عنه".

لقد كان المسلمون يهيجون لما هو أقل من هذا بمراحل كاختلافهم حول طريقة نطق بعض الألفاظ طبقا لاختلاف القراءات وخوف عمر من افتتان المسلمين بذلك وتفكيره فى جمعهم على مصحف واحد. كما ثار المسلمون على عثمان لجمعه القرآن مرة أخرى فى عدد من المصاحف والتخلص مما عداها رغبة منه فى ألا يختلف المسلمون اختلافا يهدد وحدتهم. فكيف تَلَقَّوْا تلك الواقعة بأعصاب باردة إلى هذا الحد؟ ثم كيف عرفت عائشة أن الداجن قد أكل الورقة؟ إذا كانت قد رأت ما حدث فكيف لم تتدخل وتمنع الداجن من العيث فى القرآن فسادا؟ وإذا لم تكن قد شاهدت شيئا فكيف عرفت بما حدث؟ ثم إن النبى قد غُسِّل وكُفِّن فى حجرة عائشة، التى كانت الورقة المذكورة مدسوسة تحت الفراش فيها. فكيف دخلت الداجن تلك الغرفة الصغيرة وأكلت الورقة المقدسة، وزوجات النبى وبنته وقريباته على الأقل هناك، والنبى ممدد على الفراش، دون أن تنهر إحداهن الداجن عن فراش النبى والعبث تحته؟ يستحيل أن يحدث هذا، فهن أكبر من أن تصيبهن هذه البلادة.

ونحن نعرف أن النبى لم يكن له سرير كسُرُرِنا الآن مرتفع عن الأرض بل مجرد حشية أو حصير يوضع عليها، فكيف يمد الداجن فمه تحت الحصير؟ بل كيف يمكن أن يضع النبى أو عائشة الورقة القرآنية فى ذلك الموضع الغريب؟ وهل كان من عادة العرب أن يضعوا أوراقهم، إن كان عند أحدهم شىء منها، على الأرض تحت الفراش؟ الحق أنى لم أسمع بمثل تلك الواقعة فى تلك العصور. لقد كان الورق فى عصر الجاهلية

والنبوة من الندرة بحيث أتصور أنه كان يعامل معاملة الذهب والجواهر النفيسة. فكيف تُعَامَل ورقةٌ فيها نص قرآنى بهذه اللامبالاة؟ ثم من أدرى عائشة بأن ما ضاع من القرآن هو هذان النصان فقط؟ سيقال إن المسلمين كانوا يحفظون القرآن، وإنهم قد تنبهوا إلى ضياع هذين النصين. فكيف لم يعيدوا النصين الضائعين إلى القرآن إذن ما داموا يحفظونها؟ هل غَلَّ أحدٌ يدَهم عن ذلك؟ وهذا إن كانت هناك نسخة واحدة فقط من ذينك النصين.

ثم هل تظنون أن اليهود والنصارى كانوا ليسكتوا على ما حدث فلا يقيموا الدنيا ويقعدوها شماتة فى الدين الجديد الذى يهدد دينهم ويزيد فيتهمهم بالعبث فى نصوصها؟ وهناك أيضا المنافقون الكارهون فى أعماقهم للإسلام، وكذلك المرتدون، الذين انتهزوا وفاة النبى ونكصوا على أعقابهم وخرجوا من دينه خروجا كاملا أو جزئيا، واتبع بعضهم أنبياء من قبائلهم. أتراهم كانوا يهملون تلك الواقعة فلا يستغلوها فى محاربة الدين الجديد وتسويغ خروجهم منه باعتبار أن الله لم يحفظ قرآنه كما وعد، ومن ثم فإن الأمر يبعث على الريبة والتشكك؟

ثم إن الروايات الأخرى تقول إن الرجم فى النص المفقود خاص بالشيخ والشيخة، إذ يقول: "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة". ومعنى ذلك أن الرجم لا يسرى على الشبان والرجال والكهول بل على الشيوخ فقط. لكن هل الشيوخ مِنْ عنف الشهوة بما يجعل القرآن يخصهم دون سائر الزناة بهذا الحكم الشديد كى يردعهم؟ ثم كيف نحدد العمر الذى تبدأ به الشيخوخة؟ وهل كل الشيوخ سواء؟ إن منهم القوى الذى لم تخمد فيه الشهوة، ومنهم المتداعى الأركان المحتاج إلى من يحمله. فماذا نفعل؟ وقبل ذلك ما الذى منع المسلمين يا ترى من رد ذلك النص إلى المصحف ما داموا يحفظونه على هذا النحو؟ وفوق هذا فتلك أول رواية وآخرها تتحدث عن حفظ رسول الله قرآنا مكتوبا تحت فراشه. ألا إن هذا كله لغريب!

ثـم لمـاذا يقـضى الله بـضياع نـص مـن كتابه رغـم تعهـده بحفظه ثـم الإبقاء مع هـذا على الحكـم الـذى يتضمنه ذلك الـنص؟ يـا لـه مـن أمـر مربـك! يبـدو أن مـن اخـترع هـذا الحديث ونسبه للرسول إنما أراد أن يسوغ حكم رجم الزانى، الذى لم يرد رغم خطورته فى القرآن. لكـن اختراعـه لم يكـن محبوكـا البتة. وعـلى ذكـر "البتـة" لـيس فى القـرآن كلمـة "البتة" أبدا، تلك الكلمة التى انفرد النص المذكور بورودها فيه. بل ليس فى القرآن أية كلمة مشتقة مـن الجـذر: "ب ت ت". وهـو مـا يعـضد إنكـارى أن يكـون ذلـك الـنص آيـة محذوفة من كتاب الله. وبالمثل ليس فى القرآن كلمة "الشيخة" أبدا. وهـذا مُعَضِّدٌ آخر. كـذلك لـيس فى القـرآن فى الآيـتين اللـتين تـشبهان هـذه فى التركيـب أداة شرط مثـل "إذا زنيـا". وهاتـان همـا الآيتـان المرادتـان: "والـسارق والـسارقة فـاقطعوا أيـديهما"، "الزانيـة والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة". ثم إن فى القرآن نصا خاصا بالزناة يقول: "الزانيةُ والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة". فكيف يكون هناك نص آخر فى القـرآن بحكـم آخـر؟ إن هـذا إمـا أن يربـك المـسلمين فيتـساءلوا: أى الحكمـين هـو الحكـم الصحيح؟ وإما أن يقولوا: إن حكم الرجم خاص بالشيوخ والشيخات، وحكم الجلد لمن دونهما. فكما يرى القارئ فإن هذه الروايات تربك كل شىء أيما إرباك.

ولـدن تفـسيره للآيـة الرابعـة والـثلاثين مـن سـورة "النـساء": "وَاللَّاتِـى تَخَـافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِى الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيهِنَّ سَبِيلًا" يقـول شـيخنا المبجـل إن "الـذى يفـسد البيـوت أن عنـاصر مـن الخـارج تتـدخل، وهـذه العنـاصر تـورث فى المـرأة عنـادًا، وفى الرجـل عنـادًا. لـذلك لا يـصح أن يفـضح الرجـل مـا بينـه وبين المـرأة عنـد الأم والأب والأخ، ولنجعـل الخـلاف دائـمًا محـصورًا بين الرجـل والمـرأة فقـط. فهنـاك أمـر بيـنهما سـيلجئهما إلى أن يتـسامحا معًـا. "فَعِظُـوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِى الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ". وقـالوا: إن الـضرب بـشرط ألا يـسيل دمـا ولا يكسر عظما، أى يكون ضربًا خفيفًا يدل على عدم الرضا. ولذلك فبعض العلماء قالوا:

يضربها بالسواك. وعَلَّمَنا ربنا هذا الأمر فى قصة سيدنا أيوب عندما حلف أن يضرب امرأته مائة جلدة. قال له ربنا: "وَخُذْ بِيدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ" (ص/ ٤٤). والضِّغْث هو الحزمة من الحشيش يكون فيها مائة عود، ويضربها ضربة واحدة فكأنه ضربها مائة ضربة، وانتهت. فالمرأة عندما تجد الضرب مشوبًا بحنان الضارب فهى تطيع من نفسها. وعلى كل حال فإياكم أن تفهموا أن الذى خلقنا يشرع حكمًا تأباه العواطف، إنما يأباه كبرياء العواطف. فالذى شرع وقال هذا لا بد أن يكون هكذا...

ويتابع الحق: "فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيهِنَّ سَبِيلًا". فالمسألة ليست استذلالًا بل إصلاحا وتقويما، وأنت لك الظاهر من أمرها. إياك أن تقول: "إنها تطيعنى، لكن قلبها ليس معى"، وتدخل فى دوامة الغيب. نقول لك: ليس لك شأن لأن المحكوم عليه فى كل التصرفات هو ظاهر الأحداث. أما باطن الأحداث فليس لك به شأن ما دام الحق قال: "أطعنكم". فظاهر الحدث إذن أن المسألة انتهت، ولا نشوز تخافه. وأنت إن بغيت عليها سبيلًا بعد أن أطاعتك كنت قويا عليها فيجب أن تتنبه إلى أن الذى أحلها لك بكلمة هو أقوى عليك منك عليها. وهذا تهديد من الله. ومعنى التهديد من الله لنا أنه أوضح: هذه صنعتى، وأنا الذى جعلتك تأخذها بكلمتى "زَوِّجْنى. زَوَّجْتُك". وما دمتَ قد ملكتها بكلمة منى فلا تتعال عليها لأننى كما حميت حقك أحمى حقها. فلا أحد منكما أولى بى من الآخر، لأنكما صنعتى، وأنا أريد أن تستقر الأمور".

وفى تناوله لقوله تعالى من سورة "المائدة": "يا أَيها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيمَّمُوا صَعِيدًا طَيبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيدِيكُمْ مِنْهُ مَا يرِيدُ اللَّهُ لِيجْعَلَ عَلَيكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يرِيدُ لِيطَهِّرَكُمْ وَلِيتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)" يقول عن التيمم: "قد لا يجد الإنسان المياه، وعليه إذن

بـالتيمم لأن الـصلاة عبـادة لا تـسقط أبـدا عـن المكلَّـف حتـى فى حالـة مرضـه الـذى لا يـستطيع أن يحـرك معـه أى عـضو مـن جـسمه. هنـا يـسمح سـبحانه للمـريض أن يـصلى جالسا أو مستلقيا أو يصلى بالإيماء برأسه أو يصلِّى بأهداب عينيه. وحتى مريض الشلل عليه إجراء خواطر الصلاة وأركانها على قلبه لأن فرض الصلاة عبادة لا تسقط أبدا عن الإنسان ما دام فيه عقل.

إننـا نعـرف أن الـصلاة هـى الـركن الوحيـد مـن أركـان الإسـلام الـذى يتطلـب الاستدامة، فيكفى المرءَ أن يقـول الـشهادة مرة واحـدة فى العمـر، ويـسقط الـصوم عـن الإنـسان إن كـان مريـضا، ويطعـم غيره أو يؤديه فى أوقات أخـرى إن كـان مريـضا مرضـا مؤقتا أو على سفر. وقد لا يؤدى الإنسان الزكاة لأنه فقير. وكذلك الحج لا يجب على من لم يملك الاستطاعة من مال أو عافية، ولا تبقى من أركان الإسلام غير الصلاة فإنها لا تسقط أبدًا... الله سبحانه وتعالى يريد لنا أن نستديم اتصالاتنا به ولم يشأ أن يجعل الوسيلة للـصلاة بـأمر المـاء فقـط لأننـا قـد نفقـد المـاء، وقـد يوجـد المـاء ولا نقـدر عـلى استعماله، فلـم يـشأ الحق أن يقطـع الـصلة بـأن يجعـل الوسيلة الوحيـدة للتطهـر هـى المـاء، فأوجد وسيلة أخرى. فإن فقدت المـاء أيها الإنسان فلا بـد أن تـدخل إلى لقـاء الله بنية تطهير آخـر، وهـو الـتيمم. هـذا أمـر لا يفقـده مـن عـاش عـلى الأرض. إذن فعنـدنا تَطَهُّـرٌ بالمـاء، وعنـدنا تَطَهُّـرٌ بـالتراب. لـذلك يقـول سـبحانه: "وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُمْ مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا". فإن كان الإنسان مريضًا لا يقدر على استعمال المـاء، أو كان على سفر ولا يجد المـاء، أو جاء أحـد مـن الغـائط، أى مـن قـضاء الحاجـة فى مكـان غـويط، وهـو الـواطئ المـنخفض مـن الأرض، وكانت العرب قديمًا تفعل ذلك حتى لا يراهم أحد ويكونوا فى ستر، رجالًا أو نساءً، وحتى بعد ملامسة النساء، إن لم يجد الإنسان بعدها ماء فالتيمم هو البديل...

و "الصعيد" هو ما صعد على وجه الأرض من جنس الأرض بحيث لا تدخله صناعة الإنسان كالتراب والحجر، لكن الطوب الأحمر (الآجُرّ) الذى نصنعه نحن فليس من الصعيد الصالح للتيمم لأن صنعة الإنسان قد دخلته. والأركان المفروضة فى طهارة الأبعاض أربعة، أما طهارة الجسم فهى طهارة واحدة تشمل كل الجسم. وفى حالة التيمم جعل الحق الطهارة استعدادًا للصلاة عوضًا عن الوضوء بمسح الوجه واليدين، وكذلك فى الطهارة من الجنابة... وجعل الحق الطهارة بالماء أو التراب إزالة للحرج. فالإنسان الذى لن يجد ماء سيقع فى الحرج بالتأكيد لأنه يريد أن يصلى ولا يجد وسيلة للطهارة. وإذا كان عنده القليل من الماء ليشرب فهل يتوضأ أو يستديم الحياة ويبقى على نفسه بشرب الماء؟ ولا يريد الله أن يعْنِت خَلْقَه ولا أن يوقعهم فى الحرج، بل خفف عليهم وجعل عنصر التراب يكفى كبديل للماء. "وَلكِن يرِيدُ لِيطَهِّرَكُمْ"...".

هذا ما قاله الشيخ رحمه الله، ولن أقف من كلامه كله إلا عند قوله إن المسافر إذا لم يجد الماء يتيمم، بما يعنى أن السفر وحده لا يكفى للتيمم لمن يريد حتى لو وُجِد الماء. ذلك أن هناك رأيا آخر يرى أن السفر وحده يبيح التيمم: وُجِد الماء أو فُقِد. وفى ضوء هذا الرأى نقرأ الآية مهتدين بعلامات الترقيم على النحو التالى: "فإن كنتم مرضى، أو على سفر، أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء، فتيمموا صعيدا طيبا...". فالمرض فى حد ذاته يبيح التيمم، بل قد يوجبه فيما لو كان التوضؤ أو الاغتسال يضر الشخص. كذلك فالسفر فى حد ذاته يبيح للمسافر التيمم بغض النظر عن توافر الماء أو لا. ثم أخيرا عندنا فقدان الماء عند الحاجة إلى الوضوء أو الغُسْل. وصاحب هذا الرأى هو الشيخ محمد عبده، ويتابعه فيه محمد رشيد رضا ومحمود شلتوت وسيد قطب مثلا. وهو رأى فى منتهى الوجاهة، إذ لو كان يشترط مع السفر فقد الماء لما كانت هناك حاجة البتة لذكر السفر لأنه لو كان الشخص موجودا فى الحضر ثم فقد الماء فليس أمامه إلا التيمم، فما بالنا بالسفر؟ فما دام مفهوما أن السفر

أولى من الحضر فى هذه الحالة لم تكن هناك حاجة على الإطلاق للحديث عن السفر، وإلا كان فى الكلام تزيد وثرثرة لا يصح أن نتصور وجودها فى القرآن على الإطلاق. وقد عالجت هذه المسألة بشيء من التفصيل فى كتابى عن سورة "المائدة".

وفى تفسير الآية ٤٣ من سورة "النساء" فى "المنار" للشيخ رشيد رضا مثلا نقرأ ما يلى: "فى هذه الحالات: المرض والسفر وفقد الماء عقب الحدث الأصغر الموجب للوضوء والحدث الأكبر الموجب للغسل تيمموا صعيدًا طيبا. أى اقصدوا وتَحَرَّوْا مكانًا ما من صعيد الأرض، أى وجهها، طيبًا، أى طاهرًا لا قذر فيه ولا وسخ، فامسحوا هناك بوجوهكم وأيديكم تمثيلًا لمعظم عمل الوضوء فصَلُّوا. فقَيدُ "فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً" للجائى من الغائط ومُلامِس النساء على مذهب من يجعل القيد بعد الجمل للأخيرة ومذهب من يجعله للجميع إلا أن يمنع مانع. والمانع هنا أنه لا يظهر وجه لاشتراط فقد الماء لتيمم المريض والمسافر دون الصحيح والمقيم.

الأستاذ الإمام: المعنى أن حكم المريض والمسافر إذا أرادا الصلاة كحكم المُحْدَث حدثًا أصغر أو مُلامِس النساء ولم يجد الماء، فعلى كل هؤلاء التيمم فقط. هذا ما يفهمه القارئ من الآية نفسها إذا لم يكلف نفسه حملها على مذهبٍ مِنْ وراء القرآن بجعلها، بالتكلف، حجة له منطبقة عليه. وقد طالعت فى تفسيرها خمسة وعشرين تفسيرًا فلم أجد فيها غَنَاءً ولا رأيت قولًا فيها يسلم من التكلف، ثم رجعت إلى المصحف وحده فوجدت المعنى واضحا جليا. فالقرآن أفصح الكلام وأبلغه وأظهره، وهو لا يحتاج عند من يعرف العربية: مفرداتها وأساليبها إلى تكلفات فنون النحو وغيره من فنون اللغة عند حافظى أحكامها من الكتب مع عدم تحصيل ملكة البلاغة... إلى آخر ما أطال به فى الإنكار على المفسرين الذين عدوا الآية مشكلة لأنها لم تنطبق على مذاهبهم انطباقًا ظاهرًا سالمًا من الركاكة وضعف التأليف والتكرار التى يتنزه عنها أعلى الكلام وأبلغه".

وعند وقوفه لتأمل قوله تعالى فى سورة "المائدة": "يا أَيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يحِبُّهُمْ وَيحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يؤْتِيهِ مَنْ يشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)" يقول الشعراوى: "ومعنى قوله: "مَن يرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ" أى من يتراجع منكم عن الإسلام فسيأتى الله بعِوَضٍ عنه، وسيأتى بقوم لن يكونوا مثل هؤلاء المرتدين. إذن فمن يرتد فعليه أن يفهم أنه لن ينقص جند الله واحدًا لأن الذى أَذِنَ لشرعه أن ينزل على رسول ونبى خاتم لن يجعل هذا الرسول وهذا المنهج تحت رحمة أغيار الناس. فإن خرج أناس عن المنهج فالله يستبدل بهم غيرهم... وعندما نقرأ قول الحق: "مَن يرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يحِبُّهُمْ وَيحِبُّونَهُ" (المائدة/ ٥٤) نعلم أنه سبحانه يعلمنا أنه قادر على أن يأتى بأهل إيمان غير الذين ارتدوا عنه، تمامًا كما أخبرنا من قبل: "وَمَن يرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" (البقرة/ ٢١٧). والقول هنا خبر عن مصير المرتد إلى جهنم بعد أن تقوم الساعة.

ولكن القول: "مَن يرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يحِبُّهُمْ وَيحِبُّونَهُ" يدل على أن إجراءً سيحدث قبل أن تقوم القيامة. ومن ذا الذى يستطيع أن يتصور أن إلهًا ينزل قرآنا يتحدى به ثم يأتى فى القرآن بقضية ما زالت فى الغيب ويجازف بها إن لم تكن ستقع؟ والحق يقول: "فَسَوْفَ يأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يحِبُّهُمْ وَيحِبُّونَهُ". و"سوف" تخبرنا بموقف قادم سيأتى من بعد ذلك. ونقول هنا: من الذى يستطيع أن يتحكم فى اختيارات الناس للإيمان؟ لا أحد يستطيع أن يتحكم فى اختيارات الناس للإيمان إلا الله سبحانه وتعالى، فهو الذى يتحكم ويحكم ويخبرنا بأنه سوف يأتى أناس يؤمنون بدلًا من المرتدين. أما إن ارتد أناس وانتظروا أن يرَوُا البديلَ لهم، ولم يأت، فماذا يكون الأمر؟ لا بد أن تنصرف الناس عن الدين. ولم يكن الحق ليجازف ويجرى على لسان

محمد بأن قومًا سيرتدون وهو لا يعلم أيأتى قوم مرتدون. والعلم جاء فى هذه الآية كما جاء فى كل القرآن من الله جل وعلا. وقد قالها الحق قضية كونية: "فَسَوْفَ يأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يحِبُّهُمْ وَيحِبُّونَهُ"... وعندما يقول الحق: "فسوف" فلنعلم أن ما يأتى بعدها هو من إعلامات النبوة التى جاءت على لسان محمد فى قرآن الله لأن ذلك الأمر قد حدث كما جاء فى قرآن الله. فقد ارتد قوم وانقسموا فى الردة إلى قسمين: قسم ارتد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقسم ارتد على عهد أبى بكر، ومنهم من ارتد على عهد عمر. وحين تنظر إلى ما بعد "سوف" لا بد أن تعرف أن هناك امتدادا زمنيا...

ويؤخَذ فى ظاهر الأمر على الإسلام أن من يرتدّ يقْتَل. ونقول: أيظن أحد أن هذه ضد الإسلام؟ لا. إنها لصالح الإسلام لأن الإنسان إذا علم أنه عندما يقْبِل على الإسلام فهو يقبل على الدين الكامل لأن من يخرج عليه يهْدَر دمه ويقتل، وعلى من يفكر فى الدخول إلى الإسلام أن يحتاط لحياته. إذن فالإسلام لا يسَهِّل لأحدٍ الدخولَ فيه، ولكنه يصَعِّب عملية الدخول، وينبِّه كل فرد إلى ضرورة الانتباه قبل الدخول فى الإسلام لأنه دخول إلى دين كامل وليس لهوًا أو لعبًا. إن على من يرغب فى الدخول فى الإسلام أن يفكر جيدًا وأن ينتهى إلى الحق لأن حياته ستكون ثمن الرجوع عن الإسلام. وهذا دليل على جدية هذا الدين وعدم السماح بالعبث فى عمليات الدخول فيه. وحين يصعِّب الإسلام عملية الدخول فيه إنما يعطى فرصة الاختيار ليعلم من يختار الدين الإسلامى أن الرجوع عن الإسلام ثمنه الحياة. وساعة يطلب دين أن يفكر الإنسان جيدًا قبل أن يدخل فيه فهل فى ذلك خداع أو نصيحة؟ إنها النصيحة، وهى عملية لصالح الإسلام، وهى أمر علنى ليعلم كل داخل فى الإسلام أن هذا هو الشرط. ولو أن الإسلام يريد تسهيل المسألة لقال: تعال إلى الإسلام واخرج متى تريد. لكن الدين الحق لا يخدع أحدًا. وسبحانه يقول: "لِيهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَينَةٍ وَيحْيى مَنْ حَى عَن بَينَةٍ" (الأنفال/ ٤٢)...

إن الردة فى زماننا جاءت من فارس ممثلةً فى البهائية والبابية، وهدف المرتد يكون جاهَ الدنيا إن كان يريد الحكم، ووسيلة المرتد تيسير التكليف لمن يتبعه فى الارتداد. ومن يدعى لنفسه النبوة والقدرة على الإتيان بتشريع جديد إنما يطلب لنفسه جاه الدنيا، والذى يتبع ذلك المدعى للنبوة إنما يقصد لنفسه تيسير التكليف... إننا نجد بعضًا من المثقفين أو الذين يدعون أنهم يعملون عقولهم فى كل شىء يتبعون هؤلاء الدجالين. وقد رأينا منذ أعوام قليلة العجب العجاب عندما ادعى أحدهم النبوة، وآمن به واتبعه عدد من الرجال والنساء. وكانت المرأة المتزوجة تدخل على هذا النبى المزيف لتقبّله ويقبّلها من شفتيها وأمام زوجها. أين نخوة الرجل إذن فى مثل هذا الموقف؟ إنه التدليس الضال الذى يدعى لنفسه الهداية. إنها هداية إلى الجحيم. وهل تنبع تلك التيارات من الإسلام؟ لا، بل تأتى من قوم يبغضون الإسلام، ويصطادون الرجل الذى تظهر عليه المواهب والمخايل، ويقنعونه بأنه يمكن أن يلعب دور النبى المزيف.

مثال ذلك الهندى ميزرا غلام أحمد، الذى جاء بالقاديانية. ونعلم أن الإنجليز قد استعمروا الهند لسنوات طويلة، وكانوا يعتبرونها دُرَّة التاج البريطانى. ونعلم أن خصوم الإسلام، وعلى رأسهم الاستعمار، يحاولون أن ينالوا من الإسلام لأنهم رأَوْا أن التمسك بالدين أتاح للمسلمين فتح الأمبراطوريات لا بالسيف ولكن بحماية حق الاعتقاد. إذا كانت الدعوة قد نشأت فى الجزيرة العربية فقد امتدت إلى آفاق الأرض، وانهزمت الفرس والروم أمام الذين يحملون راية "لا إله إلا الله. محمد رسول الله". ومن بعد ذلك نجد أن الذين هزموا التتار هم المسلمون. وكذلك اشتعلت الحروب الصليبية فى حملات متتابعة، ولكن المقاتلين تحت راية الإسلام أنزلوا بهم الهزيمة الضارية. إن الذى أرهق الاستعمار من الإسلام طاقة الإيمان والقتال فى سبيله، ولذلك جاء ميزرا غلام أحمد وحاول أن يضعف القدرة على الجهاد عند المسلمين، فقال: لقد جئت لكم لألغى الجهاد من العقيدة الإسلامية. وجرؤ ميزرا غلام أحمد وأعلن إلغاء

القتال. والحق يقول فى كتابه الكريم: "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ" (البقرة/ ٢١٦). وسبحانه بقدرته يمهل ولا يهمل. وجاء وباء الكوليرا فى الهند سنة ١٩٠٨ ليقضى على غلام أحمد وينهى حياته تأكيدًا لقول الحق: "فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ" (المائدة/ ٥٤). وظهر أيضًا فى فارس، وهى موطن سلمان الفارسى، مَنِ ادعى لنفسه النبوة، وكان من الذكاء بحيث حاول التسلل إلى الإسلام لينقلب عليه من بعد ذلك. قال الرجل: أنا الباب، ومن بعدى سيأتى المهدى. وعندما سأله الناس: وماذا تحمل من منهج؟ أجاب: جئت لأخفف عنكم بعض التكاليف لأن الإسلام صار بتكاليفه لا يناسب العصر. واتبعه أناس، وثار عليه أناس. ومن اتبعوه ذهبوا إليه بغية تخفيف المنهج، ومن ثاروا عليه كانوا من القوم الذين يحبهم الله ويحبونه، وجاءوا له بالعلماء يناقشونه ويحاجونه، فاعترف بأنه مخطئ وأعلن التوبة فى المسجد الكبير. وعند ذلك تركه الناس. لكن هذا الرجل وجد من يلتقطه ليعيده إلى ضلاله وتضليله، التقطه قنصل روسيا فى فارس، وهيأ له ملجأ، وأوعز إليه أن يعلن أن توبته إنما كانت هربًا من القتل. واستطاع هذا الباب، واسمه على محمد الشيرازى، أن ينال دعاية واسعة، وخاصة بعد أن انضمت إلى دعوته فتاة اسمها "قُرَّة العين"، وكانوا يلقبونها بـ"الطاهرة"، ووقفت لتخطب خطبة فى الناس.

ومن يقرأ تلك الخطبة يعرف إلى أى انحلال كان يدعو ذلك الباب. وأعلنت هذه المرأة أن الإسلام قد انقضت مدته كدين، وأن الباب قد اختفى لفترة لأنه فى انتظار شرع جديد، وأن العالم يمر بفترة انتقال، وصار ينزل المنهج الجديد على الباب. وقالت تلك "الطاهرة": إنّ التشريع المختص بالمرأة والذى جاء إلى "الباب" هو: "المرأة زهرة خُلِقَت لتُشَمّ ولِتُضَمّ، فلا يمْنَع ولا يحَدّ شامّها ولا ضامّها. وما دامت المرأة زهرة إذن فهى تُجْنَى وتُقْطَف، وإلى الأحباب تُهْدَى وتُتحَف"... إلى أن تقول فى نهاية خطابها: "لا تحجبوا حلائلكم عن أحبابكم". ومن يرغب فى أن يعرف مسلسل الفضائح الخلقية

التى جاءت فى خطاب "قرة العين" تلك فليقرأ كتاب "نقطة الكاف" للباب الكاشانى طبعة لندن صفحة ١٥٤. هذا ما جاء به الباب من بعد أن أعلن إلغاء الإسلام: لا تحجبوا حلائلكم عن أحبابكم، فإنه الآن لا منع ولا حد. خذوا حظكم من الحياة، فإنه ليس بعد الممات شيء. وهذه خلاصة الانحلال الذى جاء به هذا المدعو بـ"الباب". لقد أعلن أنه لا حساب ولا يوم آخر، وأن المرأة عِرْضُها مشاعٌ تُضَمّ وتُشَمّ. والغريب أن بعضًا من المتزوجين قد اتبعوه. وقالوا عن أنفسهم إنهم متدينون.

لقد أخذوا ظاهر الأمر واعتبروا الفسوق الذى جاء به هذا الباب وأسموه: "دينا" بعد أن سهَّل لهم بتعاليمه الفساد، فأخذوا الانحلال عن التكاليف، وادَّعَوْ أن ذلك دين! هكذا أراد خصوم الإسلام للإسلام. وقنصل روسيا القيصرية هو الذى شجع هذا الرجل وحماه فى عامٍ واحدٍ وستين ومائتين بعد الألف من الهجرة. وبرغم ذلك حكم أهل فارس بإعدامه بعد موجة السخط العارم، ولم يستطع أن ينقذه أحد، وتم إعدامه فعلًا. والذين قرأوا أقواله لحظة الإعدام عرفوا كيف أنه تذلل وخضع وبكى. ولو كان مبعوثًا بحق من عند الله لما تذلل وخضع وطلب النجاة. ولامتلأ بالسرور والحبور لأنه ذاهب إلى الله. لقد عرف هذا الرجل الدجال إلى أى عقاب سيذهب. لذلك بكى واسترحم. ولما قتل الباب أعلن واحد من رجاله، وهو ميرزا حسين، أن الكتاب الذى جاء به الباب كتاب كاذب، وكان اسمه "البيان". وقال ميرزا حسين على إنه جاء بكتاب اسمه "الأقدس". كأن المسألة كلها خداع للناس وتبرير الخداع.

ولو رجعنا إلى كتاب يسمونه: "بهجة الصدور" لمؤلفه حيدر بن على البهائى لوجدنا كل الانحرافات الممكنة. فالبهاء يقول: استر ذهبك وذهابك ومذهبك، أى لا تجعل أحدًا يعرف ثروتك ولا إلى أى مكان تذهب ولا تقل للناس إنك بهائى حتى لا يقتلوك. واعتبر البهائيون أن القرآن قد انتهت مدته وأن كتاب "الأقدس" هو كتاب فوق القرآن. ويقرر كتاب "الأقدس" أن القدس لا بد أن تكون وطنًا لليهود وأن

موسى سيد الرسل جميعًا. ومما يدلنا على أن ذلك الرجل كان صنيعة الاستعمار والصهيونية أنهم أقاموا له حفل تكريم فى بريطانيا ومنحوه وسام الفروسية الإنجليزى لأنه رجل خدم الاستعمار. ونجد أن شيخنا رشيد رضا، الذى نقل لنا تاريخ الإمام محمد عبده، يروى قصة لقاء بينه وبين ذلك المدعو: "بهاء" فى بيروت. وحكى الشيخ رشيد عن الإمام محمد عبده أن هذا البهاء كان يأتى للصلوات الخمس ويصلى الجمعة. وعندما سأله عن تلك المسألة المسماة بـ"البهائية" أجاب بأنها محاولة للتقريب بين الشيعة وأهل السنة. وعندما أمرت الدولة العثمانية بمحاكمة ذلك البهاء توسط قنصل روسيا، فاكتفوا بنفيه إلى بغداد. وعاش فترة فيها ثم مات، وقام الأمر من بعده لابنه عباس المسمى: عبد البهاء.

لقد كانت البداية برجل سمى نفسه: "الباب" صاحب كتاب "البيان"، وقال فيه: "ملعون مطرود من يدعى أنه جاء بشريعة بعد شريعتى إلا بعد مرور ألف سنة". وما إن تمر سبع سنوات حتى جاء رجل ثان يسمى نفسه: "البهاء"، وأعلن أنه جاء بشريعة جديدة، ويعقد الوصية لابنه المسمى: عبد البهاء. ثم يكون الأمر من بعده إلى ابنه المسمى: شوقى أفندى، وكان يقيم بعكّا. هكذا انفضحت أكاذيبهم. ورئيس البهائية الحالى هو يهودى اسمه بترسون. إذن فالردة عن الإسلام لم تكن نابعة من نفوس المسلمين، ولكن مدفوع إليها من خصوم الإسلام الذين يأخذون أى رجل ملحد فيه بعض من الذكاء وينفخون فيه بدعاياتهم حتى يشوهوا دعوة الإسلام. وأقاموا مراكز لمثل هذه الانحرافات فى بلجيكا وأمريكا وإنجلترا، وحاولوا النفاذ إلى البلاد الإسلامية لينشروا فيها دعوتهم ومبادئهم. وكانوا يأخذون المرأة كنقطة هجوم على الإسلام، ويتهمون الإسلام بأنه يضع المرأة فى الحريم، ويحبسها فى خيمة... إلى آخر تلك الدعايات التى تشوه تكريم الإسلام للمرأة".

لكن هل صحيح أن المسلمين لا يرتدون من أنفسهم بل يحتاجون إلى من يشككهم فى دينهم ويضللهم؟ الواقع أن المسلمين كغيرهم قد يرتدون من تلقاء أنفسهم، وقد تكون ردتهم بتضليلٍ مِنْ سواهم. ولم يكن هناك غربيون أيام مسيلمة والأسود العنسى وسجاح يغرونهم بالارتداد وينفخون فى غرورهم، بل ارتدوا من عند أنفسهم وتابعهم مرتدون كثيرون. أما فى العصور الحديثة فقد خطط الغرب لتشكيك المسلمين فى دينهم وتنفيرهم منه وإغرائهم بمغادرته. وهو ما يعرف بـ"الحرب المعنوية". ونقطة أخرى: فالشيخ يقول إن الإسلام واضح فى القول لكل من يقرر اعتناقه والدخول فى أمة المسلمين: فَكِّرْ جيدا قبل اعتناق الإسلام لأنك متى دخلته لا يصح أن تغادره، وإلا طارت رقبتك. إن هذا الكلام يذكرنا بالمثل القائل إن دخول السجن ليس كالخروج منه. فهل الإسلام سجنٌ متى دخله الإنسان فلا خروج له منه؟ إن السجن نفسه لا يستمر إلى الأبد كما هو معروف. ثم إذا كان هذا يقال لمن يريد ترك دينه أو عقيدته السابقة واعتناق دين محمد صلى الله عليه وسلم فماذا فى المسلم الذى وُلِد مسلما ولم يدخل الإسلام بل وَعَى فوجد نفسه مسلما؟ معنى كلام الشيخ الكريم أنه لا ينطبق عليه ما قاله رحمه الله. وظاهر الكلام إذن أنه يعْفَى من حد الردة. كما أننا لو أعملنا مبدأ "أحب لأخيك (الإنسان) ما تحب لنفسك" لتفهمنا موقف أصحاب الديانات الأخرى فى منعهم أبناء دينهم من تركه واعتناق الإسلام ومعاقبتهم لهم، وهو ما يترتب عليه ألا يدخل أحدٌ فى ديننا إلا من يحمل روحه على كفه. ونادرٌ ما هؤلاء. وهذا إن وُجِدوا وأفلتوا من قبضة أهل دينهم!

والحق أن الناظر فى القرآن كله لا يجد عقوبة على المرتد، بل العقوبة فيه أخروية فحسب. وفوق هذا فالآيات التى تتحدث عن حرية المعتقد كثيرة جدا. فهل نقول إن الرسول فى مكة كان ينافح عن حرية المعتقد، لكنه لما هاجر إلى يثرب وآنس من نفسه قوة غير موقفه السابق تماما؟ أستغفر الله. أما استتابة المرتد، فإذا لم يتب قُتِل، فهل

الأفكار والمعتقدات تُفْرَض فرضًا؟ وأما إذا أعلن توبته وكان كاذبا فقد كسبنا فى هذه الحالة منافقا، وما أخطر النفاق والمنافقين! نعم إن أبا بكر والصحابة الكرام قد وقفوا وقفة صارمة حاسمة لا تعرف الهوادة ولا اللين مع حركة الردة التى انفجرت هنا وهناك فى بلاد العرب. لكن لا ينبغى أن ننسى أن هذه الحركة ليست حالة فردية راجَعَ فيها صاحبها عقله واعتقاده بل كانت حركة سياسية تريد هدم الدولة والعودة بالعرب إلى همجية الجاهلية كرة أخرى، وكأنك يا أبا زيد ما غزوت، فكان لا بد من الوقوف فى وجهها بكل قوة وعزم وعدم التهاون فى أمرها والقضاء عليها وإخماد أنفاسها.

ومن آيات القرآن المجيد التى ترسّخ مبدأ حرية الاعتقاد: "لستَ عليهم بمسيطر"، "وما أنت عليهم بوكيل"، "وما أنا عليكم بوكيل"، "قل: لستُ عليكم بوكيل"، "وما أنا عليكم بحفيظ"، "وقل: الحقُّ من ربكم. فمن شاء فلْيؤمنْ، ومن شاء فلْيكفرْ"، "وما أرسلناك عليهم وكيلا"، "ولو شاء ربك لآمَنَ مَنْ فى الأرض كلُّهم جميعا. أفأنت تُكْرِه الناسَ حتى يكونوا مؤمنين؟"، "ما أنت إلا نذير"، "إنْ عليك إلا البلاغ"، "ولو شاء ربك لجعل الناسَ أمةً واحدةً. ولا يزالون مختلفين"، "لا إكراهَ فى الدين. قد تَبَيَنَ الرُّشْدُ من الغَيّ"، "ومن يرْتَدِدْ منكم عن دينه فيمُتْ وهو كافرٌ فأولئك حَبِطَتْ أعمالهم فى الدنيا والآخرة، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون"، "إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا لِيهْدِيهم سبيلا"، "يا أيها النبى، جاهِدِ الكفار والمنافقين واغْلُظْ عليهم، ومأواهم جهنم، وبئس المصير * يحلفون بالله ما قالوا. ولقد قالوا كلمة الكفر، وكفروا بعد إسلامهم، وهَمُّوا بما لم ينالوا. وما نَقَموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله. فإن يتوبوا يكُ خيرا لهم، وإن يتَوَلَّوْا يعذبْهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة. وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير"...

وعموما فالمسلم فى الظروف الاعتيادية لا يرتد عادة لأن الإسلام دين عبقرى عظيم لا مثيل له بين الأديان والمذاهب والفلسفات والأنظمة. أما حين يروّج الوعاظ لإسلام يدعو إلى الخنوع والكسل والتنبلة ويختصرونه فى اللحية والجلباب وما إلى ذلك مما لا يشكل أية أهمية على الإطلاق ويركزون على المحرمات ويوسعون دائرتها بغباء أو بخبث أو بهما معا، وينظر المسلم فلا يجد للإسلام دورا فى ترقية حياته، ويرى أن أبواب الرحمة قد سُدَّتْ سَدًّا فليس فى الإسلام فتحة تهب منها عليه النسائم والأرواح، فإنه يضيق بهذه النسخة الكاذبة من الإسلام ويبدأ قلقه ثم تمرده غير دار أن هذا ليس هو الإسلام، إذ الإسلام رسالة حضارية، ودائرة المباحات فيه واسعة، والمحرمات قليلة، وحريةُ التفكير دون خوفٍ مبدأٌ من مبادئه النبيلة، وهو دين الجمال والذوق الكريم الراقى والنظافة والنظام والتخطيط والرقىّ، ويحب لعباده أن يستمتعوا بدنياهم وبالنعم التى ملأ الله الدنيا بها، ويريد لهم أن يكونوا أقوياء بالعلم والعمل والإتقان والتخطيط والغنى والتعاون والعدل، وإن كانت بلاد الإسلام فى كثير من الحالات أبعد ما تكون عن هذه الرسالة الحضارية، مما يربك عقل المسلم ويملؤه بالرِّيب ويدفعه إلى النفور والتمرد، على أن يعرف أنه هو أيضا مسؤول عن انحدار الحال فى بلاد الإسلام إلى هذه الدرجة بسكوته وكسله وخنوعه الكامل للظلم والفساد والتعايش مع كل شىء قبيح.

ونصل إلى قوله سبحانه فى سورة "الأنعام": "قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥)"، فماذا يقول الشيخ الجليل؟ قال رحمه الله: "والحق سبحانه وتعالى قد تكلم عن التحريم فى آيات كثيرة: فهناك الآية التى قال فيها: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ" (المائدة/ ٣)، وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد

الحصر فى أربعة فقط، فيقول سبحانه: "قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوْحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ" (الأنعام/ ١٤٥)، فكيف يتفق هذا النص مع النص الآخر؟ من يقول ذلك نقول له: أنت لا تفرق بين إيجاز وإطناب، ولا تفرق بين إجمال وتفصيل. فالذى تُرِك فى هذه الآية داخل فى الميتة لأن المنخقة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع والذى ذُبِح على النصب وما أهلّ به لغير الله موجود وداخل فى كلمة "الميتة".

ثم من قال إن القرآن هو المصدر الوحيد للتشريع؟ التشريع أيضًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتفويض من الله فى قوله تعالى: "وَمَآ ءَاتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا" (الحشر/ ٧). فلا تقل: "إن المحرمات فقط محصورة فى هذه الآية" لأن فيه محرمات كثيرة بدليل أن الله مرّة يُجْمِلها فيحرّم علينا الخبائث، فكل خبيثٍ مُحَرَّم. وقلنا من قبل: إن الدم المسفوح مُحَرَّم، والدم المسفوح هو السائل الذى ينهال ويجرى وينصبّ ساعة الذبح. وهل هناك دم غير مسفوح؟ نعم، وهو الدم الذى بلغ من قوة تماسكه أَنْ كَوَّن عضوًا فى الجسم كالكبد والطِّحال. ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "أُحِلَّتْ لنا ميتتان ودمان: فأما الميتتان فالحوت والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال"، وفى رواية أخرى: "السمك والجراد". وعلى منطق التحريم للميتة والدم كان لا بد ألا نأكل الميتة من السمك والجراد ولا الكبد والطحال، ولكن الله أحل السمك والجراد والكبد والطحال لأنها لا تضر الجسم. فالسمك والجراد ليس لهما نفسٌ سائلة أى دم يجرى. فإذا ما ذبحنا أحدهما لا يسيل له دم. أما الكبد والطحال فهما من دم وصل من الصلاحية أنه يكوّن عضوًا فى الجسم، ولا يتكوّن عضو فى الجسم يؤدى مهمة من دم فاسد، بل لا بد أن يكون من دمٍ نقى.

والحق الذى شرَّع يقدر الظروف المواتية للمكلَّفين، وقد تمر بهم ظروف وحالات لا يجدون فيها إلا الميتة، وهنا يأكلون أكل ضرورة على قدر دفع الضر والجوع. لكن على

المسلم ألا يملأ بطنه من تلك الأشياء: "فَمَنِ اضْطُرَّ غَيرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" (الأنعام/ ١٤٥). وأنواع الاضطرار ألا تجد ما يؤكل من الحلال أو أن يكون ما يؤكل من الحلال موجودًا إلا أن هناك من يكْرِهك على أن تأكل هذا المحرَّم. فالإكراه داخل فى الاضطرار، والاضطرار يحملك ويدفعك إلى أن تمنع عن نفسك الهلاك فتأخذ من طعام حتى تقتات فلا تموت من الجوع. فإذا كان الله قد أباح لك أن تأكل من الميتة فى حال مظنَّةِ أن تموت من الجوع فما بالك من الإكراه بالموت العاجل؟ إنه أولى بذلك لأنه سبحانه هو الذى رخّص، وهو الذى شرع الرخصة. ومعنى ذلك أنها دخلت التكليف لأن الله يحب أن تُؤْتَى رُخَصُهُ كما يحب أن تُؤْتَى عزائمُه، وما دامت قد دخلت فى دائرة التكليف فهنا يكون الغفران والرحمة".

وقد سبق أن تناولت مسألة الأطعمة المحرمة فى كتابى: "سورة المائدة- دراسة أسلوبية فقهية مقارنة". وخلاصة القول أن هناك من لا يرى طعاما محرما غير هذه الأصناف الأربعة التى فى آية سورة "الأنعام" المذكورة هنا اعتمادا على استعمال أداة الحصر فيها: "لا... إلا...": "لا أجد فيما أُوحِىَ إلىَّ محرَّمًا على طاعمٍ يطْعَمُه إلا أن يكونَ ميتةً أو دما مسفوحا أو لحم خنزير... أو فِسْقًا أُهِلَّ لغير الله به"، وعلى الآية ١٧٣ من سورة "البقرة"، التى تستعمل أيضا أداة حصر، وهى "إنما": "إنما حرَّم عليكم الميتةَ والدمَ ولحمَ الخنزير وما أُهِلَّ به لغير الله"، وإن كانت السنة قد وسَّعت دائرة المحرَّمات فدخل فيها الحمار الأهلى وما له أنيابٌ من الحيوانات ومخالبُ من الطيور، لكنه ينظر إليها على أنها تحريمات مؤقتة بظروفها، أو على أنها مكروهة وليست حراما. أما غالبية الفقهاء فتحرِّم ما حرمته السنة النبوية. وهناك تفصيلات أخرى يرجع فيها إلى كتابى المذكور لمن أحب. من ذلك مثلا أن من الفقهاء من يضيف محرمات أخرى، وبعضهم يحرم بعض ما حرمته السنة، ويحلل بعضها الآخر. وإذا رجع الواحد منا إلى كتاب ككتاب عبد الرحمن الجزيرى فى الفقه المقارن: "الفقه على المذاهب الأربعة"

لأصابه الدوار لدى تتبع الخلافات بين المذاهب والعلماء وما فى ذلك من تفاصيل واستثناءات واختلافات على كل لون وشكل. ثم يبقى قول الشيخ إن "المنخنقة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع والذى ذُبِح على النصب وما أهلّ به لغير الله موجود وداخل فى كلمة: الميتة". وواضح أنه لون من السهو، فالمنخنقة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع تدخل فعلا فى الميتة، لكن كيف يعَدُّ ما "ذُبِح" على النصب وما "أُهِلَّ لغير الله به" ميتة رغم أنه قد تم ذبحها؟ إنهما محرَّمان لا لأنهما ميتتان بل لأنهما ذُبِحا للأصنام أو ذُكِر اسم غير الله عليهما.

وفى كلامه عن قوله جل جلاله: "وَإِذَا بَدَّلْنَآ آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَآ أَنْتَ مُفْتَرٍ" (النحل/ ١٠١) يقول الشعراوى رحمه الله إن "المراد بقول الحق سبحانه: "آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ" (النحل/ ١٠١)، أى جِئْنا بآية تدلُّ على حكم يخالف ما جاء فى التوراة. فقد كان استقبال الكعبة فى القرآن بدل استقبال بيت المقدس فى التوراة. وقوله: "وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ" (النحل/ ١٠١)، أى ينَزِّل كل آية حَسْب ظروفها: أمةً وبيئةً ومكانًا وزمانًا. وقوله: "قَالُوا إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ" (النحل/ ١٠١)، أى اتهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكذب المتعمد وأن هذا التحويل من عنده، وليس وَحْيا من الله تعالى لأن أحكام الله لا تتناقض. ونقول: نعم أحكام الله سبحانه وتعالى لا تتناقض فى الدين الواحد، أما إذا اختلفتْ الأديان فلا مانعَ من اختلاف الأحكام.

إذن فآيات القرآن الكريم لا تتبدّل، ولكن يحدث فيها نَسْخ كما قال الحق تبارك وتعالى: "مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا" (البقرة/ ١٠٦). وإليك أمثلة للنسْخ فى القرآن الكريم: حينما قال الحق سبحانه: "فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ" (التغابن/ ١٦) جعل الاستطاعة ميزانًا للعمل، فالمشرّع سبحانه حين يرى أن الاستطاعةَ لا تكفى يخفّف عنَّا الحكم حتى لا يكلِّفنا فوق طاقتنا كما فى صيام المريض والمسافر مثلًا. وقد قال تعالى: "لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا" (البقرة/ ٢٨٦)، وقال:

"لاَ يكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا" (الطلاق/ ٧). فليس لنا بعد ذلك أنْ نَلْوِى الآيات ونقول: "إن الحكم الفلانى لم تَعُدْ النفس تُطِيقه ولم يعُد فى وُسْعنا"، فالحق سبحانه هو الذى يعلم الوُسْع ويكلّف على قَدْره. فإنْ كان قد كَلَّفَ فقد علم الوُسْع بدليل أنه سبحانه إذا وجد مشقة خفَّف عنكم من تلقاء نفسه سبحانه كما قال تعالى: "الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا" (الأنفال/ ٦٦). ففى بداية الإسلام حيث شجاعة المسلمين وقوتهم قال تعالى: "إِن يكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يغْلِبُوا مِئَتَينِ" (الأنفال/ ٦٥)، أى نسبة واحد إلى عشرة. فحينما علم الحق سبحانه فيهم ضَعْفًا قال: "الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يكُنْ مِّنكُمْ مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يغْلِبُوا مِئَتَينِ" (الأنفال/ ٦٦)، أى نسبة واحد إلى اثنين. فالله تعالى هو الذى يعلم حقيقة وُسْعنا، ويكلِّفنا بما نقدر عليه، ويخفِّف عَنَّا عند الحاجة إلى التخفيف، فلا يصح أنْ نُقْحِم أنفسنا فى هذه القضية، ونُقدّر نحن الوُسْع بأهوائنا...

والعجيب أنْ نرى من علمائنا مَنْ يتعصّب للقرآن فلا يقبل القول بالنسخ فيه! كيف، والقرآن نفسه يقول: "مَا نَنسَخْ مِنْ آيةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا" (البقرة/ ١٠٦)؟ قالوا: لأن هناك شيئًا يسمَّى: البَدَاء. ففى النسخ كأن الله تعالى أعطى حُكْمًا ثم تبين له خطؤه، فعدل عنه إلى حُكْم آخر. ونقول لهؤلاء: لقد جانبكم الصواب فى هذا القول. فمعنى النسخ إعلان انتهاء الحكم السابق بحكم جديد أفضل منه. وبهذا المعنى يقع النسخ فى القرآن الكريم".

وأول شيء لفت نظرى فى كلام الشيخ هنا أنه يتعامل مع الآية التى بين أيدينا على أنها تتعلق بتحويل القبلة وأن النسخ فيها مِنْ ثَمَّ هو تحويل المسلم وجهته عند أداء الصلاة من بيت المقدس إلى الكعبة على العكس مما ورد فى التوراة من تعيين بيت المقدس قِبْلَةً لصلاة اليهود. ولا أدرى كيف يقول الشيخ هذا: فالسورة كلها مكية ما عدا الآيات الثلاث الأخيرة. وهذه الآيات الثلاث قد نزلت عقب غزوة أحد ومقتل

حمزة وما صنعته هند بنت عتبة من شق بطنه واستخراج كبده ومحاولة أكلها مما لا علاقة له بما نحن فيه. كما تخلو الآية تماما من أية إشارة ولو من بعيد إلى القبلة، إذ هى تتحدث عن اتهام الكفار للرسول بأن هناك من يعلمه من البشر. وهذا سياق لا صلة بينه وبين تحويل القبلة البتة. ثم إن القبلة واعتراض المعترضين على تحويلها قد تكفلت به الآيات ١٤٢- ١٥٠ من سورة "البقرة" المدنية، والكلام واتجاهه وطعمه مختلف تماما عنه هنا. وهناك لا نجد اتهاما للرسول بافتراء الوحى بل تساؤلا تهكميا: "ما ولاهم عن قبلتِهم التى كانوا عليها؟"، أى تُرَى ما الذى جعل محمدا وأتباعه يتركون قِبْلَة بيت المقدس، التى كانوا عليها، ويتحولون إلى الكعبة؟ ثم لا شىء آخر. وفوق هذا كله لم أجد شيئا من سبب النزول الذى ذكره الشيخ موجودا فى تفسير الطبرى أو الزمخشرى أو الطبرسى أو ابن كثير أو البيضاوى أو ابن عطية أو البغوى أو أبى حيان أو الجلالين أو الشوكانى أو إِطْفَيش، بل كلهم أجمعون يتحدثون عن المشركين فى مكة واتهامهم للرسول بأنه يتلقى القرآن عن بشر، ولا يتحدثون عن القبلة ولا عن اليهود، وقد تعمدت اختيارهم من فرق مختلفة ما بين سنة وشيعة وخوارج وصوفية وفقهاء ومعتزلة ومتفلسفة. فكيف راح ذهن الشيخ إلى تحويل القبلة هنا؟

الجواب نجده فى هذا النص القصير المأخوذ من "مفاتيح الغيب" للإمام الرازى: "قد ذكرنا أن مذهب أبى مسلم الأصفهانى أن النسخ غير واقع فى هذه الشريعة، فقال: المراد ههنا "إذا بدلنا آية مكان آية فى الكتب المتقدمة، مثل أنه حول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، قال المشركون: أنت مفتر فى هذا التبديل"...". وهو كلام لا يدخل العقل ولا يستسيغه المنطق: فالسورة مكية كما قلنا، وأبو مسلم يتحدث عن المشركين وسخريتهم من تحويل القبلة، وتحويل القبلة إنما تم فى المدينة لا فى مكة، فضلا عن أن المشركين ما كانوا ليغضبوا من تحويل القبلة إلى البيت الحرام الموجود عندهم فى مكة أو يسخروا منه، بل يسعدهم الأمر أيما إسعاد مهما كانت عداوتهم لمحمد صلى الله عليه

وسلم. ثم هل فى العهد القديم تعيين قبلة الصلاة اليهودية ببيت المقدس؟ كنا نحب أن يورد هذا النص. فانظر كيف ترك الشيخ الشعراوى كل كتب التفسير، وأمسك فى نص قصير أورده الرازى فى تفسيره لأبى مسلم الأصفهانى يفتقر إلى المنطق والمعقولية! أما كلام الشيخ عن النسخ والفَرْق بينه وبين البَدَاء وتأكيد وجوده فى القرآن فلا يحتاج إلى تعقيب من جانبى، إذ لا يمثل القول بالنسخ فى القرآن أية مشكلة بالنسبة لى.

وعند الآية ١٠٦ من سورة "النحل" يقول شيخنا: "وقد تحدَّث العلماء عن الإكراه فى قوله تعالى: "إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ" (النحل/ ١٠٦)، وأوضحوا وجوه الإكراه وحكم كل منها على النحو التالى: إذا أُكْرِه الإنسان على أمر ذاتى فيه كأن قيل له: "اشرب الخمر، وإلَّا قتلتُك أو عذبتُك" قالوا: يجب عليه فى هذه الحالة أنْ يشربها وينجو بنفسه لأنه أمر يتعلق به، ومن الناس مَنْ يعصون الله بشربها. فإنْ قيل له: "اكفر بالله وإلَّا قتلتُك أو عذبتُك" قالوا: هو مُخير بين أن يأخذ بالتقية هنا، ويستخدم الرخصة التى شرعها الله له، أو يصدع بالحق ويصمد. أما إذا تعلّق الإكراه بحقٍّ من حقوق الغير كأنْ قيل لك: "اقتل فلانًا، وإلا قتلتك" ففى هذه الحالة لا يجوز لك قَتْله لأنك لو قتلتَهُ لقُتِلْت قِصَاصًا، فما الفائدة إذن؟".

وقد عاد رحمه الله عند معالجته قوله تعالى: "وإن عاقبتم فعاقِبوا بمثل ما عوقبتم به" (النحل/ ١٢٦) إلى موضوع الردة وحدّها عند أغلبية الفقهاء، فقال ضمن ما قال: "نرى البعض يعترض على عقوبة الردة فيقول: كيف تقتلون مَنْ يرتدّ عن دينكم؟ وأين حرية العقيدة إذن؟ نقول: فى تشريع قتل المرتد عن الإسلام تضييق لمنافذ الدخول فى هذا الدين بحيث لا يدخله أحد إلا بعد اقتناع تام وعقيدة راسخة. فإذا علم هذا الحكم من البداية فللمرء الحرية: يدخل أو لا يدخل. لا يغصبه أحد. ولكن ليعلم أنه إذا دخل فحكم الردة معلوم. إذن شَرَعَ الإسلامُ العقوبةَ ليحفظ للمجتمع توازنه، وليعمل عملية ردع حتى لا تقع الجريمة من البداية. لكن إذا وقعتْ يلجأ إلى علاج آخر يجتثُّ

جذور الغِلِّ والأحقاد والضغائن من المجتمع. لذلك سبق أن قلنا عن عادة الأخذ بالثأر فى صعيد مصر: إنه يظل فى سلسلة من القتل والثأر لا تنتهى، وتفزِّع المجتمع كله حتى الآمنين الذين لا جريرة لهم، وتنمو الأحقاد والكراهية بين العائلات فى هذا الجو الشائك، حتى إذا ما تشجَّع واحد منهم فأخذ كفنه على يديه وذهب إلى ولى القتيل، وألقى بنفسه بين يديه قائلًا: "ها أنا بين يديك، وكَفَنِى معى، فاصنع بى ما شئت"، وعندها تأبى عليهم كرامتهم وشهامتهم أنْ يثأروا منه، فيكون العفو والصفح والتسامح نهاية لسلسلة الثأر التى لا تنتهى".

وبالمثل نراه أمام قوله عز شأنه فى سورة "العنكبوت": "وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِى هِى أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِى أُنْزِلَ إِلَينَا وَأُنْزِلَ إِلَيكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦)" يقول ضمن كلام له آخر: "والحق تبارك وتعالى يقول: "لاَ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَد تَّبَيَنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَى" (البقرة/ ٢٥٦) لأننى لا أُكْرِهك على شىء إلا إذا كنتَ ضعيف الحجة، وما دام أن الرشد بين والغَى بين فلا داعى للإكراه إذن. لكن البعض يفهم هذه الآية فهمًا خاطئًا، فحين تقول له: "صَلِّ" يقول لك: "لاَ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ" (البقرة/ ٢٥٦). ونقول له: لم تفهم المراد، فلا إكراه فى أصل الدين فى أنْ تؤمن أو لا تؤمن. فأنت فى هذه حُرٌّ. أما إذا آمنتَ وأعلنتَ أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله فليس لك أن تكسر حَدًّا من حدود الإسلام. وفَرْق بين "لا إكراه فى الدين" و "لا إكراه فى التدين". من حكمة الإسلام أن يعلن حكم الردة لمن أراد أنْ يؤمن. نقول له: "قف! قبل أن تدخل الإسلام اعلم أنك إنْ تراجعت عنه وارتددتَ قتلناك". وهذا الحكم يضع العقبة أمام الراغب فى الإسلام حتى يفكر أولًا ولا يقْدِم عليه إلا على بصيرة وبينة.

وأخيرا فعند تناوله لقوله عز من قائل فى سورة "الأحزاب": "يا أَيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ

تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩)" وشرحه لأنواع العدة التى ينبغى أن تعتدها المرأة المتزوجة فى حالاتها المختلفة يحكى لنا ما سمعه، وهو طالب، من سؤال يشبه اللغز عما إذا كان للرجل هو أيضا عدة أَوْ لا. قال: وأذكر أنهم كانوا يسألوننا سؤالًا وكأنه لغز: "أَوَيعْتَدُّ الرجل؟" أو "أَوَلَيس للمرأة عِدَّةٌ عند الرجل؟". قالوا: نعم، يعتدُّ الرجل فى حالة واحدة، وهى إذا تزوج امرأة ثم طلقها، وأراد أن يتزوج بأختها، فعليه أن يمضى العدة ليحلَّ له الزواج بأختها".

والواقع أن الرجل لا يعتد كالمرأة بل الوضع هنا هو الانتظار حتى تصير زوجته بائنة منه بالطلاق، والبينونة لا تتم إلا بانتهاء عدة الزوجة، وذلك خوفا من أن يراجعها قبل انتهاء العدة، وتصير هناك مشكلة كبرى، إذ يكون قد جمع بين الأختين، وهذا لا يحل فى الإسلام. فمن هنا كان لا بد له من الانتظار حتى تنتهى الأخت الأولى من العدة. ولا يقال إن له عدة كالمرأة. والدليل على ذلك أنه يمكنه أن يتزوج من أية امرأة أخرى أثناء عدة تلك الزوجة. بل إنه ليجوز له التزوج بأخت زوجته التى طلقها أو عمتها أو خالتها دون انتظار لو كانت طلقته لها طلقة بائنة، إذ لا يجوز له أن يعيدها إلى عصمته لا أثناء العدة ولا بعد انقضاء العدة. ولماذا نذهب بعيدا، ولدينا تعريف "العِدَّة"؟ يقول د. محمد رواس قلعه جى فى "معجم لغة الفقهاء": "العِدَّة (بكسر العين وتشديد الدال المفتوحة): ما تمكثه المرأة بعد طلاقها أو وفاة زوجها لمعرفة براءة رحمها". وفى "الفقه الميسر فى ضوء الكتاب والسنة": "اسم لمدة معينة تتربصها المرأة تعبدا لله عز وجل أو تفجعا على زوج أو تأكدا من براءة رحم". وفى "تاج العروس": "عِدَّةُ المَرْأَةِ المُطَلَّقةِ والمُتَوفَّى زَوْجُها هى ما تَعُدُّه من أَيام أَقْرائِها أو أَيامِ حَمْلها أَو أربعة أَشْهرٍ وعَشْر ليالٍ. وعِدَّتُها أَيضًا أَيام إِحْدادِها على الزَّوْجِ وإِمساكِها عن الزِينةِ: شُهُورًا كان أَو أَقراءً، أَو وَضْعَ حَمْلٍ حَمَلَتْه من زَوْجِها". فالعدة إذن للمرأة لا للرجل، فليس

للرجل رحم ولا أقراء ولا حمل، وإذن فليس له عدة. ولنقل: "تَرَبُّص" بدلا من ذلك. أما الألغاز الفقهية فهذا شيء آخر.

ومع هذا ففى السؤال الثامن والثمانين من كتاب الشيخ: "١٠٠ سؤال وجواب فى الفقه الإسلامى" توجه إحدى النساء السؤال التالى، وقد وضعه المحرر تحت عنوان "عِدَّة الرجل": "هل هناك حالات يمنع فيها الرجل من الزواج لفترة معينة كالمرأة المعتدة؟"، وكان جواب الشيخ: "العدة أجلٌ مضروبٌ لانقضاء ما بَقِىَ من آثار الزوج الأول. أما الرجل فلا ينتظر لأن له أن يتزوج وهى معه، فأَوْلَى أن يتزوج وامرأتُه السابقة فى العِدَّة. غير أنه إن كانت المطلقة هى الزوجة الرابعة فليس له أن يتزوج إلا بعد انتهاء عدتها لأنه لا يجوز له أن يجمع أكثر من أربع فى نكاح ولا فى عدة. والحالة الثانية أن يريد الرجل الزواج بمن لا يحل له زواجها إلا بعد انتهاء عدة الأخت المطلقة". والذى يهمنا هنا أن الشيخ رحمه الله لم يستعمل هنا قَطُّ لفظة "العدة" للزوج، بل استعمل كلمة "انتظار". وبالمناسبة فليس فى القرآن ولا فى الحديث أية إشارة إلى أن للرجل عدة على أى وضع من الأوضاع.

استشهاد الشعراوى بالعلوم الطبيعية والرياضية

فى كتاب "مذكرات إمام الدعاة" لمحمد زايد أنه عندما أُدْخِلَت العلوم الرياضية فى الدراسة الأزهرية أيام كان الشعراوى طالبا بالأزهر كان فى إجازة الصيف يحرص على الجلوس إلى الطلاب الجامعيين المدنيين من أبناء القرية ويسألهم عن المحاضرات التى تلقَّوْها فى الرياضيات والكيمياء ويأخذ منهم المذكرات الخاصة بها، فيبقيها عنده عدة أيام يعكف فيها على استيعابها رغم أنها كانت فى مستوى أعلى كثيرا جدا من مستوى ما يدرسه فى الأزهر، وأن هذا هو السر فيما يوجد فى أحاديثه من ثقافة لا تتضمنها ثقافة الأزهر (انظر محمد زايد/ مذكرات إمام الدعاة/ ط٣/ دار الشروق/ القاهرة وبيروت/ ١٩٩٨/ ٨٧).

ويقول د. محمود جامع عن السنوات الثلاث عشرة الأولى التى قضاها الشيخ الشعراوى فى المملكة العربية السعودية إن الشيخ قد "قرأ فيها الكثير من المراجع والتفاسير عن علاقة القرآن بالطب والفلك والاقتصاد والهندسة، وتفتحت أمامه بفضل الله آفاق المعرفة والإلهامات والفيوضات الربانية" (أحمد فرغلى/ الشعراوى- روحانيات وذكريات يرويها الأبناء والأصدقاء/ مؤسسة أبو المجد للطباعة/ ٢٠٠٠/ ١١٦).

وهذه بعض أمثلة من تفسير الشيخ رحمه الله تظهر فيها تلك الثقافة العلمية: فلدى تناوله لقول الحق: "زُينَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ" (آل عمران/ ١٤) يقول فضيلته: "والحق يقول فى مجال زينة الشهوات: "زُينَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ". وحين تسمع كلمة "الْحَرْثِ" فافهم أن المراد بها هنا الزرع، ولكن الله

سبحانه وتعالى يريد منك أن تعلم أن الله حين ينْبِت لك أشياء بدون معالجتك فإنه يريد منك أيضًا أن تَسْتنبت أشياء بمعالجتك، وهذا لا يتأتى إلا بعملية الحرث. والحرث هو إهاجة الأرض. فالتربة تكون جامدة فلا بد أن يهيجها الإنسان بالحرث، أى أن تفك يبوستها وتَلاَصُق ذراتها لأن تلاَصُقَ ذرات التربة لا يصلح أن يكون بيئة للنبات لأن النبات يحتاج إلى الماء ويحتاج إلى الهواء، ويحتاج من الإنسان أن يمَهّد للشعيرات البسيطة أن تخرج، وتجد تربة سهلة تتحرك فيها إلى أن تقوى.

إذن فالحرث يثير الأرض، ويجعلها لينة مُتفتتة حتى تستطيع البذرة أن تنمو لأن الله قد أودع فى فلقتَى كل بذرةٍ مقوماتِ الحياة الى أن يوجَد لها جذر يأخذ مقومات الحياة من الأرض. وكلما قوى الجذر فى النبات فإن الفلقتين تضمحلان، وتصيران مجرد ورقتين. فأين ذهب حجم الفلقتين؟ لقد قامت الفلقتان بتغذية النبتة إلى أن استطاعت النبتة أن تتغذى بنفسها من الأرض، ولا يمكن حدوث ذلك إلا إذا كانت الأرض محروثة. ولذلك يقولون إن الأرض الطينية السوداء تكون صعبة وغير خصبة، ويقال إن الأرض الرملية أيضًا غير خصبة. لماذا؟ لأننا نريد صفتين اثنتين فى الأرض: الصفة الأولى أن تكون الأرض صالحة لأن يتخللها الماء ليشرب الزرع، والصفة الأخرى ألاّ تُسَرِّب الماء بعيدًا. فإذا كانت الأرض طينية فإن جذور الزرع تختنق وتتعفن، وإذا كانت رملية فإن الماء يتسرب بعيدًا. لذلك نحتاج فى الزراعة الى أرض بين سوداء ورملية، أى أرض صفراء. والله حين يتكلم عن الزرع فإنه يقول: "الحَرْث"، وذلك حتى يلفتنا إلى أن من يريد أن يأخذ زرعًا لا بد أن يجدّ ويحرث الأرض. وهو سبحانه القائل: "أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ" (الواقعة/ ٦٣-٦٤). وعبر الحق عن الزرع بالحرث لأنه السبب الذى يوجِد الزرع.

وعند قوله عز شأنه فى سورة "المائدة": "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ

إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣)" يقول الشيخ فى خواطره: "الآية تبدأ بقوله: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ"... والميتة هى التى ذهبت منها الحياة أو خرجت منها الروح بدون نقض للبنية، أى ماتت حتف أنفها. فذهاب الحياة له طريقان: طريق هو الموت، أى بدون نقض بنية، وطريق بنقض البنية. فعندما يخنق الإنسان كائنا آخر يمنع عنه النفس، وفى هذا إزهاق للروح بنقض شيء فى البنية لأن التنفس أمر ضرورى. وقد يزهق الإنسان روحا آخر بضربه بالرصاص لأن الروح لا تحل إلا فى جسد له مواصفات خاصة. لكن هناك جوارح يمكن أن تبقى الروح فى الجسم دونها. والمثال على ذلك اليد إن قطعت، أما إن توقف قلب الإنسان فقد يشقون صدره ويدلكون هذا القلب فينبض مرة أخرى بشرط أن يكون المخ مازال حيا، وأقصى مدة لحياة المخ دون هواء سبع دقائق فى حالات نادرة. فما أن يصاب المخ بالعطب حتى يحدث الموت. ولذلك عرف الأطباء الموت الإكلينيكى بأنه توقف المخ. إذن فهناك موت، وهناك قتل، وفى كليهما ذهاب للروح. وفى الموت تذهب الروح أولًا، وفى القتل تذهب الروح بسبب نقض البنية. والميتة هى التى ذهبت منها الحياة بدون نقض البنية، ومن رحمة الله أنْ حرَّم الميتة لأنها ماتت بسبب لا نراه فى عضو من أعضائها حتى لا نأكلها بدائها.

وكذلك حرم الدم، وهو السائل الذى يجرى فى الأوردة والشرايين ويعطى الجسم الدفء والحرارة وينقل الغذاء. وللدم مجالان فى الجريان: فهو يحمل الفضلات من الكُلَى والرئة، وهناك دم نقى يحمل الغذاء. والأوعية الدموية بها لونان من الدم: دم فاسد، ودم صالح. وعندما نأخذ هذا الدم قد يكون فيه النوع الصالح، ويكون فيه أيضًا النوع الذى لم تخرج منه الشوائب التى فى الكُلَى والرئة، ولذلك يسمونه: الدم

المسفوح، أى الجارى. وكانوا يأخذونه قديما ويملأون به أمعاء الذبائح ويقومون بِشَيه ويأكلونـه. وهنـاك دم غير فاسـد. مثـال ذلـك الكَبِـد، فهـو قطعـة متوحـدة، وكـذلك الطحـال. والنبى صلى الله عليه وسلم قـال: "أحلت لكـم ميتتـان ودمـان: فأمـا الميتتـان فالسمك والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال".

إذن فالكبد والطحال مستثنيان من الدم. لكن إذا جئنا للدم المسفوح فهو حرام. والحكمة فى تحليل السمك والجراد هى عدم وجود نفس سائلة بهما، فليس فى لحمهما دم سائل. وعندما نقطع سمكة كبيرة لا ينزل منها دم، بل يوجد فقط عند الأغشية التى فى الرأس ولا يوجد فى شعيراته. وعندما يموت السمك ويؤكل فلا خطر منه، وكـذلك الجراد. ويأتى بعد ذلك فى سلسلة المحرمات "لَحْمُ الْخِنْزِيرِ". ولا يقولنَّ مؤمن: لمـاذا حـرم الله لحـم الخنزيـر؟ لقـد ذهـب العلـم إلى كـل مبحـث ليعـرف لمـاذا حـرم الله الميتـة، وكـذلك الـدم حتـى عـرف العلـماء أن الله لا يريـد أن ينقـل داء مـن حيـوان ميـت إلى الإنسان. وكذلك حرم الله الدم لأن به فضلات سامة "كالبولينا" وغيرها.

ولكل تحـريم حكمـة قـد تكـون ظـاهرة، وقـد تكـون خافيـة. والقـرآن قـد نـزل عـلى رسـول أمـى فى أمـة أميـة لا تعـرف المـسائل العلميـة الـشديدة التعقيـد، وطبـق المؤمنـون الأوائـل تعـاليم القـرآن لأن الله الـذى آمنـوا بـه إلها حكيـما هـو قائلهـا، وهـو يريـد صـيانة صنعته. وكل صـانع من البشر يضع قواعـد صيانة مـا صـنع. ولم نجد صـانع أثـاث مـثلا يحطـم دولاب ملابـس، بـل نجـده بـاذلا الجهـد ليجمِّـل الـصنعة. ومـا دام الله هـو الـذى خلقنا وآمنَّا به إلها فلا بد لنا أن ننفذ ما يأمرنا به، وأن نتجنب ما نهانا عنه. ولا يمنع ذلك أن نتلمس أسباب العلم رغبة فى ازدياد أسباب الإيمان بالله، ومن أجل أن نرد على أى فضولى مجادل على الرغم من أنه ليس من حق أحد أن يجادل فى دين الله لأن الـذى يرغب فى الجدال فليجادل فى القمة أولًا، وهى وجود الله، وفى البلاغ عن الله بواسطة الرسـول. فـإن اقتنـع فعليـه أن يطبـق مـا قالـه الله. فالـدين لا يمكـن أن نبحثـه مـن أذنابـه،

ولكن يبْحَث الدين من قمته. ونحن ننفذ أوامر الله، ولذلك نجد أول حكم يأتى لم يقل الحق فيه: "يا أيها الناس، كتب عليكم كذا"، ولكن سبحانه يقول: "يا أَيهَا الَّذِينَ آمَنُوا" أى يا من آمنتَ بى، خذ الحكم منى... وقد أثبتت التحليلات أن بلحم الخنزير دودة شريطية ودودة حلزونية وعددا آخر من الديدان التى لا يقهرها علاج".

وفى خواطر شيخنا الكبير عن قوله تعالى فى سورة "الأنعام": "فَمَنْ يرِدِ اللَّهُ أَنْ يهْدِيهُ يشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يرِدْ أَنْ يضِلَّهُ يجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يؤْمِنُونَ (١٢٥)" نجده يقول: "نعرف أن الصدر هو مكان الجارحتين الأساسيتين فى التكوين: القلب والرئة. والرئة هى الجارحة التى لا تستمر الحياة الا بعملها، فقد تبطئ الأمعاء مثلا أو تتوقف قليلا عن عملها، ويتغذى الإنسان على خزينته من الدهن أو اللحم. ولذلك يصبر الإنسان على الجوع مدة طويلة، ويصبر على الماء مدة أقل، لكنه لا يصبر على افتقاد الهواء لدقائق، ولا صبر لأحد على ترك الشهيق والزفير. ولقد قلنا من قبل: إن الحق سبحانه وتعالى قد يملّك بعضًا قُوتَ بعض، وأقل منه أن يملِّك بعضا ماء بعض، لكن أيملّك أحدًا هواء أحد؟ لا لأن الرضا والغضب أغيار فى النفس البشرية. فإذا غضب إنسان على إنسان، وكان يملك الهواء وحبسه عنه، فالإنسان يموت قبل أن يرضى عنه هذا الآخر، ولذلك لم يملّك الله الهواء لأحد من خلقه أبدًا.

إذن كل المسألة المتعلقة بقوله: "يجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيقًا حَرَجًا" نعلم عنها أن الصدر هو محل التنفس، والرئة تأخذ الأوكسجين وتطرد ثانى أوكسيد الكربون. وعندما يصاب الإنسان بنوبة برد نراه وهو يجد صعوبة فى التنفس كأن حيز الصدر صار ضيقًا، فلا يدخل الهواء الكافى لتشغيل الرئتين، ويحاول الإنسان أن يعوض بالحركة ما فاته فينهج. ويشخص الأطباء ذلك بأن المريض يريد أن يأخذ ما يحتاجه إليه من الهواء فينهج لأن الحيز قد ضاق. وكذلك عندما يصعد الإنسان سلمًا ينهج أيضًا لأن الصعود

يحتاج إلى مجهود لمعاندة جاذبية الأرض. فالأرض لها جاذبية تشد الإنسان، ومن يصعد إنما يحتاج إلى قوة ليتحرك إلى أعلى ويقاوم الجاذبية. إننا نجد نزول السلم مريحًا لأن فى النزول مساعدة للجاذبية، لكن الصعود يحتاج إلى جهد أكثر. فإذا ضاق الصدر فمعنى ذلك أن حيز الصدر لم يعد قادرًا على أن يأخذ الهواء بالتنفس بطريقة تريح الجسم. ولذلك يقال: "فلان صدره ضيق". أى أن التنفس يجهده إجهادًا بحيث يحتاج إلى هواء أكثر من الحجم الذى يسعه صدره.

"ومَن يرِدْ أَن يضِلَّهُ يجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيقًا حَرَجًا": والحرج معناه الحجز عن الفعل كأن نقول: حَرَّجْتُ على فلان أن يفعل كذا. أى ضيقت عليه ومنعته من أن يؤدى هذا العمل. "كأنما يصعّد فى السماء": وعلمنا أن الصعود لأعلى هو امتداد لفعل الجسم إلى جهة من جهاته. فالجهات التى تحيط بأى شيء سِتٌّ هى فوق وتحت، ويمين وشِمال، وأمام وخلف. وعرفنا أن الهبوط سهل لأن الجاذبية تساعد عليه. والمشى ماذا يعنى؟ المشى إلى يمين أو إلى شمال أو إلى أمام أو إلى خلف. فهو فعل فى الاستواء العادى الظاهر، والذى يتعب هو أن يصعد الإنسان لأنه سيعاند الجاذبية، وهو بذلك يحتاج إلى قوتين: قوة للفعل فى ذاته، والقوة الثانية لمعاندة الجاذبية...

وهنا أراد بعض العلماء الذين يحبون أن يظهروا آيات القرآن كمعجزات كونية إلى أن تقوم الساعة، أرادوا أن يأخذوا من هذا القول دليلًا جديدًا على صدق القرآن، وتساءلوا: من الذى كان يدرك أن الذى يصعد فى الجو يتعب ويحتاج إلى مجهودين: الأول للعمل، والثانى لمناهضة الجاذبية، ولذلك يضيق صدره لأنه لا يجد الهواء الكافى لإمداده بطاقةٍ تُوَلِّد وقودًا؟ ونقول لهؤلاء العلماء: لا يوجد ما يمنع استنباط ما يتفق فى القضية الكونية مع القضية القرآنية بصدق، ولكن لنحبس شهوتنا فى أن نربط القرآن بكل أحداث الكون حتى لا نتهافت فنجعل من تفسيرنا لآية من آيات القرآن دليلًا على تصديق نظرية قائمة، وقد نجد من بعد ذلك من يثبت خطأ النظرية. إنه يجب على

المخلصين الذى يريدون أن يربطوا بين القرآن لما فيه من معجزات قرآنية مع معجزات الكون أن يمتلكوا اليقظة فلا يربطوا آيات القرآن إلا بالحقائق العلمية. وهناك فرق بين النظرية وبين الحقيقة، فالنظرية افتراضية وقد تخيب. لذلك نقول: أبعد القرآن عن هذه حتى لا تعرضه للذبذبة، ولا تربطوا القرآن إلا بالحقائق العلمية التى أثبتت التجارب صدقها. وقائل القرآن هو خالق الكون. لذلك لا تتناقض الحقيقة القرآنية مع الحقيقة الكونية. لذلك لا تحدد أنت الحقيقة القرآنية وتحصرها فى شيء، وهى غير محصورة فيه. وتنبه جيدًا إلى أن تكون الحقيقة القرآنية حقيقة قرآنية صافية، وكذلك الحقيقة الكونية".

وحين يصل إلى قوله جل جلاله من سورة "الرعد": "وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِى وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يغْشِى اللَّيلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يتَفَكَّرُونَ (٣)" يقول ضمن ما خطر له من أفكار تفسيرية: "ويتابع الحق سبحانه سَرْد آياته الكونية فى هذه الآية: "مَدَّ الأَرْضَ" (الرعد/ ٣). يعنى أنها موجودة أمامك ومُمْتدَّة. وبعض الناس يفهمون المَدَّ بمعنى البسط، ونقول: إن البَسْطَ تابع للمَدِّ. ولذلك وقف بعض العلماء وقالوا: ومن قال إن الأرض كُرَوية؟ إن الحق سبحانه قال: إنها مبسوطة، وهو سبحانه الذى قال إنه قد مَدَّ الأرض. وقلتُ لهؤلاء العلماء: فَلْنَفْهَمْ كلمة "المَدِّ" أولًا، وَلنفهَمْ أيضًا كلمة "الأرض"، وهى التى تقف عليها أنت وغيرك، وتعيش عليها الكائنات، وتمتد شَمالًا إلى القُطْب الشمالى، وجنوبًا إلى القُطْب الجنوبى. أيا ما كُنْتَ فى أى موقع فهى مَمْدودة شرقًا وغربًا.

ومعنى "مَدَّ الأَرْضَ" (الرعد/ ٣) تعنى أنك إنْ وقفتَ فى مكان وتقدمتَ منه تجد الأرض ممدودة أمامك ولا توجد حَافَةٌ تنتهى لها. ولو أنها كانت مبسوطة لَكانَ لها نهاية، ولكانت على شكل مُثلّث أو مُرَبَّع أو مستطيل، ولكانَ لها حافَة، ولوجدنا مَنْ يسير إلى تلك الحافة يقول: "لقد وصلتُ لحافة الأرض، وأمامى الفراغ". ولم يحدث أنْ قال ذلك واحد من البشر. وإذا ما سار إنسان على خط الاستواء مثلًا فسيظل ماشيا على

اليابسة أو راكبًا لمركب تقطع به البحر أو المحيط ليصل إلى نفس النقطة التى بدأ منها سَيره. وهكذا نجد الأرض ممدودة غير محدودة، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت الأرض مُكوَّرة بحيث إذا مشيت مُتتبِّعًا أى خط من خطوط العرض أو خطوط الطول لانتهيت إلى النقطة التى بدأت منها سَيركَ. وكان هذا هو الدليل الذى يقدمه العلماء على كروية الأرض قبل أن يخترعوا فكرة التصوير من خارج الغلاف الجوى".

وإزاء قوله سبحانه فى سورة "الأنبياء": "أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيءٍ حَي أَفَلَا يؤْمِنُونَ (٣٠)" يقول الشيخ غفر الله له ونور قبره: "والقرآن بالدرجة الأولى كتاب منهج: "افعل كذا" و"لا تفعل كذا". لذلك كلُّ ما يتعلق بهذا المنهج جاء واضحًا لا غموض فيه، أمَّا الأمور الكونية التى تخضع لثقافات البشر وارتقاءاتهم الحضارية فقد جاءت مُجْملةً تنتظر العقول المفكرة التى تكشف عن هذه الظواهر واحدةً بعد الأخرى، وكأن الحق تبارك وتعالى يعطينا مجرد إشارة، وعلى العقول المتأمّلة أنْ تُكْمِلَ هذه المنظومة. وقد كان لعلماء الإسلام موقفان فى هذه المسألة، كلاهما ينطلق من الحب لدين الله والغرام بكتابه والرغبة الصادقة فى إثبات صدْق ما جاء به القرآن من آيات كونية جاء العلم الحديث ليقول بها الآن، وقد نزل بها القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان: الموقف الأول، وكان أصحابه مُولَعِين بأنْ يجدوا لكل اكتشاف جديد شاهدًا من القرآن ليقولوا إن القرآن سبق إليه وإن محمدًا صلى الله عليه وسلم صادق فى بلاغه عن الله. الموقف الثانى: أما أصحاب الموقف الآخر فكانوا يتهيبون من هذه المسألة خشية أن يقولوا بنظرية لم تثبت بَعْد، ويلتمسون لها شاهدًا من كتاب الله ثم يثبُت بطلانها بعد أنْ ربطوها بالقرآن.

والموقف الحق أن هناك فرقًا بين نظرية علمية وحقيقة علمية. فالنظرية مسألة محلّ بحث ومحلّ دراسة لم تثبت بَعْد. لذلك يقولون: هذا كلام نظرى، أى يحتاج إلى ما يؤيده

من الواقع. أمّا الحقيقة العلمية فمسألة وقعتْ تحت التجربة، وثبت صدقها عمليا ووثقنا أنها لا تتغير. فعلينا إذن ألا نربط القرآن بالنظرية التى تحتمل الصدق أو الكذب حتى لا يتذبذب الناس فى فَهْم القرآن، ويتهمونا أننا نُفسِّر القرآن حَسْب أهوائنا. أمّا الحقيقة العلمية الثابتة فإذا جاءت بحيث لا تُدْفَع فلا مانعَ من ربطها بالقرآن. من ذلك مسألة كروية الأرض. فعندما قال بها العلماء اعترض كثيرون وأثاروها ضجة وألَّفوا فيها كتبًا، ومنهم مَنْ حكم بكفر مَنْ يقول بذلك لأن هذه المسألة لم ينصَّ عليها القرآن. فلما تقدم العلم، وتوفرتْ له الأدلة الكافية لإثبات هذه النظرية، فوجدوا الكواكب الأخرى مُدوَّرة كالشمس والقمر، فلماذا لا تكون الأرض كذلك؟ كذلك إذا وقفتَ مثلًا على شاطئ البحر ونظرتَ إلى مركب قادم من بعيد لا ترى منها إلا طرفَ شراعها ولا ترى باقى المركب إلا إذا اقتربتْ منك. عَلامَ يدلُّ ذلك؟ هذا يدل على أن سطح الأرض ليس مستويا، إنما فيه تقوُّس وانحناء يدل على كُرَوِيتها. فلما جاء عصر الفضاء، وصعد العلماء للفضاء الخارجى، وجاءوا للأرض بصور، فإذا بها كُرَوِيةٌ فعلًا. وهكذا تحولتْ النظرية إلى حقيقة علمية لا تُدْفَع، ولا جدال حولها، ومَنْ خالفها حينما كانت نظرية لا يسعه الآن إلاّ قبولها والقول بها.

وما قلناه عن كروية الأرض نقوله عن دورانها. ومَنْ كان يصدق قديمًا أن الأرض هى التى تدور حول الشمس بما عليها من مياهٍ ومَبانٍ وغيره؟ ولك أن تأخذَ كوزًا ممتلئًا بالماء، واربطه بخيط من أعلى، ثم أَدِرْه بسرعة من أسفل إلى أعلى تلاحظ أن فوهة الكوز إلى أسفل دون أنْ ينسكب الماء، لماذا؟ لأن سرعة الدوران تفوق جاذبية الأرض التى تجذب الماء إليها بدليل أنك إذا تهاونتَ فى دوران الكوز يقع الماء من فُوَّهَتِه، ولا بد من وجود تأثير للجاذبية. فجاذبية الأرض هى التى تحتفظ بالماء عليها أثناء دورانها. أما أن نلتقط نظرية وليدة فى طَوْر البحث والدراسة، ثم نفرح بربطها بالقرآن كما حدث أوائلَ العصر الحديث والنهضة العلمية حين اكتشف العلماءُ المجموعة الشمسية،

وكانت فى بدايتها سبعة كواكب فقط مُرتّبة حسب قُرْبها من الشمس فى المركز: عطارد فالزهرة فالأرض فالمريخ فالمشترى فزُحَل فأورانوس، وهنا أسرع بعض علمائنا الكبار، منهم الشيخ المراغى، بالقول بأنها السماوات السبع، وكتبوا فى ذلك بحوثًا وفى القرآن الذى سبق إلى هذا. ومرَّتْ الأيام، واكتشف العلماء الكوكب الثامن نبتون، ثم التاسع.

إذن رَبْط النظرية التى لم تتأكد بَعْدُ علميا بالقرآن خطأ كبير، ومن الممكن إذا توفَّر لهم أجهزةٌ أحدث ومَجَاهِرُ أكبر، كما يقول بعض علماء الفضاء، لاكتشفوا كواكب أخرى كثيرة لأن مجموعتنا الشمسية هذه واحدة من مائة مليون مجموعة فى المجرة التى نسميها: "سكة التبَّانة"، والإغريق يسمونها: "الطريق اللبنى". وهذه الكواكب التى نراها كبيرة وعظيمة لدرجة تفوق تصورات الناس، فالشمس التى نراها هذه أكبر من الأرض بمليون وربع مليون مرة. وهناك من الكواكب ما يمكنه ابتلاع مليون شمس فى جوفه. والمسافة بيننا وبين الشمس ثمانى دقائق ضوئية. وتُحْسَب الدقيقة الضوئية بأن تُضْرَب فى ستين ثانية، الثانية الواحدة السرعة فيها ١٨٦ ألف ميل. يعنى ثلاثمائة ألف كيلومتر. أما المسافة بين الأرض والمرأة المسلسلة فقد حسبوها بالسنين الضوئية لا الدقائق، فوجدوها مائة سنة ضوئية. أما الشِّعْرَى، الذى امتنَّ الله به فى قوله: "وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى" (النجم/ ٤٩)، فهو أبعد من ذلك. وهذه الكواكب والأفلاك كلها فى السماء الدنيا فقط، فما دَخْل هذا بالسماوات السبع التى تحدثوا عنها؟ لذلك حاول كثيرون من عُشَّاق هؤلاء العلماء أن يمحوا هذه المسألة من كتبهم حتى لا تكون سُبَّة فى حقِّهم وزلّة فى طريقهم العلمى".

ثم نأتى إلى جل شأنه فى سورة "النحل": "أنزل من السماء ماء"، فنجده يقول: "وقوله: "أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً" (النحل/ ١٠) يبدو قولًا بسيطًا. ولكن إنْ نظرنا إلى المعامل التى تُقطِّر المياه وتُخَلِّصها من الشوائب لَعلِمْنَا قَدْر العمل المبذول لنزول الماء الصافى من المطر. والسماء، كما نعلم، هى كل ما يعلونا، ونحن نرى السحاب الذى

يجيء نتيجة تبخير الشمس للمياه من المحيطات والبحار، فيتكوَّن البخار الذى يتصاعد، ثم يتكثَّف ليصيرَ مطرًا من بعد ذلك، وينزل المطر على الأرض. ونعلم أن الكرة الأرضية مُكوَّنة من محيطات وبحار تُغطِّى ثلاثة أرباع مساحتها، بينما تبلغ مساحة اليابسة رُبْع الكرة الأرضية. فكأنه جعل ثلاثة أرباع مساحة الكرة الأرضية لخدمة رُبْع الكرة الأرضية. ومن العجيب أن المطر يسقط فى مواقع قد لا تنتفع به مثل هضاب الحبشة، التى تسقط عليها الأمطار وتصحب من تلك الهضاب مادة الطمى لِتُكوِّن نهر النيل لنستفيد نحن منه. ونجد الحق سبحانه يقول: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يؤَلِّفُ بَينَهُ ثُمَّ يجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَينَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيصِيبُ بِهِ مَن يشَآءُ وَيصْرِفُهُ عَن مَّن يشَآءُ" (النور/ ٤٣). وهنا يقول الحق سبحانه: "هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ" (النحل/ ١٠). ولولا عملية البَخْر وإعادة تكثيف البخار بعد أن يصير سحابًا لَمَا استطاع الإنسانُ أنْ يشربَ الماء المالح الموجود فى البحار. ومن حكمة الحق سبحانه أن جعل مياه البحار والمحيطات مالحةً، فالمِلْح يحفظ المياه من الفساد. وبعد أن تُبخِّر الشمسُ المياه لتصير سحابًا ويسقط المطر يشرب الإنسانُ هذا الماء الذى يغذِّى الأنهار والآبار. وكذلك ينْبِت الماءُ الزرعَ الذى نأكل منه".

وعند قوله تعالى فى سورة "النحل": "ينْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيةً لِقَوْمٍ يتَفَكَّرُونَ (١١)" يقول فضيلة الشيخ: "وهنا يخصُّ الحق سبحانه ألوانًا من الزراعة التى لها أَثَر فى الحياة، ويذكر الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من كل الثمرات. والزيتون، كما نعلم، يحتوى على موادَّ دُهْنيةٍ، والعنب يحتوى على موادَّ سكريةٍ، وكذلك النخيل الذى يعطى البلح، وهو يحتوى على مواد سكرية. وغذاء الإنسان يأتى من النشويات والبروتينات. وما ذكره الحق سبحانه أولًا عن الأنعام وما ذكره عن النباتات يوضِّح أنه قد أعطى الإنسان

مُكوِّنات الغذاء، فهو القائل: "وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ" (التين/ ١ - ٤). أى أنه جعل للإنسان فى قُوتِه البروتينات والدُّهنيات والنشويات والفيتامينات التى تصون حياته. وحين يرغب الأطباء فى تغذية إنسان أثناء المرض فهم يذيبون العناصر التى يحتاجها للغذاء فى السوائل التى يقطِّرونها فى أوردته بالحَقْن. ولكنهم يخافون من طول التغذية بهذه الطريقة لأن الأمعاء قد تنكمش. ومَنْ يقومون بتغذية البهائم يعلمون أن التغذية تتكَّون من نوعين: غذاء يملأ البطن، وغذاء يمدُّ بالعناصر اللازمة. فالتبن مثلا يملأ البطن، ويمدُّها بالألياف التى تساعد على حركة الأمعاء، ولكن الكُسْب يغذِّى ويضمن السِّمْنة والوَفْرة فى اللحم".

وفى سورة "النحل" أيضا نقرأ قول الحق تبارك وتعالى: "ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)"، ونقرأ قول الشيخ عما جاء فيه عن العسل وفوائده إن "عِلّة كَوْن العسل فيه شفاء للناس أنْ يأكلَ النحل من كُلِّ الثمرات. ذلك لأن تنوُّع الثمرات يجعل العسل غنيا بالعناصر النافعة، فإذا ما تناوله الإنسان ينصرف كل عنصر منه إلى شيء فى الجسم، فيكون فيه الشفاء بإذن الله. ولكن الآن ماذا حدث؟ نرى بعض الناس يقول: أكلتُ كثيرًا من العسل، ولم أشعر له بفائدة. نقول: لأننا تدخّلنا فى هذه العملية، وأفسدنا الطبيعة التى خلقها الله لنا. فالأصل أن نتركَ النحل يأكل من كُلّ الثمرات، ولكن الحاصل أننا نضع له السكر مثلًا بدلًا من الزَّهْر والنُّوَّار الطبيعى. ولذلك تغير طعم العسل، ولم تَعُدْ له مَيزته التى ذكرها القرآن الكريم. لذلك فالمتتبع لأسعار عسل النحل يجد تفاوتًا واضحًا فى سعره بين نوع وآخر، ذلك حَسْب جودته ومدى مطابقته للطبيعة التى حكاها القرآن الكريم. والحق سبحانه يقول: "فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا" (النحل/ ٦٩)، أى تتنقّل حُرّة بين الأزهار هنا وهناك. ولذلك لا

نستطيع أنْ نَبنى للنحل بيوتًا يقيم فيها. لا بُدَّ له من التنقُّل من بستان لآخر، فإذا ما جَفَّتْ الزراعات يتغذَّى النحل من عسله، ولكن الناس الآن يأخذون العسل كله لا يتركون له شيئًا، ويضعون مكانه السكر ليتغذَّى منه طوال هذه الفترة...

"فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ" (النحل/ ٦٩): لذلك وجدنا كثيرًا من الأطباء، جزاهم الله خيرًا، يهتمون بعسل النحل، ويجْرون عليه كثيرًا من التجارب لمعرفة قيمته الطبية. لكن يعوق هذه الجهود أنهم لا يجدون العسل الطبيعى كما خلقه الله. ومع ذلك ومع تدخّل الإنسان فى غذاء النحل بقيت فيه فائدة، وبقيت فيه صفة الشفاء، وأهمها امتصاص المائية من الجسم. وأى ميكروب تريد أنْ تقضى عليه قم بامتصاص المائية منه يموت فورًا. فإذا ما توفَّر لنا العسل الطبيعى الذى خلقه الله تجلَّتْ حكمة خالقه فيه بالشفاء، ولكنه إذا تدخّل الإنسان فى هذه العملية أفسدها. فالكون كله الذى لا دَخْلَ للإنسان فيه يسير سَيرًا مستقيمًا لا يتخلَّف، كالشمس والقمر والكواكب... إلخ، إلا الإنسان، فهو المخلوق الوحيد الذى يخرج عن منهج الله. فالشىء الذى لك دَخْلٌ فيه إما أنْ تتدخّل فيه بمنهج خالقه أو تتركه لأنك إذا تدخلْتَ فيه بمنهج خالقه يعطيك السلامة والخير، وإنْ تدخلْتَ فيه بمنهجك أنت أفسدتَه...

"فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ" (النحل/ ٦٩): الناس جَمْعٌ مختلفُ الداءات باختلاف الأفراد وتعاطيهم لأسباب الداءات، فكيف يكون هذا الشراب شفاء لجميع الداءات على اختلاف أنواعها؟ نقول: لأن هذا الشراب الذى أعدَّه الله لنا بقدرته سبحانه جاء مختلفًا ألوانه من رحيق مُتعدِّد الأنواع والأشكال والطُّعوم والعناصر. ليس مزيجًا واحدًا يشربه كل الناس، بل جاء مختلفًا متنوعًا باختلاف الناس، وتنوّع الداءات عندهم. وكأن كل عنصر منه يداوِى داءً من هذه الدَّاءات".

وأمام قوله سبحانه فى سورة "الأنبياء": "أَوَلَمْ يرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيءٍ حَي أَفَلَا يؤْمِنُونَ (٣٠)" يقول

شيخنا الهمام: "قوله تعالى: "أَوَلَمْ يرَ الَّذِينَ كَفَرُوا" (الأنبياء/ ٣٠) يعنى: أَعِمَيتْ أبصارهم فلم ينظروا إلى هذا الكون البديع الصنع المحكم الهندسة والنظام، فيكفروا بسبب أنهم عَمُوا عن رؤية آيات الله؟ وهكذا كلما رأيت الهمزة بعد الواو والفعل المنفى. لكن كيف يقول الحق سبحانه: "أَوَلَمْ يرَ الَّذِينَ كَفَرُوا" (الأنبياء/ ٣٠)، والحديث هنا عن السماء والأرض، وقد قال تعالى: "مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا" (الكهف/ ٥١)؟ فهذه مسألة لم يشهدها أحد، ولم يخبرهم أحد بها، فكيف يرَوْنَها؟ سبق أن تكلمنا عن الرؤية فى القرآن وأن لها استعمالات مختلفة: فتارة تأتى بمعنى "نظر"، أى بصرية. وتأتى بمعنى "علم"، ففى قوله تعالى: "أَلَمْ تَرَ كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ" (الفيل/ ١)، والنبى صلى الله عليه وسلم لم يرَ هذه الحادثة ولم يشهدها لأنه وُلِد فى نفس عامها، فالمعنى: ألم تعلم؟...

والقرآن بالدرجة الأولى كتاب منهج: "افعل كذا" و"لا تفعل كذا". لذلك كلُّ ما يتعلق بهذا المنهج جاء واضحًا لا غموض فيه، أمَّا الأمور الكونية التى تخضع لثقافات البشر وارتقاءاتهم الحضارية فقد جاءت مُجْملةً تنتظر العقول المفكرة التى تكشف عن هذه الظواهر واحدةً بعد الأخرى، وكأن الحق تبارك وتعالى يعطينا مجرد إشارة، وعلى العقول المتأمّلة أنْ تُكمِلَ هذه المنظومة. وقد كان لعلماء الإسلام موقفان فى هذه المسألة كلاهما ينطلق من الحب لدين الله، والغرام بكتابه، والرغبة الصادقة فى إثبات صدْق ما جاء به القرآن من آيات كونية جاء العلم الحديث ليقول بها الآن، وقد نزل بها القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان: الموقف الأول، وكان أصحابه مُولَعين بأنْ يجدوا لكل اكتشاف جديدًا شاهدًا من القرآن ليقولوا إن القرآن سبق إليه وإن محمدًا صلى الله عليه وسلم صادق فى بلاغه عن الله. الموقف الثانى: أما أصحاب الموقف

الآخر فكانوا يتهيبون من هذه المسألة خشية أن يقولوا بنظرية لم تثبت بَعْد، ويلتمسون لها شاهدًا من كتاب الله، ثم يثبُت بطلانها بعد أنْ ربطوها بالقرآن.

والموقف الحق أن هناك فرقًا بين نظرية علمية، وحقيقة علمية، فالنظرية مسألة محلّ بحث ومحلّ دراسة لم تثبت بَعْد. لذلك يقولون: هذا كلام نظرى، أى يحتاج إلى ما يؤيده من الواقع، أمّا الحقيقة العلمية فمسألة وقعتْ تحت التجربة، وثبت صدقها عمليا ووثقنا أنها لا تتغير. فعلينا إذن أَلَّا نربط القرآن بالنظرية التى تحتمل الصدق أو الكذب، حتى لا يتذبذب الناس فى فَهْم القرآن، ويتهمونا أننا نُفسِّر القرآن حَسْب أهوائنا. أمّا الحقيقة العلمية الثابتة فإذا جاءت بحيث لا تُدْفَع فلا مانعَ من ربطها بالقرآن... أما أن نلتقط نظرية وليدة فى طَوْر البحث والدراسة، ثم نفرح بربطها بالقرآن كما حدث أوائل العصر الحديث والنهضة العلمية حين اكتشف العلماءُ المجموعةَ الشمسية، وكانت فى بدايتها سبعة كواكب فقط مُرتّبة حسب قُرْبها من الشمس فى المركز: عطارد فالزهرة فالأرض فالمريخ فالمشترى فزُحَل فأورانوس، وهنا أسرع بعض علمائنا الكبار، منهم الشيخ المراغى، بالقول بأنها السماوات السبع، وكتبوا فى ذلك بحوثًا وفى القرآن الذى سبق إلى هذا. ومرَّتْ الأيام، واكتشف العلماء الكوكب الثامن نبتون، ثم التاسع".

قضايا عامة فى تفسير الشعراوى:

١- الأسباب والمعجزات

تناول الشيخ هذه القضية فى تفسيره مرارا. وكان رأيه عموما يميل إلى التقليل من شأن الأسباب رغم إلحاحه على أنها من صنع الله كما ينبغى أن يعتقد كل مسلم. وكانت المشكلة فى كلامه تكريره أنها تتعطل بين الحين والحين ليرينا ربنا أن الأمر يرجع إليه هو وليس إلى الأسباب. وتعطل الأسباب والقوانين عنده، رحمه الله، لا يقتصر على وقوع المعجزات، تلك المعجزات التى انقضت ولم يعد إلى رجوعها من سبيل، ومن ثم لا ينبغى أن تشغلنا عن ترتيب أمور حياتنا على الأخذ بالأسباب كى نصيب التوفيق والنجاح، بل يتعدى ذلك إلى أن الله يوقفها كل حين تحديا لعباده ووَقْفًا لهم عند حدودهم، التى لا ينبغى لهم تجاوزها مما سنبينه تفصيلا فى الصفحات التالية.

وربما كانت هذه القضية أول ما يواجه القارئ على الفور لدن فتحه تفسير الشيخ، إذ نراه يتساءل رحمه الله فى بداية تفسيره عند كلامه عن وجوب بدئنا أىَّ عمل نؤديه باسم الله الرحمن الرحيم قائلا: "هل نحن مطالبون أن نبدأ فقط تلاوة القرآن باسم الله؟" ليجيب بقوله: "إننا مطالبون أن نبدأ كل عمل باسم الله لأننا لابد أن نحترم عطاء الله فى كونه. فحين نزرع الأرض مثلا لابد أن نبدأ باسم الله لأننا لم نخلق الأرض التى نحرثها ولا خلقنا البذرة التى نبذرها ولا أنزلنا الماء من السماء لينمو الزرع.

إن الفلاح الذى يمسك الفأس ويرمى البذرة قد يكون أجهل الناس بعناصر الأرض ومحتويات البذرة وما يفعله الماء فى التربة لينمو الزرع. إن كل ما يفعله الإنسان هو أنه يعْمِل فكرَه المخلوقَ من الله فى المادة المخلوقة من الله بالطاقة التى أوجدها الله فى أجسادنا ليتم الزرع. والإنسان لا قدرة له على إرغام الأرض لتعطيه الثمار، ولا قدرة له على خلق الحبة لتنمو وتصبح شجرة، ولا سلطان له على إنزال الماء من السماء، فكأنه

حين يبدأ العمل باسم الله يبدؤه باسم الله، الذى سخر له الأرض، وسخر له الحب، وسخر له الماء، وكلها لا قدرة له عليها ولا تدخل فى طاقته ولا فى استطاعته، فكأنه يعلن أنه يدخل على هذه الأشياء جميعا باسم من سخرها له. والله تبارك وتعالى سخر لنا الكون جميعا وأعطانا الدليل على ذلك، فلا تعتقد أن لك قدرة أو ذاتية فى هذا الكون ولا تعتقد أن الأسباب والقوانين فى الكون لها ذاتية، بل هى تعمل بقدرة خالقها، الذى إن شاء أجراها، وإن شاء أوقفها.

الجمل الضخم والفيل الهائل المستأنس قد يقودهما طفل صغير فيطيعانه، ولكن الحية صغيرة الحجم لا يقوى أى انسان على أن يستأنسها. ولو كنا نفعل ذلك بقدراتنا لكان استئناس الحية أو الثعبان سهلا لصغر حجمها، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يجعلها مثلا لنعلم أنه بقدراته هو قد أخضع لنا ما شاء، ولم يخضع لنا ما شاء. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: "أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يأْكُلُونَ" (يس/ ٧١- ٧٢). وهكذا نعرف أن خضوع هذه الأنعام لنا هو بتسخير الله لها وليس بقدرتنا. يأتى الله سبحانه وتعالى إلى أرض ينزل عليها المطر بغزارة، والعلماء يقولون إن هذا يحدث بقوانين الكون، فيلفتنا الله تبارك وتعالى إلى خطأ هذا الكلام بأن تأتى مواسم جفاف لا تسقط فيها حبة مطر واحدة لنعلم أن المطر لا يسقط بقوانين الكون ولكن بإرادة خالق الكون. فإذا كانت القوانين وحدها تعمل فمن الذى عطلها؟ ولكن إرادة الخالق فوق القوانين: إن شاءت جعلتها تعمل، وإن شاءت جعلتها لا تعمل. إذن فكل شىء فى الكون باسم الله. هو الذى سخر وأعطى، وهو الذى يمنح ويمنع حتى فى الأمور التى للإنسان فيها نوع من الاختيار.

واقرأ قول الحق تبارك وتعالى: "لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يشَآءُ يهَبُ لِمَن يشَآءُ إِنَاثًا وَيهَبُ لِمَن يشَآءُ الذُّكُورَ * أَوْ يزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيجْعَلُ مَن يشَآءُ عَقِيمًا

إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ" (الشورى/ ٤٩-٥٠). والأصل فى الذرية أنها تأتى من اجتماع الذكر والأنثى. هذا هو القانون. ولكن القوانين لا تعمل الا بأمر الله. لذلك يتزوج الرجل والمرأة ولا تأتى الذرية لأنه ليس القانون هو الذى يخلق، ولكنها إرادة خالق القانون: إن شاء جعله يعمل، وإن شاء يبطل عمله، والله سبحانه وتعالى لا تحكمه القوانين، ولكنه هو الذى يحكمها.

وكما أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل القوانين تفعل أو لا تفعل فهو قادر على أن يخرق القوانين. خذ مثلا قصة زكريا عليه السلام. كان يكفل مريم ويأتيها بكل ما تحتاج إليه، ودخل عليها ليجد عندها ما لم يحضره لها، وسألها وهى القديسة العابدة الملازمة لمحرابها: "قَالَ يامَرْيمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا" (آل عمران/ ٣٧). الحق سبحانه وتعالى يعطينا هذه الصورة مع أن مريم بسلوكها وعبادتها وتقواها فوق كل الشبهات، ولكن لنعرف أن الذى يفسد الكون هو عدم السؤال عن مصدر الأشياء التى تتناسب مع قدرات من يحصل عليها".

ومن كلام الشيخ نراه يحمل على من يقول من العلماء إن ما يحدث فى الكون إنما هو بقوانين الكون، وهو يحمل عليهم ظنا منه أن القول بقوانين الكون معناه إخراج الله سبحانه ومشيئته من الموضوع. وهذا ظن فى غير محله، فالعالم إذا كان مسلما فإنه لا يقصد أن القوانين هى من صنع أحد غير الله بل من صنع الله، ومن ثم فلا مشكلة فى قول مثل ذلك العالم بأن الزرع حين ينبت، والشمس حين تشرق وحين تغيب، والجمل حين ينقاد للصبى الصغير الذى يجره برَسَنٍ بينما لا ينقاد لنا نحن الكبار الثعبان، وهو أصغر من الجمل كثيرا، إنما يجرى على قوانين مطردة. وبالنسبة للعلماء غير المؤمنين بالله فإنه إذا كان جمهورهم يتصور أن الأشياء هى السبب فى وقوع النتائج التى تقع بعدها فإن منهم من لا يسند إلى الأشياء هذا الدور بل يرى أنّ تحقُّق ما نسميه: "النتيجة" غير ناتج عن الشيء بل كل ما يمكن أن يقال هو أننا نلاحظ وقوع هذه بعد وقوع ذاك،

والسلام، لكن لا حتم فى ذلك التتابع، بل يمكن أن يتغير هذا يوما. وهذا كلام مأخوذ من كلام بعض علمائنا القدماء، وأشهرهم فى ذلك الإمام الغزالى. كما أن فتحهم باب احتمال تغير هذا النظام الذى نشاهده من حولنا لا يختلف عما نؤمن نحن المسلمين به من أن النظام والقوانين التى سوف يسير عليها العالم من يوم القيامة فصاعدا نظام وقوانين مختلفة. ونضيف إلى هذا أنه لا يختلف أيضا عما يقال بشأن المعجزات.

أما كلام الشيخ فقد يفهم منه أن القوانين شىء، وإرادة الله شىء آخر. وهو كلام فى غير محله، فالله هو خالق القوانين، وهى لا تتغير إلا فى حالات معدودة على أيدى الأنبياء وبمشيئة الله تعضيدا لهم بالمعجزات، وهى حالات مذكورة فى القرآن المجيد، ثم انتهى أمرها ولم يعد هناك معجزات، إذ ولى عصرها بمجيء محمد عليه الصلاة والسلام. فكيف يفهم فاهم أن القول باطراد القوانين التى يسير عليها الكون هو تشكيك فى قدرة الله فى حين أنها لم تكون لتوجد إلا بقدرة الله؟ بل إن الكون لا تستقيم أموره إلا بجريانه على قوانين، وإلا ما استطاع البشر عمل أى شىء بالمرة. ذلك أننا، فى تلك الحالة، لن نعرف ماذا ينبغى أن نصنع إذا ما أردنا إنجاز شىء، إذ الكون حينئذ يكون ملفوفا فى طبقات متكاثفة من الظلام لا نبصر خلالها طريقا يمكننا سلوكه للوصول إلى ما نريد.

وبالمثل فقول الشيخ الشعراوى: "يأتى الله سبحانه وتعالى إلى أرض ينزل عليها المطر بغزارة، والعلماء يقولون إن هذا يحدث بقوانين الكون، فيلفتنا الله تبارك وتعالى إلى خطأ هذا الكلام بأن تأتى مواسم جفاف لا تسقط فيها حبة مطر واحدة لنعلم أن المطر لا يسقط بقوانين الكون، ولكن بإرادة خالق الكون. فإذا كانت القوانين وحدها تعمل فمن الذى عطلها؟ ولكن إرادة الخالق فوق القوانين: إن شاءت جعلتها تعمل، وإن شاءت جعلتها لا تعمل"، هذا القول يفهم منه أن الله سبحانه لا يكف عن تعطيل القوانين الطبيعية نكاية فى العلماء الذين يركزون عليها، وكأن الله سبحانه مثلنا نحن

البشر يغتاظ ممن يتحداه فيترك ما فى يده من عمل ليرد على المتحدِّين ويبرهن على خطئهم، مع أن العلماء القائلين بذلك لا يتحدَّوْنه بل يتحدثون عما لاحظوه، وما ينبغى أن يتنبه الجميع إليه، وهو أن الكون قائم على نظام وقانون وليس سبهللا. ولو كان الله يفعل ما يفْهَم من كلام الشيخ ما كان هناك كون ولا حياة لأن الحياة لا تمشى فى ظل الفوضى التى لا يحكمها قانون.

ثم إن عدم نزول المطر ليس معناه أن القوانين التى تنظِّم نزوله قد توقفت، بل معناه أن هناك شروطا لنزول المطر لم تتوافر كلها فى ذلك الوقت، ومن ثم لم ينزل المطر. ولا يعقل أن الله سبحانه يعطل القوانين كل حين. لقد بث قوانينه فى الكون منذ بداية الخلق، فصارت من يومها تعمل بشروطها كما قلنا، ولا يحدث إيقاف لها إلا باللتيا والتى، وعلى يد نبى، وبمشيئة الله، وعند استلزام الموقف ذلك، وهذا قليل جدا جدا، وقد انتهى عصره منذ زمن بعيد، فلا ينبغى أن نغرس فى نفوس الناس أن الله سبحانه قد جعل وُكْدَه الرد على تحدى العلماء الملاحدة، فكلما قالوا شيئا أوقف القانون تحديا لهم وتعجيزا. القوانين الكونية مطردة، وهذه القوانين هى من صنع الله، واطرادها قد تم بمشيئة الله، والله سبحانه هو نفسه الذى قال فى قرآنه الكريم: "وما منعَنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذَّب بها الأولون" بما يدل على أن عصر المعجزات قد ولى، وينبغى أن تعتمد البشرية الآن على العقل. والطريف أن الشيخ رحمه الله كثيرا ما يقول إن المعجزات الحسية لا تعد شيئا ذا بال بالقياس إلى معجزة القرآن. ومعجزة القرآن معجزة عقلية كما نعرف.

ومثل هذا تعليقه على الآية ١٩ من سورة "النساء": "يا أَيهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آَتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ" بقوله: "العَضْل فى الأصل هو المنع. ويقال: "عضلت المرأة بولدها"... فالمرأة ساعةَ تلدُ فمن فضل الله عليها أن لها عضلات تنقبض وتنبسط: تنبسط فيتسع

مكان خروج الولد، وقد تعضل المرأة أثناء الولادة، فبدلا من أن تنبسط العضلات لتفسح للولد أن يخرج تنقبض، فتأتى هنا العمليات التى يقومون بها مثل القيصرية. إذن فالعضل معناه مأخوذ من "عضلت المرأة بولدها" أى انقبضت عضلاتها ولم تنبسط حتى لا يخرج الوليد، و"عضلت الدجاجة ببيضها" أى أن البيضة عندما تكون فى طريقها لتنزل فتنقبض العضلة فلا تنزل البيضة لأن اختلالا وظيفيا قد حدث نتيجة للحركة الناقصة. ولماذا تأتى الحركة ناقصة للبسط؟ لأن الحق سبحانه وتعالى لم يشأ أن يجعل الأسباب فى الكون تعمل آليا وميكانيكيا بحيث إذا وجدت الأسباب يوجد المسبب. لا".

والحق أن عدم نزول الوليد من المرأة أو البيضة من الدجاجة لا يرجع إلى إيقاف أسباب هذا النزول، بل إلى عدم توافر كل شروطه. والشيخ ذاته قد ذكر أن اختلالا وظيفيا هو الذى منع العضلات من الانبساط. وعلى أية حال ألم ينزل الطفل بالعملية القيصرية؟ إذن فلَمْ يمنع الله الولادة. سيقول الشيخ إن الأسباب لم تنفع هنا. ونقول نحن: بل نفعت الأسباب، أسباب استعمال الولادة القيصرية. وعلى هذا فكلام الشيخ فى هذا النص غير مقبول.

أما قول الشيخ عقب ذلك: "ففوق الأسباب مسبِّب إن شاء قال للأسباب: "قفى" فتقف"، فهو وإن كان صحيحا بشرطه كما وضحنا فإن الله سبحانه لا يقول مع ذلك للأسباب: "قفى" إلا فى حالة المعجزة، وإلا عند يوم القيامة كما أوضحنا. وليس من المعقول ولا بالذى يليق بجلال الله ونظام كونه الدقيق وقوانينه المطردة التى لو لم تطرد ما كانت حياةٌ أن نقول إنه سبحانه يوقف تلك القوانين كل حين تحديا لعباده وتحييرا لهم. الله سبحانه أكبر وأعظم وأجلّ من هذا كله، فضلا عن أن هذا لا يقع أبدا فى الدنيا. إنما هو سوء فهم من الشيخ للأمر وسوء تعليل. أما القوانين فلا تتوقف أبدا إلا يوم تُبَدَّل الأرضُ غيرَ الأرض والسماواتُ. وبالمناسبة فبلاد العلماء غير المسلمين

هى البلاد المتقدمة الآن تقدما هائلا كما نرى بينما نحن المسلمين بوجه عام متخلفون. فماذا يعنى ذلك؟ يعنى أن من فهم نظام الكون وعرف قوانينه وراعاها وتصرف بناء عليها وعلى اطرادها هو من ينجح، ومن يقصر فى هذا الجانب فليس أمامه إلا أن يقشر بصلا إذا أحب، أما إذا لم يحب فليخبط رأسه فى أقرب وأصلب جدار، ولن ينفعه هذا بشيء. وقد تناول الشيخ هذه القضية بنفس الأفكار فى الجزء الثانى من كتاب أحمد زين: "الشيخ الإمام محمد متولى الشعراوى وقضايا العصر" (دار الجيل ببيروت ومكتبة التراث الإسلامى بالقاهرة/ ٢٩- ٣٢).

وفى تعليقه على الآية ٣٧ من سورة "الروم" يقول إن "مسألة الرزق لها فلسفة فى الإسلام. فالحق سبحانه أخبرنا بأنه الرزَّاق: فمرة يرزق بالأسباب، ومرة يرزق بلا أسباب. لكن إياك أنْ تغتر بالأسباب، فقد تقدِّم الأسبابَ وتسعى ثم لا يأتيك منها رزق، ويخيب سَعْيك كالفلاح الذى يأخذ بالأسباب حتى يقارب الزرع على الاستواء فتأتيه جائحة فتهلكه. فاحذر أن تغتر بالأسباب، وانظر إلى المسبِّب سبحانه".

وردا على هذا نقول إن الأسباب التى تؤدى إلى الحصول على أى شيء كثيرة، ومنها ما هو خفى لا يظهر، ومنها الظاهر البائن للعيان. وانعدام الجوائح شرط من شروط حصول الفلاح على محصول، وخلو زراعته من الآفات شرط من شروط حصوله على محصول وفير وطيب. وما دامت الجائحة قد اجتالت الزرع فمعنى هذا أن الأسباب لم تكتمل لحصول الفلاح على ثمار تعبه. وقد تناول الشيخ هذه المسألة فى الجزء الثانى من كتاب أحمد زين: "الشيخ الإمام محمد متولى الشعراوى وقضايا العصر" (دار الجيل ببيروت ومكتبة التراث الإسلامى بالقاهرة/ ٥٧- ٥٨) مع إضافة شيء جديد، وهو أن الإنسان إذا ما آمن بالأسباب والقوانين وحدها دون الإيمان بالله، الذى خلق هذه الأسباب والقوانين، فإنه لن يبالى حينئذ بأى خلق أو ضمير فى سبيل

الحصول على ما يريد من أمور الدنيا لأن تلك الأسباب والقوانين لا تراقب ولا تحاسب ولا تعاقب.

ومن عجائب الأمور أن الشيخ نفسه ينصحنا فى موضع آخر من تفسيره عند تعرضه للآية ٣١ من سورة "الإسراء" قائلا: "والخالق سبحانه يحذِّرنا: إياكم أنْ تُدْخِلوا مسألة الرزق فى حسابكم لأنكم لم تخلقوا أنفسكم، ولم تخلقوا أولادكم ولا ذريتكم، بل الخالق سبحانه هو الذى خلقكم وخلقهم، وهو الذى استدعاكم واستدعاهم إلى الوجود، وما دام هو سبحانه الذى خلق، وهو الذى استدعى إلى الوجود، فهو المتكفّل برزق الجميع. فإياك أنْ تتعدَّى اختصاصك، وتُدْخِل أنفك فى هذه المسألة، وخاصة إذا كانت تتعلق بالأولاد".

ولا أدرى كيف يقول الشيخ ذلك، وما من شىء فى الدنيا يمكن الإنسانَ التدخلُ فيه إلا والإنسان مطالب بالاجتهاد فى إيجاده أو إنجازه وتحسينه وتطويره وتنقيته من الشوائب والعيوب على قدر ما يستطيع. والرزق من هذه الأشياء بكل يقين. يقول النبى عليه السلام: "لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير: تغدو خِمَاصًا وتروح بِطَانًا". ورأى النبى عليه السلام رجلا يشحت فنهاه عن ذلك وأعطاه فأسا وقال له: اذهب واحتطب. وقد انصاع الرجل لأمر النبى فأصاب خيرا لم يكن له قبل ذلك. وقال عمر إن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة. وفى الأولاد يقول صلى الله عليه وسلم للمسلم: "إنك إن تذرْ ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس". ورأى صلى الله عليه وسلم رجلا باقيا فى المسجد بعد الصلاة ولم ينصرف كما انصرف الجميع، فسأله عَمَّ يبقيه فى المسجد، فأجاب بأنه يعبد الله. فأعاد سؤاله قائلا: ومن ينفق عليك؟ قال: أخى. فصَكَّه النبى بالتعليق العبقرى التالى: أخوك أعبد منك. وفى الحديث "التمِسوا الرِّزقَ فى خبايا الأرضِ"، "عليكم بالتِّجارةِ فإنَّ فيها تِسعةَ أعشارِ الرِّزقِ"، "مرَّ على النَّبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رجلٌ، فرأَى أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى

اللهُ عليه وسلَّم من جَلَدِه ونشاطِه فقالوا: يا رسولَ اللهِ، لو كان هذا فى سبيلِ اللهِ. فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إن كان خرج يسعَى على ولدِه صِغارًا فهو فى سبيلِ اللهِ، وإن كان خرج يسعَى على أبوَين شيخَين كبيرَين فهو فى سبيلِ اللهِ، وإن كان خرج يسعَى على نفسِه يعِفُّها فهو فى سبيلِ اللهِ، وإن كان خرج يسعَى رياءً ومُفاخَرةً فهو فى سبيلِ الشَّيطانِ". والمعنى، كما هو واضح، أن السعى على المعاش سبيل من سبل الله.

وفى الجزء الثانى من كتاب أحمد زين: "الشيخ الإمام محمد متولى الشعراوى وقضايا العصر" (دار الجيل ببيروت ومكتبة التراث الإسلامى بالقاهرة/ ٣٩- ٤١) إلحاح رائع على أن العبادة التى خلقنا الله من أجلها كما يقول آخر سورة "الذاريات" ليست هى الجلوس فى المساجد للصلاة والتسبيح والذكر مع ترك العمل، بل العمل عبادة، وأى عبادة. أما العبادة بمعناها الشائع فلا تمثل سوى جزء صغير من هذه العبادة الشاملة، إذ كل شىء نعمله وقد وضعْنا الله فى حسباننا هو ضرب من ضروب العبادة: فاستذكار الدروس عبادة، وإلقاء المحاضرات عبادة، وتأليف كتاب عبادة، والبيع عبادة، والخروج إلى السوق للتبضع للبيت عبادة، ووقوف الأم فى المطبخ لإعداد الطعام عبادة، وإرشاد الضال فى الشارع إلى المكان الذى يريده عبادة، وقيادة الحافلة عبادة، وتعبئة خزانات السيارات بالوقود عبادة، وكنس الشارع عبادة، ورصف الطريق عبادة، ومعالجة المريض عبادة، والتجارة عبادة، والسياحة عبادة... وهكذا وهكذا مما لا نهاية له.

وأذكر فى هذا السياق مناقشة دارت بينى وبين زميل مصرى فى قسم اللغة العربية بكلية التربية بالطائف فى أوائل تسعينات القرن المنصرم جرى على لسانى فيها مصطلح "القوانين العلمية"، فألفيته ينفعل ويشتم تلك القوانين كأن لديه ثأرا لا بد من اقتصاصه منها حالا، وإلا. وقد رددتُ مستغربا وضاحكا من حملته على القوانين لحساب مشيئة الله ظنا منه أن القول بالقوانين العلمية انتقاص من مشيئته سبحانه بل

إلغاء لها، فقلت له: كيف تشتم تلك القوانين، وهى من خلق الله، وانعكاس لمشيئة الله؟ هل تظن أن الله سبحانه يصرِّف أمور كونه تصريفا همايونيا فيجريه على هذا النحو يوما ليعود فى الغد أو ربما بعد ساعة أو أقل أو أكثر فيصَرِّفه على نحو آخر؟ إن العالم حينئذ يقع فى الفوضى ولا يتم فيه عمل شىء، وحاشا لله أن يجرى كونه على الفوضى. ثم إذا كنت تضيق بمصطلح "القوانين العلمية" فهل تظن أن القوانين التى يجرى عليها كون الله هى "قوانين جهلية"؟ ألا ترى أنك تضع الضمير المسلم فى ورطة ومأزق شنيعين؟ ولا أذكر الآن كيف انتهت تلك المناقشة يومها.

وكان الشيخ الشعراوى قد قال قبيل النص الذى نشرتُه فى أول الكلام هنا: "إن الفلاح الذى يمسك الفأس ويرمى البذرة قد يكون أجهل الناس بعناصر الأرض ومحتويات البذرة وما يفعله الماء فى التربة لينمو الزرع. إن كل ما يفعله الإنسان هو أنه يعمل فكره المخلوق من الله فى المادة المخلوقة من الله بالطاقة التى أوجدها الله فى أجسادنا ليتم الزرع. والإنسان لا قدرة له على إرغام الأرض لتعطيه الثمار ولا قدرة له على خلق الحبة لتنمو وتصبح شجرة ولا سلطان له على إنزال الماء من السماء. فكأنه حين يبدأ العمل باسم الله يبدؤه باسم الله الذى سخر له الأرض، وسخر له الحب، وسخر له الماء، وكلها لا قدرة له عليها ولا تدخل فى طاقته ولا فى استطاعته. فكأنه يعلن أنه يدخل على هذه الأشياء جميعا باسم من سخرها له. والله تبارك وتعالى سخر لنا الكون جميعا وأعطانا الدليل على ذلك. فلا تعتقد أن لك قدرة أو ذاتية فى هذا الكون".

وتعليقنا على ذلك هو التأكيد بأن لنا قدرة وذاتية فى هذا الكون وهبها الله لنا، وإلا فلنذهب وننام ملء جفوننا ولا نقوم إلا يوم القيامة ما دام حضورنا وغيابنا يتساويان فى إثمار الشجر ونبات الزرع وما إلى ذلك. لكن الواقع هو أنه لا زرع ولا قلع إلا بالجهد الإنسانى. ومرة أخرى ليس هذا تحديا لله بل إقرارا بقانون الله، الذى أوقف

نبات الزرع على مجهود الإنسان بحيث إذا لم يشتغل الإنسان ويجتهد فلن ينبت أو يثمر شىء من الزرع. الجهد البشرى أهم رقم فى معادلة الإنتاج، ولولا هذا الجهد ما تم شىء. وهذا قانون ربانى وليس تحديا أحمق منا. والله سبحانه يقول فى سورة "التوبة" عن المشركين الغادرين الذين اعتدَوْا على المسلمين وخرجوا على ما كان بينهم وبين النبى وأتباعه من معاهدة مزقها هؤلاء الخونة وقتلوا بعض حلفاء المسلمين بعد صلح الحديبية: "قاتِلوهم يعذبْهم الله بأيديكم"، وفى سورة "محمد": "إن تنصروا اللهَ ينصرْكم ويثبِّتْ أقدامكم"، وفى سورة "البقرة": "وأقرِضوا اللهَ قرضا حسنا". وهذه الآيات تُعْلِى، كما هو واضحٌ بَيِّنٌ، من شأن الجهد البشرى ولا تعده تحديا للقدرة أو المشيئة الإلهية.

بل إن الرسول فى الحديث التالى ليذهب فى هذا السبيل شوطا أبعد فيقول: "إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ يومَ القيامةِ: يا ابنَ آدمَ، مَرِضْتُ فلم تَعُدْنى. قال: يا ربِّ، كيف أعودُك، وأنت ربُّ العالمين؟ قال: أمَا علمتَ أنَّ عبدى فلانًا مَرِض فلم تَعُدْه؟ أمَا علمتَ أنك لو عُدْتَه لوجدتَنى عنده؟ يا ابنَ آدم، استطعمتُك فلم تُطْعِمْنى. قال: يا ربِّ، وكيف أُطْعِمُك، وأنت ربُّ العالمين؟ قال: أما علمتَ أنَّه استطعمك عبدى فلانٌ فلم تُطعِمْه؟ أما علمتَ أنَّك لو أطعمتَه لوجدتَ ذلك عندى؟ يا ابنَ آدمَ، استسقيتُك فلم تَسْقِنى. قال: يا ربِّ، كيف أسقِيك، وأنت ربُّ العالمين؟ قال: استسقاك عبدى فلانٌ فلم تَسْقِه. أما إنَّك لو سقَيتَه وجدتَ ذلك عندى".

وسوف أعطى مثالا ضاحكا لكنه كاشف لما أريد أن أقول عن لزومية وجود القوانين الكونية: تصور شخصا يريد أن ينتحر مثلا، فماذا يفعل؟ الواقع أنه لن يستطيع التوصل إلى أية طريقة يمكنه الانتحار بها لأنه لا يوجد نظام نسير عليه. ولو افترضنا أنه قد عرف بطريقة أو بأخرى أنه يمكن الانتحار من نافذة الشقة التى يسكنها فى نيويورك فى الطابق المائة، فماذا يمكنه أن يصنع؟ إنه لن يعرف ماذا يفعل لأنه لا يدرى ماذا

سيحدث له إذا ما فارقت قدماه حافة النافذة، وهل سوف يبقى معلقا فى الهواء أم يطير لأعلى أم لليمين أم للشمال أم لتحت، وإذا ما سقط لتحت هل سيهبط قليلا ثم يتوقف ويظل ثابتا فى موضعه لا يصعد ولا ينزل؟ أم هل سيستمر فى الهبوط حتى يصل للأرض؟ ثم كيف سيكون السقوط؟ هل سيكون بطيئا مملا يجعله يندم على اتخاذ قرار الانتحار، أم سيكون سريعا؟ وإذا ما كان سريعا فماذا سيحدث له؟ هل ستنقصف رقبته؟ أم هل سيبلغ الأرض سالما غانما رغم السرعة؟ الواقع أن كل هذا وأكثر وأعقد منه سوف يحدث ويجعل المنتحر يتردد مليار مرة قبل أن يفكر فى الانتحار لأنه لا يعرف عن طبيعة الانتحار شيئا. لماذا؟ لأن الانتحار، شأنه شأن أى شيء آخر، لا يسير فى هذه الحالة على نظام، بل كل عمل نعمله يتخذ مسارا مفاجئا مختلفا عما اتخذه فى المرة السابقة.

وهذا عرض سهل جدا لما سوف يقع فى مثل هذه الحالة، وإلا ففى الواقع سيكون الأمر فى غاية التعقيد. وهذا إن كانت هناك حياة أصلا لأن الحياة فى ظل انعدام القوانين مستحيلة تمام الاستحالة. والشيخ نفسه سيعود فى موضع آخر من تفسيره الضخم الهائل فيلح على أن الدنيا تمشى على قوانين مطردة ويستشهد بآيات القرآن التى تتحدث عن السنن والميزان والتقدير. لكنه هنا يركز على أن القوانين الكونية لا قيمة ولا دور لها، وهو ما دفعنى إلى فتح ملف هذه القضية وإبداء رأيى بالتفصيل بشأنها.

أقول هذا وأنا من المؤمنين بأن إرادة الله هى كل شيء. أليس هو خالقنا وخالق إرادتنا وخالق النظام والقوانين التى يتبعها الكون فى مسيرته؟ بيد أنه سبحانه، رغم هذا كله، قد أعطانا نحن أيضا إرادة بها نختار ونرفض، وبها نعمل أو نسكت، كما جعل تلك القوانين التى خلقها تؤدى إلى نفس النتيجة متى توفرت نفس الشروط. وأما قول الشيخ إن الظروف قد تتشابه ثم تأتى النتيجة مختلفة فإنه يغفل عن أن الشروط لا يمكن أن تكون هى هى نفسها فى الحالتين بل لا بد أن يكون هناك اختلاف ما صغيرا أو كبيرا،

وإن كنا لا نستطيع بحواسنا وإدراكنا القاصر رؤيته ولا التنبه إليه. كذلك أنا من المؤمنين بالمعجزات، لكن وقوع المعجزات هو أمر من أمور الماضى أولا، كما أنها لم تكن مطردة بل تأتى شاذة عن النظام مرات قليلة ومتباعدة، ثم سرعان ما تعود المياه إلى مجاريها وتنتظم القوانين بعد ذلك التعطيل القصير المحدود. وهذا ثانيا. بل إن هناك من يرى أن وراء وقوع المعجزات قانونا من قوانين الكون متى توافرت شروطه وقعت. وينبغى أن نلاحظ هنا أن المعجزات تتسم بقلة حدوثها وقصر الزمن الذى تقع فيه، بالإضافة إلى أن المعجزات قد انتهى عصرها بعدما ثبت أنها لا تؤدى إلى الإيمان بل يظل الكفار بعد وقوعها على كفرهم لا يتغيرون. وقد قال محمد عبده كلاما يجرى فى هذا الاتجاه فى "رسالة التوحيد": "المعجزة ليست من النوع المستحيل عقلا، فإن مخالفه السير الطبيعى المعروف فى الإيجاد مما لم يقم دليل على استحالته، بل ذلك مما يقع كما يشاهَد فى حاله المريض: يمتنع على الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات مع وجود العلة التى تزيد الضعف وتساعد الجوع على الإتلاف. فإن قيل إن ذلك لا بد أن يكون تابعا لناموس آخر طبيعى قلنا إن واضع الناموس هو موجد الكائنات، فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات. غاية ما فى الأمر أننا لا نعرفها، ولكننا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده. على أننا، بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار، يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث على أى هيئه وتابعا لأى سبب إذا سبق فى علمه أنه يحدثه كذلك.

المعجزة لابد أن تكون مقرونة بالتحدى عند دعوى النبوة. وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده لأن النبى يستند إليها فى دعواه أنه مبلغ عن الله، فإصدار الله لها عند ذلك يعد تأييدا منه له فى تلك الدعوى. ومن المحال على الله أن يؤيد الكاذب، فإن تأييد الكاذب تصديق له، وهو محال على الله. فمتى ظهرت المعجزة، وهى مما لا يقدر عليه البشر، وقارن ظهورها دعوى النبى عُلِم بالضرورة أن

الله ما أظهرها إلا تصديقا لمن ظهرت على يده، وإن كان هذا العلم قد يقارنه الإنكار مكابرةً" (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده/ تحقيق وتقديم د. محمد عمارة/ دار الشروق/ بيروت والقاهرة/ ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م/ ٣/ ٤١٦- ٤١٧).

كذلك فكلام الشعراوى التالى: "واقرأ قول الحق تبارك وتعالى: "لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يشَآءُ يهَبُ لِمَن يشَآءُ إِنَاثًا وَيهَبُ لِمَن يشَآءُ الذُّكُورَ * أَوْ يزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيجْعَلُ مَن يشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ" (الشورى/ ٤٩-٥٠). والأصل فى الذرية أنها تأتى من اجتماع الذكر والأنثى. هذا هو القانون. ولكن القوانين لا تعمل إلا بأمر الله. لذلك يتزوج الرجل والمرأة ولا تأتى الذرية لأنه ليس القانون هو الذى يخلق، ولكنها إرادة خالق القانون: إن شاء جعله يعمل، وان شاء يبطل عمله. والله سبحانه وتعالى لا تحكمه القوانين، ولكنه هو الذى يحكمها" كلام الشيخ هذا يقف وراءه تصور خاطئ، إذ هو يتصور أنه لكى يتم حمل يكفى أن يكون هناك جماع، ومن ثم يقول ما معناه أن شرط الحمل، وهو الجماع، كثيرا ما يتوافر ولا يتم حمل لأن الأمر بمشيئة الله لا بمشيئة القوانين.

ومرة أخرى نقول إن القوانين التى يجرى عليها الكون هى من صنع الله، وهى انعكاس لمشيئة الله، فتقليل الشيخ من تلك القوانين هو تقليل من حيث لا يقصد ولا يدرى من مشيئة الله سبحانه. ومن ناحية أخرى فإن الجماع ليس هو كل شىء فى الحمل، بل هناك شروط أخرى منها أن تكون هناك صلاحية عند كل من الرجل والمرأة للحمل، فقد يكونان جميعا عاقرين أو أحدهما عقيما فلا يحدث حمل. ومنها أيضا ألا يتم الجماع عقب زوال الحيض ولا قبله مباشرة بل لا بد أن تفصل بينه وبين الحيض فى الحالتين عدة أيام. كذلك إذا استخدما مانعا من موانع الحمل كالحبوب أو الواقى أو تم تعقيمها مثلا أو كانت الزوجة قد أزالت الرحم لم يتم الحمل. ومن ثم لا يكفى أن

يكون هناك جماع حتى ينتج عنه حمل بل لا بد من توافر شروط أخرى يعرفها الأطباء جيدا.

بـل لقـد تقـدم الطـب فى الآونـة الأخيرة فـصار بمكنـة الطبيـب أن يـساعد عـلى الإنجاب كثيرا من الأزواج الذين لا ينجبون، وذلك عن طريق التلقيح الصناعى، وهى عملية تنجح فى كثير من الأحيان. ولكن هل فى إجراء هذه العملية افتئات على مشيئة الله؟ لا بالثلث، بل هى داخلة فى مشيئة الله بكل تأكيد. وهذا من رحمة الله، وبفضل الله، وبالعلم الذى زود الله سبحانه وتعالى به آدم والإمكانات التى بثها فى كيانه منذ الخلق الأول، فورثناها نحن عنه وظهرت آثارها فى هذا الزمان. وصدق عمر الفاروق العبقرى الكبير حين عوتب على أنه، فى رحلته إلى الشام، لم يستمر فى طريقه حتى يدخل المنطقة الموبوءة بالطاعون، إذ لما قيل له: لِمَ تفرُّ من قضاء الله؟ كان جوابه العبقرى: أفرّ من قضائه إلى قضائه. لقد كان عمر فى غاية الحذق وفهم الدين وروعته، فعرف أننا طوال حياتنا فى قبضة الله الواسعة الشاسعة المحيطة بكل شىء فى الكون: فإذا ما اتجهنا يمينا كنا فى قبضته، وإذا ما يممنا يسارا كنا فى قبضته، وإذا ما طرنا فى الجو كنا فى قبضته، وإذا ما خرقنا الأرض أو غصنا فى البحر كنا فى قبضته لا فكاك منها، ولكن مع قدر من الحرية صغير، لكنه ينجز ما يشبه المعجزات من استنباط سلالات جديدة من النبات والفاكهة ومصنوعات عجيبة واختراعات رائعة وإبداعات واكتشافات لم تكن تخطر على البال من دراجات وسيارات وقطارات وطيارات وغواصات وصواريخ وكاتوب ومشباك وأدوية وعمليات جراحية ومبان شاهقة ومصانع وإدارات وطرق ممهدة ورسم وتصوير ونحت وغناء ورياضة وسباحة وحيوانات مستأنسة وكاميرات وحقن وأقلام ومدارس وجامعات وأشعار وقصص وخيالة وكتب وتآليف وآلات موسيقية وغناء ومذياع وهاتف وتلفاز ومشى فوق الحبل واستئناس للحيوانات المتوحشة... إلخ. أما مهاجمة القوانين العلمية أو الطبيعية أو الكونية أو الإلهية (سَمِّها

ما شئت، فأنت مصيب) فيعمّق فينا التخلف، ونحن غير ناقصين تخلفا بحمد الله، ويزيدنا إمعانا وإيغالا فى طريق الفكاكة واللماضة مما يؤدى إلى مزيد من الكوارث نحن فى غنى عنها لأن لدينا منها الكثير.

والمشكلة فى كلام الشيخ أنه لا يستثنى المعجزات وحدها بل يرى أن إيقاف القوانين هو أمر اعتيادى يتم كل حين ولا يتوقف أبدا. وإلى جانب مثال المطر الذى لا ينزل دون سبب يمنع نزوله، ومثال الحمل الذى لا يتم دون سبب يوقف حدوثه، نسمعه يقول بصريح العبارة: "وكما أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل القوانين تفعل أو لا تفعل فهو قادر على أن يخرق القوانين. خذ مثلا قصة زكريا عليه السلام: كان يكفل مريم ويأتيها بكل ما تحتاج إليه، ودخل عليها ليجد عندها ما لم يحضره لها". إذن فأمر القوانين ذاتها مضطرب وكأنها لا معنى لها، إذ لا تتسم بالاطراد والديمومة لا فى حالة المعجزات وحدها بل فى كل حين.

إن كلام الشيخ يخيل لنا أن الله يقف متربصا بالبشر، فكلما ظنوا أنهم، من خلال اتباع القوانين التى خلقها هو بنفسه، يمكنهم أن يحصلوا من وراء هذا الاتباع على ما يريدون من نعمه الكثيرة التى تملأ الكون، برز سبحانه لهم فعاكسهم وخيب ظنهم وأفسد عليهم كل شيء مع أنه سبحانه كان، لو أراد، قادرا على إيقاع العقاب الفورى بالكفار فيستأصلهم أو يكرههم على الإيمان دون هذا كله، لكنه لم يفعل وترك الكافر والمنافق والمشرك والمؤمن والضعيف الإرادة والقويها والتقى والفاجر يستمتع بتلك النعم.

لكن للشيخ كلمة أخرى لا أساس لها، ومن شأنها أن تفسد كل شيء وتحول الكون إلى عالم يقوم على الفوضى والتحول من حال إلى حال دون الثبات على وضع واحد يمكن البشرَ التعاملُ معه واستغلالُه لصنع الحضارة الإنسانية التى يشترك فى صنعها وإبداعها الجميع مؤمنين وغير مؤمنين. ولو كان الأمر كما يتصور الشيخ الجليل

لكان أولى الناس بإيقاف الله قوانينه كل حين هى الدول الغربية واليابان وكوريا والهند والصين وما إليها ممن لا يؤمنون بدين محمد بل ولا بأى دين فى بعض الحالات، وذلك حتى يؤدبهم الأدب الشرعى ويعلمهم المشى على العجين دون أن يلخبطوه. ولكنه للأسف لا يفعل. وأما نحن الذين ندعى الإيمان فإيماننا بالقوانين غائم وضعيف ولا قيمة له لأننا لا نستفيد بها لا على مستوى الخاصة ولا على مستوى العامة، ولهذا تجد أمورنا كلها غير مستقيمة، ونأتى دائما فى ذيل الدول. ثم يأتى الشيخ فيزيد كلامه الطين بلة مع جلال قدره وذكائه وبراعته فى عرض الإسلام فى كثير من الأحيان، وقدرته الهائلة على سحر من يشاهدونه ويستمعون إليه.

ويلقى النص التالى من كلام الشيخ عند تفسيره للآية ٢٢٧ من سورة "الطلاق" ضوءا على فهمه للقوانين التى تحكم الحياة: "يجوز أن يكون الإنسان فى ساعة الزواج مدفوعا بحرارة مَلَكَةٍ واحدة، وبعد ذلك عندما يجئ واقع الحياة تتملكه ملكات متعددة، وقد تسيطر عليه المسألة الجنسية، وتدفعه للزواج، وفى سبيل إرضاء شهوته الجنسية قد يهمل بقية ملكات نفسه، فإذا ما دخل واقع الزواج وهدأت شِرّة وحرارة غرائز الإنسان تتنبه نفس الإنسان إلى مقاييس أخرى يريد أن يراها فى زوجته فلا يجدها، ويتساءل: ما الذى أخفاها عنه؟ أخفاها سعارُ وعَرَامَةُ النظرة الجنسية، فقد نظر للمرأة قبل الزواج من زاوية واحدة، ولم ينظر لباقى الجوانب. مثلا قد يجد الزوج أن أخلاق الزوجة تتنافر مع أخلاقه، وقد يجد تفكيرها وثقافتها تتنافر مع تفكيره وثقافته، وربما وجد عدم التوافق العاطفى بينه وبينها ولم يحدث تآلف نفسى بينهما. والعواطف، كما نعلم، ليس لها قوانين".

ومنطلق تعقيبى على هذا النص هو الجملة الأخيرة التى تنفى نفيا حاسما أن يكون للعواطف قوانين تنظمها. ذلك أن الحياة تقوم على القوانين فى كل مناحيها بما فى ذلك العواطف. والشيخ نفسه قد شرح هنا هذا القانون فى حدود المتاح له ولنا فقال إن

السبب فى عدم استمرار الحب من الرجل لامرأته هو أنه لم يراع كل جوانب شخصيتها وحصر نفسه فى اشتهائه الجنسى لها مهملا أشياء أخرى لا بد من توافرها فى المرأة عند الإقدام على الزواج منها، وهى العفة والاهتمام بالبيت والصدق والتهذيب والصبر وطول البال وطاعتها لربها... إلخ.

وكل شىء فى حياتنا الباطنية يخضع للقوانين، كل ما هنالك هو أننا قد نغفل عن هذه القوانين لعدم اهتمامنا برصد هذا الجانب من حياتنا، أو تكون العواطف من الخفاء بحيث لا يمكننا التنبه لها ولدقائقها ومَنْشَئها ومماتها، فنظن أنها لا تحكمها قانون. هناك قوانين لمشاعرنا وعواطفنا وتفكيرنا، لكن ليس استخلاص تلك القوانين فى سهولة استخلاص قوانين المادة الجامدة والأجساد لأنه من السهل على العلماء أن يضعوا أيديهم على العوامل المختلفة التى تتحكم فى المواد والأجساد، أما فى المشاعر والعواطف والأفكار فليس من السهل ذلك. وكثير منا مثلا يظن أنه ليس للخواطر التى تتداعى فى الذهن حين انشغال الشخص بأموره الباطنية أية قوانين، فالخواطر تتداعى دون منطق ودون سبب فيما يظن، بينما تنبه علماء النفس بالدراسة المدققة إلى أن هناك قانونا لهذا التداعى، فالخاطر يستدعى الخاطر الذى يشبهه أو الذى يناقضه أو الذى يرتبط به على نحو أو على آخر كأن يكون بطل الخاطر التالى هو نفسه بطل الخاطر السابق أو يكون الحدثان قد وقعا فى ذات الوقت... وهلم جرا. وقد قال الشيخ فى موضع آخر من تفسيره (عند تناوله للآيتين ١٤٤ – ١٤٥ من "آل عمران"): "وإياك أن تظن أن الروح لا تخضع لقوانين معينة". فكيف يقول إذن إن العواطف ليس لها قانون؟

وخذ هذا النص أيضا، وهو من تعليق الشيخ على الآية ١٩٨ من سورة "البقرة": "وكل ابتغاء الرزق وابتغاء الفضل لا يصح أن يغيب عن ذهن مبتغى الرزق والفضل، فكله من عند الله. إياك أن تقول: قوة أسباب. وإياك أن تقول: ذكاء أو احتياط. فلا شىء من ذلك كله لأن الرزق كله من الله هو فضل من الله". نعم كله من عند الله،

ولكنه لا يأتى من الله مباشرة بل خلق الله له أسبابا وقوانين متى اتبعتها ولم تقم بينك وبينها حواجز أو معوقات كسبت بمشيئة الله. ولهذا قال عمر إن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة. ومقصده أن العمل والاجتهاد والتفانى والصبر والإصرار هى العوامل التى تؤدى إلى النجاح فى طلب الرزق. وحتى لو فشل الإنسان رغم كل تلك الاحتياطات فلا يعنى هذا أن الأمر يجرى سبهللا، بل معناه أن هناك عوامل نجاح أخرى لم يلتفت الشخص إليها أو لم يكن على علم بها أو أن هناك عوامل فشل تدخلت فى اللحظة الأخيرة أو كانت هناك من قبل لكن الشخص لم يكن واعيا بها فلم يتخذ حيطته إزاءها، فكان ما كان من فشل.

وفى خواطره حول الآية ١٥٤ من سورة "آل عمران" نجده يقول عن قوله تعالى: "ثم أَنْزَل عليكم من بعد الغَمِّ أَمَنَةً نعاسًا يغْشَى طائفةً منكم" إن "كلمة "أَنزَلَ" تدل على أن هذا عطاء عُلْوِى ليس له شأن بالأسباب المادية ولا بالقوانين البشرية لأن النوم عَرَضٌ من الأعراض التى تطرأ على الأحياء. هذا العرض تستوجبه عمليات كيماوية فى نفسك، وهذه العمليات الكيماوية حتى الآن لا يعرفون ما هى، وأقصى ما فُهِم منه أنه ردع ذاتى لجسم الإنسان. فكأن الجهاز المتحرك المكون من مخ يعمل، وعين ترى، وأذن تسمع، وحواسّ وحركة، هذا الجهاز له طاقة، ساعة تنتهى منه الطاقة لا يقول لك: أنت الذى تترك العمل. لا، بل يقول لك: أنا لم أعد صالحا للعمل. إنه ردع ذاتى، مثلما يريدون أن يصلوا إليه الآن فى مجال الآلآت بمجرد فصل تيار الكهرباء آليا عن تلك الآلآت، فهى تتوقف".

فهو يتحدث عن الأسباب المادية والقوانين البشرية. ولكن هل يقول أحد ولو كان من عتاة الملحدين عن القوانين الكونية إنها قوانين بشرية؟ لا أحد يقول هذا لأن الجميع يعلم تمام العلم أن البشر لا دخل لهم بتلك القوانين إلا من حيث اكتشافهم لها. أما أن يكونوا هم الذى بَثُّوها فى الكون فلا يعتقد فى هذا أحد ولو كان من خريجى

العباسية والخانكة جميعا. والعجيب أن الشيخ، رحمه الله، يعود فى التوّ فيتحدث عن العوامل التى تؤدى بالإنسان إلى النوم فى مثل ذلك السياق. وبغض النظر عن صحة ما قاله بيولوجيا أو لا فمعناه، وهو كل ما يهمنا هنا، أن النوم الذى نفى أن يكون وراءه قوانين هو فعلا وراءه قوانين. فكأن ما أعطاه الشيخ باليمين عاد فاسترده بالشمال.

ومرة أخرى نتساءل: لِمَ ينجح غير المسلمين فى التعامل مع الكون ونفشل نحن فى حروبنا واقتصادنا وجامعاتنا ومؤسساتنا المجتمعية؟ السبب واضح، وهو أنهم اهتموا بالأسباب والقوانين ولم نهتم نحن رغم إيماننا بالله فعلا أو كلاما، وعدم اهتمامهم هم بالله أصلا. لقد خلق الله الأسباب والقوانين ودفعها لتعمل فى كل الحالات أيا كان الشخص الذى يتعامل معها بغض النظر عن إيمانه بالله أو عدم إيمانه، وبغض النظر عن تقواه وورعه أو فجوره وتمرده على ربه. سُنَن الله، ولن نجد لسنة الله تبديلا ولا تحويلا. وكلُّ شيء عنده بمقدار. واعقلها وتوكل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لكنه، رحمه الله، لدى تفسيره للآية ٢١٨ من سورة "البقرة" يقول كلاما طيبا جدا: "إن الخلاف الجوهرى بين المؤمن والكافر هو أن المؤمن إنما يعمل العمل الصالح وفى نيته أن المكافئ هو الله، وهو يتجه بنية خالصة فى كل عمل. ويأخذ بأسباب الله فى العلم لينتفع به غيره من الناس، فتكون الفائدة عميمة وعظيمة. وعلى المؤمن أن يكون سباقا إلى الاكتشاف والاختراع ونهضة العالم المسلم، وأن يكون المؤمن العالِم منارة تشع بضوء الإيمان أمام الناس لا أن يترك غيره من الكافرين يصلون إلى المكتشفات العلمية، وهو متواكل كسلان. إن على المؤمن أن يأخذ بأسباب الله فى الحياة لأن الإسلام هو دين ودنيا، وهو دين العلم والتقدم، ويضمن لمن يعمل بمنهجه سعادة الدنيا وسعادة الآخرة. وإذا كان المؤمن يستمتع بإنتاج يصنعه الكافر فليعلم أن الكافر إنما أخذ أجره

مُسَخّرا ممن عمل له، أما المؤمن فحين يتفوق فى الصناعة والزراعة والعلم والاكتشاف فهو يأخذ الأجر فى الدنيا وفى الآخرة لأن الذى يعطى هنا هو الله".

ومثله بل أوضح منه فى الدلالة على ما نقول ما ذكره فى التعليق على الآية الرابعة عشرة من "النساء" من أنه "سبحانه هو الذى استدعى الخلق إلى الوجود، وهو المتكفل برزقهم جميعا: المؤمن منهم والكافر. ولذلك ضمن الرزق للجميع وأمر الأسباب بأن تستجيب حتى للكافر لأنه سبحانه هو الذى استدعاه للوجود". وفى نفس المجرى يسير ما قاله الشيخ غفر الله له لدن تعرضه للآية التاسعة من سورة "الأحزاب": "والحق سبحانه جعل نِعَمه عامة للمؤمن وللكافر لأنه سبحانه جعل لها أسبابا، ومَنْ أحسَنَ استغلالَ هذه الأسباب أعطتْه حتى لو كان كافرا".

كما يشير فى تفسيره للآية ١٩٠ من سورة "آل عمران" إلى "هذا الكون الذى نراه جميعا بانتظامه الرائعِ، وقوانينه الثابتة". ويهمنى هنا اهتمامه بإبراز "ثبات" القوانين الكونية. ولدن تعرضه لتفسير الآية السابعة من "النساء" نراه يذكر أن "قوانين مندل فى الوراثة توضح أن الأولاد يرثون من أمهاتهم وآبائهم وأجدادهم الخصال الحسنة أو السيئة، أو المرض أو العفة أو الخلقة". ولنلاحظ أنه قد سماها: "قوانين مندل"، ولم يقل: قوانين الله ولا حتى قوانين الكون أو الطبيعة!

وعلى نفس المنوال يجرى النص التالى من تفسيره للآية التاسعة من سورة "الأحزاب"، وهى فى أمْر الله لرسوله محمدا بالتوكل على ربه: "لا بُدَّ أن نُفَرِّق هنا بين التوكل والتواكل: التوكل أن تكون عاجزا فى شىء فتذهب إلى مَنْ هو أقوى منك فيه وتعتمد عليه فى أن يقضيه لك شريطة أن تستنفد فيه الأسباب التى خلقها الله لك. فالتوكل إذن أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب. وقد ضرب لنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا توضيحيا فى هذه المسألة بالطير فقال: لو توكلتم على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير: تغدو خماصا وتروح بطانا".

أما التواكل فأَنْ ترفضَ الأسباب التى قدمها الله لك وتقعد عن الأَخْذ بها وتقول: "توكلت على الله". لا. إنما اسْتَنْفِدِ الأسباب الموجودة لك من ربك، فإنْ عزَّتْ عليك الأسباب فلا تيأس لأن لك ربا أقوى من الأسباب لأنه سبحانه خالق الأسباب. لذلك كثير من الناس يقولون: دعوتُ الله، فلم يستجب لى. نقول: نعم صدقت، وصدق الله معك لأن الله تعالى أعطاك الأسباب فأهملتها، فساعة تستنفد أسبابك، فثِقْ أن ربك سيستجيب لك حين تلجأ إليه".

وأحب أن أختم تلك القضية بالنص التالى، وهو من خواطر الشيخ رحمه الله حول الآية ٩٥ من سورة "الأعراف": "يدع لنا الحق سبحانه وتعالى فى كونه عجائب، ونجد العالم وقد تقدم الآن تقدمًا فضائيا واسعًا، واستطاع الإنسان أن يكتشف من أسرار كون الله ما شاء، ولكن الحق يصنع لهم أحيانا أشياء تدلهم على أنهم لا يزالون عاجزين. فبعد أن تكتمل لهم صناعة الآلات المتقدمة يكتشفون خطأ واحدا يفسد الآلة ويحطمها، وتهب زوبعة أو إعصار يدمر كل شىء، أو يشتعل حريق هائل. فهل يريد الله بكونه فسادا، وقد خلقه بالصلاح؟ لا. إنه يريد أن يلفتنا إلى ألا نغتر بما أوتينا من أسباب. فالذين عملوا الرادار لكى يبين لهم الحدث قبل أن يقع يفاجئهم ربنا أحيانا بأشياء تعطل عمل الرادار، فيعرفون أنهم مازالوا ناقصى علم".

ويفهم من هذا النص أن الشيخ يرى أن العلم والاكتشاف والاختراع ينبغى أن يكون مكتملا مرة واحدة منذ البداية. وهذا مما لا يمكن أن يكون، إذ العلم ككل شىء فى الدنيا يقوم على التطور والتقدم التدريجى. فالعلماء يكتشفون أشياء ويخترعون أشياء، لكنهم لا يتصورون أبدا، إلا إذا كانوا سذجا مغفلين، والسذج المغفلون ليسوا علماء، أن ما اكتشفوه واخترعوه يمثل الكمال فى ميدانه، بل يعرفون أن ما أنجزوه فى مجال الإبداع اليوم سوف يتغير غدا إلى الأفضل والأكمل. بل إنهم هم الذين يَسْعَوْن

بأنفسهم ولا يكفُّون عن السعى فى تطويره وتكميله وتحسينه وتيسيره وتسهيله وترخيصه وتعميمه.

إن الله لا يفعل ما أشار إليه الشيخ تأديبا لهم بل هو موجود فى طبيعة الكون والأشياء منذ بداية الخلق. ولسوف تظل الأمور تجرى على هذا المنوال حتى يوم الدين، وعندئذ فقط تتوقف الأشياء ولا تعود تتطور. وهو نفسه رحمه الله يقول فى تناوله للآية ٢٥٣ من سورة "البقرة": "لو قدر الناس جهد الإنسان الذى ابتكر "العجلة" مثلا التى تسير عليها السيارة لكان عليهم أن يستغفروا الله له بمقدار ما أراحهم. فبعد أن كان الإنسان يحمل على أكتافه قصارى ما يحمل وَفَّر عليه مَنِ اخترع هذا أن يحمل ويتعب، وجعله يحمل أكبر كمية وينقلها بأقل مجهود. إذن لا بد أن تنظر إلى النعم التى تستفيد بها الآن وترى كم مرحلة مرت بها، وهل صنعها الناس هكذا أم تعبوا وكدوا واجتهدوا منذ بدء الوجود على الأرض، وعرف الإنسان جيلا بعد جيل كيفية تطوير تلك الأشياء، وقد يحدث خطأ فى مرحلة معينة فيبدأ الإصلاح أو التحسين... وهكذا".

ويبدو أن الشيخ يظن أن الذين يقولون بانتظام القوانين واطرادها من المؤمنين بالله يرجعون هذا إلى أن الله قد خلق الكون قديما ثم نفض يده منه وتركه لحال سبيله يمشى على النحو الذى خلقه عليه إلى الأبد. قال رحمه الله فى تعليقه على الآية ٤٥ من سورة "الإسراء": "فالقدرة الإلهية هى التى تُسَيِر هذا الكون، وتأمر كل شيء بأن يؤَدِّى مهمته فى الحياة، وإنْ شاء عطّلها عن أداء هذه المهمة. لذلك نرفض قول الفلاسفة إن الحق سبحانه وتعالى زاول سلطانه فى مُلْكه مرة واحدة، بأن جعل فيه النواميس والقوانين، وهى التى تحكم العالم وتُسَيره".

ويجد القارئ هذه الفكرة أيضا فى التعليق على الآية ١١٩ من سورة "الشعراء": "وبمثل هذه الآيات نردُّ على الذين يقولون: إن الله تعالى زاول سلطانه فى مُلْكه مرة واحدة فخلق الخَلْق ثم ترك القوانين تسيره. ولو كان الأمر كذلك لوجدنا العالم كله

يسير بحركة ميكانيكية. لكن ظواهر الكون وما فيه من معجزات تدلُّ على قيوميته تعالى على خَلْقه. لذلك يقول لهم: ناموا ملء جفونكم، فإن لكم ربا لا ينام. كيف لا، وأنت إذا استأجرتَ حارسا لمنزلك مثلًا تنام مطمئنا اعتمادا على أنه يقِظ؟ وكيف إذا حرسك ربُّك عز وجل، الذى لا تأخذه سِنَة ولا نَوْمٌ؟ وأَلاَ يدلُّ ذلك على قيوميته تعَالى؟ هذه القيومية التى تنقضُ العزائمَ، وتفسَخ القوانينَ، قيومية تقول للنار: "كونى بردا وسلاما" فتكون، وتقول للماء: "تجمَّدْ حتى تكون جبلا" فيتجمد، وتقول للحجر: "انفلق" فينفلق. ولو كان الأمر ميكانيكيا كما يقولون لما حدث هذا، ولما تخلَّف قانون واحد من قوانين الكون".

وتقابلنا هذه الفكرة أيضا فى تفسيره للآية الخامسة من سورة "السجدة": "فى هذه الآية ردٌّ على الفلاسفة الذين قالوا بأن الله تعالى قادر وخالق، لكنه سبحانه زاول سلطانه فى مُلْكه مرة واحدة، فخلق النواميس وخلق القوانين، ثم تركها تعمل فى إدارة هذا الكون. ونقول: لا بل هو سبحانه "يدَبِّرُ الأَمْرَ" (السجدة/ ٥) أى أمْر الخَلْق، وهو سبحانه قيوم عليه، وإلا فما معنى "لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ" (البقرة/ ٢٥٥) إن قُلْنا بصحة ما تقولون؟ بل هو سبحانه خلق الكون، ويدبِّر شؤونه على عينه عز وجل. والدليل على قيوميته تعالى على خَلْقه أنه خلق الأسباب على رتابة خاصة، فإذا أراد سبحانه خَرَق هذه الرتابة بشواذَّ تخرج عن القوانين المعروفة كما خرق لإبراهيم عليه السلام قانون الإحراق، وكما خرق لموسى عليه السلام قانون سيولة الماء. ومسألة خَرْق القوانين فى الكون دليل على قيوميته تعالى، ودليل على أن أمر الخَلْق ما يزال فى يده سبحانه. ولو أن المسألة كما يقول الفلاسفة لكان الكون مثل المنبِّه حين تضبطه ثم تتركه ليعمل هو من تلقاء نفسه".

وفى الجزء الأول من كتاب "الشيخ الإمام محمد متولى الشعراوى وقضايا العصر" لأحمد زين (دار الجيل ببيروت ومكتبة التراث الإسلامى بالقاهرة/ ٧٥) يجيب الشيخ

الكريم على السؤال التالى: "مِنْ حُمْق بعض أهل الفلسفة أنهم قالوا إن الله زاول سلطانه ثم أبقى النواميس والقوانين لتفعل ما تراه. ما رَدُّ فضيلتكم على هذا؟" قائلا: "المؤمن الحق يعرف أن مثل ذلك القول هو عين الحماقة لأن الله بقيوميته قادر على أن يهب الإيجاد وأن يذهب بالإيجاد إلى العدم. وهنا نتذكر تأكيد الله بقوله: "ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم. إن الله على كل شيء قدير". وذلك القول يدلنا على أن الله أوجد هذه الحواس، ولم يأخذ الموجودُ قوةَ الوجود عن الخالق لينفلت الموجود بعيدا عن قدرة خالقه.لا. إن الله مسيطر على كل الموجودات. هو الذى يهب من العدم، وهو الذى يسلب ذلك الإيجاد، فيعود الموجود إلى العدم. إن كل الموجودات فى قبضة الخالق بقيوميته على الأشياء".

ونقول هنا ما كررناه آنفا من أننا نؤمن بأن قوانين الكون قد انخرقت لبعض الأنبياء فعلا ثم عادت الأمور إلى ما كانت عليه من قبل، وأن ذلك قد تكرر، ولكن مرات قليلة جدا ولوقت قصير. لكن ليس معنى هذا أن الله سبحانه يتربص بعباده ليفشل لهم عملهم واجتهادهم، إذ بعد أن يكونوا قد وفروا كل عوامل النجاح فى عملهم يفاجئهم سبحانه بما لا يخطر على بالهم حتى لا يعودوا إلى الاعتماد على الأسباب بل يتجهوا إليه مباشرة. أما واقع الأمر فنحن المؤمنين بالله سبحانه لا نتصور أبدا أن يستطيع الكون البقاء لحظة واحدة لو رفع الله عز وجل يده عنه وتركه لنفسه. فمن صفات الله سبحانه "القيوم"، وتعنى أنه يقوم على كونه حفظا وتدبيرا وتسييرا وتيسيرا طول الوقت، ولو تخلى عنه ثانية واحدة لاختفى العالم من الوجود. ومن ثم لا ينبغى أن يخاف الشيخ مما يقوله بعض الفلاسفة، الذين لم ولن يتغير موقفهم إن صح ما يقوله فى هذا المضمار. ومن هؤلاء الفلاسفة أرسطو، الذى كان يقول إن الله صنع الكون وضبطه وشَغَّلَه ثم تركه. ومنهم إبيقور الفيلسوف الإغريقى، الذى كان يقول إن الآلهة لا تهتم بأمر البشر والعالم، وإنما قد تركته يدبر أمره بنفسه، وإستراتو اللامبساكوسى.

ومنهم الراهب والعالم الفرنسى ورئيس جامعة باريس جان بوريدان: Jean Buridan (١٢٩٢ - ١٣٦٣م)، الذى قال إن الله بعدما خلق العالم قد تركه يمشى وحده وفقا للقوانين الطبيعية. وكان نيوتن مؤمنا بالله، ولكنه فى ذات الوقت كان يرى أن الكون يدير نفسه بنفسه، ومتى وقع خلل فيه ظهر الإله لإصلاح هذا الخطإ.

وتحت عنوان "هل يتفاعل الله بشكل يومى مع الإنسان؟" بموقع "إيلاف" بتاريخ ٢٤ نوفمبر ٢٠١٠ يتساءل خضير طاهر عن السر فى صمت الله إزاء ألوان المعاناة والألم التى يفيض بها العالم وكيف يترك الله كل ذلك ولا يقضى عليه، ثم يحاول طرح جواب يأمل فى أن يكون فيه التفسير الشافى. يقول: "هل يتفاعل الله بشكل يومى وفى كل لحظة مع الإنسان وحركة الحياة ومجرياتها بحيث يسمع ويرى ما يجرى على الأرض من أحداث وظلم وكوارث وحروب وقتل جماعى وجرائم إرهاب ترتكب باسمه؟ نحن المؤمنون لدينا قناعة أن الله عادل ورحيم بالناس وكريم ومبادر إلى إنزال البركات والخيرات، وهو قادر على كل شىء. وبما أن الله عادل ورحيم فإذا كان يرى ما يحدث من ظلم للناس وكوارث وحروب فيفترض به التدخل بقدرته الخارقة ومنع حصول كل هذه الأمور من الأساس. فأنا لا أستطيع تصور أن الله يقف متفرجًا ينظر إلى امرأة تتعرض إلى الاضطهاد أو سجين برىء يعَذَّب بالسجون، أو يسمح باندلاع حروب تحصد أرواح آلاف الضحايا، أو يرى جراثيم الإرهاب وهى تتغلغل بين الناس لتفجير نفسها وقتل الأبرياء، أو يقبل بحدوث كوارث الزلازل والفيضانات والحرائق والأمراض الوبائية وغيرها! فلماذا لايتدخل لوقف كل هذا، وهو العادل الرحيم المحب للناس؟ شخصيا كمؤمن لا أملك الجواب القاطع، ولكنْ عندى أفكار أولية بسيطة تفسر هذا الأشكال، وهى أن الله خلق الإنسان والكون، وتركه يتحرك وفق قوانين ثابتة، ومنح الحرية للبشر فى التصرف والاختيار ما بين الخير والشر، بمعنى أن الله لا يتفاعل بشكل يومى وفى كل لحظة مع الإنسان كما نظن عندما ندعوه فى المساجد

والمعابد وفى كل مكان، بل ترك القوانين الكونية تسير وفق برمجتها الأزلية. ووفق هذا الفهم فإن اللجوء إلى الدعاء والتضرع لا يجدى نفعًا ولا يغير شيئًا من استمرار حركة القوانين الكونية. أعرف أنه تفسير غير كاف ولا يقدم الإجابة الشافية لى شخصيا على الاقل".

بل إنى لا أستطيع أن أجد خطأ فى القول بأن الكون ما زال يسير من تلقاء نفسه منذ بداية الخلق على ما أودعه الله فيه من قوانين. فما دام القائل يؤمن بالله وبأنه هو خالق العالم ومنظِّمه على النحو الذى نراه وأن هذا العالم يتبع تلك القوانين التى بثها فيه سبحانه فماذا فى ذلك؟ إن الكون فى الحالتين فى قبضة الله لا يمكنه الفكاك منها، وإلا صار عدما كما سبق أن قلنا. وسواء قال القائل إن الله يقوم على العالم حفظا وتدبيرا طوال الوقت أو قال إنه بث فيه القوانين التى أراده أن يمشى عليها ثم تركه يمشى على تلك القوانين لا يمكنه الخروج عنها فكلاهما يعتقد أن العالم لا يستغنى عن الله طرفة عين: أحدهما يقولها صراحة، والثانى يعتقدها فى ذهنه، وإن لم يتلفظ بها.

وبعد فإن ما دفعنى إلى هذا الكلام هو ما نراه سائدا فى مجتمعاتنا من الكسل والبلادة وكراهية العمل بوجه عام والتصور بأن مشاكلنا يمكن أن تحل بالأدعية إما لنا وإما على من يخالفنا، دون محاولة لدراسة المشكلة والتفكير فى كيفية التغلب عليها والتخلص منها. ونظرة إلى تعليقات الفيس بوك على الأخبار التى تتحدث عن تجبر الولايات المتحدة وإسرائيل أو الحكام المحليين ضد شعوب المنطقة مثلا تجد الغالب على هذه التعليقات عبارات مثل "لعنهم الله"، "حسبنا الله ونعم الوكيل"، "ربنا يأخذهم ويريحنا منهم"، "اللّهم أرنا فيهم يوما قريبا"، "اللّهم اضرب الظالمين بالظالمين، وأخرجنا من بينهم سالمين". وقلما تجد بين هذه التعليقات شيئا يفيد فى مواجهة المشكلة أو ينير بعض جوانبها، بَلْهَ محاولة العمل على حلها.

وكثيرا ما أجد أيام الامتحانات والتصحيح كراسات إجابة خالية تماما من الكتابة، أو ليس فيها من الكتابة أو الإجابة الصحيحة شيء يذكر، ولكنها مملوءة بعبارات مثل "الله المستعان"، "النجاح يا رب"، "اللّٰهم لا سهل إلا ما جعلته سهلا، ولا صعب إلا ما جعلته صعبا"، "اللّٰهم حنن قلب المصحح"، "لم أستذكر يا أستاذى هذه المادة لأنى قضيت الليل كله مرافقة لوالدتى فى المستشفى"... إلخ. وهى أعذار كاذبة لأن المشكلة تكمن فى أن الطالب لم يستذكر دروسه ولم يكن يحضر المحاضرات. ومعظمهم لا يقرأ الكتاب بل يكتفى بملخص سقيم كتبه زميل له لا يفوقه كثيرا. وكثير من الطلاب والطالبات يحمل المصحف معه ظنا منه أن حمله يجلب البركة وينجّح الفاشل مع أنهم لا يعملون بشيء مما فى هذا الكتاب الكريم ولا يعرفون ما فيه بل فى الغالب لا يقرأونه بل لا يحسنون قراءته ولا قراءة أى شيء، ولا يدور فى أذهانهم أن يفتحوا كتابا يستفيدون منه علما أبدا.

ورغم أنهم يرون بأم أعينهم أن هذه العبارات لا تأتى بأية ثمرة نراهم لا يكفون عن اللجوء إليها. ومرة نبهت على صفحة الفيس بوك إلى أن تلك الوسيلة لا تأتى ولا يمكن أن تأتى أبدا بنتيجة، فأتتنى الإجابة سريعة عبقرية تقول صاحبتها فيها: أتريد يا دكتور أن تغلق باب رحمة الله؟ وكأن رحمة الله مفتوحة على مصراعيها ترحب بالكسالى والمتبلدين وكارهى التحضر والاستنارة بل كارهى الحياة الكريمة، وتعطيهم التفوق والنجاح على طبق من ذهب دون بذل أى جهد. فانظر كيف انقلبت المعايير. ودعك من الإيمان العنيف بالأعمال السفلية والسحر والشبشبة والعين والنق والقر والنبر والزار، وركوب الجن والشياطين لنا وتلبسهم بنا دون بقية شعوب الله، والمندل وقراءة الفنجان، وتفسير الأحلام تفسيرا حلمنتيشيا لا أساس له، واعتماد الرقية لمعالجة الأمراض مع أن الرقية إنما يقرؤها الشخص على المريض رفعا من روحه المعنوية ولونا

من الدعاء لا يأتى بنتيجة إلا إذا أخذ المريض وأهله بالأسباب من طبيب ودواء وحمية وما إلى ذلك.

ومن هنا كنت متحمسا جدا لموقفى مما كتب الشيخ الشعراوى رحمه الله عن القوانين العلمية والأسباب التى تؤدى بمن يتبعها ويعمل على ضوئها إلى النجاح وبلوغ المراد غالبا، لأن ما ينقصنا فى هذه المرحلة البائسة اليائسة من تاريخنا هو الإيمان المتجذر بتلك القوانين والأسباب التى خلقها الله وأقام كونه عليها وأوجب علينا الأخذ بها، وإلا فليس لنا سوى الضياع واستمرار العجز والفشل والتخلف والانحدار والتخبط والمذلة والمعاناة الرهيبة وسخط الله علينا. وقد سبق، فى كتابى: "ابن رشد- نظرة مغايرة"، أن وقفت ضد ما رأيته عند ابن رشد من الاحتفاء الشديد بالأسباب، والسكوت عما ينبغى أن يقر فى ضمير المسلم وعقله من أن هذه الأسباب هى من عمل الله وأنها انعكاس لمشيئة الله. وهذا ليس تناقضا من جانبى، ولكنه تكميل لما أراه مهمَلا من الأفكار أو غير آخذ حقه كما ينبغى عند العالم أو المفكر الذى أتناول كتاباته ليس إلا.

٢- الجبر والاختيار

عند تفسير الآية السادسة من "الفاتحة" يبسط الشيخ الشعراوى بعض البسط رأيه فى الجبر والاختيار فى حياة البشر فيقول: "لو أراد الله سبحانه وتعالى من عباده الصلاة والتسبيح فقط لما خلقهم مختارين بل خلقهم مقهورين لعبادته ككل ما خلق ما عدا الانس والجن. والله تبارك وتعالى له صفة القهر. من هنا فإنه يستطيع أن يجعل من يشاء مقهورا على عبادته مصداقا لقوله جل جلاله: "لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيهِمْ مِّنَ السَّمَآءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ" (الشعراء/ ٣- ٤). فلو أراد الله أن يخضعنا لمنهجه قهرا لا يستطيع أحد أن يشذ عن طاعته. وقد أعطانا الله الدليل على ذلك بأن فى أجسادنا وفى أحداث الدنيا ما نحن مقهورون عليه. فالجسد مقهور لله فى أشياء كثيرة: القلب ينبض ويتوقف بأمر الله دون إرادة منا، والمعدة تهضم الطعام ونحن لا ندرى عنها شيئا، والدورة الدموية فى أجسادنا لا إرادة لنا فيها، وأشياء كثيرة فى الجسد البشرى كلها مقهورة لله سبحانه وتعالى، وليس لإرادتنا دخل فى عملها. وما يقع علىَّ فى الحياة من أحداث أنا مقهور فيه لا أستطيع أن أمنعه من الحدوث: فلا أستطيع أن أمنع سيارة أن تصدمنى ولا طائرة أن تحترق بى ولا كل ما يقع على من أقدار الله فى الدنيا. إذن فمنطقة الاختيار فى حياتى محدودة: لا أستطيع أن أتحكم فى يوم مولدى ولا فيمن هو أبى ومن هى أمى ولا فى شكلى: هل أنا طويل أم قصير؟ جميل أم قبيح؟ أو غير ذلك...".

وكرر الشيخ نفس الفكرة فى خواطره حول الآية التاسعة من سورة "الشعراء"، إذ قال: "جاء الحق تبارك وتعالى هنا بصفة "العَزِيز" (الشعراء/ ٩) بعد أن قال: "وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ" (الشعراء/ ٨) لنعلم أن الذين كفروا لم يكفروا رَغْمًا عن الله، إنما كفروا بما أودع الله فيهم من الاختيار. فهو سبحانه الذى أعانهم عليه لمَّا أحبوه وأصروا

عليه لأنه تعالى ربُّهم، بدليل أنه تعالى لو تركهم مجبرين مرغمين ما فعلوا شيئا يخالف منهج الله أبدا، وبدليل أنهم مجبرون الآن على أشياء ومقهورون فى حياتهم فى مسائل كثيرة، ومع ذلك لا يستطيع أحد منهم أن يخرج على شىء من ذلك. فمع إِلْفهم العنادَ والتمردَ على منهج الله أيستطيع أحدهم أنْ يتأبَّى على المرض أو على الموت أو على الأقدار التى تنزل به؟ أيختار أحد منهم يوم مولده مثلًا أو يوم وفاته؟ أيختار طوله أو قوته أو ذكاءه؟ لكن لما أعطاهم الله الصلاحية والاختيار اختاروا الكفر، فأعانهم الله على ما أحبُّوا، وختم على قلوبهم حتى لا يخرج منها كفر ولا يدخلها إيمان".

وكثير مما قاله الشيخ هنا صحيح. وكما هو واضح فإنه يفصل فصلا تاما بين منطقتى الجبر والاختيار: فهذه الأشياء أنا مجبور فيها لا أملك نحوها شيئا، وتلك الأشياء أنا مختار فيها أملك إزاءها أن أفعل وألا أفعل. وقد أعطى بعض الأمثلة من مجال الجبر، وهى خاصة بالجسد وأحداث الحياة التى تقع على الشخص من الآخرين. ولكن متى ما دققنا النظر فلسوف نجد أن الأمثلة التى أعطاها الشيخ من منطقة الجبر ليست جبرا خالصا وأن الإنسان يستطيع أن يتدخل فيها ويخفف من حتميتها مما يدل على أن فيها بعض مجال للاختيار وأنها ليست محجوزة تماما للأمور الجبرية. ورأيى المبدئى هو أن الجبر والاختيار متمازجان فى كثير جدا من أمور الحياة البشرية، ولكن بدرجات متفاوتة. وهذا التفاوت قد يكون راجعا إلى طبيعة تلك الأشياء ذاتها، وقد يكون راجعا إلينا نحن البشر.

وإذا كان رأى الشيخ الجليل هو أن الجسد مقهور لله فى أشياء كثيرة: فالقلب ينبض ويتوقف بأمر الله دون إرادة منا، والمعدة تهضم الطعام ونحن لا ندرى عنها شيئا، والدورة الدموية فى أجسادنا لا إرادة لنا فيها، فإن لنا قدرا من التدخل فى تلك الأمور، ولكن على نحو غير مباشر وغير واضح تماما بحيث لا يدركه الناس عموما. فمثلا لو أننى اهتممت بطعامى فلم أكثر منه وتحاشيت ما ينبهنى إلى تحاشيه الأطباء

ومارست الرياضة واعتدلت فى أمور حياتى لانعكس هذا كله على صحتى وعلى قلبى ومعدتى. ومن هنا نجد معدل العمر فى الغرب أعلى، والصحة أجود لأنهم بوجه عام يراعون هذه الاعتبارات أفضل منا كثيرا.

ونضيف إلى ذلك أن أطباءهم أحسن من أطبائنا فيستطيعون من ثم أن يعالجوا فى المريض أشياء ربما لا يمكن أطباءنا معالجتها أصلا أو لا يمكنهم معالجتها بنفس الكفاءة. ولا أقصد بهذا النيل من قدر أطبائنا بل الإشارة إلى أننا نتعلم على أيديهم، فهم سابقون لنا بخطوات وربما بأمتار وربما بكيلومترات حسب المجال الذى ينتمى إليه المرض. كما أن علماءهم وأطباءهم حينما يكتشفون علاجا أو دواء لمرض عضال فإنهم يستعملونه فى الحال بينما يأخذ الأمر عندنا وقتا حتى نتعلم هذا العلاج ونستورد ذلك الدواء.

ثم لا ينبغى أن ننسى مستوى المعيشة ودخله فى الأمر، فهم بوجه عام أقدر منا ماديا، وبالتالى يستطيعون شراء الدواء أسهل منا. وهذا على المستوى الشخصى، ولو ضممنا إليه أن مظلة التأمين الصحى عندهم أسلم وأوسع وأصدق وأحسن وأعدل من مظلتنا تبين لنا أن وضعهم فى معالجة الأمراض والعيوب الجسدية أفضل وأكثر حرية. ليس هذا وحده بل إنهم فى الدول المتقدمة كثيرا ما يمنعون تصدير بعض الأدوية ويبقونها لأنفسهم، بينما يعطوننا أدوية أقل فاعلية أو لها آثار جانبية خطيرة أو يريدون أن يجربوها فينا أولا بما يترتب على ذلك من نتائج سيئة.

ومرة أخرى ليس هذا فقط بل إن تدنِّيَ المستوى الثقافى عندنا لا يمكِّن الدواء من الإتيان بثمرته كما ينبغى، إذ لا يلتزم المرضى بما يقوله الأطباء إما لعدم فهمهم ما قال وإما لعدم تصورهم خطورة عدم الالتزام وإما لقصور عقولهم حتى إن بعض الناس قد يأخذ الدواء كله مرة واحدة لظنه أنه ما دام قد أخذه كله دفعة واحدة فسوف يشفيه من المرض أيضا دفعة واحدة، أو يتوقف عن أخذ الدواء عند أول بادرة للتحسن جاهلا أن

الدواء لا بد أن يؤخذ طوال الفترة التى حددها الطبيب وإلا انتكس المريض أو عاوده المرض مرة أخرى بعد وقت قصير. كما أن الأطباء فى الدول المتخلفة كثيرا ما يخالفون لوائح المهنة بلا أدنى مبالاة، فيكون علاجهم للمرض ناقصا. بل إن بعضهم قد يجرى عملية جراحية دون اهتمام باتخاذ الاحتياطات اللازمة مما قد يؤدى إلى فشل العملية أو إلى "اتكال المريض على الله"، وذلك بسبب نوم القانون عندنا ويقظته عندهم وتأثر الطبيب عندنا ببيئته اللامبالية بوجه عام وتصوره أن الله سوف يسهلها ولا داعى لتحبيك الأمور... إلخ. وسيظل الأمر هكذا طوال مدة تخلفنا عنهم واحتياجنا إلى التعلم والاستيراد منهم.

أما قوله رحمه الله: "ما يقع علىَّ فى الحياة من أحداث أنا مقهور فيه لا أستطيع أن أمنعه من الحدوث: فلا أستطيع أن أمنع سيارة أن تصدمنى ولا طائرة أن تحترق بى ولا كل ما يقع على من أقدار الله فى الدنيا. إذن فمنطقة الاختيار فى حياتى محدودة. لا أستطيع أن أتحكم فى يوم مولدى ولا فيمن هو أبى ومن هى أمى ولا فى شكلى: هل أنا طويل أم قصير؟ جميل أم قبيح؟ أو غير ذلك" فليس على إطلاقه. ففى السيارة مثلا نجد أن الأمر يتوقف على مدى يقظة عابر الطريق وعلى مدى التزام السائق بقانون المرور ولوائحه، وعلى مدى تدخل الدولة فى الأمر تخطيطا للشوارع وتركيبا لإشارات المرور، ووعى المواطنين واهتمامهم بالتزام ما ينبغى الالتزام به أو عدمه. فعلى الشخص ألا يحاول عبور الطريق وسط سيل السيارات إذا كان هناك جسر علوى مبنى من أجل سلامته، أو فلينتظر حتى يخلو الشارع من السيارات أو تقلّ، أو فليعبر من الأماكن المخصصة للمشاة. وفى الدول المتقدمة هناك مثلا إشارات مرور يشغّلها بنفسه من يريد عبور الشارع فتقف السيارات الآتية من الناحيتين عند إضاءة اللون الأحمر بعد أن تكون قد هدأت من اندفاعها لدى إضاءة اللون الأصفر. وهذا كله غير موجود فى بلادنا، بل الأمر بختك يا أبو بخيت، فتكثر الحوادث وترتفع نسبة الموتى بسببها. أما

على الطرق السريعة فأنت لست أمام سيارات بل أبقار تجرى فى فوضى تامة دون أى احترام لأية قواعد أو إرشادات، فضلا عن أن الطرق فى كثير من الحالات لا تصلح لجرى السيارات كما نعرف، وأن السائقين لا يبالون بأى شىء، بل كل إنسان يعمل ما يحلو له، وبخاصة أنه ليس هناك دائما خطوط تحديد المسارات ولا إرشادات السماح بتجاوز السيارات بعضها لبعض أَوْ لا... وما إلى ذلك.

أما التحكم فى من هو أبى ومن هى أمى فأنا أوافقه تماما، إلا أن الوعى هنا له دخل فيما يمكن أن يصيب المواليد من عيوب خِلْقِية أَوْ لا. فهناك كشف طبى على من يريدون الزواج يمكن عن طريقه معرفة الأخطار التى يحتمل أن تقع فى بعض حالات الزواج، ومن ثم يمكن تفاديها لمن يحب، وهذا الأمر متوقف على مدى الوعى الحياتى. ولا شك أنه يخفف كثيرا من المشاكل الصحية أو العيوب الخلقية التى يتعرض لها الجنين.

وصحيح أننى أنا نفسى لا أتدخل فى اختيار شكلى الجسدانى. لكن لو أن المجتمع الذى ولدت فيه كان مجتمعا قادرا ماديا وواعيا الوعى الصحى المراد لجاء شكلى أكثر مقبولية. فشكل المواليد يتأثر بالطعام التى تتناوله الأم ونوعيته ومقداره وطريقة التعامل معه. كما أن الفقر والغِنَى لهما دخل فى ذلك. ولا ننس أن وسائل التزيين والتحسين من ملابس وأدهان ومساحيق وقَصَّات تلعب هى أيضا دورا هنا. وهناك عمليات التجميل لمن نزل بعيب خلقى. أعرف أن بعض المشايخ الضيقى الأفق يحرمون تلك العمليات بحجة أنها تغيير لخلق الله جاهلين أنه ما من شىء يخلقه الله فى دنيا البشر إلا ويغيره البشر. فهكذا تكون الحضارة، التى هى تغيير الطبيعة.

فنحن نمهد الأرض مع أن الله خلقها وَعْرَة غير ممهدة، ونحن نبنى البيوت مع أن الله خلق الأرض فضاء عراء بدون بيوت، ونحن حين نقوم من النوم نغسل وجوهنا للتخلص من العماص، ونمضمض أفواهنا ونستخدم المسواك أو المعجون والفرشاة

لإزالة أية رائحة غير طيبة، مع أن تلك الرائحة هى من خلق الله، وحين نرزق بطفل فإننا نغسله لإزالة الدم الذى يغطيه مع أن الله قد خلقه ملطخا بالدم، وعندما نجهز الطعام فإننا نغسل الخضراوات والدقيق والأرز واللحوم ونقطع ما يقبل التقطيع ونعالجها بالتوابل والملح والليمون والصلصة ونضعها على النار مغيرين الوضع الذى خلقها الله عليه ومكسبيها وضعا آخر حتى يمكننا أن نأكلها ونتمتع بها. والنساء يضعن الكحل ويستعملن أدوات الزينة، فيغيرن شكلهن الذى أعطاه الله إياهن. ونحن البشر نرتدى ملابس وأحذية فنغير بذلك الحالة التى خلقنا الله عليها، إذ خلقنا عراة حفاة... وهكذا، وهكذا. فلماذا لا نتذكر حرمانية تغيير خلق الله إلا فى العمليات التجميلية؟

إن الآيات ١١٧ – ١٢١ من سورة "النساء"، التى يقول الشيطان فيها إنه سوف يغرى البشر بتغيير خلق الله، فتجعل ذلك حراما وتتوعد فاعليه بالنار والعذاب، إنما تتحدث عن التشويه الذى كان الوثنيون فى الجاهلية يلحقونه بالحيوانات المستأنسة نزولا على اعتقاداتهم المتخلفة البشعة مِنْ صَلْمِ آذان الحيوانات المسكينة وجَدْعِ أنوفها وفَقْءِ عيونها وبَتْرِ ذيولها ووَسْم وجوهها بالنار وما إلى هذا بسبيل جَرَّاءَ استيلاء الخرافات على عقولهم، فنَسَب الله ذلك إلى إغواء الشياطين. فالشياطين تشوه، أما الأطباء فيجمّلون ويقضون على القبح ويخففون من ثم آلام المشوهين والمقبوحين. فهذه نقرة، وتلك نقرة. أما مشايخ السوء فكله عندهم صابون. ترى لو أن الله قد رزق أحدهم مثلا بطفلة ذات أنف قبيح أو أسنان بارزة أو لها شفة أرنبية أكان يسكت ويقول إن تغيير خلقة الله حرام؟ لا أظن ذلك.

ولو افترضنا أن زوجة أرادت أن تجرى عملية تجميلية لتكون على مزاج زوجها فلا تزيغ عينه إلى غيرها فما وجه الحرام فى هذا؟ المهم ألا تقدم على شيء قد يضرها بدلا من تحسين شكلها حتى لا تلقى بيديها إلى التهلكة. ومن هذا نرى أنه كلما تقدم الإنسان

حضاريا: علميا وطبيا وصيدليا وتمريضيا ومستوى معيشة ووعيا ازدادت مساحة الاختيار فى حياته الصحية، فأمكنه معرفة أنواع الطعام التى يحتاج جسمه إليها والطريقة السليمة لتناوله كما وكيفا، واكتشاف أمراض يعانى منها الإنسان لم تكن معروفة للأطباء، والتوصل إلى علاج لها تجعل فرصة النجاة من الموت أو التشويه فرصة كبيرة، وبذلك تقلّ معاناة الإنسان صحيا ويرتفع متوسط عمره كما هو حادث فى الدول المتقدمة.

ويظهر قلة الوعى الطبى والصحى حتى بين المتعلمين عندنا من المثال التالى. فإنى دائما ما أحذر من أعرفهم من التدخين قائلا إنه كثيرا ما يجلب الأمراض القلبية ويسبب السرطان وما إلى هذا، فسرعان ماتأتينى الإجابة بأن هذا غير صحيح بدليل أن فلانا وعلانا وترتانا وبمبانا يدخنون ولم يعترهم لا سرطان ولا مرض قلب. فأعود إلى تفهيمهم أن المقصود هو أن نسبة من يمرضون بهذين الداءين بين المدخنين عالية، ولم أقل إنهم جميعا يصابون بهما. ومن الطبيعى إذن أن يكون بينهم من لم يمرض مرضا شديدا أو يمت مبكرا. ومع هذا فإذا كُشِف عليه جيدا فمن الأرجح أن يجد الأطباءُ عنده أدواءً كثيرةً لكنها لم تستفحل بعد، أو قد يكون فى جسمه عوامل مناهضة للداءين المذكورين تجعل إصابته بهما صعبة أو تؤخرها. ورغم هذا تنتهى غالبا هذه المناقشة التى تتكرر كثيرا بعدم اقتناع مناقِشِىَّ مع وضوح حجتى واستنادها إلى منطق العلم وإحصاءاته.

ولكى يعرف القارئ الكريم أن المرض ليس شيئا لا نملك تجاهه شيئا غير التسليم والصبر إلى أن يقدر الله أمرا كان مفعولا أن القرآن المجيد ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينصحان المسلمين نصائح طبية يواجهون بها المرض والحياة. ولو كان المرض شيئا لازبا لا نستطيع إزاءه سوى وضع أيدينا على خدودنا ومصمصة الشفاه لما نَصَحَا ولا وَجَّهَا. فمن ذلك قوله تعالى: "ولا تُلْقُوا بأيديكم إلى التَّهْلُكَة"، "وكلوا

واشربوا ولا تسرفوا. إنه لا يحب المسرفين"، "ويسألونك عن المحيض. قل: هو أذًى. فاعتزلوا النساءَ فى المحيض ولا تَقْرَبُوهُنَّ حتى يطْهُرْن". وقال صلى الله عليه وسلم: "ما مِنْ وعاءٍ ملأ ابنُ آدَمَ شرًّا مِن بطنٍ. حَسْبُ ابنِ آدَمَ أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَه. فإنْ كان لا بدَّ فثُلُثٌ لطعامِه، وثُلُثٌ لشرابِه، وثُلُثٌ لنَفَسِه"، وقال صلى الله عليه وسلم عن الطاعون: "إذا سِمِعْتُم به بأرضٍ فلا تَقْدمُوا عليه، وإذا وقَعَ بأرضٍ وأنتم بها فلا تَخْرُجوا فِرارًا منه"، "إنَّ اللهَ تعالى أنزل الداءَ والدواءَ، وجعل لكلِّ داءٍ دواءً، فتداوَوْا ولا تداوَوْا بالحرامِ"، "الحمَّى مِن فَيح جهنم، فأطفئوها بالماء". وهناك الوضوء والاغتسال، وهما من أهم أساليب النظافة. ومعروف أن استعمال السواك سنة لتنظيف الأسنان وإزالة رائحة الفم السيئة وغير ذلك: "السواك مطهرة للفمِ مرضاةٌ للرب". وكان بعض الصحابة "يدخلونَ على النَّبى صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ ولم يسْتاكوا، فقال: تدخلونَ على قُلْحًا؟ استاكوا. فلولا أن أَشقَّ على أمَّتى لفَرَضْتُ عليهم السِّواكَ عندَ كلِّ صلاةٍ كما فَرَضْتُ عليهم الوضوءَ". وكان يوصى باستعمال عسل النحل والحبة السوداء والتلبينة وألبان الإبل والحجامة، كلا فى أمراض معينة. كما حرم الإسلام الخمر والدم والميتة والخنزير، ولكل منها أضراره الصحية...

ويمضى الشيخ الجليل قائلا: "إذن فمنطقة الاختيار فى الحياة هى المنهج: أن أفعل أو لا أفعل. الله سبحانه وتعالى له من كل خلقه عبادة القهر، ولكنه يريد من الإنس والجن عبادة المحبوبية. ولذلك خلقنا ولنا اختيار فى أن نأتيه أو لا نأتيه، فى أن نطيعه أو نعصيه، فى أن نؤمن به أو لا نؤمن. فإذا كنت تحب الله فأنت تأتيه عن اختيار تتنازل عما يغضبه حبا فيه، وتفعل ما يطلبه حبا فيه، وليس قهرا. فإذا تخليت عن اختيارك إلى مرادات الله فى منهجه تكون قد حققت عبادة المحبوبية لله تبارك وتعالى، وتكون قد أصبحت من عباد الله، وليس من عبيد الله.

فكلنا عبيد لله سبحانه وتعالى، والعبيد متساوون فيها يقْهَرون عليه. ولكن العباد الذين يتنازلون عن منطقة الاختيار لمراد الله فى التكليف. ولذلك فإن الحق جل جلاله يفرق فى القرآن الكريم بين "العباد" و"العبيد". يقول تعالى: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يرْشُدُونَ" (البقرة/ ١٨٦)، ويقول سبحانه وتعالى: "وَعِبَادُ الرَّحْمَـنِ الَّذِينَ يمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيامًا * وَالَّذِينَ يقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا" (الفرقان/ ٦٣-٦٥).

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى أعطى أوصاف المؤمنين وسماهم: "عبادا"، ولكن عندما يتحدث عن البشر جميعا يقول: "عبيد" مصداقا لقوله تعالى: "ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ" (آل عمران/ ١٨٢). ولكن قد يقول قائل إن الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه العزيز: "وَيوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ" (الفرقان/ ١٧): الحديث هنا عن العاصين والضالين، ولكن الله سبحانه وتعالى قال عنهم: "عباد". نقول إن هذا فى الاخرة، وفى الآخرة كلنا عباد لأننا مقهورون لطاعة الله الواحد المعبود تبارك وتعالى لأن الاختيار البشرى ينتهى ساعة الاحتضار، ونصبح جميعا عبادا لله مقهورين على طاعته لا اختيار لنا فى شيء".

وقد عاد رحمه الله إلى تناول موضوع التفرقة بين "العبيد" و"العباد" خلال تفسيره للآية ٢٣ من سورة "البقرة"، ونصها: "وإن كنتم فى ريبٍ مما نزّلنا على عبدنا فأْتُوا بسورةٍ مِنْ مِثْلِه..."، فقال: "الحق سبحانه وتعالى يقول: "على عبدنا". وهذه محتاجة إلى وقفة. فالله جل جلاله له عبيد، وله عباد. كل خلق الله فى كونه عبيد لله سبحانه وتعالى لا يستطيعون الخروج عن مشيئة الله أو إرادته. هؤلاء هم العبيد. ولكن العباد هم

الذين اتحدت مراداتهم مع ما يريده الله سبحانه وتعالى. تخلَّوْا عن اختيارهم الدنيوى ليصبحوا طائعين لله باختيارهم. أى أنهم تساوَوْا مع المقهورين فى أنهم اختاروا منهج الله وتركوا أى اختيار يخالفه. هؤلاء هم العباد. وإذا قرأت القرآن الكريم تجد أن الله سبحانه وتعالى يشير إلى العباد بأنهم الصالحون من البشر، فيقول الحق تبارك وتعالى: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ" (البقرة/ ١٨٦). هذا ليس لكل خلق الله، ولكنه للعباد، الذين إذا قال الله تعالى لهم: "افعلوا" فعلوا، وإذا قال الله: "لا تفعلوا" لم يفعلوا. أى أنهم لا يخالفون، بقدرتهم على الاختيار، منهج الله سبحانه وتعالى.

ولذلك فى الجهاد لا يقول الحق سبحانه وتعالى عن المجاهدين إنهم عبيد، بل يقول جل جلاله: "فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولا" (الإسراء/ ٥). وبعض المستشرقين الذين يحاولون الطعن فى القرآن الكريم يقولون إن كلمة "عباد" قد جاءت فى وصف غير المؤمن فى قوله تعالى: "أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ" (الفرقان/ ١٧). نقول: إنكم لم تفهموا أن هذا ساعةَ الحساب فى الآخرة، وفى الآخرة كلنا عباد لأننا كلنا مقهورون، فلا اختيار لأحد فى الآخرة، وإنما الاختيار البشرى ينتهى ساعة الاحتضار، ثم يصبح الإنسان بعد ذلك مقهورا. فنحن جميعا فى الآخرة عباد، ولكن الفرق بين العبيد والعباد هو فى الحياة الدنيا فقط". ويجد القارئ رأى الشيخ فى هذه النقطة أيضا فى الجزء الثانى من كتاب أحمد زين: "الشيخ الإمام محمد متولى الشعراوى وقضايا العصر" (دار الجيل ببيروت ومكتبة التراث الإسلامى بالقاهرة/ ٣٧- ٣٨).

وأحب أولا أن أشرح المراد من كلمة "القهر"، التى صارت لها إيحاءات قبيحة الآن. والمعنى فى كلام الشيخ أن الله سبحانه قد أجبر المخلوقات على السير تبعا لقوانينه دون أن يأخذ رأيهم فى ذلك. أما عن قوله إن "العبيد" هى للبشر جميعا فيما لا

مدخل لهم فى تنفيذه، وإن العباد هم المؤمنون المطيعون لربهم، فهو للأسف لم يستقرئ كل المواضع القرآنية التى وردت فيها الصيغتان الجمعيتان لكلمة "عبد". ومما استشهد به من القرآن على صحة ملاحظته قوله تعالى: "وما ربك بظلام للعبيد" على اعتبار أن المقصود هنا البشر جميعا لا المؤمنون وحدهم". فما رأيه فى قوله عز شأنه: "وما الله يريد ظلما للعباد" مستخدما "العباد" فى نفس السياق والمعنى؟ وما رأيه، رحمه الله، فى قوله سبحانه عن المشركين فى سورة "النساء": "إِنْ يدْعُونَ إِلا شَيطَانًا مَرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨)"، حيث استخدم سبحانه "العباد" للناس جميعا؟ وما رأيه فى جواب المسيح عليه السلام فى الآخرة لربه حين يسأله عمن يعبدونه ويتخذونه هو وأمه إلهين، وهو موجود فى سورة "المائدة": "إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)"؟ وما رأيه أيضا فى قوله فى "الأنعام" عن البشر أجمعين: مؤمنين وكافرين، مطيعين وعصاة: "وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ (١٨)"، ومثله فى الآية ٦٠ من نفس السورة؟

أما استعمال كلمة "العباد" فى الآخرة فهو حجة على الشيخ لا له، إذ قال إنهم لم يعودوا مختارين هناك، ومن ثم قيل عنهم: "عباد". ذلك أنه سبق أن قال إن "العبيد" هم المقهورون على طاعة أوامر الله، فما دام الناس فى الآخرة مقهورة على طاعة الله لقد كان الأحرى أن يطلق عليهم: "عبيد" لا "عباد"، وهذا حسب كلامه. وقد أشار الشيخ فى هذا السياق عرضا إلى مستشرقين اعترضوا على التفرقة التى ساقها بين هذين اللفظين، لكنه لم يذكر لنا أسماءهم ولا فى أى كتاب قالوا هذا ولا من صاحب التفرقة الأصلية بين سياق استعمال كل من الكلمتين وسياق استعمال الأخرى. وهذا ديدن الشيخ، فهو فى كل مرة يتناول فيها موضوعا كهذا يكتفى بعبارة "قال المستشرقون فى الموضوع الفلانى كذا وكذا" دون تحديد أو تفصيل.

وفى خواطره عن الآية ٢٦ من سورة "البقرة"، ونصها: "إن الله لا يستحيى أن يضْرِب مَثَلا ما بعوضةً فما فوقَها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحقُّ مِنْ رَبِّهِم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد اللهُ بهذا مَثَلا يضِلّ به كثيرا ويهْدِى به كثيرا وما يضِلّ به إلا الفاسقين"، يقول: "إن كل مصدق بالقرآن لا يطلب تأويله أو الحكمة فى آياته. ولذلك قال الكافرون: "مَاذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلا؟"، ويأتى رد الحق تبارك وتعالى: "يضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيهْدِى بِهِ كَثِيرًا وَمَا يضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ". ومن هم الفاسقون؟ هم الذين ينقضون عهد الله. أول شىء فى الفسق أن ينقض الفاسق عهده.

ويقال: فسقت الرُّطَبَة، أى بعدت القشرة عن الثمر. فعندما تكون الثمرة أو البلحة حمراء تكون القشرة ملتصقة بالثمرة بحيث لا تستطيع أن تنزعها منها. فإذا أصبحت الثمرة أو البلحة رُطَبًا تسودّ قشرتها وتبتعد عن الثمرة بحيث تستطيع أن تنزعها عنها بسهولة. هذا هو الفاسق المبتعد عن منهج الله: ينسلخ عنه بسهولة ويسر لأنه غير ملتصق به. وعندما تبتعد عن منهج الله فإنك لا ترتبط بأوامره ونواهيه، فلا تؤدى الصلاة مثلا وتفعل ما نهى الله عنه لأنك فسقت عن دينه.

والذى أوجد الفسق هو أن الإنسان خُلِق مختارا قادرا على أن يفعل أو لا يفعل. وبهذا الاختيار أفسد الإنسانُ نظامَ الكون، فكل شىء ليس للإنسان اختيار فيه تراه يؤدى مهمته بدقة عالية كالشمس والقمر والنجوم والأرض. كلها تتبع نظاما دقيقا لا يختل لأنها مقهورة. ولو أن الإنسان لم يخلق مختارا لكان من المستحيل أن يفسق وأن يبتعد عن منهج الله ويفسد فى الأرض. ولكن هذا الاختيار هو أساس الفساد كله".

ومن هذا الكلام يمكن أن يفهم بعض الناس أن الله قد اختار النظام الخطأ، فخلق الإنسان وخلع عليه خاصة الاختيار، ثم اتضح أن ذلك كله خطأ فى خطإ، وأنه أساس الفساد كله. ولنا هنا وقفة لنعلق بعض التعليقات: فأما بالنسبة لقوله إنه لم يكن ليكون هناك فساد لو لم يخلق الإنسان فما رأى فضيلته مثلا فى افتراس الحيوانات القوية

للحيوانات الضعيفة وما تسببه لها عند ذلك من آلام ورعب رهيب؟ هل كان هذا سببه ما أُعْطِيه الإنسان من اختيار؟ أَوَلَوْ خُلِق الإنسان مجبورا مثل الأسد والفيل والنمر والجاموس والبقر والحمير والأقمار والشموس والكواكب والهواء والصراصير والخنافس والفيران والهداهد والديدان أكان الفساد يختفى؟ أليس فى الكون عفن ونتن وانهيارات ثلجية وعواصف وسيول وزلازل وبراكين وصواعق وتشققات أرضية وحرائق تغرق وتحرق وتقتل وتدمر وتجعل عاليها سافلها، وليس للإنسان فيها ناقة ولا جمل؟ ألا تنفصل الشهب عن النجوم وتنزل تشق الفضاء دون أن يكون للبشر دخل فى ذلك؟ ألا يقول العلماء إن الكون كله سوف يتشقق ويتطاير ذرات فى الفضاء يوم القيامة، فهل الإنسان هو الذى سوف يفكك الكون هذا التفكيك؟

ثم كيف غاب عن الشيخ الجليل مباهاة الله سبحانه الملائكة بآدم وتفوق آدم عليهم بمعرفته ما لا يعرفون؟ ترى كيف يباهى الله سبحانه الملائكة بمخلوق فاسد مفسد؟ كما أن الله قد كرمه على كثير مما خلقه تفضيلا كما تقول سورة "الإسراء". ولقد رأينا أن الفساد موجود فى العالم بالإنسان وبغير الإنسان، فما الداعى إلى تحميله مسؤولية كل شىء؟ كذلك فإن الله هو الذى حدد للإنسان سقف قدراته وإمكاناته فلا يمكنه أن يتجاوزه مهما فعل. وفى هذا يقول القرآن العظيم: "وخُلِق الإنسانُ ضعيفًا"، وقال الرسول عليه السلام: "كل بنى آدم خَطَّاء". أى أننا قد خُلِقْنا على هذا النحو من ضعف وخطإ. وقال صلى الله عليه وسلم: "والذى نفسى بيدِه لو لم تذنبوا لذهب اللهُ بكم ولجاء بقومٍ يذنبون فيستغفرون اللهَ، فيغفرُ لهم".

والشيخ نفسه يؤكد هذا. اقرأ له النص التالى فى أثناء تفسيره للبسملة مطلع الفاتحة: "الإنسان خُلِق ضعيفا، وخُلِق هَلُوعا. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا يدخل أحدكم الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته. قالوا: حتى أنت يا رسول الله؟ قال: حتى أنا". فذنوب الإنسان فى الدنيا كثيرة: إذا حكم فقد يظلم، وإذا ظن فقد

يسىء، وإذا تحدث فقد يكذب، وإذا شهد فقد يبتعد عن الحق، وإذا تكلم فقد يغتاب. هذه ذنوب نرتكبها بدرجات متفاوتة، ولا يمكن لأحد منا ان ينسب الكمال لنفسه. حتى الذين يبذلون أقصى جهدهم فى الطاعة لا يصلون إلى الكمال، فالكمال لله وحده. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كل بنى آدم خَطَّاء، وخير الخطائين التوابون". وتكرر فى القرآن والأحاديث أنه سبحانه وتعالى لا يكلف نفسا إلا وُسْعَها.

ثم تعالَوْا ننظر فى أمر الكون لو لم يكن الإنسان قد خُلِق أو خُلِق لكنه لم يرْزَق نعمة الاختيار. ترى ماذا كان يمكن أن يحدث آنذاك؟ إن الإنسان لم يكن فى هذه الحالة ليستطيع فعل أى شىء مما فعله ويفعله وسيفعله إلى أن ينْفَخ فى الصُّور. نعم كان سيكون كأى حيوان غير ناطق فيأكل البرسيم والتبن واللحم ويمشى على أربع ولا يستطيع التفكير أو الكلام المبين ولا يقدر على الاكتشافات العلمية أو المغامرات الجغرافية أو نظم الشعر أو كتابة النثر الجميل أو اختراع النكت المضحكة أو رسم اللوحات الجميلة أو تمثيل المسرحيات البديعة أو لعب الكرة، تلك المجنونة كالقوطة، أو ينشئ البيوت والطائرات والبواخر والغواصات والصواريخ والسفن الفضائية والمشباك والمؤسسات المختلفة من اقتصادية وعلمية واجتماعية، ويركّب الأدوية، ويخترع المذياع والكاتوب والمشباك والتلفاز ويكتشف الأمراض وعلاجاتها ويجْرِى العمليات الجراحية ويعوم ويغوص ويرصف الطرق ويتسلق الجبال... إلى آخر المنجزات الحضارية التى عملها على مدى تاريخه الطويل.

وسوف يشبه الكون حينئذ الغابة والصحراء والمسطحات الجليدية: كله أشجار ورمال وثلوج وجبال وحيوانات ليس إلا، ودمتم. أوَفقدان هذا كله أمر هين بسيط؟ فلِمَ خلق الله الإنسان إذن ولم يكتف بالعالم المادى الغبى البليد الذى لا عقل له ولا حس ولا شعور ولا نمو ولا أكل ولا شرب أو العالم الحيوانى الذى لا هم له غير الأكل والشرب والتناسل؟ إن ذلك الاختيار الذى يعيبه الشيخ الشعراوى هو أساس

الحضارات البشرية كلها، ولولا هو ما كانت علوم ولا فنون ولا أديان ولا أى لون من ألوان الإبداع العلمى والفنى. فهل يجب الشيخ أن ينحط الكون إلى هذه الدركة؟

ثم يمضى الشعراوى فى خواطره حول الآية ٢٦ من "البقرة" قائلا: "نأتى بعد ذلك إلى الصفة الثالثة من صفات الفاسقين بقوله تعالى: "وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ". نقول: كل ما فى الكون مخلوق على نظامِ "قَدَّرَ فَهَدَى". أى كل شيء له هُدًى لابد أن يتبعه. ولكن الإنسان جاء فى مجال الاختيار وأفسد قضية الصلاح فى الكون. ومن رحمة الله أنه جعل فى كونه خلقا يعمل مقهورا ليضبط حركة الكون الأعلى. فالشمس والنجوم والأرض وكل الكون ما عدا الإنس والجان يسير وفق نظام دقيق. لماذا؟ لأنه يسير بلا اختيار له. والحق جل جلاله أخبرنا بأنه لكى يعتدل ميزان حياتنا فلنحكم أنفسنا بمنهج الله كما أن الكون المقهور محكوم بمنهج الله. فليس معنى الاختيار الإنسانى أن نبتعد عن منهج الله لأن الله له صفة القهر. فهو يستطيع أن يخلقنا مقهورين، ولكنه أعطانا الاختيار حتى نأتيه عن حب، وليس عن قهر. فأنت تحب الشهوات، ولكنك تحب الله أكثر، فتقيد نفسك بمنهج الله. إذن فالاختيار لم يعْطَ لنا لِنُفْسِدَ فى الأرض، ولكنه أُعْطِي لنا لنأتى الله سبحانه وتعالى طائعين ولسنا مقهورين. ولذلك فكل منا مختار فى أن يؤمن أو لا يؤمن. وهذا الاختيار يثبت محبوبية الله سبحانه وتعالى فى قلوبنا. ولكن الإنسان بدلا من أن يأخذ الاختيار ليأتى الله عن حب فينال الجزاء الأعظم أخذه ليفسد فى الأرض.

والفساد أن تنقل مجال "افعل ولا تفعل" فتضع هذه مكان هذه، فينقلب الميزان. أى أنك فيما قال الله فيه: "افعلْ" لا تفعلُ، وفيما قال: "لا تفعلْ" تفعلُ، فتكون قد جعلت ميزان حياتك معكوسا. لماذا؟ لأننا غير محكومين بقاعدة كلية تنظم حياة الناس. فكل واحد سيضع قاعدة له، وكل واحد لن يفعل ما عليه، فيحدث تصادم فى الحياة. وكل فساد يشكل قبحا فى الوجود. فهب أنك تسير فى الطريق وترى عمارة مبنية

حديثا قد تسربت المياه من مواسيرها، عندما ترى ذلك تتأذى لأن هناك قبحا فى الوجود، فى عدم أمانة إنسان فى عمله. إذن فحين يفسد عامل واحد بعدم الإخلاص فى عمله يفقد الكون نعمة يحبها الله فى أن ترى الشيء الجميل فتقول: الله. فكل إنسان غير أمين فى عمله يفسد فى الكون. وكل إنسان غير أمين فى خلقه يفسد فى الكون، ويعتدى على حرمات الآخرين وأموالهم.

وهذا يجعل الكون قبيحا، فلا يوجد إنسان يأمن على عِرْضه وماله. لقد أراد المعتدى أن يحقق ما ينفع به نفسه عاجلا، ولكنه أحدث فسادا فى الكون. كذلك عندما يغش التاجر الناس، وعندما يكتسب الإنسان المال بالنهب والسرقة فيفتح الله عليه أسوأ مصارف المال فى الوجود، فهو أخذ الحسرة بالفساد فى الأرض. والفساد فى الأرض أن تخرج الشيء عن حد اعتداله فتسرف فى شهواتك، وتسرف فى أطماعك، وتسرف فى عقابك للناس، وتسرف باعتدائك على حقوق الغير. والفساد فى الأرض أن يوجَد منهج مطبق غير منهج الله.

إن غياب منهج الله معناه أن يصبح كل منا عبد أهوائه. وإذا صارت الأمور حسب أهواء الناس جاءت لهم حركة الحياة بالشقاء والشر بدلا من السعادة والأمن. إن ما نراه اليوم من شكوى الناس علامةٌ على الفساد لأن معناها أن الناس تعانى، ولا أحد يتحرك ليرفع أسباب هذه الشكوى. ولن يستقيم أمر هذا الوجود ويتخلص من الفساد إلا إذا حَكَّمنا منهجٌ لا هوَى له. والذى لا هَوَى له هو خالقُ البشر واضعُ ميزان الكون.

وأول مظاهر الفساد أن يوكَل الأمرُ إلى غير أهله لأنه إذا أُعْطِيَ الأمر إلى غير أهله فانتظِر الساعة كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظِر الساعة". لماذا؟ لأن المجتمع حينئذ يكون مبنيا على النفاق واختلال الأمور لا على الإتقان والإخلاص. فالذى يجيد النفاق هو الذى يصل إلى الدرجات العلا، والذى

يتقن عمله لا يصل إلى شيء. وتكون النتيجة أن مجموعة من المنافقين الجهلة هم الذين يسيرون الأمور بدون علم. والفساد فى الأرض هو أن يضيع الحق، وتضيع القيم، ويصبح المجتمع غابةً كلُّ إنسانٍ يريد أن يحقق هواه بصرف النظر عن حقوق الآخرين، ويحس من يعمل ولا يصل إلى حقه أنه لا فائدة من العمل، فيتحول المجتمع كله إلى مجموعة من غير المنتجين.

والفساد فى الأرض هو أن نجعل عقولنا هى الحاكمة فلا نتأمل فى ميزان الكون الذى خلقه الله، وإنما نمضى بعقولنا نخطط فنقطع الأشجار، ونرمى مخلفات المصانع فى الأنهار فنفسدها، ونأتى بالكيماويات السامة نرش بها الزرع أو مجارى المياه والأنهار كما يحدث الآن فنملؤه سُمًّا ثم نأكله ثم نجد التلوث قد ملأ الكون، وطبقة الأوزون قد أصابها ضرر واضح يعرِّض حياة البشر على الأرض لأخطار كبيرة، وتفسد مياه الأنهار ولا تصبح صالحة للشرب ولا للرى، ويضيع الخير من الدنيا بالتدريج. والفساد فى الأرض هو أن ينتشر الظلم، وتصبح الحياة سلسلة لا تنتهى من الشقاء. والفساد فى الأرض هو أن تضيع الأمانة، فتفسد المعاملات بين الناس وتضيع الحقوق.

هذه هى بعض أوجه الفساد فى الأرض. والله سبحانه وتعالى قد وضع قانونا كليا هو منهجه ليتعامل به الناس. ولكن الناس تركوه ومَشَوْا يتخبطون فى ظلام الجهل. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من استعمل رجلا من عصابة، وفيهم من هو أَرْضَى لله منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين". وهكذا يكون مدى حرص الإسلام على استقامة أمور الناس".

وواضح أن الشيخ الشعراوى مصر على أن الإنسان فاسد وأنه خرج عن القانون. ولكن كيف يكون الإنسان خارجا عن القانون الكونى، وهو فى تقدمه وإنجازاته الحضارية إنما حققه باكتشاف هذا القانون الكونى والتزامه؟ بطبيعة الحال يقصد الشيخ الشعراوى بالقانون شريعة الإسلام ومنظومة الأخلاق فيه. ولكن ليس كل الناس فى

البلاد الإسلامية يهملها عن عمد وقصد بل كثير منهم يحاول إرجاع المجتمع إليها بغض النظر عن توفيقه أو فشله فى هذه المهمة. كما أن فى الدول الأخرى كفرة وملحدين لا يؤمنون بأى دين لا عنادا ولا تمردا بل لأنهم عُمِّىَ عليهم طريق الوصول فلم يهتدوا ولم يبلغوا ما يريح عقولهم وقلوبهم، فقد بحثوا ودققوا، ثم لم ينتهوا إلى شيء أو تصوروا أنه لا يوجد إله أو دين. وكثير منهم فلاسفة ومفكرون كبار كبرتراند راسل الفيلسوف البريطانى، الذى ناقشته فى مقال طويل لى منذ سنوات ورددت عليه حججه وفنّدت أفكاره التى اعتمد عليها فى إلحاده، ولكن باحترامٍ لموقفه الطيب من القضية الفلسطينية وعدم مبالاته بدولته، التى تولت كِبْر إنشاء إسرائيل.

والإسلام قد أرسى هنا قاعدة ألماسية تقول إنه إذا لم يتبين الهدى للشخص الذى يبحث عن الدين الحق فإنه معذور عند الله كما يفهم من الآية ١١٦ من سورة "النساء": "ومَنْ يشَاقِقِ الرسولَ من بعدما تبين له الهُدَى ويتَّبعْ غيرَ سبيل المؤمنين نُوَلِّه ما تَوَلَّى ونُصْلِه جَهَنَّمَ، وساءتْ مصيرا"، وكما وضح لنا العلماء الكبار لدينا كالإمام الغزالى والإمام الرازى ومحمد عبده ورشيد رضا والشيخ محمود شلتوت مثلا.

وكثير من المجتمعات التى لا تؤمن غالبيتها، ومنهم قادتها وزعماؤها وكبارها، لا بالله ولا بالدين قد توصلت إلى نظام سياسى واقتصادى عادل إلى حد بعيد يحقق كثيرا جدا من قيم الإسلام العليا، وإن لم يكن هو الحد المثالى. والناس هناك لا يخونون الأمانة بسهولة ولا يأكل بعضهم حقوق بعض ويفلتون من العقاب ولا ينامون عن أعمالهم وواجباتهم ولا يؤدونها سلق بيض، بل يتقنون ما يعملون حتى يخرج من أيديهم حَسَنًا مُعْجِبًا. وينعكس هذا فى مستوى المعيشة المرتفع، وفى مقدار الحرية الكبير الذى يتمتع به المواطنون، وفى احترام القانون، فهو كافل حقوقهم وحامى إنسانيتهم، وفى التقدم العلمى والصناعى والاقتصادى الذى يتمتع به الناس فى ذلك المجتمع، وفى انتشار النظافة والنظام والجمال فى كل مكان، وفى رقى النظام التعليمى، وتقدم الإبداع

العلمى والفنى. فهل هذا كله فساد؟ فما الصلاح إذن؟ وقد توصلوا إلى كل هذا بعقولهم وتفكيرهم. فهل استخدام العقل كله شر كما يفهم من كلام الشيخ رحمه الله؟

نحن نعرف أن كثيرا من تلك الدول فى علاقتها بنا كانت ظالمة متجبرة متوحشة، فسرقت خيراتنا وقتلت أحرارنا أو سجنتهم وأذلتنا وعملت كل ما فى وسعها وما زالت تعمل لنظل متأخرين، وتقف فى المحافل الدولية ضد قضايانا وحقوقنا. ولكن هل نحن أفضل منها تجاه أنفسنا؟ بالعكس لقد أرى أننا نظلم أنفسنا أشد مما ظلمتنا تلك الدول. بيد أنى إنما أتكلم هنا لا عن تعاملها معنا بل عن معاملتها لمواطنيها واحترامها لحقوقهم وخشيتها من الأحزاب المعارضة، فلهذا نراها تمشى على العجين فلا تلخبطه، وليست كدول العالم الثالث، التى يذيقها حكامها جحيم الاستبداد والهزائم والفشل فى كل الميادين والتى تستعذب شعوبها الاستبداد والخنوع والرضا بالهوان وانعدام الإحساس لديها بأن حقوقها دُمِّرَت على أيدى أولئك الحكام.

ويتبقى قول الشيخ الجليل: "والفساد فى الأرض هو أن نجعل عقولنا هى الحاكمة، فلا نتأمل فى ميزان الكون الذى خلقه الله، وإنما نمضى بعقولنا نخطط فنقطع الأشجار ونرمى مخلفات المصانع فى الأنهار فنفسدها، ونأتى بالكيماويات السامة نرش بها الزرع أو مجارى المياه والأنهار كما يحدث الآن فنملؤه سُمًّا ثم نأكله ثم نجد التلوث قد ملأ الكون. وطبقة الأوزون قد أصابها ضرر واضح يعرض حياة البشر على الأرض لأخطار كبيرة. وتفسد مياه الأنهار ولا تصبح صالحة للشرب ولا للرى. ويضيع الخير من الدنيا بالتدريج".

وتعقيبنا على ذلك هو أن الشيخ ينطلق من اعتقادٍ راسخ عنده مؤداه أن الناس يعرفون ميزان الكون معرفة تامة منذ نزولهم من بطون أمهاتهم. وهذا غير صحيح. إنهم يتصرفون بما يؤديهم إليه عقلهم فيجدون النتيجة طيبة فى البداية، فيطمئنون إلى ما توصلوا إليه، لكنهم مع مرور الأيام يتنبهون إلى أن هناك آثارا جانبية ضارة لم يلتفتوا

إليها فى مبتدإ الأمر، فيعملون على علاجها وتلافيها... وهكذا ينتقلون من صواب إلى خطإ إلى صواب إلى خطإ مرة أخرى، وتظل الأمور تجرى على هذا النحو، وهم يصوبون خطواتهم ويكتسبون أرضا صالحة تتسع مع الأيام، وإن لم يعن هذا أنهم يستطيعون التخلص نهائيا من الأخطاء والثغرات، إذ هى جزء أصيل من حياتهم وتركيبتهم البشرية لا فكاك لهم من هذا. فالعلماء الذين اخترعوا الكيماويات السامة التى كانوا يرشون بها الزراعة لم يكونوا يعرفون فى البداية أنه سيكون لها ضرر بالغ، ولكن لما تبين لهم هذا الضرر شرعوا يفكرون فى البديل. واكتشاف الضرر لم يكن بين أيديهم منذ اللحظة الأولى التى اخترعوا فيها تلك الكيماويات، بل ظهر فيما بعد. والسبب فى هذا هو سقف القدرات والإمكانات البشرية غير العالى، وتلك هى طبيعة الحياة. وإذا كان هذا يحدث معنا الآن بعدما تقدمت الإنسانية كل هذا التقدم فما بالنا يا ترى بالإنسان البدائى الأول الذى كان جاهلا كل شىء تمام الجهل أو حتى بالإنسان قبل العصر الحالى حين كان طريقه لا يزال مظلما رغم ما مشاه من مسافة حضارية لا بأس بها؟

وفى تفسير الآية ٥٥ من سورة "الأنفال": "إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا" يردد فضيلة الشيخ هذه الفكرة مرة أخرى فيقول: "يبين لنا أن الله سبحانه وتعالى قد ألحق الكفار بالدواب واستثنى المؤمنين فقط، فسبحانه خلق الدواب وباقى أجناس الكون مقهورة تؤدى مهمتها فى الحياة بالغريزة وبدون اختيار. والشىء الذى يحدث بالغرائز لا تختلف فيه العقول، ولذلك نجد كثيرًا من الأشياء نتعلمها نحن أصحاب العقول من الحيوانات والحشرات التى لا عقول لها لأن الحيوانات تتصرف بالغريزة، والغريزة لا تخطىء أبدا. فإذا قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى: "فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ" (المائدة/ ٣١) نجد أن الغراب الذى لا اختيار له ولا عقل علَّم الإنسان الذى له عقل واختيار. وقد حدث ذلك لأن الغراب محكوم بالغريزة.

إذن فكل ما يقوم به الحيوان من سلوك هو باختيار الله سبحانه وتعالى لأن الحيوان مقهور على التكاليف. ومن رحمة الله تعالى أن المخلوقات باستثناء الإنسان خلقت مقهورة تفعل كل شيء بالغريزة وليس بالعقل، ولكن الإنسان الذى كرمه الله بالعقل يكفر ويعصى رغم أن الحق أنعم على الإنسان بنعمة الاختيار. ومن العجيب أننا نجد الحيوان المحكوم بالغريزة لا يخرج سلوكه عن النظام المجبول عليه ويؤدى مهمته كما رُسِمَتْ له تماما: فالدابة مثلًا تلد ويأخذون وليدَها ليذبحوه فلا تنفعل لأن هذه مهمتها فى الحياة: أن تعطى للإنسان اللحم. والحمامة ترقد على بيضها، وعندما يخرج الفرّوج الصغير تتولاه لفترة بسيطة جدا حتى يعرف كيف يطير وكيف يأكل ثم بعد ذلك تتركه ليؤدى مهمته لأنه محكوم بالغريزة، والغرائز لا تخطىء. ويتصرف بها الحيوان بدون تعليم له.

فإذا جئنا للإنسان نجد أن ألوان السلوك المحكومة بالغريزة فيه لا يتعلمها: إذا جاع طلب الطعام دون أن يعلِّمه أحد كيف يشعر بالجوع، فهذه غريزة. وإذا عطش طلب الماء دون يعلمه أحد معنى العطش ولا كيف يشرب. وكل واحد منا فى الغرائز متساوٍ مع الآخر. ونجد الغنى والفقيرَ والحاكمَ والغفيرَ إذا شعروا بالجوع طلبوا الطعام، وإذا شعروا بالعطش طلبوا الماء. فكل شيء محكوم بالغرائز لا يوجد فيه تغيير.

ومن العجيب مثلًا أن الحمار حين يريد أن يعبر مجرى مائيا ينظر إليه، وبمجرد النظرة يستطيع أن يعرف هل سيعبره أو لا. فإن كان قادرًا قفز قفزة واحدة ليعبر، وإن لم يقدر بحث عن طريق آخر. ولا تستطيع أن تجبر حمارًا على أن يعبر مجرى مائيا لا يقدر على عبوره، ومهما ضربته فلن يستجيب لك ولن يعبر. أما الإنسان إن طلبت منه أن يعبر قناة مائية فقد يقول لنفسه: سأجمع كل قوتى وأقفز قفزة هائلة. وإن لم يكن قياسه صحيحا يسقط فى الماء. ذلك لأنه أخطأ وصورت له أداة الاختيار أنه يستطيع أن يفعل ما لا يقدر عليه. إذن فالمحكوم بالغريزة هو الأوعى.

وعندما نأتى إلى الأكل نجد الحيوان المحكوم بالغريزة أكثر وعيا لأنه يأكل، فإذا شبع لا يذوق شيئا. ولو جئت له بأشهى الأطعمة فأنت لا تستطيع أن تجعل الحيوان يأكل عود برسيم واحدا أو حفنة تبن أو حبة فول بعد أن يشبع، وتجده يدوس على ما زاد عن حاجته بقدميه. وتعال إلى إنسان ملأ بطنه وشبع وغسل يديه، ثم قالوا له مثلا: "أنت نَسِيتَ الفاكهة أو نسيت الحلوى" تجده يعود مرة أخرى ليأكل وهو شبعان فيتلف معدته ويتلف جسده. ولذلك تجد الإنسان مصابا بأمراض كثيرة لا تصيب الحيوان لأنه يسرف فى أشياء كثيرة، بل تجد أن الأمراض التى تصيب الحيوان معظمها من تلوث بيئة الحيوان مما يفعله الإنسان.

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن الدابة المحكومة بالغريزة خير من الكافر لأن الدابة تؤدى مهمتها فى الحياة تماما بينما لا يؤدى الكافر مهمته فى الأرض، بل يفسد فيها ويسفك الدماء، وبذلك يكون شرا من الدابة. ولقد قلنا: إن الدّابة تحملك من مكان إلى مكان ولا تشكو، وتحمل أثقالك ولا تتبرم، وتظل سائرة فترة طويلة وأنت جالس فوقها فلا تضيق بك وتلقيك على الأرض. لقد خُلِقَتْ لهذه المهمة وهى تؤديها كما خلقت لها دون شكوى أو ضجر لأنها محكومة بنظام دقيق تتبعه وتنفذه. ولكن الإنسان اخترع السيارة وطور فيها، وقد يجلس أمام مقعد القيادة ويصيبه التعب فينعس ويقع فى حادثة فيصاب فيها ويصيب غيره أيضا".

ولكن فات الشيخ أن الحيوان، وإن جاء تقديره لبعض الأمور أدق من الإنسان، لا يحق لنا أن نصفه بأنه أوعى من الإنسان. فليس الأمر هنا أمر وعى، بل أمر غريزة كما قال فضيلة الشيخ بنفسه. واتباع الغريزة ليس دليلا على الوعى، إذ الحيوان يتصرف عندئذ بناء على هذه الغريزة لا بناء على الوعى. فهو كالكاتوب (الكمبيوتر) قد بُرْمِج منذ البداية على نظام معين لا يستطيع أن يخرج عنه طوال الدهر، ولم يقل أحدٌ قَطّ إن الكاتوب لديه وعى.

إن الرجل إذا ثارت شهوته بسبب رؤيته امرأة أنيقة جميلة شهية فهو خاضع للغريزة، ولكنه حين يمسك نفسه ثم يفكر فيقرر أن يتزوجها فهو عندئذ يتصرف عن وعى بغض النظر هل ستكون زيجة ناجحة أو لا. ولا يمكن أن يكون الحيوان متبعُ الغريزة أفضلَ من الإنسان متبعِ الوعى. قد يعجبنا الحمار الذى لا ينبعث فيحاول عبور مجرى الماء الواسع ولا يعجبنا الإنسان الذى يقدم على القفز فوقه دون أن يقدر لرجله قبل القفز ولا بعد القفز موضعها فيسقط فى جدول الماء وتبتل ثيابه وتتلطخ بالطين، وربما غرق أو أشرف على الغرق ولم ينج إلا بأعجوبة. لكن هذا الإعجاب الوقتى لا ينبغى أن يعمينا عن الحقيقة الصارخة بأن الإنسان بوعيه، الذى حقر من شأنه الشيخ، يبنى القناطر والجسور أو يستعين بالقوارب والمعديات التى تنقله من شاطئ إلى شاطئ بينما يبقى الحمار واقفا لا يتزحزح على ضفة مجرى الماء إلى الأبد لا يستطيع قفزا ولا يستطيع صنع وسيلة للعبور.

أما قوله إن "الشىء الذى يحدث بالغرائز لا تختلف فيه العقول، ولذلك نجد كثيرا من الأشياء نتعلمها نحن أصحاب العقول من الحيوانات والحشرات التى لا عقول لها لأن الحيوانات تتصرف بالغريزة، والغريزة لا تخطىء أبدا. فإذا قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى: "فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى الْأَرْضِ لِيرِيَهُ كَيفَ يوَارِى سَوْأَةَ أَخِيهِ" (المائدة/ ٣١) نجد أن الغراب الذى لا اختيار له ولا عقل علَّم الإنسان الذى له عقل واختيار. وقد حدث ذلك لأن الغراب محكوم بالغريزة"، أما قوله هذا فلا مشاحة فى صدق ما جاء فيه من أن الإنسان الأول قد تعلم الدفن من الغراب حين رآه يبحث فى الأرض بمنقاره وبراثنه. لكن لا ينبغى أن نغفل أن ذلك الغراب المعلِّم قد بقى منذ ذلك اليوم عند هذه النقطة لم يرِمْها لأنه لم يتطور بعدها فلم ينتقل منها إلى شىء جديد، بخلاف تلميذه الإنسان، الذى انطلق مما تعلَّمه منه إلى أن صارت مقابره فى بعض البلاد تحفا معمارية وفنية مما دفعنى ذات يوم، حين رأيت صورة الجبَّان الذى دُفِن فى مقبرة من

مقابره الروائى والسياسى البريطانى دانييل ديفو (ق١٧)، إلى أن أقول ضاحكا ما معناه أن منظر المقبرة ونظافتها وتنسيقها وحسنها البديع وفخامتها يجعل مذاق الموت جميلا ويحبب الإنسان فيه.

ذلك أن الحيوان يتصرف بغريزته لا يخرج عنها، ولا يحل مشاكله باستخدام العقل، أما الإنسان فقد رزقه الله العقل والذكاء والقدرة على التأمل والتفكير والتخيل وحل المشكلة وتطوير نفسه وقدراته وتصحيح مساره وأخطائه وتكميل نواقصه. وهذا هو السبب فى إنجازه كل تلك الحضارة العظيمة بينما يبقى الحمار حمارا لا يتطور أبدا مهما مرت به الأعوام والأحقاب. وهذا هو السبب فى أن الإنسان إذا ما ضاق صدره بغباء إنسان آخر قال له: أنت حمار؟ لكن لم نسمع حمارا قط يقول لحمار مثله على سبيل التحقير والسخرية منه ومن غبائه: أنت إنسان يا أخى؟ ثم ألم يصف القرآن الكريم المشركين بأنهم دوابّ وأنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا؟ فكيف نقول إن الحيوانات، التى تنتمى إليها الدواب والأنعام، أكثر وأحسن وعيا من البشر؟ إذن فعلى هذا التفسير يكون الله سبحانه قد مدح المشركين حين جعلهم دوابّ وأنعاما. فهل يقول أحد بهذا؟

وقد عاد الشيخ لمعالجة هذا الموضوع عند تفسيره للآية ٣٦ من سورة "التوبة"، وهى قوله تعالى: "إنما النَّسِىءُ زيادةٌ فى الكفر يضَلُّ به الذين كفروا يحِلّونه عامًا ويحرِّمونه عامًا ليواطئوا عِدَّةَ ما حرَّم الله فيُحِلّوا ما حرَّم الله زُيِّنَ لهم سوءُ أعمالهم والله لا يَهْدِى القومَ الكافرين"، فقال: "أراد الحق سبحانه أن يضع للسلام ضمانا، وهو أن توجد قوة تقف أمام الفساد فى الأرض. لذلك شاء الحق أن يكون للحرب وجود فى هذا الكون لتتصارع الإرادات. فما دام للإنسان اختيار، وما دام هناك من يعصى ومن يطيع، فلا بد أن يحدث الصراع. أما الأمور التى لا اختيار للإنسان فيها فهى لا تعكر السلام فى الكون. فلن تقوم ثورة مثلا لكى تشرق الشمس أو تشتعل حرب لإنزال المطر لأن هذه الأمور تسير بقوانين القهر التى أرادها الله لها وتعطى نفعها للجميع،

ولكن الفساد يأتى من انحراف الناس عن منهج الله. وما دام فى الكون حراس للمنهج من البشر بحيث إذا انحرف إنسان ضربوا على يده حتى يعود إلى الطريق السليم فإن الحياة المطمئنة الآمنة تبقى. ولكن إِنْ عَمَّ الفسادُ ولم يوجد فى المجتمع من يقف ضده تعاندت حركات الحياة وتعب الناس فى حياتهم وأرزاقهم".

كذلك كرر فضيلته هذا الكلام عند تعرضه للآية التاسعة من سورة "الشعراء" حين قال: "جاء الحق تبارك وتعالى هنا بصفة "الْعَزِيز" (الشعراء/ ٩) بعد أن قال: "وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ" (الشعراء/ ٨) لنعلم أن الذين كفروا لم يكفروا رَغْمًا عن الله، إنما كفروا بما أودع الله فيهم من الاختيار. فهو سبحانه الذى أعانهم عليه لَمَّا أحبوه وأصروا عليه لأنه تعالى ربُّهم، بدليل أنه تعالى لو تركهم مجبرين مرغمين ما فعلوا شيئا يخالف منهج الله أبدا، وبدليل أنهم مجبرون الآن على أشياء ومقهورون فى حياتهم فى مسائل كثيرة، ومع ذلك لا يستطيع أحد منهم أن يخرج على شىء من ذلك. فمع إِلْفِهم العنادَ والتمردَ على منهج الله أيستطيع أحدهم أنْ يتأبَّى على المرض أو على الموت أو على الأقدار التى تنزل به؟ أيختار أحد منهم يوم مولده مثلًا أو يوم وفاته؟ أيختار طوله أو قوته أو ذكاءه؟ لكنْ لما أعطاهم الله الصلاحية والاختيار اختاروا الكفر، فأعانهم الله على ما أحبُّوا، وختم على قلوبهم حتى لا يخرج منها كفر، ولا يدخلها إيمان. وكلمة "العَزِيز" (الشعراء/ ٩) تعنى الذى لا يغْلَب ولا يقْهَر. لكن هذه الصفة لا تكفى فى حقّه تعالى لأنها تفيد المساواة للمقابل، فلا بُدَّ أنْ نزيد عليها أنه سبحانه هو الغالب أيضا. لذلك يقول سبحانه وتعالى: "وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ" (يوسف/ ٢١). فالله تعالى عزيز يغْلِب ولا يغْلَب".

وبعيدا عن حديث الحروب فإن الظواهر الطبيعية التى تقوم على "القهر" بعبارة الشيخ قد يمكن التدخل البشرى فيها على نحو أو على آخر، وليس الأمر فيها مغلقا بالضبة والمفتاح تماما. ففى بعض البلاد المتقدمة قد استطاعوا إنزال المطر عندما

يحتاجون ذلك. والشيخ يقر بهذا ويقول إنه بإلقاء مادة كيماوية على السحاب تمطر (محمد متولى الشعراوى/ نهاية العالم/ مؤسسة أخبار اليوم/ ١٩٩٠م/ ١٩)، وإن كان قد حمل على من يظنون بادعائهم وغرورهم أنهم استطاعوا إنزال المطر وأن إحدى المغيبات الخمس التى استأثر الله بعلمها، وهى إنزال المطر، قد انكشفت لهم: "إن اللهَ عنده عِلْمُ الساعةِ، وينزِّل الغيث، ويعلم ما فى الأرحام، وما تدرى نفسٌ ماذا تَكْسِب غدا، وما تدرى نفسٌ بأىِّ أرضٍ تموت. إن الله عليم خبير" (لقمان/ ٣٤).

ونحن لا نشارك المدعين المغرورين ادعاءهم وغرورهم، لكن هذا لا ينفى أن للبشر الآن دخلا فى إنزال المطر بالاستعانة بالعلم والصناعة. بل نؤمن أن الله تعالى هو الذى خلق البحار والأنهار وخلق القوانين التى على أساسها يتبخر الماء من المسطحات المائية ويسير محمولا على الهواء ويتكاثف ثم ينزل مطرا، وأن كل ما صنعه البشر، وهو ليس بالقليل، أنهم اكتشفوا كثيرا من هذه القوانين بتوفيق من الله الكريم الذى جعل الإنسان قابلا للتعلم والتوسع فى العلم واستخدامه لمصلحته بما فى ذلك القدرة على إنزال المطر فى بعض الأحيان. فهم مخلوقون لله، كما أن المطر مخلوق لله، والقوانين التى تسيرهم وتسير الماء منذ كان فى البحر والنهر والبحيرات إلى أن هطل مطرا هى أيضا من خلق الله. أما دور الإنسان فهو اكتشاف هذا كله واستغلاله فى مصالحه. وهو شىء يسعدنا ويدفعنا إلى شكر المنعم الذى علمنا وأقدرنا على الاستفادة من العلم. أما الادعاء والغرور فهو ليس مقصورا على بعض العلماء بل كثيرا ما تجد لدى الجهلاء الغارقين فى الجهل ادعاء وغرورا أفحش.

ولكنى لست مع الشيخ فى أن العلماء كلما اكتشفوا المزيد من أسرار الكون ازداد إيمانهم كما قال فى الكتاب المذكور (ص١٣ وما بعدها). ذلك أنى أفهم قوله تعالى: "إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ" لا على أساس أن العلماء هم من عرفوا كثيرا من الأشياء والأسرار الكونية وحسب، ولكن على أساس أنهم من تعمقوا وفهموا مما وقع لهم من

علـم ومعلومـات أن وراء هـذا الكـون إلها عظيـما يـستحق الإيـمان بـه والحـب والـشكر والحمـد لـه، ولم يعانـدوا أو يتمـردوا أو يغـتروا أو يأخـذوا الأمـور مأخـذا سـطحيا بـل انصاعوا للحقائق ودلالاتها. فالمقصود بـ"العلماء" فى الآية هم العلماء الحقيقيون. وذلك كما نقول: "فلان هذا رجل"، أى رجل بمعنى الكلمة، وإلا فالرجال بالمليارات، وهـو ما لا نقصده بطبيعة الحال لأن رجوليته بـالمعنى العـادى لا تحتـاج إلى إثبـات أو تقريـر. وقـد يقـول قائـل إن المقـصود بـالعلماء فى الآيـة هـم علـماء الـدين. وقائـل هـذا يعمـى عـن الحقيقة الـساطعة المتمثلة فى أن فى مـن يـسمَّوْن بـ"علـماء الـدين" العـالم الحقيقـى الـشجاع المخلص، والجاهل الظالم الذى يضلل الناس ويمالئ المستبدين ولا يخاف الله ولا يرقب فى المسلمين إلا ولا ذمة. وما أكثر الصنف الأخير بينهم!

ويـذكرنا قولنـا: "فـلان هـذا رجـل" بقولـه عـز شـأنه عـن الـسبب الـذى حـدا بطائفـة مـن النـصارى فى عهـد نبينـا محمـد أن يؤمنـوا بـه وبـالقرآن ويبكـوا خـشوعا حـين سـمعوا آيات الله: "ذلك بـأن منهم قِسِّسين ورهبانًا وأنهـم لا يـستكبرون"، مما فسرته بـأن المـراد بـ"القسيسين والرهبان" هـم العلماء والعُبَّاد الحقيقيـون المخلـصون اعتمادا على أن معنـى "القسيس" فى الأصـل هـو "العـالم"، ومعنـى "الراهـب" هـو العابـد كـما بينـت فى كتـابى عـن سـورة "المـائـدة". أمـا القسيسـون والرهبـان بـإطلاق فـإذا سـمعوا مـا أنـزل إلى الرسـول لم تفض عيونهم من الدمع مما عرفوا من الحق ولم يقولوا: "ربنا آمنّا، فاكتبنا مع الشاهدين" ولم يطمعـوا أن يـدْخِلَهم ربهـم مـع القـوم الـصالحين حـسبما تقـول الآيـات ٨٢- ٨٥ مـن سـورة "المـائدة".

كـذلك اسـتطاع البـشر أن يزرعـوا كـثيرا مـن الخـضراوات فى غـير إبانهـا باسـتخدام التقـدم العلمـى والـصناعى. وبالمثـل يمكـنهم الآن عـن طريـق الهندسـة الوراثيـة الحـصول على الأنواع التى يريـدونها من هذا النبات أو من تلك الفاكهة. وكـل ما استعانوا بـه من علـم وصـناعة هـو مـن عنـد الله. فلـيس فى الأمـر افتئـات عـلى قـدرة الله ومـشيئته بـل هـم

خاضعون خضوعا مطلقا لـه سبحانه فى كل الأوقات وفى كل الظروف وأينما كانوا. وهم قادرون على شق الأنهار وصنع البحيرات متى احتاجوا إلى شىء من ذلك. وقد قرأنا أن التسونامى الذى حدث منذ سنوات فى شرق آسيا هو مؤامرة من أمريكا، التى أجرت بعض التفجيرات قريبا من منطقة التسونامى فأدت إلى حدوثه. هكذا قرأنا. ولا نقول إن ما قرأناه هو صحيح بالضرورة، ولكننا نلفت الأنظار إلى دلالته وأن الإنسان قادر على أن يتدخل فى حدوث مثل هذه الظاهرة الطبيعية الرهيبة. كما أشار الشيخ إلى الثَّقْب الذى أصاب طبقة الأوزون، وهو أيضا من عمل البشر. ومما قرأناه كذلك فى الصحف أن أمريكا لا تريد الالتزام بالقوانين التى تمنع من الإضرار بتلك الطبقة.

وأما قول فضيلته إنه "ما دام فى الكون حراس للمنهج من البشر بحيث إذا انحرف إنسان ضربوا على يده حتى يعود إلى الطريق السليم فإن الحياة المطمئنة الآمنة تبقى" فيبدو لى إسرافا شديدا فى التفاؤل، فالحرب والظلم لم ولن ينقطعا أبدا فى الأرض، إذ حُبُّ العدوان موجودٌ منذ الأزل فى طبائع الناس جَرَّاءَ الغيرةِ والأنانيةِ والطمعِ مما لا تخلو أو لا تكاد تخلو منه نفس بشرية. وقد جرب البشر أساليب كثيرة للقضاء على العدوان والظلم، لكنهم سرعان ما تبين لهم أن صوت القوة يعلو دائما على كل الأصوات.

وفى تفسيره للآية السابعة من "الفاتحة" يقول الشيخ إن "أول ما يطلب المؤمن هو الهداية والصراط المستقيم: "اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ". والهداية نوعان: هداية دلالة وهداية معونة. هداية الدلالة هى للناس جميعا، وهداية المعونة هى للمؤمنين فقط المتبعين لمنهج الله. والله سبحانه وتعالى هَدَى كل عباده هدايةَ دلالةٍ، أَى دَلَّهُمْ على طريق الخير وبَيَنَه لهم: فمن أراد أن يتبع طريق الخير اتبعه، ومن أراد ألا يتبعه تركه الله لما أراد. هذه الهداية العامة هى أساس البلاغ عن الله. فقد بين لنا الله تبارك وتعالى فى منهجه بـ"افعل ولا تفعل" ما يرضيه وما يغضبه، وأوضح لنا الطريق الذى نتبعه

لنهتدى، والطريق الذى لو سلكناه حق علينا غضب الله وسخطه. ولكن هل كُلُّ مَنْ بَينَ له الله سبحانه وتعالى طريق الهداية اهتدى؟ نقول: لا. واقرأ قوله جل جلاله: "وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يكْسِبُونَ" (فُصِّلَتْ/ ١٧). إذن هناك من لا يأخذ طريق الهداية بالاختيار الذى أعطاه الله له. فلو أن الله سبحانه وتعالى أرادنا جميعا مَهْدِيين ما استطاع واحد من خلقه أن يخرج على مشيئته. ولكنه جل جلاله خلقنا مختارين لنأتيه عن حب ورغبة بدلا من أن يقهرنا على الطاعة.

ما الذى يحدث للذين اتبعوا طريق الهداية والذين لم يتبعوه وخالفوا مراد الله الشرعى فى كونه؟ الذين اتبعوا طريق الهداية يعينهم الله سبحانه وتعالى عليه ويحببهم فى الايمان والتقوى ويحببهم فى طاعته. واقرأ قوله تبارك وتعالى: "وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ" (محمد/ ١٧). أى أن كل من يتخذ طريق الهداية يعينه الله عليه ويزيده تقوى وحبا فى الدين. أما الذين إذا جاءهم الهدى ابتعدوا عن منهج الله وخالفوه فإن الله تبارك وتعالى يتخلى عنهم ويتركهم فى ضلالهم. واقرأ قوله تعالى: "وَمَن يعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيضْ لَهُ شَيطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ" (الزخرف/ ٣٦). والله سبحانه وتعالى قد بين لنا المحرومين من هداية المعونة على الإيمان، وهم ثلاثة كما بَينْهُم لنا فى القرآن الكريم: "ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الْدُّنْيا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" (النحل/ ١٠٧)، "ذلِكَ أَدْنَى أَن يأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَآ أَوْ يخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيمَانٌ بَعْدَ أَيمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللّهَ وَاسْمَعُوا وَاللّهُ لاَ يهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ" (المائدة/ ١٠٨)، "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّى الَّذِى يحْيـى وَيمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيـى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (البقرة/

٢٥٨). اذن فالمطرودون من هداية الله فى المعونة على الايمان هم الكافرون والفاسقون والظالمون".

كما عاد الشيخ لتناول هذه القضية خلال تفسيره للآية ١٩ من "التوبة": "وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"، فقال: "وهذه أوجدت الحل لمشكلات متعددة يثيرها بعض الناس حول الهداية، وكيف أنها من الله سبحانه وتعالى، وليست من العبد، لقوله تعالى: "إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يشَآءُ" (القصص/ ٥٦). نقول: نعم إن مشيئة الهدى من الله سبحانه وتعالى، لكنه سبحانه قد أوضح لنا من لا يدْخِلهم فى مشيئة هَدْيه فقال: "وَاللَّهُ لاَ يهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" (البقرة/ ٢٦٤)، وقال سبحانه: "وَاللَّهُ لاَ يهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (البقرة/ ٢٥٨)، وقال سبحانه: "وَاللَّهُ لاَ يهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ" (المائدة/ ١٠٨). وقد ذكر الحق سبحانه وتعالى هذه الحقائق فى الكثير من آيات القرآن الكريم.

وبعض الناس يقول: إن الهدى من الله، ولو أن الله هدانى ما قتلت وما سرقت وما ارتشيت. ونقول: هذا فهم خاطئ. ولنرجع إلى القرآن الكريم، فالحق تبارك وتعالى يقول: "وَاللَّهُ لاَ يهْدِى" أى نفى ما يستوجب الهداية عمن ظلم أو فسق أو كفر لأن الحق سبحانه لا يهْدِى من قدَّم الكفر أو قدَّم الظلم أو قدَّم الفسق. فكأن الكافر أو الظالم أو الفاسق هو الذى يمنع الهداية عن نفسه. ولو قدم الإنسان الإيمان لدخل فى هداية الله تعالى. فكأن خروج الإنسان عن مشيئة هداية الله هى مسألة من عمل الإنسان وباختياره، فقد يختار الإنسان طريق الغواية، ويترك طريق الهداية. لذلك لا يهديه الله لأنه سبحانه لا يهدى إلا المؤمن به. وإن اختار الإنسان طريق الهداية فالحق يعطيه المزيد من الهدى لأنه آمن بالله فاختار طريق الهداية واستقبل منهج الله بالرضى. وهكذا نفهم قول الحق تبارك وتعالى: "فَإِنَّ اللَّهَ يضِلُّ مَن يشَآءُ وَيهْدِى مَن يشَآءُ" (فاطر/ ٨).

إذن فالحق يهدى من استمع إلى القرآن بروح الإيمان، واستقر فى يقينه أن له رَبًّا، واعتقد أن له إلهًا. وقد فصلنا ذلك فى مسألة القضاء والقدر، وقلنا: إن الذين يقرأون القرآن لفهم قضية الهداية عليهم أن يستقرئوا كل الآيات المتعلقة بالموضوع. فسبحانه وتعالى قد أوضح أنه لا يهدى الكافر. إذن فهو يهدى المؤمن. وأوضح أنه لا يهدى الظالم. إذن فهو يهدى العادل. وأوضح أنه جل وعلا لا يهدى الفاسق. إذن فهو يهدى الطائع. فلا يقولَنَّ أحد: "إن الله لم يَشَأْ أن يهدينى" لأن هذا فهم خاطىء لمعنى الهداية من الله، فسبحانه وتعالى قد بين لنا من شاء هدايته ومن شاء إضلاله. وهو يهدى من قدم أسباب الهداية وأسلم مقاليد زمامه للإيمان. والله سبحانه وتعالى يقول: "وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيرٌ مَرَدًّا" (مريم/ ٧٦)، ويقول أيضا: "وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ" (محمد/ ١٧).

إذن فالله أخبرنا مسبقًا بمن يستحق هدايته ومن لا يدخل فيها، وأنت باختيارك طريقَك إما أن تؤمن فتدخل فى الهداية، وإما أن تختار طريق الكفر والظلم والعياذ بالله فتمتنع عنك الهداية. فإذا جاء أحد يجادلك ويقول لك: إن الله سبحانه وتعالى قد قال: "كَذَلِكَ يضِلُّ اللَّهُ مَن يشَآءُ وَيهْدِى مَن يشَآءُ" (المدثر/ ٣١) لك أن تقول له: لقد بين الله عز وجل من شاء له الهداية ومن شاء له الضلال. ولقد ضربنا لذلك مثلًا، ولله المثل الأعلى، فقلنا إن الهداية قد وردت فى القرآن الكريم على معنيين: المعنى الأول هو الدلالة على الطريق، وهذه هداية للجميع، فقد دل الله المؤمن والكافر على طريق الإيمان برسله وكتبه، أى بين لهم ما يرضيه وما يغضبه وما يوجب رحمته وما يوجب لعنته. فالهداية الأولى إذن وردت بمعنى الدلالة للجميع، أى أنها هداية عامة. ثم هناك هداية ثانية خاصة للمؤمنين، وهى التى بينها الله سبحانه وتعالى فى قوله تعالى: "وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ" (محمد/ ١٧)، أى أعانهم على منهجه فيسَّر لهم الطاعة وصعَّب عليهم المعاصى. فإذا امتثل المؤمن لمنهج الله وأطاعه فالحق عز وجل

يشرح صدره بذلك، ويحبب الطاعة إليه فيزداد طاعة. وإذا شرع فى ارتكاب المعصية بغَّضها له وجعلها ثقيلة على نفسه حتى يتركها.

وضربنا لذلك مثلا بالرجل الذى يقود سيارته ذاهبا لمكان معين، وعند مفترق الطرق وجد رجلا من رجال المرور، فدله على الطريق. هذه دلالة عامة. وعندما يقدم الرجل الشكر لجندى المرور فرجل المرور يزيد من الإيضاح له: لا تتبع طريق كذا لأن فيها متاعب ومصاعب، واتبع طريق كذا وكذا تصل فى سرعة ويسر. وهذه زيادة فى الدلالة أو زيادة فى الهداية. لكن إن قال سائق السيارة لنفسه: إن هذا رجل مرور لا يعرف شيئًا، وتجاهل شكره، فرجل المرور يتركه وشأنه. إذن فالحق سبحانه قد هدى المؤمن والكافر إلى طريق الإيمان: فمن اتخذ طريق الإيمان أعانه الله تعالى عليه. ومن اتخذ طريق الكفر، والعياذ بالله، تركه الله يعانى ويضل. ولذلك لا بد لنا أن نتذكر دائما أن الهداية هدايتان: هدايةُ دلالةٍ لكل الناس، وهدايةُ معونةٍ للمؤمنين فقط، وفى الدلالة العامة يقول الحق تبارك وتعالى: "وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ" (البلد/ ١٠). أما دلالة المعونة فهى التى يقول فيها المولى عز وجل: "وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ" (محمد/ ١٧).

وما يكشف لنا أن الهداية عامة أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن قوم ثمود، وهم الذين بعث الله إليهم أخاهم صالحًا، قال سبحانه: "وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ" (فُصِّلَتْ/ ١٧). ولو كانت الهداية هنا بمعنى أنهم أصبحوا مهتدين وسلكوا سبيل الإيمان ما قال الله سبحانه بعدها: "فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى" (فصلت/ ١٧). إذن "فَهَدَيْنَاهُمْ" فى هذه الآية الكريمة معناها: دللناهم على طريق الإيمان، ولكنهم اختاروا طريق العمى والكفر".

وهذا كلام جميل. ويمكن أن نضيف إلى هذه الطريقة الجميلة طريقة أخرى لتوجيه الآيات القرآنية التى قد تبدو للعين المتعجلة متضاربة أو يتخذ منها المعاند

المتمرد تكأة للتنصل من المسؤولية بالقول بأن الله هو الذى يهْدِى وهو الذى يضِلّ، وما نحن البشر سوى ريشة فى مهب الرياح العاتية لا تستطيع أن تقاوم، فضلا عن أن تستطيع اختيار طريقها المستقل الخاص بها. ذلك أن هذا الأمر يمكن النظر إليه من أفقين مختلفين: فأنا وأنت نشعر شعورا فطريا تلقائيا بأننا، أمام كثير جدا جدا من أمور الحياة، نستطيع أن نفعل وألا نفعل، ويكون ذلك الشعور من الوضوح بمكان، والدليل على ذلك أننا نستطيع فى هذه الحالة أن نشرع فى فعل الشىء، ثم بعدما نبدأ الفعل نتوقف ونقرر عدم المضى فيه... وهكذا دواليك.

كما أن الله سبحانه يوم القيامة، وكذلك القانون فى الدنيا، يعاقباننا على ما اجترحناه من أخطاء. والله عادل ولا يمكن أن يعاقبنا وهو يعرف أنه لم يكن لنا أى اختيار فيما فعلناه، وإلا كان ظلما وإجحافا، وحاشا لله أن يكون ظالما متعنتا جل جلاله. ومن هنا فإذا أسندنا الفعلَ وتَرْكَ الفعل إلى أنفسنا فنحن محقون فى هذا، "فَيَدَاك أَوْكَتَا، وفُوكَ نَفَخ" كما يقول المثل العربى القديم. كما أن القرآن فى مواضع كثيرة منه ينسب المشيئة إلى الإنسان. وقد وقفتُ أمام هذه المسألة فى كتابى عن سورة "الرعد" فألفيت الله يسند المشيئة فى كتابه العزيز إلى الإنسان أيام كان يعيش فى الجنة الأولى قبل أن يهبط منها، وفى الدنيا حيث نحيا الآن، وكذلك فى العالم الآخر. والنصوص فى ذلك غزيرة كما يعلم كل من قرأ القرآن.

لقد وردت أفعال المشيئة فى القرآن مائتين وستًّا وثلاثين مرة، ولاحظت من استقصائى لآيات المشيئة أن فاعل المشيئة فى الأغلبية منها هو الله سبحانه وتعالى، أما فى الآيات التى لم يكن لفظ الجلالة هو الفاعل للمشيئة فقد كان الفاعل هو البشر. ولم يحدث أن أسند القرآن المشيئة، من دون الله، لغير البشر. ومن هذه الآيات يتبين الآتى:

- أن القرآن قد أسند المشيئة إلى البشر، أفرادا أو جنسا، ثمانى وعشرين مرة (زائد مرتين سنذكرهما بعد قليل). وليس هذا فى حد ذاته بالشىء القليل.

– أن الله سبحانه وتعالى قد عَزَا المشيئة فى أكثر من موضع إلى آدم وزوجه، وهما أصل البشرية. ومعنى ذلك أن المشيئة مقررة للبشر منذ أول الخلق، وليست شيئا طرأ على الإنسانية مِنْ بَعْد. وعلاوة على هذا فإسناد المشيئة إلى آدم وحواء وقع وهما لا يزالان فى الجنة لم يهبطا منها إلى الأرض بعد، وهذا له دلالته ومغزاه.

– أن القرآن ينسب المشيئة لبنى آدم أيضا فى الآخرة، فهى إذن ليست شيئا مؤقتا، بل شيئا أصيلا فيهم منذ كانوا فى الجنة الأولى (جنة ما قبل الأرض)، وستظل معهم فى الجنة الثانية (جنة ما بعد الموت).

– فإذا أضفنا الآيتين التاليتين من آيات المشيئة الإنسانية، وهما: "وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يشَاء اللَّهُ" (الإنسان/ ٢٠)، "وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" (التكوير/ ٢٩) اتضح لنا أن مشيئة الإنسان ليست من عنده، بل هى من عند الله سبحانه وتعالى. أى أن الله عز وجل شاء لنا أن نشاء. فهى إذن ليست مشيئة مستقلة. كما أنها ليست مطلقة. وهذا ما يفرق بينها وبين مشيئة رب العالمين: فمشيئة الله من عنده، وهى مشيئة مطلقة غير محدودة، أما مشيئتنا فهى هبة من الله وتكريم منه لنا، وهى أيضا لا تستطيع أن تحقق كل شىء، لكنها رغم هذا تنجز الكثير.

– وإذا تتبعنا آيات المشيئة الإلهية فى القرآن الكريم فإننا نجدها تتعلق بكل شىء، فهو يبسط الرزق على من يشاء، وهو يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، وهو ينصر من يشاء ويهلك من يشاء، وهو يهدى من يشاء ويضل من يشاء، وهو يضع رسالته حيث يشاء، وهو إن شاء حرك الريح وإن شاء أسكنها، وهو يرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ويجنبها من يشاء، وهو ينزل المطر على من يشاء ويصرفه عن من يشاء... وهكذا، وهكذا. ثم إن مشيئة الله سبحانه ليست شيئا غير منضبط، بل تأخذ طريقها من خلال السنن الكونية التى أجرى الله سبحانه عالمه على أساسها. وقد اقتضت مشيئته، كما رأينا من آيات القرآن الكريم، أن يكون للإنسان مشيئة. ولكنها، كما قلنا، مشيئة مقيدة وغير

مستقلة. وبهذه المشيئة يحاول الإنسان أن يشق طريقه، بعون الله وفضله، خلال السُّنَن الإلهية، مما نسميه اليوم: "القوانين الطبيعية". وبقدر ما يكتسبه الإنسان من العلم ويكتشفه من هذه القوانين تصبح حركته أكثر حرية. ولنضرب مثلا على ذلك: فالإنسان منذ دهور سحيقة يحلم بأن يطير، ولكن مشيئته هذه كانت تصطدم بقانون الجاذبية، الذى لم يكن يفهمه ولا يستطيع أن يتعامل معه. وقد حاول تعويض ذلك باختراع الأساطير التى يصور فيها طيران بعض البشر فى الهواء. أما بعد تقدم العلم وانكشاف قانون الجاذبية وغيره من القوانين التى تحكم عملية الطيران فقد استطاع الإنسان، بفضل خالقه ورعايته، أن يخترع المناطيد والبالونات والأشرعة والطائرات وسفن الفضاء، التى مكنته أن يحول حلمه القديم إلى واقع، وبهذا يكون قد نفذ مشيئته. ومع ذلك فإن حياة الإنسان لا تزال وستظل مملوءة بألوان النقص والعجز. ومهما حقق الإنسان من آمال وأحلام فستبقى آماله وأحلامه التى لم تتحقق أكثر. ذلك أن مشيئته، كما قلنا ونكرر، هى مشيئة محدودة وغير مستقلة.

وإلى القارئ بعض الآيات التى تؤكد فى ذات الوقت وجود المشيئة الإنسانية وأنها مستمدة من مشيئة الله سبحانه، وإن لم يستخدم القرآن فيها لفظ "المشيئة": "ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ" (الأنفال/ ٥٣)، "إِنَّ اللّهَ لاَ يغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ" (الرعد/ ١١)، "وَيهْدِى إليهِ مَنْ أَنَابَ" (الرعد/ ٢٧)، "قَاتِلُوهُمْ يعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيدِيكُمْ" (التوبة/ ١٤)، "يا أَيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللّهَ ينْصُرْكُمْ" (محمد/ ٧).

هذا بالنسبة إلى إسناد المشيئة إلى الإنسان، ولكننا نستطيع فى ذات الوقت أن ننسب كل شىء إلى مشيئة الله بما فى ذلك الهداية والإضلال، إذ إن الله سبحانه وتعالى هو خالق البشر وواهبهم مشيئتهم، ومزودهم بالقدرات والإمكانات التى ينفذون بها تلك المشيئة. كما أنه عز وجل خالق كل شىء من ملائكة وجن وحيوان ومواد جامدة

وقوانين كونية يتعامل معها الإنسان ويصارعها وتصارعه حتى تستجيب لإرادته إلى هذا المدى أو ذاك. فكل أمر، كما نرى، راجع فى نهاية المطاف إليه عز وجل. ومن هنا ففى الأفق الأعلى فإن الله هو الذى يشاء كل شىء، ولكن إذا ما نزلنا من هذا الأفق الأعلى إلى الأفق الأدنى، أفق الأرض والبشر، جاز لنا دون أى افتئات منا، أن ننسب إلى أنفسنا الأفعال التى نحس أنها وقعت منا.

وهذا كما نقول مثلا، مع الفارق الهائل، إن جمال عبد الناصر هو بانى السد العالى، وفى نفس الوقت نقول إن من بناه هم المهندسون والأسطوات والعمال الفلانيون. فهذا صواب، وهذا صواب. والكلام فى الحالين مفهوم ومقبول. ونجد شيئا من هذا فى قول الشيخ رحمه الله لدن تناوله لقوله تعالى فى سورة "النحل": "الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)، إذ قال: "أى المتقون هم الذين تتوفاهم الملائكة طيبين. ومعنى "تَتَوَفَّاهُمُ" (النحل/ ٣٢)، أى تأتى لقبْض أرواحهم. وهنا نَسَب التوفّى إلى جملة الملائكة كأنهم جنودُ مَلَكِ الموت الأصيل عزرائيل. وقد سبق أنْ قُلْنا: إن الحق تبارك وتعالى مرةً ينسب التوفّى إلى الملائكة، ومرة ينسبه إلى مَلك الموت: "قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ" (السجدة/ ١١). ومرّة ينسبه إلى نفسه سبحانه: "اللَّهُ يَتَوَفَّى" (الزمر/ ٤٢). ذلك لأن الله سبحانه هو الآمر الأعلى، وعزرائيل مَلكُ الموت الأصيل، والملائكة هم جنوده الذين ينفّذون أوامره".

وفى ضوء ما مر يمكننا أن نقرأ ونفهم ما قاله الشيخ الشعراوى عند تفسير الآية السابعة من سورة "البقرة": "خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ". قال فضيلته: "وكما أعطانا الحقُّ سبحانه وتعالى أوصافَ المؤمنين يعطينا صفاتِ الكافرين. وقد يتساءل بعض الناس إذا كان هذا هو حكم الله على الكافرين فلماذا يطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم الإيمان منهم، وقد ختم الله

على قلوبهم؟ ومعنى الختم على القلب هو حكم بألا يخرج من القلب ما فيه من الكفر ولا يدخل إليه الإيمان. نقول إن الله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين: فإن استغنى بعضُ خلقه عن الإيمان واختاروا الكفر فإن الله يساعده على الاستغناء ولا يعينه على العودة إلى الإيمان. ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى: "أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه حين يذكرنى: فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملإ ذكرته فى ملأ خير منه، وإن اقترب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن اقترب إلى ذراعا اقتربت إليه باعا، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة".

وقد وضح الحديث القدسى أن الله تبارك وتعالى يعين المؤمنين على الإيمان، وأن الله جل جلاله كما يعين المؤمنين على الإيمان فإنه لا يهمه أن يأتى العبد إلى الإيمان أو لا يأتى. ولذلك نجد القرآن دقيقا ومحكما بأن من كفروا قد اختاروا الكفر بإرادتهم. واختيارهم للكفر كان أولا قبل أن يختم الله على قلوبهم. والخالق جل جلاله أغنى الشركاء عن الشرك. ومن أشرك به فإنه فى غِنًى عنه. إن الذين كفروا... يختم الله بكفرهم على آلات الإدراك كلها: القلب والسمع والبصر. والقلب أداة إدراك غير ظاهرة... وفى القرآن الكريم يقول الحق تبارك وتعالى: "وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (النحل/ ٧٨). وهكذا يعلمنا الله أن منافذ العلم فى الإنسان هى السمع والأبصار والأفئدة. ولكنْ فى الآية الكريمة التى نحن بصددها قدَّم اللهُ القلوبَ على السمع والأبصار لأن الله يعلم أنهم اختاروا الكفر، وكان هذا الاختيار قبل أن يختم الله على قلوبهم. والختم على القلوب معناه أنه لا يدخلها إدراك جديد ولا يخرج منها إدراك قديم. ومهما رأت العين أو سمعت الأذن فلا فائدة من ذلك لأن هذه القلوب مختومة بخاتم الله بعد أن اختار أصحابها الكفر وأصروا عليه. وفى ذلك يصفهم الحق جل جلاله: "صُمٌّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لاَ يرْجِعُونَ" (البقرة/ ١٨).

ولكن لماذا فقدوا كل أدوات الإدراك هذه؟ لأن الغشاوة التفَّتْ حول القلوب الكافرة، فجعلت العيون عاجزة عن تأمل آيات الله، والسمع غير قادر على التلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم. إذن فهؤلاء الذين اختاروا الكفر وأصروا عليه وكفروا بالله رغم رسالاته ورسله وقرآنه ماذا يفعل الله بهم؟ إنه يتخلى عنهم. ولأنه سبحانه وتعالى غنى عن العالمين فإنه ييسر لهم الطريق الذى مَشَوْا فيه ويعينهم عليه. واقرأ قوله تبارك وتعالى: "وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ" (الزخرف/ ٣٦)، ويقول جل جلاله: "هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ" (الشعراء/ ٢٢١- ٢٢٢).

ومن عظمة علم الله تبارك وتعالى أنه يعْلَم المؤمن ويعلم الكافر دون أن يكون جل جلاله تدخَّلَ فى اختيارهم. فعندما بعث الله سبحانه وتعالى نوحًا عليه السلام، ودعا نوحٌ إلى منهج الله تسعمائة وخمسين عاما، وقبل أن يأتى الطوفان، علم الله سبحانه وتعالى أنه لن يؤمن بنوح عليه السلام إلا من آمن فعلا، فطلب الله تبارك وتعالى من نوح أن يبنى السفينة لينجو المؤمنون من الطوفان. واقرأ قوله جل جلاله: "وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيننَا وَوَحْينَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ" (هود/ ٣٦- ٣٧).

وهكذا نرى أنه من عظمة علم الله سبحانه وتعالى أنه يعلم من سيصر على الكفر وأنه سيموت كافرا. وإذا كانت هذه هى الحقيقة فلماذا يطلب الله تبارك وتعالى من رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغهم بالمنهج وبالقرآن؟ ليكونوا شهداء على أنفسهم يوم القيامة فلا يأتى هؤلاء الناس يوم المشهد العظيم ويجادلون بالباطل أنه لو بَلَغَهم الهدى ودعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لآمنوا. ولكن لماذا يختم الله جل جلاله على قلوبهم؟ لأن القلب هو مكان العقائد، ولذلك فإن القضية تُنَاقَش فى العقل. فإذا انتهت مناقشتها واقتنع بها الإنسان تماما فإنها تستقر فى القلب ولا تعود إلى الذهن مرة

أخرى وتصبح عقيدة وإيمانا. والحق سبحانه وتعالى يقول: "فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ" (الحج/ ٤٦). وإذا عَمِيَ القلب عن قضية الإيمان فلا عين ترى آيات الإيمان ولا أذن تسمع كلام الله".

وفي نهاية المطاف نقول مكررين إن الله هو خالق الكون، ومشيئته مطلقة، لكنه سبحانه قد أعطى الإنسان مشيئة، وهى مشيئة مقيدة ونسبية. وبالمشيئة والقدرة البشرية المحدودة التى خلعها الله على البشرية استطاعت إنجاز كل هذا التراث الحضارى العظيم ببركة من الله جل جلاله. وهذه المشيئة منغمرة فى المشيئة الإلهية الكبرى، فهى مرتبطة بها ومنطلقة منها ومحدودة بها، لكنها رغم ذلك كله تتمتع بقدر من الحرية والاستقلالية المفاضة عليها من الله سبحانه.

وكما قلت فى مفتتح هذا الفصل فإن الجبر والاختيار متمازجان فى كل ما نفعل. ذلك أنه ما من فعل أفعله أنا مثلا إلا ووراءه عوامل مساعدة تدفعنى إلى فعله وتسهِّله علىَّ، ومن هذه العوامل التربية الطيبة التى تلقيتها فى المنزل، والتعليم الذى حَصَّلْتُه فى المدرسة والجامعة، والكتب التى قرأتها، والتجارب التى مررت بها فى حياتى، والمناقشات التى دارت بينى وبين زملائى وأصدقائى، وتدينى وأخلاقى، ورغبتى فى أن أنجز شيئا طيبا أرضى به عن نفسي وأكسب منه عيشي، والابتهال إلى الله أستمد منه رفع روحى المعنوية حتى يكون أدائى طيبا، ومدى ثقتى بنفسي، التى هى ثمرة كل الإيجابيات والسلبيات التى تعرضت لها على مدار عمرى (وبالمناسبة هذا كله كلام افتراضى، فأنا لست هكذا ولا نصفه ولا ربعه ولا حتى ثمنه). ولكنْ فى ذات الوقت ثَمَّ معوقات وقيود تصعّب علىَّ انطلاقى وتحقيق رغبتى، ومن تلك العوائق صعوبات العمل الذى أنا مقبل عليه، ورغبتى كإنسان فى الميل إلى الراحة والكسل والتسويف وكراهية المشقة، وتآمرات مُنَافِسِيَّ فى الحصول على الوظيفة التى أرجو الحصول عليها، وكذلك من يكرهوننى ويعملون على إفشالى والتشويش علىَّ وإطلاق الشائعات

ضدى. وأنا فى خلال ذلك كله أستعين بالعوامل المساعدة وأعمل على إحباط المعوقات والصعوبات، باذلا كل جهدى فى سبيل النجاح والانتصار.

فإن نجحت وكسبت الوظيفة ونُسِب النجاح والانتصار إلىَّ وإلى أنى أردت وشئت ذلك فكان لى ما أردت وشئت كانت النسبة صحيحة ومنطقية. على أن نعرف أن مشيئتى التى حققت بها ما حققت هى بدورها متأثرة بالعوامل السابقة: إيجابيها وسلبيها، وممتزجة فيها نسبة من الجبر والإكراه ونسبة من الاختيار والحرية. لكن لو أردنا أن ننظر إلى الأمر من كل جوانبه نظرة بانورامية قلنا إن هذه مشيئة الله سبحانه. فهو الذى خلقنى ووفر العوامل المساعدة لى، وفى نفس الوقت هو أيضا خالق المصاعب والعقبات التى تعترض طريقى، وخالق القوانين الكونية التى تنظم صراعى مع معوقات طريقى واستعانتى بالعوامل المساعدة فى الحصول على النجاح والفوز. وما دمنا سنحاسَب يوم القيامة بسبب المشيئة التى أفيضت علينا من الله فإن سعة قدرتنا ومدى مشيئتنا يؤخذان فى الاعتبار. فالحساب إنما يكون على ما هو فى وسعنا وقدرتنا، إذ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها. وأرجو أن أكون بهذه الصورة الكروكية قد أفلحت فى توضيح فكرتى، وأن تكون الفكرة ذاتها صحيحة. وواضح أن الأمور كلها، على النحو الذى وضحته هنا، إنما هى فى قبضة الله، إذ كثيرا ما تأتى النتائج على غير ما يأمرنا به جراء القَدْر الذى نتمتع به من المشيئة الحرة، فهى المسؤولة عن الطاعة والعصيان: فإن أطاع الإنسان ربه فقد التقت مشيئته مع ما يريده منه ربه، وإن عصاه اختلفت مشيئته مع ما أمره به سبحانه.

وقد عبر الشيخ عن هذا المعنى بأسلوب آخر فى شرح الآية ٣٥ من سورة "النحل"، وهى: "وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ"، إذ قال: "لا بُدَّ أن نلاحظ أن لله تعالى مرادات كونية ومرادات شرعية.

فالمراد الكونى هو ما يكون فِعلًا. كُلُّ ما تراه فى الكون أراد الله أن يكون. والمراد الشرعى هو طَلَبُ الشىء لمحبوبيته. ولنأخذ مثلًا لتوضيح ذلك كُفْرَ الكافر: أراد الله كَوْنيا أن يكون لأنه خَلَقَه مختارًا وقال: "فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ" (الكهف/ ٢٩). وطالما خلقك الله مختارًا تستطيع أن تتوجه إلى الإيمان أو تتوجه إلى الكفر. ثم كفرتَ. إذن فهل كفرتَ غَصْبًا عنه وعلى غير مُراده سبحانه وتعالى؟ حاشا لله! ومعنى ذلك أن كُفْر الكافر مُرَادٌ كونى، وليس مرادًا شرعيا. وبنفس المقياس يكون إيمان المؤمن مُرادًا كونيا ومُرادًا شرعيا...

إذن هو مراد شرعى، وكذلك مراد كونى... وهكذا. فلا بُدَّ أن نُفرِّق بين المراد كونيا والمراد شرعيا. ولذلك لما حدثت ضجة فى الحرم المكى منذ سنوات وحدث فيه إطلاق للنار وترويع للآمنين قال بعضهم: "كيف يحدث هذا وقد قال تعالى: "وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا" (آل عمران/ ٩٧)، وها هو الحال قَتْلٌ وإزعاجٌ للآمنين فيه؟". والحقيقة أن هؤلاء خلطوا بين مراد كونى ومراد شرعى، فالمقصود بالآية: فَمْن دخله فأمِّنوه، أى اجعلوه آمنًا. فهذا مطلَب من الله تبارك وتعالى، وهو مراد شرعى قد يحدث وقد لا يحدث. أما المراد الكونى فهو الذى يحدث فعلًا. وبذلك يكون ما حدث فى الحرم مرادًا كونيا، وليس مرادًا شرعيا".

أما تعليقه التالى، غفر الله له، على الآية ٩٣ من سورة "النحل": "وَلَكِن يضِلُّ مَن يشَآءُ وَيهْدِى مَن يشَآءُ" فلا أظنه أصاب المرمى. قال: "هذه الآية يقف عندها المتمحِّكون والذين قَصُرَتْ أنظارهم فى فهْم كتاب الله، فيقولون: طالما أن الله هو الذى يضِلّ الناس فلماذا يعذِّبهم؟ ونتعجَّب من هذا الفهم لكتاب الله ونقول لهؤلاء: لماذا أخذتُمْ جانب الضلال وتركتُم جانب الهدى؟ لماذا لم تقولوا: طالما أن الله بيده الهداية، وهو الذى يهدى، فلماذا يدْخِلنا الجنة؟ إذن هذه كلمة يقولها المسرفون لأن معنى "يضِلُّ مَن يشَآءُ وَيهْدِى مَن يشَآءُ" (النحل/ ٩٣) أى يحكم على هذا من خلال عمله

بالضلال، ويحكم على هذا من خلال عمله بالهداية مثلما يحدث عندنا فى لجان الامتحان، فلا نقول: اللجنة أنجحت فلانًا وأرسبت فلانًا. فليست هذه مهمتها، بل مهمتها أن تنظر أوراق الإجابة، ومن خلالها تحكم اللجنة بنجاح هذا وإخفاق ذاك. وكذلك الحق تبارك وتعالى لا يجعل العبد ضالًا، بل يحكم على عمله أنه ضلال وأنه ضَالّ. فالمعنى إذن: يحكم بضلال مَنْ يشاء، ويحكم بهُدَى مَنْ يشاء، وليس لأحد أن ينقلَ الأمر إلى عكس هذا الفهم، بدليل قوله تعالى بعدها: "وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" (النحل/ ٩٣). فالعبد لا يسأل إلا عَمَّا عملتْ يداه، والسؤال هنا معناه حرية الاختيار فى العمل، وكيف تُسْأَل عن شىء لا دَخْل لك فيه؟".

ذلك أن "أضلَّ فلان فلانا" و"هَدَاه" لا تعنيان القول بأنه ضالٌّ ومهتدٍ بل تعنيان إضلاله وهدايته فعلا. وقد قلنا إننا إذا ما نسبنا أى شىء مما نفعله إلى الله فنحن مصيبون، وإذا نسبناه إلى أنفسنا فنحن أيضا مصيبون، تبعا لزاوية الرؤية كما وضحنا آنفا. ولو كان كلام الشيخ فى توجيه معنى صيغتى الفعلين صحيحا لأراح الأجيالَ الماضية من مجادلات واتهامات وصراعات ومعارك كثيرة، ووفر الوقت والجهد والتوتر والأوراق والأحبار التى أنفقت فى ذلك. إنها محاولة حسنة النية لحل المشكلة، لكنها محاولة غير موفقة. نحن نقول: "كفَّر فلانٌ فلانًا أو شيعه أو فسَّقه أو بدَّعه" مثلا، ونقصد أنه نسبه إلى الكفر أو التشيع أو الفسق أو البدعة، أى حكم عليه بذلك. أما "أضلَّ وهَدَى" فلم أسمع بأحد استخدمها فى هذا المعنى، إذ لا تستخدم صيغتا "فَعَلَ" و"أَفْعَلَ" فى الحكم على فلان أو علان بالهدى أو بالضلال. ولعلنا لو قلنا: "هَدَّى فلان فلانا أو ضَلَّله"، بمعنى أنه حكم عليه بالضلال والهدى، يكون الكلام صحيحا.

٣- قضايا أخرى

يقول الشيخ الشعراوى فى تفسيره لبسملة سورة "الفاتحة"، أى فى أول تفسيره للقرآن الكريم: "كان محمد عليه الصلاة والسلام فى غار حراء حينما جاءه جبريل، وكان أول لقاء بين المَلَك الذى يحمل الوحى بالقرآن وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قول الحق تبارك وتعالى: "اقْرَأْ". و"اقرأ" تتطلب أن يكون الإنسان إما حافظا لشيء يحفظه أو أمامه شيء مكتوب ليقرأه. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان حافظا لشيء يقرؤه وما كان أمامه كتاب ليقرأ منه. وحتى لو كان أمامه كتاب فهو أمي لا يقرأ ولا يكتب. وعندما قال جبريل: "اقْرَأْ" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أنا بقارئ". وكان الرسول عليه الصلاة والسلام منطقيا مع قدراته. وتردد القول ثلاث مرات: جبريل عليه السلام، بوحى من الله سبحانه وتعالى، يقول للرسول: "اقْرَأْ"، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما أنا بقارئ". ولقد أخذ خصوم الإسلام هذه النقطة وقالوا: كيف يقول الله لرسوله: "اقرأ"، ويرد الرسول: "ما أنا بقارئ"؟ نقول: إن الله تبارك وتعالى كان يتحدث بقدراته، التى تقول للشيء: "كن" فيكون، بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتحدث ببشريته، التى تقول إنه لا يستطيع أن يقرأ كلمة واحدة.

ولكن قدرة الله هى التى ستأخذ هذا النبى الذى لا يقرأ ولا يكتب لتجعله معلِّما للبشرية كلها إلى يوم القيامة لأن كل البشر يعلمهم بشر، ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم سيعلمه الله سبحانه وتعالى ليكون معلما لأكبر علماء البشر يأخذون عنه العلم والمعرفة. لذلك جاء الجواب من الله سبحانه وتعالى: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ" (العَلَق/ ١ - ٢). أى أن الله سبحانه وتعالى الذى خَلَق من عدم سيجعلك تقرأ على الناس ما يعجز علماء الدنيا وحضارات الدنيا عن أن يأتوا

بمثله، وسيكون ما تقرؤه، وأنت النبى الأمى، إعجازا ليس لهؤلاء الذين سيسمعونه منك فقط لحظة نزوله ولكن للدنيا كلها، وليس فى الوقت الذى ينزل فيه فقط ولكن حتى قيام الساعة. ولذلك قال جل جلاله: "اقْـرَأْ وَرَبُّـكَ الأَكْـرَمُ * الَّـذِى عَلَّـمَ بِالْقَلَمِ"...".

انتهى كلام شيخنا االكريم. وقد أورد هنا، عليه رحمات الله، رواية نزول الوحى لأول مرة على محمد صلى الله عليه وسلم. صحيح أن هناك روايات أخرى عن أول نص قرآنى أُوحِىَ إلى النبى، لكن هذه الرواية التى تتحدث عن الآيات الأولى من سورة "العَلَق" هى صاحبة أكبر قدر من القبول. وفى هذا النص يثير الشيخ الجليل قضية مؤداها: كيف يطلب جبريل من محمد فى أول لقاء بينهما أن يقرأ مع أن محمدا لم يكن يحفظ شيئا فى ذهنه كى يقرأه ولا كان معه كتاب يقرأ منه، وحتى لو كان معه افتراضا هذا الكتاب ما استطاع أن يقرأ منه شيئا لأنه أمى لا يقرأ ولا يكتب؟ ثم يمضى الشيخ فيشير إلى ما يشنّع به أعداء الإسلام على هذه الآية، إذ كيف يطلب جبريل من الرسول أن يقرأ فى حين أنه لا يقرأ؟

ثم انطلق الشيخ يحل الإشكال قائلا ما معناه أن محمدا إذا كان أميا لا يستطيع القراءة فإن قدرة الله لا حدود لها، إذ يكفى سبحانه أن يقول للشىء: "كن"، فيكون. وعلى هذا فقد اختار الله محمدا وجعله نبيا، فكان معلما للدنيا كلها بما فيها علماؤها الكبار فى كل مكان وزمان. وهذا الذى قاله الشيخ هنا هو فى حد ذاته صحيح لا يمكن المماراة فيه، لكنه مع ذلك ليس ردا على السؤال الذى طرحه أعداء الإسلام، ووضحه الشيخ بأن الرسول لم يكن يحفظ فى ذهنه شيئا يمكن أن يقرأه ولا كان معه كتاب يمكن أن يقرأ منه ولا كان يستطيع القراءة أصلا حتى لو كان معه كتاب. فكلامُ الشيخِ الجميلُ إذن لا وشيجة بينه وبين السؤال، إذ هذا موضوع، وذاك موضوع آخر.

أما قوله إن الله يقول للشيء: "كن" فيكون فليس موضعه السياق الذى نحن فيه، وإلا فهل أوجد الله مباشرة فى ذهن الرسول كلاما محفوظا لم يكن له وجود، فقرأه بعدما كان ذهنه فارغا ليس فيه شيء؟ أم هل علَّم الله رسوله بالطريقة ذاتها القراءة والكتابه بعدما كان أميا لا يقرأ ولا يكتب؟ ولكى نقوم نحن بحل ذلك الإشكال يلزمنا أن نعرف ماذا جرى فى أول ظهور الوحى للنبى عليه السلام. جاء فى "السيرة النبوية" لابن هشام عن أول نزول الوحى على رسول الله فى غار حراء: "جاءنى جبريل، وأنا نائم، بنَمَطٍ من ديباجٍ فيه كتاب فقال: اقرأ. قال: قلت: ما أقرأ؟ قال: فغَتَّنى به حتى ظننتُ أنه الموت ثم أرسلنى فقال: اقرأ. قال: قلت: ما أقرأ؟ قال: فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال: اقرأ. قال: قلت: ماذا أقرأ؟ قال فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال: اقرأ. قال: فقلت: ماذا أقرا؟ ما أقول ذلك إلا افتداءً منه أن يعود لى بمثل ما صنع بى. فقال: "اقرأ باسم ربك الذى خَلَق * خَلَق الإنسانَ من عَلَقٍ * اقرأ ورَبُّك الأكرم * الذى عَلَّم بالقلم * علَّم الإنسانَ ما لم يعْلَم". قال: فقرأتها ثم انتهى فانصرف عنى، وهببت من نومى، فكأنما كتبت فى قلبى كتابا. قال: فخرجت حتى إذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل. قال: فرفعت رأسى إلى السماء أنظر، فإذا جبريل فى صورة رجل صافٍّ قدميه فى أفق السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل...".

ففى هذا الاقتباس من السيرة النبوية نعرف أن جبريل كان معه كتاب (فى نمط، أى قماشة، من ديباج)، وهو ما أكده القرآن الكريم حين قال فى سورة "عَبَسَ" عن الوحى: "كلا إنها تَذْكِرَة * فمَنْ شاء ذَكَرَه * فى صُحُفٍ مكرَّمة * مرفوعةٍ مطهَّرَة * بأيدى سَفَرَة * كِرَامٍ بَرَرَة". كما أشار سبحانه فى آيات أخرى إلى الكتاب المكنون الذى لا يمسه إلا المطهرون، وهو القرآن الكريم، وهو نفسه الصحف المطهَّرة التى فيها كتبٌ قيمةٌ حسبما جاء فى سورة "البينة". وبالمثل أشار القرآن إلى صحف إبراهيم وموسى

طبقا لما تقول سورة "الأعلى"، وإلى الألواح التى نزل بها موسى من فوق الجبل بعد خلوة الأربعين يوما التى لقى فيها الله عز وجل وأوحى إليه سبحانه ما أوحى كما ورد فى سورة "الأعراف"، وإلى زُبُر (أى كُتُب) الأولين تبعا لما ذكرته سورة "الشعراء"...

وعلى هذا فثَمَّ وضعٌ آخر غير الوضعين اللذين ذكرهما الشيخ، وهو أن جبريل كان معه كتاب حين طلب من النبى أن يقرأ، ولما أبصر محمد الكتاب حَسِبَ أنه يطلب إليه أن يمسك بالكتاب وأن يقرأ منه، فلذلك قال: ما أنا بقارئ، أو ما أقرأ (سواء كانت نفيا أو استفهاما)، لكن جبريل كان يقصد أنه سوف يقرأ عليه من الكتاب الذى فى يده ويردد الرسول الكلام وراءه ما يقرأ بعد أن يكون قد انطبع فى ذاكرته الكريمة التى طمأنه الله فى سورة "الأعلى" بأنها لن تنسى شيئا مما ينزل عليه من وحى. هذا هو حل الإشكال، الذى لا معنى لإثارته الآن من قبل خصوم الإسلام بعدما وضحنا الأمر كله من مختلف جوانبه.

ولربما قال أعداء الإسلام ما قالوا وفى ذهنهم رد قابيل على ربه بعدما قتل أخاه هابيل حسبما جاء فى الإصحاح الرابع من سفر "التكوين" من الكتاب المقدس، إذ نقرأ فيه عن تلك الحادثة: "٨وَكَلَّمَ قَايِينُ هَابِيلَ أَخَاهُ. وَحَدَثَ إِذْ كَانَا فِي الْحَقْلِ أَنَّ قَايِينَ قَامَ عَلَى هَابِيلَ أَخِيهِ وَقَتَلَهُ. ٩فَقَالَ الرَّبُّ لِقَايِينَ: «أَيْنَ هَابِيلُ أَخُوكَ؟» فَقَالَ: «لاَ أَعْلَمُ! أَحَارِسٌ أَنَا لأَخِي؟»"، فتصور الأغبياء أن محمدا، حين رد على جبريل نافيا أنه يقرأ أو مستفسرا عَمَّ يقرأ، كان يجرى على هذا الأسلوب الجلف الذى أجاب به قابيل ربه سبحانه وتعالى طبقا لما حكاه الكتاب المقدس.

ذلك أن الله فى الكتاب المقدس ليس هو الله الذى نعرفه فى الإسلام. فها هو ذا يعقوب مثلا يدخل مع الله فى مصارعة ويكتِّفه تكتيفة صعبة لم يستطع سبحانه أن يتفلفص منها إلا بضربه ضربة شديدة على حُقّ فخذه آلمته وجعلته يطلق سراح الله منشغلا بما شعر به من ألم لشدة الضربة: "٢٢ثُمَّ قَامَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَأَخَذَ امْرَأَتَيْهِ

وَجَارِيَتَيهِ وَأَوْلاَدَهُ الأَحَدَ عَشَرَ وَعَبَرَ مَخَاضَةَ يبُّوقَ. ٢٣أَخَذَهُمْ وَأَجَازَهُمُ الْوَادِى، وَأَجَازَ مَا كَانَ لَهُ. ٢٤فَبَقِى يعْقُوبُ وَحْدَهُ، وَصَارَعَهُ إِنْسَانٌ حَتَّى طُلُوعِ الْفَجْرِ. ٢٥وَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لاَ يقْدِرُ عَلَيهِ، ضَرَبَ حُقَّ فَخْذِهِ، فَانْخَلَعَ حُقُّ فَخْذِ يعْقُوبَ فِى مُصَارَعَتِهِ مَعَهُ. ٢٦وَقَالَ: «أَطْلِقْنِى، لأَنَّهُ قَدْ طَلَعَ الْفَجْرُ». فَقَالَ: «لاَ أُطْلِقُكَ إِنْ لَمْ تُبَارِكْنِى». ٢٧فَقَالَ لَهُ: «مَا اسْمُكَ؟» فَقَالَ: «يعْقُوبُ». ٢٨فَقَالَ: «لاَ يدْعَى اسْمُكَ فِى مَا بَعْدُ يعْقُوبَ بَلْ إِسْرَائِيلَ، لأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ وَقَدَرْتَ». ٢٩وَسَأَلَ يعْقُوبُ وَقَالَ: «أَخْبِرْنِى بِاسْمِكَ». فَقَالَ: «لِمَاذَا تَسْأَلُ عَنِ اسْمِى؟» وَبَارَكَهُ هُنَاكَ.

٣٠فَدَعَا يعْقُوبُ اسْمَ الْمَكَانِ «فَنِيئِيلَ» قَائِلًا: «لأَنِّى نَظَرْتُ اللهَ وَجْهًا لِوَجْهٍ، وَنُجِّيتْ نَفْسِى». ٣١وَأَشْرَقَتْ لَهُ الشَّمْسُ إِذْ عَبَرَ فَنُوئِيلَ وَهُوَ يخْمَعُ عَلَى فَخْذِهِ. ٣٢لِذلِكَ لاَ يأْكُلُ بَنُو إِسْرَائِيلَ عِرْقَ النَّسَا الَّذِى عَلَى حُقِّ الْفَخْذِ إِلَى هذَا الْيوْمِ، لأَنَّهُ ضَرَبَ حُقَّ فَخْذِ يعْقُوبَ عَلَى عِرْقِ النَّسَا".

ومن ذلك الوادى أيضا رَدُّ موسى على ربه حين أخبره أنه سوف يتخذه رسولا ويبعث به إلى فرعون، إذ تجاوز الخطوط التى لا يمكن تجاوزها مع الله فناداه قائلا: "استمعْ أيها السيد"، وقال له فى غضب وتمرد: "أَرْسِلْ بيد من تُرْسِل"، ومعناه "أنت حر. افعل ما شئت، فهذا الأمر لا يهمنى من بعيد أو قريب": "١٠فَقَالَ مُوسَى لِلرَّبِّ: «اسْتَمِعْ أَيهَا السَّيدُ، لَسْتُ أَنَا صَاحِبَ كَلاَمٍ مُنْذُ أَمْسِ وَلاَ أَوَّلِ مِنْ أَمْسِ، وَلاَ مِنْ حِينِ كَلَّمْتَ عَبْدَكَ، بَلْ أَنَا ثَقِيلُ الْفَمِ وَاللِّسَانِ». ١١فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «مَنْ صَنَعَ لِلإِنْسَانِ فَمًا؟ أَوْ مَنْ يصْنَعُ أَخْرَسَ أَوْ أَصَمَّ أَوْ بَصِيرًا أَوْ أَعْمَى؟ أَمَا هُوَ أَنَا الرَّبُّ؟ ١٢فَالآنَ اذْهَبْ وَأَنَا أَكُونُ مَعَ فَمِكَ وَأُعَلِّمُكَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ». ١٣فَقَالَ: «اسْتَمِعْ أَيهَا السَّيدُ، أَرْسِلْ بِيدِ مَنْ تُرْسِلُ». ١٤فَحَمِى غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى مُوسَى وَقَالَ: «أَلَيسَ هَارُونُ اللاَّوِى أَخَاكَ؟ أَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ هُوَ يتَكَلَّمُ، وَأَيضًا هَا هُوَ خَارِجٌ لاسْتِقْبَالِكَ. فَحِينَمَا يرَاكَ يفْرَحُ بِقَلْبِهِ، ١٥فَتُكَلِّمُهُ وَتَضَعُ الْكَلِمَاتِ فِى فَمِهِ، وَأَنَا أَكُونُ مَعَ فَمِكَ وَمَعَ فَمِهِ، وَأُعْلِمُكُمَا مَاذَا

تَـصْنَعَانِ. ١٦وَهُـوَ يكَلِّـمُ الـشَّعْبَ عَنْـكَ. وَهُـوَ يكُـونُ لَـكَ فَـمًا، وَأَنْـتَ تَكُـونُ لَـهُ إِلهًا. ١٧وَتَأْخُذُ فِي يدِكَ هذِهِ الْعَصَا الَّتِي تَصْنَعُ بِهَا الآياتِ»".

والآن تعالَوْا نقرأ هذه القصة فى القرآن المجيد ونقارن بينها وبين الطريقة التى قصها الكتاب المقدس بها، ولسوف نجد موسى فى القصة القرآنية يعرف مقام ربه وحدوده معه ويصغى إليه ويطلب منه العون وينصاع لما يؤمر به، فقلبه عامرٌ بالإيمان والتقوى ومدركٌ لحجمه أمام خالقه عز وجل: "وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلا يصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦) وَمَا تِلْكَ بِيمِينِكَ يا مُوسَى (١٧) قَالَ هِي عَصَاي أَتَوَكَّأُ عَلَيهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِي حَيةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى (٢١) وَاضْمُمْ يدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيضَاءَ مِنْ غَيرِ سُوءٍ آيةً أُخْرَى (٢٢) لِنُرِيكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَي نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسَى (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَينَا إِلَى أُمِّكَ مَا يوحَى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيمِّ فَلْيلْقِهِ الْيمُّ بِالسَّاحِلِ يأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيتُ عَلَيكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَينِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَي تَقَرَّ عَينُهَا وَلا

تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يا مُوسَى (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤) قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨)".

وعند تناول شيخنا الكريم تفسير قوله سبحانه فى "الفاتحة": "اهدنا الصراط المستقيم" يقول: "بعد أن آمنتَ بالله سبحانه وتعالى إلهًا وربًّا واستحضرتَ عطاء الألوهية ونِعَم الربوبية وفيوضات رحمة الله على خلقه وأعلنتَ أنه لا إله إلا الله، وقولك: "إياكَ نَعْبُدُ"، أى أن العبادة لله تبارك وتعالى لا نشرك به شيئا ولا نعبد إلا إياه، وأعلنتَ انك ستستعين بالله وحده بقولك: "وَإِياكَ نَسْتَعِينُ"، فإنك قد أصبحت من عباد الله. ويعلمك الله سبحانه وتعالى الدعاء الذى يتمناه كل مؤمن. وما دمتَ من عباد الله، فإن الله جل جلاله سيستجيب لك مصداقا لقوله سبحانه: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ" (البقرة/ ١٨٦). والمؤمن لا يطلب الدنيا أبدا. لماذا؟ لأن الحياة الحقيقية للإنسان فى الآخرة: فيها الحياة الأبدية والنعيم الذى لا يفارقك ولا تفارقه. فالمؤمن لا يطلب مثلا أن يرزقه الله مالا كثيرًا ولا أن يمتلك عمارة مثلا لأنه يعلم أن كل هذا وقتى وزائل، ولكنه يطلب ما ينجيه من النار ويوصله الى الجنة".

ولكن لمن يترك المؤمن الدنيا ما دام لا ينبغى له أن يدعو الله بالمال والصحة والقوة؟ بطبيعة الحال سيتركها لأعداء الإسلام، فيتسيدونها قوةً وصحةً وارتفاعَ مستوى معيشةٍ وتقدمًا علميا ورُقِيا اقتصاديا وسيادةً فى الأرض، ونطلع نحن من المولد

بلا حمص، ولا عزاء للأغرار السُّذَّج. وهل يريد أعداء الله منا أفضل من هذا؟ أذكر فى هذا السياق ما سمعناه من قول علماء الدين فى بعض بلاد المسلمين إن الله قد سخَّر لنا الغربيين كى يخدمونا فى أمور الدنيا حتى نتفرغ نحن للآخرة. وهو ما أثار سخريتى من ثعلبية هؤلاء المسمَّين: "علماء الدين"، وما هم بعلماء ولا متدينين، أو من غبائهم وتنطعهم. ألا يعرفون أن أولئك الغربيين، لتفوقهم فى أمور الدنيا، قد أحرزوا السيادة والقوة والقدرة والسلطان فى كل شؤون الحياة، وأغراهم هذا بالاعتداء علينا وشن الحروب المبيرة ضدنا، أو تهديد من معه مال غزير من دولنا بالدفع أو السحق والإذلال، فترى حكام تلك الدول يدفعون مئات المليارات ولا يفتحون أفواههم بأنينٍ، فضلا عن كلمة اعتراض لأنهم يعلمون عواقبها؟ فيا لها من مذلة وحقارة أوقعَنا فيها الكلامُ السخيفُ عن وجوب النفور من الدنيا والزهد فيها، وكأن المسلمين الآن يتمرغون فى نعيمها المرفه ولا يعرفون كيف ينفقون أموالها الطائلة من كثرة زيادة تلك الأموال على حاجاتهم وفيضانها فى أيديهم حتى لتكاد تغرقهم وتخنقهم. خيبة ما بعدها خيبة!

ثم لماذا خلق الله الدنيا وامتنَّ بها على عباده المؤمنين الصالحين إذا كانت الدنيا شرا ووبالا ولا قيمة لها على الإطلاق، وينبغى أن نفر منها فرار السليم من الأجرب والأبرص؟ لماذا كل تلك الآيات القرآنية التى تتحدث عن الرزق المبثوث فى الأرض والسماء إذا كان المطلوب منا نبذه وإدارة ظهورنا له؟ هل المراد فقع مصاريننا بتحنيسنا بمتع الدنيا ومطالبتنا فى ذات الوقت ألا نمد أيدينا بل ولا عيوننا إليها؟

لنقرأ النصوص التالية، وهى مجرد عينة صغيرة: "يا أَيها الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِياهُ تَعْبُدُونَ" (البقرة/ ١٧٢)، "وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيتُونَ وَالرُّمَّانَ

مُشْتَبِهًا وَغَيرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَينْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يؤْمِنُونَ" (الأنعام/ ٩٩)، "يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خَالِصَةً يوْمَ الْقِيامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يعْلَمُونَ (٣٢)" (الأعراف)، "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَينِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)" (إبراهيم)، "وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) ينْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيةً لِقَوْمٍ يتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيةً لِقَوْمٍ يذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَنْ يخْلُقُ كَمَنْ لَا يخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)" (النحل)، "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً

وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يكْفُرُونَ" (النحل/ ٧٢)، "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١)" (النحل)، "وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرًا" (الأحزاب/ ٢٧)، "لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥)... وَجَعَلْنَا بَينَهُمْ وَبَينَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيرَ سِيرُوا فِيهَا لَيالِي وَأَيامًا آمِنِينَ (١٨)" (سبأ)، "وَآيةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيتَةُ أَحْيينَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيونِ (٣٤) لِيأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيدِيهِمْ أَفَلَا يشْكُرُونَ (٣٥)" (يس)، "أَفَلَمْ ينْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيفَ بَنَينَاهَا وَزَينَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَينَا فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيينَا بِهِ بَلْدَةً مَيتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١)" (ق)، "أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَينَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)" (النبا)، "فَلْينْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨)

وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢)" (عَبَسَ).

ولماذا كان الرسول يوزع الغنائم والأنفال على صحابته كلما انتصروا فى حرب على أعدائهم؟ أليست أموال الأنفال والغنائم والجزية من صميم صميم الدنيا؟ لقد كان الأحرى ألا يهتم المسلمون أصلا بها، أو على الأقل: أن يجمعوها بعد الحرب ويكوموها كومة واحدة ثم يضرموا فيها النار حتى يتخلصوا من شرها وإغرائها الذى يمكن أن يحرفهم عن الآخرة. أليس كذلك؟

وإذا كانت الدنيا سيئة قبيحة فلماذا نوزع الصدقات والزكوات على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والمحتاجين؟ كان الأقمن ألا نشغل أنفسنا بفقر أو فقراء ولا بحاجة أو محتاجين بل نتركهم دون أن نعينهم على النجاح فى التعامل مع دنيا كريهة ملعونة بل وأن نتخلص نحن القادرين الأغنياء أيضا مما فى أيدينا من مال حتى نكون نحن وهُمْ فى الهوا سوا من حيث كراهة الدنيا والانصراف عنها وعن مغرياتها من مال وصحة وقوة وزوجات وأبناء وممتلكات.

وإذا كانت الدنيا قبيحة، ومن واجبنا الفرار منها، فلماذا حرص الإسلام على أن يضع قواعد لتوزيع المواريث على الأولاد والأقارب؟ لقد كان ينبغى أن يقال للمسلمين إن الأموال التى تركها ميتكم إنما هى مجرد لُعَاعَة من لعاعات تلك الجيفة المنتنة الملعونة المسماة بـ"الدنيا"، فإياكم أن تمدوا أيديكم إليها، بَلْهَ أن تتخاصموا بسببها وتذهبوا إلى المحاكم وتضيعوا وقتكم وجهدكم فى سبيل ذلك العفن والنتن؟

ثم كيف نفهم نَهْيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك الصحابى الذى كان ينوى أن يتبرع فى سبيل الله بماله كله عن وضع نيته موضع التنفيذ، وإفهامَه إياه أنه يكفيه التبرع بالثلث، والثلث أيضا كثير لأنه من الأفضل أن يترك ورثته أغنياء بدلا من أن يتركهم عالة يمدون أيديهم إلى الناس؟ ترى هل كان الرسول يعطى الدنيا من

الاعتبار ما لا تستحق؟ ولماذا أمر رسول الله عليه السلام المسلمين بالبحث عن الدواء لكل داء والتداوى به من المرض؟ ألم يكن المنطقى أن يقول لهم: إن المرض نعمة جاءتكم دون سعى منكم حتى تخرجوا من الدنيا التافهة القبيحة الشريرة إلى الآخرة بسهولة وسرعة وترتاحوا منها ومن وجع دماغها؟

بل لماذا التعب أصلا لإقامة مجتمع إسلامى، ونحن نعرف أن هذا المجتمع سيكون جزءا من الدنيا الفانية التى لا قيمة لها والتى لا ينبغى أن نمد أعيننا ولا أيدينا نحوها؟ لماذا لم يقَل للمسلمين: لا لزوم لتعب القلب فى هذه الدنيا أساسا، وليلزم كل منكم كسر بيته أو فليسند ظهره المتعب إلى حائط فى الشارع ويترك الذباب والهباب يحطان عليه ويتراكمان حتى يحين حَينُه وينتقل إلى الآخرة غير مأسوف عليه بل مشيعا بالبهجة والفرحة أنْ كتب الله له هذه النعمة قبل سواه؟

نعم لماذا إقامة مجتمع إسلامى وتشريع قوانين تحمى المظلوم من الظالم، والمسروق من السارق، والمقتول من القاتل، والمغتصَب ممن يغتصب أمواله وبيته وأولاده وزوجته إذا كان هذا كله من أمور الدنيا، والمسلم يجب عليه ألا يهتم بها أو بما فيها ويركز عقله وقلبه فى الآخرة، والآخرة فقط؟ أليس هذا تضييع وقت ومَطًّا وتطويلا لزمن الدنيا، والمفروض أن نقصِّرها بكل ما نستطيع أو نتركها تنتهى بطريقتها دون تدخل منا فى ذلك؟

ألم يقل الرسول إن "مَنْ قُتِلَ دُونَ مالِهِ فهوَ شَهيدٌ، ومَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فهوَ شَهيدٌ، ومَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فهوَ شَهيدٌ، ومَنْ قُتِلَ دُونَ أهلِهِ فهوَ شَهيدٌ"؟ هل أخطأ الرسول، أستغفر الله، فحثنا على الدفاع عن أموالنا ودمائنا وأهلينا، وهذا كله دنيا فى دنيا؟ ألم يقل عليه السلام أيضا: "ثلاثةٌ من السَّعادةِ: المرأةُ الصَّالحةُ تراها تعجبُك وتغيبُ فتأمنُها على نفسِها ومالِك، والدَّابَّةُ تكونُ وطيئةً فتُلْحِقُك بأصحابِك، والدَّارُ تكونُ واسعةً كثيرةَ المرافقِ. وثلاثٌ من الشَّقاءِ: المرأة تراها فتسوؤك وتحملُ لسانَها

عليك، وإن غبتَ عنها لم تأمَنْها على نفسِها ومالِك، والدَّابَّةُ تكونُ قَطُوفًا: فإن ضربتَها أتعبتْك، وإن تركتَها لم تُلحِقْك بأصحابِك، والدَّارُ تكونُ ضيقةً قليلةَ المرافقِ"؟ أليست هذه الأشياء من صميم الدنيا؟

ولنقرأ هذا الحديث أيضا عن ابن العاص، الذى يحكى كيف قال له النبى ذات يوم: "خُذْ عليكَ ثيابَكَ وسلاحَكَ ثمَّ ائتِنى. فأتيتُهُ وَهوَ يتوضَّأُ فصَعَّدَ فِى النَّظَرِ ثمَّ طَأطَأَهُ فقالَ: إنِّى أريدُ أن أَبعثَكَ على جَيشٍ فيسَلِّمكَ اللَّهُ ويغَنِّمكَ، وأرغَبُ لَكَ منَ المالِ رَغبةً صالِحةً. قال: قُلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، ما أسلَمتُ من أجلِ المالِ، ولَكِنِّى أسلَمتُ رغبةً فى الإسلامِ وأن أكونَ معَ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ. فقالَ: يا عَمْرُو، نِعْمَ المالُ الصَّالحُ للمرءِ الصَّالحِ"؟ أوَلو كانت الدنيا تافهة ولا قيمة لها ولا اعتبار، أكان الرسول يتكلم عن المال على هذا النحو؟ أليس رسولنا الكريم هو القائل: "إنَّ الدُّنيا حُلْوةٌ خَضِرةٌ، فمَن أخَذها بحقِّها بُورِك له فيها"؟ ثم لماذا غرس الله حب المال والدنيا فى نفوسنا؟ ألكى يعذبنا طول الوقت بالتعرض لإغراءاتها التى لا يمكن أحدا الإفلات منها ثم مطالبتنا رغم هذا بمحاولة المستحيل، وهو إدارة ظهرنا تماما لها وعدم التفكير فيها؟ كيف بالله؟ أيريد الله منا أن نعيش عيشة الحرمان والمقاساة ويعيش الكافرون عيشة الراحة والنعمة؟ لقد كان أحرى بالرسول، لو كان الأمر كذلك، أن يشجع على البقاء فى المسجد ذلك الصحابى الذى لا ينصرف عن بيت العبادة بعد الصلاة اعتمادا على جَرْى أخيه عليه، وذلك بدلا من أن يقول له: أخوك أعبد منك. أليس هذا ما يقول به العقل والمنطق؟

وانظر كذلك إلى الحديث التالى، وفيه يبشر رسول الله المسلمين بأنهم سوف يفتحون فارس ويكون من نصيبهم كنوز كسرى، ويمتنّ الله تعالى على عبده يوم القيامة بأنه أكرمه فى الدنيا بالمال والولد. فلو كان على المسلم أن يدير ظهره للدنيا، وأهم ما فيها المال والبنون، أكان الرسول يبشر المسلمين بكنوز كسرى ويمتن الله على عبده بها

وهبه من مال وبنين؟ قال عَدِيٌّ بن حاتم: "بينا أنا عند النبى صلَّى الله عليه وسلَّم إذ أتاه رجلٌ فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل، فقال: يا عدى، هل رأيت الحيرة؟ قُلْت: لم أرها، وقد أُنْبِئْتُ عليها. قال: فإن طالت بك الحياة لـتَرَينَّ الظعينةَ ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله (قُلْتُ فيما بينى وبين نفسى: فأين دُعَّار طيئ الذين قد سعروا فى البلاد؟). ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى. قُلْتُ: كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى بن هرمز. ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يُخْرِج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله فلا يجد أحدًا يقبله منه. وليلقين الله أحدكم يومَ يلقاه، وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فيقولنّ: ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أعطك مالا وولدا وأُفْضِل عليك؟ فيقول: بلى. فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم... قال عدى: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنتُ فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم الحياة لتَرَوُنَّ ما قال أبو القاسم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم".

وفى الحديث التالى أيضا تبشير نبوى للمسلمين، أيام قلة ما فى أيديهم من مال وطعام، بفتح فارس والحصول على كنوز كسرى: "أُهْدِى إلى رسولِ اللهِ شاةٌ، والطعامُ يومئذٍ قليلٌ، فقال لأهلِهِ: أَصلِحُوا هذه الشَّاةَ، وانظُروا إلى هذا الخُبْزِ فأَثْرِدوا واغْرِفوا عليهِ. وكانتْ للنَّبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَصْعَةٌ يقالُ لها: "الغَرَّاءُ" يحمِلُها أربعةُ رجالٍ، فلمَّا أَصبَحوا وسَجَدوا الضُّحَى أُتِى بتلكَ القَصْعةِ، فالْتَفُّوا عليها، فلمَّا كثُروا جَثَا رسولُ اللهِ، فقال أعرابى: ما هذهِ الجِلْسةُ؟ قال: إنَّ اللهَ جعَلَنى عبدًا كريمًا، ولم يجْعَلْنى جبَّارًا عَصِيا. كُلُوا مِن جَوانِبِها، ودَعُوا ذِرْوتَها يبارَكْ فيها. ثم قال: خُذوا كُلُوا. فوالَّذى نفْسُ محمَّدٍ بيدِهِ لتُفْتَحَنَّ عليكُم فارِسُ والرُّومُ حتَّى يكثُرَ الطَّعامُ فلا يذْكَرُ عليه اسمُ اللهِ".
ولنقرأ هذا الحديث أيضا: لا تقومُ السَّاعةُ حتَّى تكْثُرَ فيكم الأموالُ وتفيضَ حتَّى يهِمَّ

ربَّ المـالِ مَن يقبَلُ منه صدقتَه وحتَّى يعرِضَه ويقولَ الَّذى يعرَضَ عليه: لا أرَبَ لى فيه".

وهذا صحابى يطلب من النبى صلى الله عليه وسلم أن يدعو لقبيلته الله أن يغيثهم بالمـاء حتى يشربوا ويرْوُوا زرعهم. فهل قال النبى إنه لا يصح أن يدعو الله بتحقيق أمر من أمور الدنيا طبقا لكلام الشيخ الشعراوى؟ أبدا، بل استجاب له عن طيب خاطر ودعا الله واستجاب له العلى العزيز استجابة بلغت الغاية فى الكرم. فعن أنس بن مالك "أنَّ رجلًا دخَلَ المسجِدَ يومَ الجمعَةِ من بابٍ كانَ نحوَ دارِ القضاءِ، ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ قائِمٌ يخطُبُ، فاستقبَلَ رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ قائمًا ثم قالَ: يا رسولَ اللهِ، هلكَتْ الأموالُ وانقطَعَتْ السبلُ، فادْعُ اللهَ يغِيثُنا. فرفَعَ رسولُ اللهِ صلَى اللهُ عليهِ وسلمَ يدَيهِ ثمَّ قالَ: اللَّهمَّ أغَثْنَا، اللَّهمَّ أغِثْنَا، اللَّهمَّ أغِثْنَا. قالَ أنسٌ: ولا واللهِ ما نَرَى فى السماءِ من سحابٍ ولا قَزَعَةٍ، وما بينَنَا وبينَ سَلْع من بيتٍ ولا دَارٍ. قالَ: فطَلَعَت من ورائِهِ سحَابَةٌ مثلُ التُّرْسِ، فلـمَّا تَوَسَّطَتْ السماءَ انتَشَرَت ثم أمْطَرَتْ. فلا واللهِ ما رأينَا الشمسَ ستًّا. ثمَّ دَخَلَ رجلٌ من ذلكَ البابِ فى الجمعَةِ (يعنى الثَّانِيَة)، ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ قائِمٌ يخْطُبُ، فاسْتَقْبَلَهُ قائِمًا، فقالَ: يا رسولَ اللهِ، هلَكت الأموالُ، وانقَطَعَتْ السُّبُلُ، فادْعُ اللهَ يمسِكُهَا عنَّا. قالَ: فرفَعَ رسولُ اللهِ يدَيهِ ثمَّ قالَ: اللَّهمَّ حَوَالَينَا ولا عَلَينَا، اللَّهمَّ علَى الآكَامِ والظِّرَابِ وبطونِ الأوديةِ ومنَابِتِ الشجَرِ. قالَ: فأَقْلَعَتْ، وخَرَجْنَا نمشِى فى الشمسِ".

وانظر إلى الحديث التالى وما فيه من دلالة على أن الأموال نعمة طيبة تعين على عمل الصالحات: "جاء الفقراءُ إلى النبى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالوا: ذهب أهلُ الدُّثورِ منَ الأموالِ بالدرجاتِ العُلَا والنعيمِ المقيمِ: يصلّون كما نُصلّى، ويصومونَ كما نصومُ، ولهم فضلٌ من أموالٍ يحجُّونَ بها ويعتمِرونَ، ويجاهدونَ ويتصدَّقونَ. قال: ألا أُحدِّثُكمْ بأمرٍ إن أخذتُمْ بهِ أدركْتُم مَنْ سبقَكمْ، ولم يدرككُمْ أحدٌ بعدَكُم، وكنتُمْ خيرَ مَنْ أنتمْ

بينَ ظَهْرانَيهِ إلا مَن عَمِلَ مثلَهُ ؟ تُسبِّحونَ وتحمِّدونَ وتكبِّرونَ خلفَ كلِّ صلاةٍ ثلاثًا وثلاثينَ".

وإليك هذا الحديث أيضا: "إنَّما الدُّنيا لأربعةِ نفرٍ: عبدٍ رزقَهُ اللَّهُ مالًا وعِلمًا فَهوَ يتَّقي فيهِ ربَّهُ، ويصلُ فيهِ رحمَهُ، ويعلمُ لهُ فيهِ حقًّا، فَهَذا بأفضلِ المَنازلِ، وعبدٍ رزقَهُ اللَّهُ علمًا ولم يرزقهُ مالًا فَهوَ صادقُ النِّيةِ يقولُ: "لَو أنَّ لي مالًا لعَمِلْتُ بعملِ فلانٍ"، فَهُوَ بنيتِهِ، فأجرُهُما سواءٌ، وعبدٍ رزقَهُ اللَّهُ مالًا ولم يرزقهُ علمًا، يخبطُ في مالِهِ بغيرِ علمٍ ولا يتَّقي فيهِ ربَّهُ ولا يصلُ فيهِ رحمَهُ ولا يعلمُ للَّهِ فيهِ حقًّا، فَهَذا بأخبثِ المَنازلِ، وعبدٍ لم يرزقْهُ اللَّهُ مالًا ولا عِلمًا فَهوَ يقولُ: "لَو أنَّ لي مالًا لعَمِلْتُ فيهِ بعملِ فلانٍ"، فَهوَ بنيتِهِ، فَوِزْرُهما سَواءٌ".

وفي الآية ٥٢ من سورة "هود" يغري هود عليه السلام قومه بأنهم إذا استجابوا لدعوته واستغفروا ربهم وتابوا إليه يرسل السماء عليهم مدرارا ويزيدهم قوة على قوة: "وَيا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيهِ يرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيكُمْ مِدْرَارًا وَيزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢)". أليس هذان الأمران اللذان وعدهم بهما هود هما من حظوظ الدنيا؟

ثم ألم يقل القرآن في سورة "البقرة" تمثيلا لمن ينفقون أموالهم في سبيل الله: "وَمَثَلُ الَّذِينَ ينْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَينِ فَإِنْ لَمْ يصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) أَيوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يبَينُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)"؟ أليس معنى هذا أن الجنة (أي الحديقة) الجميلة الخصبة الكثيرة الثمر نعمة عظيمة يمتن الله بها علينا ويصورها لنا على أنها مما يحَبّ ويطْلَب، وأن فقدان مثل تلك الحديقة هو مصيبة تبعث على الحزن ولا

يمكن أن يطلبها الإنسان لنفسه أو لأولاده أبدا؟ فكيف إذا كانت الدنيا قبيحة وينبغى النفور والهروب منها؟

ألم يمتنّ الله على داود بأنه آتاه الملك والحكمة؟ وهل الملك إلا السيطرة فى الدنيا وعلى الدنيا؟ ألم يتزوج الأنبياء ويتألم منهم من مات أو ضاع له ولد؟ هل أخطأ يعقوب عندما بكى طويلا حتى ابيضت عيناه من الحزن على فقدان يوسف؟ هل ارتكب موسى خطيئة حين فر من قوم فرعون عقب تحذير أحدهم له من الاغتيال جراء قتله مصريا على سبيل الخطإ؟ أم هل ارتكب خطيئة حين عبر عن خوفه لربه من أن يقتله فرعون إثر إبلاغه سبحانه وتعالى إياه أنه اختاره رسولا إلى عاهل مصر؟ أليس الخوف على الحياة فى الحالين أمرا من أمور الدنيا؟ هل غلط نبينا لما انتابه من ألم على موت صغيره إبراهيم؟ ألم يأْسَ النبىُّ أَسًى شديدًا على وفاة خديجة حتى لقد سُمِّىَ العام الذى ماتت فيه هى وأبو طالب: عام الحزن؟ هل أخطأ عليه السلام حين هاجر سرا ولجأ إلى الحيلة وضلل المشركين حتى استطاع أن يفلت من أيديهم وينجو ويصل إلى يثرب سالما غانما لم يصبه سوء؟ هل كان عليه بدلا من ذلك أن يمكِّن قريشا من رقبته حتى يبرهن أنه ليس على الدنيا من الحريصين؟ ألم يطلب يوسف من مَلِك مصر أن يوَلِّيه خزائن الأرض؟ سيقال: إنه أراد إشاعة العدل والرحمة والتخفيف عن الناس. وهذا هو ما أريد قوله، إذ لو كانت الدنيا شيئا سيئا لأمرنا الله ورسوله أمرا حاسما جازما ألا نبالى بها أدنى بالة وأن نعطيها ظهورنا ولا نعمل شيئا لتحسينها بل ننتظر الموت فقط حتى نبلغ الآخرة سريعا، ويا حبذا لو أخذنا زمام المبادرة وانتحرنا، ويا بخت من زار وخَفَّف؟

ثم لماذا نذهب بعيدا، وها هو ذا القرآن فى سورة "البقرة" يقول عن أدعية الحجيج فى نهاية الحج: "فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ

مَنْ يقُولُ رَبَّنَا آَتِنَا فِى الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِى الْآَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)". وواضح من الآيات أن من يدعون ربهم بأن يرزقهم فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة هم من المؤمنين المخلصين. فهل منعهم إخلاصهم من طلب حسنات الدنيا؟ وهل يستطيع بشر كائنا من كان أن يرفض الدنيا رفضا باتا؟ أرونى هذا الإنسان من فضلكم. ترى هل إذا دعا الطالب ربه أن يأخذ بيده وينجِّحه فى الامتحان يكون ضعيف الإيمان متعلقا بالدنيا الفانية؟ فماذا عليه أن يفعل يا ترى؟ هل يبتهل إلى الله أن يرَسِّبه حتى يثبت أنه لا يبالى بالدنيا وأنها لا تساوى فى نظره جناح بعوضة؟ وهل إذا رفع المريض أَكُفّ الضراعة نحو السماء راجيا الشفاء يكون فى إيمانه دَخَلٌ؟ فما المطلوب إذن منه كى يبرهن أنه مؤمن صلب اليقين؟ أيجب عليه الدعاء بأن يقصف الله عمره حتى يعرف الناس أنه فى الدنيا وطول العمر من الزاهدين؟ وهل إذا رجا الفلاح ربه أن يكثِّر محصول زرعه يكون هش الدين؟ فماذا يفعل يا ترى حتى يدلل على قوة دينه وإيمانه؟ أيطلب من ربه ويلح فى الطلب أن تفشل أرضه فى إعطاء أى محصول وأن يمن الله عليه بإلحاقه بطائفة الشحاتين فنعلم من ثم أنه ليس من عشاق الدنيا الفانية؟

إن كثيرا من الوعاظ والخطباء الشعبيين يستهويهم عَزْف هذه النغمة، فتجد الواحد منهم وقد علا صراخه كأنه يحارب جيوش الأعداء محذرا الناس من الدنيا الغرور الكذابة التى تردى من يطلب خيراتها فى مهاوى الجحيم، ومستمعوه يمصمصون شفاههم مؤمِّنين على ما يقول لفظا بينما قلوبهم فى عالم الدنيا مشغولة بتدبير المؤامرات بعضهم لبعض. فهو يضحك على نفسه وعليهم لأنه أول من يكذِّب بما يقول، وهم يضحكون عليه بمصمصة شفاههم وانشغالهم فى الوقت نفسه بالدنيا والتفكير فيها والحسرة على قلة نصيبهم منها بسبب كسلهم وبلادتهم وعدم استقامة طرقهم. وهذا الواعظ الشعبى، بغبائه وعدم فهمه وغياب وعيه، لا يتنبَّه إلى أن هذا هو

بالضبط ما يريده أعداؤنا حتى نظل فى فقر وتخلف ومرض ومذلة ويستمتعوا هم بما جَنَوْه وما زالوا يجنونه من خيرات هذا الدنيا الغرور الكذابة منذ الكشوف الجغرافية والنهضة الحديثة التى أسقطت فى حجورهم نعيم قارتين كاملتين زيادة على خيرات بلادنا والبلاد الأخرى التى احتلوها وامتصوا نعيمها كاملا وتركونا نقشِّر بصلا ونردد فى عَتَهٍ وبلاهةٍ أن الدنيا ملعونة بنت ملاعين. فهنيئا لنا ما نحن فيه من فقر وتخلف وضعف ومذلة، وليذهب الغربيون بالخير كله فى الدنيا، ونخسر نحن الدنيا والآخرة معا لأن من يفشل فى الدنيا ويتوانى عن الجهاد والتفوق وبلوغ منازل الكرامة فيها لن يكون له حظ فى الآخرة، إذ إن هذه الغَرُور الكذابة هى البوابة التى ندخل منها إلى نعيم الطيبة بنت الناس الطيبين المسماة بـ"الجنة".

والآن تعالوا لنرى ماذا قال الشيخ الكريم فى تفسير هذه الآيات. قال رحمه الله: "يلْفِتُنا الحقُّ... إلى أن الإنسان إذا ما قضى المناسك كان أهلا لأن يضرع إلى الله ويسأل الله بما يجب أن يسأله. والسؤال لله يختلف باختلاف همة السائلين، وكانوا لا يسألون الله إلا قائلين: يا رب، أعطنى إبلًا، يا رب أعطنى غنمًا، يا رب أعطنى بقرًا، ويا رب أعطنى حائطًا، أى بستانًا، يا رب كما أعطيتَ أبى أعطنى. ولم يكن فى بالهم إلا الأمور المادية، وأراد الله أن يجعلهم يرتفعون بالمسألة لله، وأن يصَعِّدُوها إلى شىء أخلد وأبقى وأنفع، ومن هنا تأتى المزية الإيمانية، فإذا كنتم ستسألون الله متاعا من متاع الدنيا فما الفارق بينكم وبين أهل الجاهلية؟

ذلك ما نفهمه من قول الله عز وجل فى ختام هذه الآية: "فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ آتِنَا فِى الدُّنْيا وَمَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ". فالعبد حين يؤدى مناسكه لله يجد نفسه أهلا لأن يسأل الله، وما دمت قد وجدت نفسك أهلا لأن تسأل الله فاسأل الله بخيرٍ باقٍ لأن الإنسان إنما يصَعِّدُ حاجته إلى المسؤول على مقدار مكانة المسؤول ومنزلته: فقد تذهب لشخص تطلب منه عشرة قروش، وقد تذهب لآخر أغنى من الأول فتقول له:

أعطنى جنيها، ولثالث تطلب منه عشرة جنيهات. إنك تطلب على قدر همة كل منهم فى الإجابة على سؤالك.

إذن ما دام العباد، بعد أداء المناسك، فى موقف سؤال لله فليصَعِّدُوا مسألتهم لله وليطلبوا منه النافع أبدًا، ولا ينحطوا بالسؤال إلى الأمور الدنيوية الفانية البحتة: "فَمِنَ النَّاسِ مَن يقُولُ رَبَّنَآ آتِنَا فِى الدُّنْيا وَمَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ". إن العبد قد لا يريد من دعائه لله إلا الدنيا، ولا حظ ولا نصيب له فى الآخرة. ومثل هذا الإنسان يكون ساقط الهمة لأنه طلب شيئًا فى الدنيا الفانية، ويريد الله أن نُصَعِّد همتنا الإيمانية. ولذلك يتبعها بقوله الحق: "وِمِنْهُمْ مَّن يقُولُ رَبَّنَآ آتِنَا فِى الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ". ولماذا لم ننس الدنيا هنا؟ لأنها هى المزرعة للآخرة".

إذن فطلب الدنيا من الله ليس عيبا ولا إثما، بل العيب فى التركيز عليها ونسيان الآخرة نسيانا تاما. ولو كان الشيخ قد قال منذ البداية ذلك لما اختلفنا معه. كذلك من المعلوم أن الإثم يفْظُع إذا جاء طلب الدنيا على حساب الآخرة، فيرتكب طالبُها الغش ويرتشى ويسرق ويحتكر ويقتل ويغتصب غير واضع الآخرة فى حسبانه بتاتا. ولو كان الشيخ قد قال هذا أيضا فى البداية ما قلنا شيئا لأنه هو الكلام المنضبط الصحيح.

ومثل موقفه فى هذه القضية كلامه فى الرزق: فهو فى تفسيره لقوله تعالى فى سورة "العنكبوت": "إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيهِ تُرْجَعُونَ (١٧)" يقول إن "الرزق هو الشُّغْل الشاغل عند الناس، ففى أول الأمر كلنا يجتهد لنأكل ونشرب ونعيش، فلما تتحسَّن الأمور نرغب للمستقبل: فالموظف مثلًا يدخر لشهر، والزارع يدخر للعام كله. ومن أعاجيب هذه المسألة أنك تجد الإنسان والفأر والنمل هم الوحيدون بين مخلوقات الله التى تدخر للمستقبل، أما بقية

الحيوانات فتأخذ حاجتها من الطعام فقط، وتترك الباقى دون أنْ تهتمَّ بهذه المسألة، أو تُشْغَل برزق غدٍ أبدًا، لا يأكل أكثر من طاقته، ولا يدخر شيئًا لغده.

لذلك يذكِّر الله عباده بمسألة الرزق لأهميتها فى حياتهم. ومن عجيب أمر الرزق أنه أعرَفُ بمكانك وعنوانك منك بمكانه وعنوانه، فإنْ قُسِمَ لك الرزق جاءك يطرق عليك الباب، وإنْ حُرِمْتَ منه أعياك طلبه... يقول أحد الصالحين: عجبتُ لابن آدم يسعى فيما ضُمِن له ويترك ما طُلِب منه. فرَبُّكَ قد ضَمِن لك رزقك، فانظر إلى ما طُلِب منك، واشغل نفسك بمراد الله فيك. لذلك نتعجب من هؤلاء المتسولين الذين كنا نراهم مثلًا فى مواسم الحج، وشرُّهم مَنْ يعرضون عاهاتهم وعاهات أبنائهم على الناس يتسولون بها، وكأنهم يشتكون الخالق للخَلْق، ويتبرَّمون بقضاء الله، والله تعالى لا يحب أن يشكوه عبده لخلقه. والنبى صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا بليتم فاستتروا". ووالله لو ستر أصحاب البلاء بلاءهم وقعدوا فى بيوتهم لَسَاقَ الله إليهم أرزاقهم إلى أبوابهم".

ثم نجده عند تعرضه للآية العشرين من نفس السورة، أى بعد ثلاث آيات ليس إلا، وهى: "قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ"، يقول ضمن ما قال: "السير من أرض لأخرى له دافعان: إما للسياحة والتأمل والاعتبار، وإما للتجارة والاستثمار، إنْ ضاق رزقك فى بلادك. فقوله: "قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا" (العنكبوت/ ٢٠) أى نظر اعتبار وتأمل. أما فى "ثُمَّ انْظُرُوا" (الأنعام/ ١١) فـ"ثم" تفيد العطف والتراخى كأنه سبحانه يقول لنا: سيروا فى الأرض للاستثمار، ثم انظروا نظرة التأمل والاعتبار، ولا مانع من الجمع بين الغرضين.

وتذكرون أن الحق سبحانه قال فى سورة "القصص": "إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيكَ الْقُرْآنَ لَرَآدُّكَ إِلَى مَعَادٍ" (القصص/ ٨٥)، والمراد بذلك الهجرة. وفى هذه السورة تأتى "ياعِبَادِى الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِياى فَاعْبُدُونِ" (العنكبوت/ ٥٦). والمعنى:

إنْ ضاق رزقك فى مكان فاطلبه فى مكان آخر، أو إنْ لم تكُنْ الآيات الظاهرة لك كافية لتشبع عندك الرغبة فى الاعتبار والتأمل فسِرْ فى الأرض، فسوف تجد فيها كثيرًا من الآيات والعِبَر فى اختلاف الأجناس والبيئات والثمار والأجواء... إلخ. لذلك يقول سبحانه: "أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا" (النساء/ ٩٧).

فالأرض كلها لله لا حدودَ فيها ولا فواصلَ بينها، فلما قسَّمها الناس وجعلوا لها حدودًا تمنع الحركة فيها حدثت كثير من الإشكالات، وصَعُبَ على الناس التنقل للسياحة أو لطلب الرزق إنْ ضاق بأحد رزقه. وها هى السودان بجوارنا بها مساحات شاسعة من الأراضى الخِصْبة التى إنْ زُرِعت سدَّتْ حاجة العالم العربى كله، أنستطيع الذهاب لزراعتها؟ ساعتها سيقولون: جاءوا ليستعمرونا. لذلك لما أتيح لى التحدث فى هيئة الأمم قلت: إنه لا يمكن أنْ تُحلَّ قضايا العالم الراهنة إلا إذا طبَّقنا مبدأ الخالق عز وجل وعُدْنا إلى منهجه الذى وضعه لتنظيم حياتنا، وكيف نضع بيننا هذه الحدود الحديدية والأسلاك الشائكة، وربنا يقول: "وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ" (الرحمن/ ١٠)؟ فالأرض كلُّ الأرض للأنام كل الأنام. ويوم نحقق هذا المبدأ فلن يضيق الرزق بأحد، لأنه إنْ ضاقَ بك هنا طلبتَه هناك. لذلك أكثرُ الشكوى فى عالم اليوم إمَّا من أرض بلا رجال أو من رجال بلا أرض، فلماذا لا نُحْدِث التكامل الذى أراده الله فى كونه؟". وواضح أن الكلام فى النصين مختلف بل متناقض.

ولدن تعرضه لتفسير قوله تعالى: "وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (البقرة/ ٣١) قال شيخنا الكبير، ضمن ما قال، إن "الحق سبحانه وتعالى رد على الملائكة بهذه الآية الكريمة لأنه علَّم آدم الأسماء كلها. وكلمة "كلها" تفيد الإحاطة، ومعنى الإحاطة معرفة كل شىء عن هذه الأسماء". وبدورى أقول إن معنى كلام الشيخ هو أن آدم كان يعرف كل شىء فى الكون، إذ إنه تعلم الأسماء التى فى الكون كلها، وما دام قد تعلم الأسماء كلها فقد

عرف كل شيء عنها. فهل هناك من يقول بهذا الكلام؟ ولماذا يعرف آدم كل شيء في الكون؟ ترى ما حاجته إلى ذلك؟ أم هو حشو مخ، والسلام؟ أم كان آدم على وشك دخول امتحان في كل المقررات التعليمية فكان لا بد من تحفيظه المعارف كلها قبيل دخول الاختبار خوفا من رسوبه؟ لكن من الذى يملك ترسيبه، ومعلمه هو الله سبحانه ذاته؟ بل من يجرؤ على التفكير، مجرد التفكير، في ذلك، والله هو حاميه وهاديه؟

ثم يمضى العالم الجليل قائلا: "هنا يتبادر سؤال: هل عَلّم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء منذ ساعة الخلق إلى قيام الساعة ما دام الحق سبحانه وتعالى يقول: "كلها"؟ فما هو حكم تلك الأسماء التى هى لمخترعات ستأتى بعد خلق آدم بقرون طويلة؟ نقول إن الله سبحانه وتعالى، حين علم آدم الأسماء وميزه على الملائكة، يكون قد أعطى ذلك الأدنى عنصرا ميزه عن المخلوق من عنصر أعلى. فآدم مخلوق من طين، والملائكة مخلوقون من نور. وقدرات البشر لا تستطيع أن تعطى الأدنى شيئا أكثر من الأعلى. ولكن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يعطى ذلك ليذكِّرنا أن ما نأخذه ليس بقدراتنا، ولكن بقدرته هو سبحانه.

ولذلك تجد سليمان، وهو ملك ونبى أعطاه الله تعالى مُلْكًا لا ينبغى لأحد من بعده وميزه عن خلقه، يأتى الهدهد ليقول لسليمان: "أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يقِينٍ". كيف يحيط الهدهد، وهو طائر ضعيف محدود، بما لم يحط به سليمان، وهو الملك النبى الذى حكم الإنس والجن؟ لأن الله سبحانه وتعالى يكره الغرور من خلقه. ولذلك يأتى بآية تميز الأدنى عن الأعلى ليعلموا جميعا أن كل قدراتهم ليست بذاتهم، وإنما هى من الله. فيأتى موسى، وهو الرسول والنبى، فيتعلم من الخضر، وهو العبد الصالح ما لم يكن يعلمه".

وهنا يلاحظ القارئ أن الشيخ لم يجب عن السؤال الذى طرحه، وهو هل علَّم الله آدم كل الأسماء جميعا: سواء التى كانت موجودة فى زمنه أو التى سوف تستجدّ

حتى يوم الدين؟ لقد ترك هذا الموضوع ودخل فى موضوع آخر، وهو أن الله أراد أن يبين لمخلوقاته العليا أنه قد فضَّل فى العلم عليهم مخلوقه الأدنى. وهذا، كما يرى القراء، لا صلة بينه وبين السؤال المطروح. على أن هناك أيضا مسألة المفاضلة بين الإنسان والملائكة، وأيهما أعلى وأيهما أدنى من الآخر. والشيخ، حسبما هو واضح، يقطع بأن الملائكة أفضل من الإنسان مع أن علماء المسلمين لا يستقرون على إجابة واحدة لهذا السؤال: فمنهم من يجعل الأفضلية لآدم، ومنهم من يجعل الأفضلية للملائكة.

وثم شىء آخر، وهو أننا لو أخذنا الآية على ظاهرها لكان معنى ذلك أنه، فى الامتحان الذى عقده الله سبحانه للملائكة وآدم، لم يكن هناك تكافؤ فرص: فآدم قد علمه الله الأسماء، فمن الطبيعى أن يجيب حين يسْأَل، فى حين لم يعلِّم الملائكة بدليل قولهم: "سبحانك! لا علم لنا إلا ما علَّمْتَنا"، ومن ثم كان متوقعا منذ البداية أنهم سوف يعجزون عن الجواب. وهو، كما ترى، أمر محير! كذلك فالكلام فى الآية عن آدم. ولو فهمناه فهما ظاهريا لقلنا إن تعلم الأسماء كان من نصيب آدم وحده، أما حواء فكانت قعيدة البيت تتلفف فى جهلها وتطبخ وتكنس وتنظف زجاجات مصباح الكيروسين بالجرائد القديمة، وهو ما سوف يثير علينا زنابير النسويين والنسويات، والطين لا يحتاج إلى بلة أخرى، هدانى الله وإياكم. وهذا أمر أكثر تحييرا. ثم هل تجهل الحواءات فعلا أسماء الأشياء من حولهن؟ يا إلهى! فمنذا الذى نتهمه بالثرثرة ونستعيذ بالله من حبه للكلام الفاضى والملآن؟ وحاولوا أن تحلوا هذا الإشكال أيضا من فضلكم.

ويقول شيخنا المفضال: "وقد خلق الله سبحانه المسميات، وإن كنا لا نعرف وجودها، وجعل الملائكة تتلقى أسماء هذه المسميات من آدم. وإن البعض يتساءل عن وسيلة تعليم الخالق الأكرم لآدم عليه السلام. وتعليم الخالق يختلف عن تعليم الخلق لأن الخالق يعلِّم إلهاما: يقذف فى قلب آدم أسماء المسمَّيَات كلها لكل ما فى الكون من

أسماء المخلوقات. إذن ففى المشهد الأول لآدم مع الملائكة كان قد تم إيجاد كل المسميات وألهمها الله لآدم بدليل أن الملائكة لم تتعرف على هذه المسميات بينما عرفها آدم. وهنا لا بد لنا من وقفة: إن الكلام هو ناتج السمع، واللغة ناتج البيئة، والله سبحانه وتعالى علَّم آدم الأسماء. وهذا العلم لا يمكن أن يأتى إلا إذا كان آدم قد سمع من الله سبحانه وتعالى ثم نطق. فأنت إذا أتيت بطفل عربى وتركته فى لندن مثلا فتراه يتكلم الإنجليزية بطلاقة، ولا يفهم كلمة واحدة من اللغة العربية. والعكس صحيح إذا أتيت بطفل إنجليزى وتركته فى بلد عربى يتكلم العربية ولا يعلم شيئا عن الإنجليزية. إذن فاللغة ليست وراثة ولا جنسا ولا بيئة، ولكنها محاكاة يسمعها الإنسان فينطق بها. وإذا لم يسمع الإنسان شيئا، وكان أصم، فإنه لا يستطيع النطق بحرف واحد. فإذا كان آدم قد نطق بهذه الأسماء فلا بد أنه سمع من الله سبحانه وتعالى".

ومن الواضح أن الشيخ الشعراوى لا يستقر على الطريقة التى تعلم بها آدم الأسماء كلها: فمرة يقول إن الأمر تم بالإلهام، ومرة يقول إنه تم بالسماع. وهذه ثغرة كبيرة فى الفكرة. ومع هذا فكم من الوقت استغرق تعلم آدم الأسماء، ومن ثم المعارف كلها التى فى العالم؟ لقد استغرق نزول القرآن الكريم، وهو لا يحوى من اللغة إلا عدة آلاف لفظ، ثلاثة وعشرين عاما مع أنه نزل بالعربية فقط، فكم عاما يا ترى، بل كم قرنا استغرق تعليم آدم أسماء المخلوقات كلها وبكل اللغات بما يشمل جميع المعلومات التى تتعلق بتلك المخلوقات كما قال الشيخ؟ وما جدوى تعلُّم أشياءَ لا تنفع الشخص المتعلم لأنه لن يحتاج من هذا كله إلا لبضع عشرات تبعا لمحدودية علمه فى فجر البشرية حيث كان الإنسان الأول لايستخدم اللغة إلا فى أضيق نطاق؟ أكان الله الكريم الرحيم يريد تعذيب آدم، ففرض عليه أن يحفظ الأسماء كلها ويتحول بذلك من إنسان له عقل محدود وذاكرة ضيقة إلى معجم يضم كل الألفاظ والعبارات والتراكيب والصور والأمثال وأسماء الأعلام، وموسوعة تشتمل على جميع المعارف بجميع

الألسنة؟ ترى أنَّى له كل تلك السعة التى تحتاجها هذه المعارف جمعاء؟ إن واحدا مثلى متخصصا فى لغة العرب وآدابها، ويعيش فى القرن الحادى والعشرين، وهو من الناشطين علميا والمغرمين بالقراءة والتفكير والكتابة ومراجعة القواميس ودوائر المعارف باستمرار وتاركٌ باب مخه مفتوحا على مصراعيه باستمرار لا يعرف من لغة قومه سوى عدد محدود من آلاف الكلمات. فأية قدرات كانت لآدم يا ترى فى ذلك الوقت المتقدم فى التاريخ، والمتخلف فى الحضارة والعلم لدرجة التهتهة بحيث تمكَّن من استيعاب هذا كله دون أن يخر صريعا من الإرهاق القاتل منذ اللحظة الأولى؟

ولنعد إلى شيخنا المبجَّل فنجده يقول: "والعجيب أن الطريقة التى علم الله سبحانه وتعالى آدم بها هى الطريقة نفسها التى تتبعها البشرية إلى يومنا هذا. فأنت لا تعلم الطفل بأن تقص عليه الأفعال، ولكن لا بد أن يبدأ تعليمه بالأسماء والمسميات. تقول له: هذا كوب، وهذا جبل، وهذا بحر، وهذه شمس، وهذا قمر. وبعد أن يتعلم المسميات يستطيع أن يعرف الأفعال ويتقدم فى التعليم بعد ذلك".

لقد سبق أن قال الشيخ إن الله قد ألهم آدم قاذفا فى قلبه بجميع المسميات، ومن ثم بجميع المعارف. والآن نراه يقول إنه كان يعلمه إياها اسما اسما بما يعنى أن المسألة أخذت دهورا متطاولة لأن الأسماء فى الدنيا لا تنتهى، فما بالنا بالمعارف التى ترتبط بها؟ ثم إن الشيخ يقول إنه بعدما ينتهى آدم من تعلم الأسماء سينتقل إلى تعلم الأفعال، والحروف طبعا بالمرة لأن اللغة لا تقتصر على الاسم والفعل بل لا بد لها من الحروف، وإلا لم تصلح أن تكون لغة كما هو معروف. وهذا بدوره يحتاج إلى زمن أكثر تطاولا.

ثم ما دام فضيلة الشيخ يشبّه تعلم آدم الأسماء بتعلم الأطفال، فى بداية التقاطهم لِلُّغَة، الأسماء فقط أيضا لقد كان الواجب أن يتنبه إلى أن اقتصار الطفل على تعلم الأسماء فحسب لا يستمر إلا مدة قصيرة من عمره يدخل بعدها فى الأفعال والحروف أيضا طبقا لكلام الشيخ، وهو ما كان ينبغى أن يتم فى حالة آدم كذلك، بحيث إنه بعد

فترة قصيرة يترك الأسماء ويمسك فى الأفعال والحروف، لكنا للأسف ننظر فنجده قد تعلم الأسماء التى فى الدنيا كلها ولم يتطرق إلى الفعل والحرف.

ثم لا ينبغى أن ننسى أنه فى الوقت الذى لم يكن آدم يعرف من اللغة إلا الأسماء فقط نجد الخالق يكلمه بعبارات مثل "يا آدم، أنبئهم بأسمائهم"، وهذه العبارة لا تتكون من أسماء فقط بل فيها أداة النداء: "يا"، وفعل الأمر: "أنبئ"، والضمير: "هم" مكررا مرتين، وحرف الجر: "بـ"، وجَمْع اسم: "أسماء"، فكيف فهم آدم يا ترى هذا الفعل وذلك الضمير؟ بل كيف فهم العبارة التى خاطب الله بها الملائكة فى حضوره: "أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين"؟ بل كيف فهمت الملائكة كلام الله، وهى لا تعرف الأسماء، ولا الأفعال والحروف من باب الأولى؟ بل كيف استطاعت الكلام لا بالأسماء فقط، بل بالأفعال والحروف أيضا؟ وبعد ذلك مباشرة نسمع المولى سبحانه يخاطبه قائلا: "يا آدم، اسكن أنت وزوجك الجنة، وكُلاَ منها رَغَدًا حيث شئتما، ولا تَقْرَبا هذه الشجرة فتكُونا من الظالمين"، كما يخاطبه الشيطان بقوله: "ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا مَلَكَين أو تكونا من الخالدين". فكيف فهم آدم كل ذلك رغم ما فيه من أفعال وحروف يفترض أنه لم يتعلمها بعد؟ كذلك فها هى ذى حواء قد ظهرت فى الصورة، وكان حديث الشيطان موجها إليها مع آدم كما هو واضح. فكيف فهمته، والقرآن الكريم لم يذكر أنها تعلمت اللغة مع أبى عيالها؟

ويستمر الشيخ فى تفسير الآية قائلا: "وهكذا نتعرف على النشأة الأولى للكلام. وطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى علَّمَتْ آدم الأسماء. وهنا نتوقف لنجيب عن سؤالين: الأول: إذا كان الله سبحانه وتعالى قد علَّم آدم الأسماء كلها فهل كان فيها أسماء ما سيستجد من مخترعات فى العالم؟ نقول: إنه حتى لو تعلم آدم الأسماء التى يحتاج إليها فى أولويات الوجود ويستخدمها فى متطلبات حياته على الأرض، فإذا جد جديد فإن أولاد آدم يستخدمون هذه الأسماء من المقدمات والأسماء التى تعلموها. فما يجدّ فى

الوجود من أسماء تدخل على اللغة لم تأت من فراغ، وإنما جاءت من اللغة التى تنطق بها وتكتب بها".

ونقول نحن تعقيبا على ذلك: هل يمكن يا ترى أن يحفظ أى إنسان مليارات الأسماء أصلا؟ ثم هل يمكن أن يحفظ أسماء أشياء لم يرها أو يسمع بها أو يشمها أو يتذوقها أو يعلم عنها شيئا لأنها لم تكن قد خُلِقَتْ أو اخْتُرِعَتْ بعد؟ هذا هو المستحيل بعينه. وكلام الشيخ فى تفسير الآيتين ٦ – ٧ من "الفاتحة" يقف فى صفى، فقد قال: "وبما أن المعانى لا بد أن توجد أولا فى العقل ثم يأتى اللفظ المعبر عنها فكل شىء لا نعرفه لا توجد فى لغتنا ألفاظ تعبر عنه. فنحن لم نعرف اسم "التليفزيون" مثلا إلا بعد أن اخْتُرِع وصار له مفهوم محدد. تماما كما لم نعرف اسم "الطائرة" قبل أن يتم اختراعها. فالشىء يوجد أولا، ثم بعد ذلك يوضع اللفظ المعبر عنه. ولذلك فإن مجامع اللغات فى العالم تجتمع بين فترة واخرى لتضع أسماء لأشياء جديدة اختُرِعت وعُرِفَت مهمتها. وما دام ذلك هو القاعدة اللغوية فإنه لا توجد ألفاظ فى لغة البشر تعبر عن النعيم الذى سيعيشه أهل الجنة لأنه لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على القلب. ولذلك فإن كل ما نقرؤه فى القرآن الكريم يقرب لنا الصورة فقط، ولكنه لا يعطينا حقيقة ما هو موجود".

كما أن الشيخ يتصور أنه ما إن تعلم آدم مليارات بل ديشيليونات الأسماء حتى التصقت بذاكرته فلم يسقط منها شىء مع أن التجارب الإنسانية ترينا أن الذاكرة مملوءة بثقوب كثيرة تتسرب منها أشياء لا حصر لها مما دخلها، وهذا التسرب لا يتوقف أبدا. كما أن تعلم اللغات يقتضى أن يستعملها الإنسان وأن يراجع ما فى ذهنه منها دائما، وإلا امَّسَحَتْ مع الأيام. ومع هذا لا نجد فى القرآن شيئا عن ذلك رغم أن آدم قد وُصِف فى كتاب الله بـ"نَسِىَ، ولم نجد له عزما"، والنسيان صفة بشرية منذ آدم إلى قيام الساعة.

ويتابع الشيخ الشعراوى تفسيره للآية المذكورة قائلا: "كذلك كل شيء فى هذا الكون لو أعدتَه الآن إلى أصله تجد أن أصله من الله. فلو أَعَدْتَ البشريةَ إلى أصلها لا بد أن تصل إلى أن الإنسان الأول خلقه الله سبحانه وتعالى. ولو أعدت العلم إلى أصله، وكل علم يحتاج إلى معلم، نقول لك: من الذى علم المعلم الأول؟ أليس من البديهى أن العلم بدأ بمعلِّمٍ علَّمه الله سبحانه وتعالى؟ وكان هذا هو المعلم الأول. إذن فالذى علم الأسماء لآدم هو الله سبحانه وتعالى، وهو علمها لأولاده، وأولاده علموها لأولادهم... وهكذا".

ويأتى دورى الآن لأعقب على هذا الكلام فأقول: لو كان الأمر كذلك لكان ينبغى أن تكون معرفتنا الآن كاملة، إذ تعلم آدم من الله الأسماء كلها وكل ما يتعلق بها من المعارف، ثم علم هو بدوره أولاده، الذين علموا بدورهم أولادهم حتى وصل الأمر إلينا. لكننا نعرف أن كل واحد منا يبدأ فى عالم المعرفة من الصفر ثم يتشرب بعض المعارف من هنا وهناك، لكن مهما اتسعت مساحة المعرفة لديه وعَمُقَتْ فمعرفته، فى نهاية المطاف، شيء ضئيل وهزيل. فانظر يا قارئى الكريم إلامَ يتأدى بنا الفهم الحرفى لنص الآية الكريمة. واضح أن هذا اللون من الفهم سيفجر مشاكل لا حصر لها دون أن نحصل على فائدة واحدة.

أما أنا فأنظر إلى الآية والآيات المتصلة بها على أن آدم ليس هو آدم الشخص بل آدم الجنس، أى الإنسان فى عمومه. والمقصود بالآيات أن الإنسان، وإن ولد ناقصا لا يعرف شيئا، ومن ثم لا يعرف اللغة، فقد ركَّب فيه ربه مواهب وإمكانات واستعدادات لا تحصى ولا تعد، ومنها الاستعداد لتعلم اللغات. وأتصور أن المقصود بالأسماء فى النص القرآنى المجيد هو الكلمات: أسماءً وأفعالا وحروفًا جميعا، فاسم أى شيء هو الكلمة التى تدل عليه: فالاسم هو الكلمة التى تدل على الشخص أو الحيوان أو الشيء أو الفكرة التى تدل عليها، والفعل هو الكلمة التى تدل على الحدث وزمنه، والحرف

هو الكلمة التى تدل على المعنى الإلحاقى. أى أن الكلمة التى تدل على الشخص أو الشيء هى اسمه، والكلمة التى تدل على الحدث وزمنه هى اسمه، والكلمة التى تدل على المعنى الإلحاقى هى اسمه. ولا ينبغى أن ننسى أن مصطلحات "اسم وفعل وحرف" لم تكن قد عُرِفَتْ بعد، إذ لم يكن هناك نحو ولا صرف فى عصر النبى عليه السلام. ولا أظن إلا أن لغة آدم كانت بدائية ومحدودة لأنه لم يكن يعرف من أشياء الكون وأموره الكثير، إذ كانت حياته حياة بدائية، ومطالبه جد قليلة، ولم يكن عرف الرحلات بعد حتى يقال إن معارفه اتسعت بالأسفار والاطلاع على الكثير هنا وها هنا. ومن كانت هذه حاله فلا بد أن تكون لغته محدودة جدا، فإن الإنسان لا يتعلم من اللغة شيئا إلا إذا كان فى حاجة إليه. وحاجات آدم، كما قلنا، قليلة جدا.

وهناك حديث قدسى يقول فيه رب العزة عن الرحم: "أنا الرحمن. خلقتُ الرَّحِم، وشققتُ لها اسما من اسمى: فمَنْ وَصَلَها وَصَلْتُه، ومَنْ قَطَعَها قَطَعْتُه". وأحب أن أطرح بعض الأسئلة هنا: متى اشتق الله سبحانه كلمة "الرحم"؟ هذه كلمة عربية، ومعنى هذا أنها لم تشتق فى حياة آدم لأن العربية لم تكن قد ظهرت إلى الوجود بعد. ثم إننا نعرف أن الذى توصل إلى تلك الكلمة هم العرب، ولم تنزل عليهم من السماء. وعلى هذا فاشتقاق الله لها إنما يعنى أنه ألهم العرب، بناء على منهج لغتهم وطريقتها فى الاشتقاق والتعبير، معرفة هذه الكلمة، فاشتقوها من الجذر: "ر ح م"، وهو نفس الجذر الذى اشتقت منه كلمة "الرحمن"، تلك التى توصل إليها العرب أيضا بنفس الطريقة بناء على قواعد لغتهم. أليس كذلك؟ فهذا يؤكد ما قلته من أن تعليم الله عز وجل لآدم الأسماء كلها إنما يقصد به تجهيزه للجنس البشرى فى أصل الخلقة بالاستعدادات والمواهب التى تسهل له معرفة العالم من حوله وتسمية كل شيء يتوصل إلى معرفته حتى يستطيع أن يفكر ويعبر ويتواصل وينقل معرفته إلى الأجيال التالية.

فالمقصود إذن هو أن الله زود الجنس البشرى بالاستعدادات التى تؤهله لمعرفة اللغة حتى إذا ما احتاج إلى شيء فإنه يتعلمه مستعينا بتلك الإمكانات والمواهب. وهذا التعلم اللغوى لا يتوقف أبدا حتى يوم القيامة. ولو استمرت الحياة الدنيا مليارات الأعوام فلن تكتمل معارف الإنسان اللغوية، بل لن تكتمل معارفه الأخرى، لأن الإنسان وفد على الدنيا وهو ناقص عاجز، ولسوف يغادرها وهو ناقص عاجز لا يزال. ولكنه فى كل الأحوال لا يتوقف بل لا يستطيع أن يتوقف عن التعلم فينتقل من حال إلى حال ويرتقى طَبَقًا بعد طَبَقٍ، اللّهم إلا إذا أراد أن يعيش كسولا تنبلا كبعض الشعوب فتعاملها الشعوب الأخرى القوية باحتقار واستغلال وتضع فى طريقها العراقيل كى تظل متخلفة إلى الأبد.

هذا عن الإنسان، أو آدم إذا أحببت، أما الملائكة فإنها قد خُلِقَتْ على وضع لا يقبل التطور ولا التغير. فتعليم الله لآدم معناه أن البشر قابلون للتعليم والانتقال من حالة الجهل إلى حالة العلم، الذى ترمز إليه مسألة تعلم الأسماء، لكنه بالقياس لعلم الله سبحانه كقطرة فى محيط. والله سبحانه لا يحويه زمان ولا مكان، وبالتالى فهو حين يتحدث عن آدم فإنه من الممكن جدا أن يكون المقصود هو الجنس البشرى كله.

وهذا مثل قوله تعالى فى الآيات ١١٥ - ١٢٣ من سورة "طه" أثناء كلامه سبحانه عن قصة الخلق وسكنى آدم وحواء الجنة وتحذير الله لهما ألا يأكلا من شجرة معينة، ولهما بعد ذلك مطلق الحرية فى أن يأكلا كما يشاءان من أية شجرة أخرى، وعصيان الاثنين لله سبحانه مما ترتب عليه إهباطهما من الجنة، إذ كانت الإدانة فى هذه الآيات كل مرة من نصيب آدم وحده، وكأن حواء لم تكن شريكته فى العصيان: "ولقد عَهِدْنا إلى آدمَ مِنْ قَبْلُ، فنَسِيَ ولم نجد له عَزْمًا"، "فوسوس إليه الشيطان، قال: يا آدمُ، هل أدلُّك على شجرة الخُلْد ومُلْكٍ لا يبْلَى؟"، "وعَصَى آدمُ ربَّه فغَوَى"... مع أن حواء كانت

شريكته فى النسيان والعصيان. وهو ما دفعنى إلى القول بأن المقصود بآدم هنا هو الإنسان الجنس لا الإنسان الشخص. ولَعَلِّى لم أُبْعِد النُّجْعَة!

وجاء فى تفسير الشيخ الشعراوى، نَوَّر الله قبره، لقوله تعالى: "يا أَيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا" (النساء/ ١): "وساعة يدعو الله سبحانه الناس إلى تقواه يقول: "يا أَيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ"، ومعنى "اتَّقُوا رَبَّكُم" أى اجعلوا بينكم وبينه وقاية. وماذا أفعل لأتقى ربنا؟ أول التقوى أن تؤمن به إلها، وتؤمن أنه إله بعقلك. إنه سبحانه يعرض لك القضية العقلية للناس فيقول: "يا أَيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ"، ولم يقل: "اتقوا الله"، لأن الله مفهومه العبادة، فالإلهُ معبودٌ له أوامرُ وله نَوَاهٍ. لم يصل الحق بالناس لهذه بعد، إنما هم لا يزالون فى مرتبة الربوبية، والرب هو المتولى تربية الشىء: خلقًا من عَدَم، وإمدادًا من عُدْم.

لكنْ أليس من حق المتولِّى خَلْقَ الشىء وتربيته أن يجعل له قانون صيانة؟ إن من حقه ومسؤوليته أن يضع للمخلوق قانون صيانة. ونحن نرى الآن أن كل مخترع أو صانع يضع لاختراعه أو للشىء الذى صنعه قانون صيانة. بالله أيخلق سبحانه البشر من عدم وبعد ذلك يتركهم ليتصرفوا كما يشاؤون أم يقول لهم: اعملوا كذا وكذا ولا تعملوا كذا وكذا لكى تؤدوا مهمتكم فى الحياة؟ إنه يضع دستور الدعوة للإيمان فقال: "ياأَيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ". إذن فالمطلوب منهم أن يتقوا. ومعنى "يتَّقُوا" أن يقيموا الوقاية لأنفسهم بأن ينفذوا أوامر هذا الرب الإله الذى خلقهم. وبالله أيجعل خلقهم علة إلا إذا كان مشهودا بها له؟ هو سبحانه يقول: "اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ" كأن خلقة ربنا لنا مشهود بها، وإلا لو كان مشكوكا فيها لقلنا له: إنك لم تخلقنا.

ولله المثل الأعلى: أنت تسمع من يقول لك: "أَحْسِنْ مع فلان الذى صنع لك كذا وكذا"، فأنت مُقِرٌّ بأنه صنع أم لا؟ فإذا أقررت بأنه صنع فأنت تستجيب لمن يقول لك مثل ذلك الكلام. إذن فقول الله: "ياأَيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ" فكأن خلق الله للناس ليس محل جدال ولا شك من أحد، فأراد سبحانه أن يجذبنا إليه ويأخذنا إلى جنابه بالشىء الذى نؤمن به جميعا، وهو أنه سبحانه خَلَقَنا، إلى الشىء الذى يريده، وهو أن نتلقى من الله ما يقينا من صفات جلاله. وجاء سبحانه بكلمة "رَبّ" ولم يقل: "اتقوا الله" لأن مفهوم الرب هو الذى خَلَقَ من عَدَمٍ وأَمَدَّ من عُدْمٍ، وتعهد وهو المربى ويبلغ بالإنسان مرتبة الكمال الذى يراد منه، وهو الذى خلق كل الكون فأحسن الخلق والصنع. ولذلك يقول الحق: "وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يؤْفَكُونَ" (العنكبوت/ ٦١). إذن فقضية الخلق قضية مستقرة، وما دامت قضية مستقرة فمعناها: ما دمتم آمنتم بأنى خالقكم فلى قدرة إذن، هذه واحدة، وربيتكم إذن فلى حكمة. وإله له قدرة وله حكمة إما أن نخاف من قدرته فنرهبه وإما أن نشكر حكمته فنقر به".

وستكون وقفتى هنا أمام قوله، غفر الله له ولنا: "يقول: "يا أَيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ"، ولم يقل: "اتقوا الله"، لأن الله مفهومه العبادة، فالإله معبود له أوامرُ وله نواهٍ لم يصل الحق بالناس لهذه بعد. إنما هم لا يزالون فى مرتبة الربوبية. والرب هو المتولى تربية الشىء، خَلْقًا من عَدَمٍ وإمْدادًا من عُدْمٍ". والسؤال هو: كيف يقال إن المسلمين فى المدينة لم يكن الله قد وصل بهم لمرحلة الأوامر والنواهى؟ إن الله سبحانه وتعالى كثيرا ما أمر الكفار ونهاهم فى مكة، فكيف لم يصل المسلمون إلى ذلك فى المدينة بعد الهجرة واستقرار الأمور لهم هناك؟ ثم ماذا يقول الشيخ فى قوله عقب ذلك إن من حق الصانع، الذى هو الله هنا، أن يضع قانون صيانة الآلة التى أبدعها، وهى هنا الإنسان، فيصدر الأوامر التى ينبغى أن يتبعها المسلمون؟ معنى ذلك أن هناك أوامرَ قد أصدرها

لهم، ونواهِيَ أيضا. وهنا التناقض. بل إن الله ذاته يقول فى نفس الآية بعد "اتقوا ربكم" بعدة كلمات ليس إلا: "واتقوا اللهَ الذى تَسَاءلون به والأرحامَ". فماذا نقول فى هذا؟

وماذا نقول فى الآيات القرآنية التى تتحدث عن بعض رسل الله السابقين وقولهم لأقوامهم المشركين العصاة المتمردين: "اتقوا الله"؟ وهذه بعض تلك الآيات: فبالنسبة للوط عليه السلام: "وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يهْرَعُونَ إِلَيهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يعْمَلُونَ السَّيئَاتِ قَالَ يا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِى ضَيفِى أَلَيسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ" (هود/ ٧٨)، "وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيفِى فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (٦٩)" (الحِجْر). وبالنسبة لنوح وهود وصالح ولوط وشعيب نرى كلا منهم يقول لقومه: "إنى لكم رسول أمين * فاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُونِ" (الشعراء/ ١٠٦- ١٠٧، ١٢٥- ١٢٦، ١٤٣- ١٤٤، ١٦٢- ١٦٣، ١٧٨- ١٧٩). ويقول عيسى عليه السلام لبنى إسرائيل: "قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَينَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ" (الزخرف/ ٦٣). فهؤلاء رسل كرام يخاطبون أقوامهم المشركين المتمردين قائلين لهم فى سياق لا علاقة له بالتشريع: "اتقوا الله" لا "اتقوا ربكم".

ليس هذا وحده بل عندنا مثلا النص القرآنى التالى، وفيه يستعمل الله سبحانه فى مخاطبة المسلمين أثناء تشريعه لهم بـ"افعل ولا تفعل" كلمة "ربكم"، التى يقول الشيخ، غفر الله له ولنا، إنها لا صلة لها بالتشريع: "لَيسَ عَلَيكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيا وَمَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ

لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢) وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)".

وما رأينا فى النص التالى أيضا من سورة "الأنعام"، وقد استعملت فيه كلمة "ربكم" وسط أوامرَ ونَوَاهٍ تشريعيةٍ موجهة إلى الناس فى مكة: "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)"؟

ومثله ما ورد فى الآيتين الأخيرتين من سورة "الحج" حيث نجد كلمة "ربكم" فى وسط سياق تشريعى، فالله سبحانه يأمر المسلمين أن يجاهدوا فى الله حق جهاده وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويعتصموا بالله: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)".

وكعادة الشعراوى فى تكرار أفكاره كلما دعا إلى تكريرها داعٍ نراه مثلا يقول عند تناوله تفسير الآية ١٠١ من سورة "يوسف"، التى تبدأ بقوله تعالى: "رَبِّ، قد آتيتَنى من المُلْك وعلَّمتَنى من تأويل الأحاديث"، إذ قال رحمه الله: "ونعلم أن الربوبية تعنى

الخَلْق من عَدَمٍ، والإمداد من عُدْمٍ، والإقاتة لاستبقاء الحياة، والتزاوج لاستباق النسل. وتسير كل هذه العمليات فى تناسق كبير. فالحق سبحانه أوجد من عَدَم، واستبقى الحياة الذاتية بالقُوتِ، واستبقى الحياة النوعية بما أباح من تزاوج وتكاثر. وكل مخلوق له حَظٌّ فى عطاء الربوبية، مؤمنًا كان أم كافرًا، وكل مخلوقات الكون مُسخَّرة لكل الخلق. فسبحانه هو الذى استدعى الخَلْق إلى الوجود، ولذلك تكفَّل بما يحقق لهم الحياة.

ويختص الحق سبحانه عباده المؤمنين بعطاء آخر بالإضافة لعطاء الربوبية، وهو عطاء الألوهية المتمثل فى المنهج. يقول يوسف عليه السلام مناجيا ربه: "رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ" (يوسف/ ١٠١). أى أنه سبحانه هو الذى أعطاه تلك السيادة وهذا النفوذ والسلطان. فلا أحد يملك قَهْرًا عن الله، وحتى الظالم لا يملك قهرًا عن الله. ولذلك يقول الحق سبحانه فى آية أخرى من القرآن: "قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ" (آل عمران/ ٢٦)".

وثَمَّ مسألة أخرى فى النص الذى اقتبسناه قبل هذا، وهى قوله إنه لا يوجد أحد ينفى وجود الله. قال: "المطلوب منهم أن يتقوا... بأن ينفذوا أوامر هذا الرب الإله الذى خلقهم. وبالله أيجعل خلقهم علة إلا إذا كان مشهودا بها له؟ هو سبحانه يقول: "اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ" كأن خلقة ربنا لنا مشهود بها، وإلا لو كان مشكوكا فيها لقلنا له: إنك لم تخلقنا... إذن فقول الله: "يا أَيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ" فكأن خلق الله للناس ليس محل جدال ولا شك من أحد، فأراد سبحانه أن يجذبنا إليه ويأخذنا إلى جنابه بالشىء الذى نؤمن به جميعا وهو أنه سبحانه خلقنا، إلى الشىء الذى يريده، وهو أن نتلقى من الله ما يقينا من صفات جلاله... إذن فقضية الخلق قضية مستقرة. وما دامت قضية مستقرة فمعناها: ما دمتم آمنتم بأنى خالقكم فلى قدرة إذن، هذه واحدة، وربيتكم إذن فلى حكمة...".

والدعوى التى يقررها هنا الشيخ الشعراوى هى أن أحدا من البشر لا يشاحّ فى وجود الله. فهل هذا صحيح؟ نبدأ بالعرب الذين نزل فيهم القرآن. يقول د. جواد على فى كتابه: "المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام": "كانت العرب فى الجاهلية على أديان ومذاهب: كان منهم من آمن بالله وآمن بالتوحيد، وكان منهم من آمن بالله وتعبَّد للاصنام، إذ زعموا أنها تقربهم اليه، وكان منهم من تعبد للاصنام زاعمين أنها تنفع وتضر وأنها هى الضارة النافعة. وكان منهم من دان باليهودية والنصرانية، ومنهم من دان بالمجوسية، ومنهم من توقف فلم يعتقد بشىء، ومنهم من تزندق، ومنهم من آمن بتحكم الآلهة فى الإنسان فى هذه الحياة وببطلان كل شىء بعد الموت، فلا حساب ولا نشر ولا كتاب ولا كل شىء مما جاء فى الإسلام عن يوم الدين". إذن كان من العرب من توقف فلم يؤمن بشىء ومن كان يؤمن بالأصنام وأنها هى الضارة النافعة، فلم يكن يعتقد أنها تقرِّبهم إلى الله زُلْفَى بل كان يعبدها هى ويعتقد فيها هى النفع والضر لا فى سواها.

وفى القرآن يقابلنا ذلك المَلِك الذى كان يحكم فى عصر النبى إبراهيم عليه السلام ويزعم أنه هو الإله وأنه من يحيى ويميت، ردا على قول إبراهيم إن ربه هو الذى يحيى ويميت: "ألم تر إلى الذى حاجَّ إبراهيمَ فى ربه أَنْ آتاه الله المُلْكَ إذ قال إبراهيم: ربِّىَ الذى يُحْيِى ويمِيت. قال: أنا أُحْيِى وأُمِيت" (البقرة/ ٢٥٨). وقد وصفه الله بالكفر. وعندنا كذلك فرعون موسى، الذى هدده قائلا: "لَإِنِ اتخذْتَ إلهًا غيرى لأجعلنَّك من المسجونين" (الشعراء/ ٢٩)، والذى أبدى إنكاره لله عندما أخبره موسى أنه رسول من رب العالمين، إذ قال متهكما: "وما ربُّ العالمين؟" (الشعراء/ ٢٣). وما النمرود وفرعون سوى مثالين على ادعاء الألوهية بين عدد من الملوك القدماء، وهو ما يستتبع كفرهم بالله وإنكارهم لوجوده.

وهناك البوذية، وهى "ديانة وضعية لا يعتقد أتباعها فى خالق أو إله"، و هى "من أكبر الديانات الوضعية والفلسفات فى العالم. ظهرت قبل ٢٠٠٠ سنة فى شمال شرقى الهند، وانتشرت فى معظم أنحاء الهند، وعبرت شمالا عن طريق جبال الهملايا إلى الصين والتيبت وكوريا واليابان. وفى الجنوب وصلت إلى سريلانكا وتايلاند وبورما وكمبوديا وفيتنام. وانتشرت فى بعض أنحاء أوروبا والولايات المتحدة وأستراليا خلال القرن العشرين الميلادى. ويقَدَّر عدد البوذيين فى العالم بنحو ٣٠٠ مليون" كما جاء فى مادة "البوذية" بـ"الموسوعة العربية العالمية".

وكان هناك فلاسفة أغارقة ملاحدة مثل دياجوراس دى ميلوس وتيودور دى سيرين كما تقول مادة "athéisme" فى "موسوعة ويكبيديا" الفرنسية. وفى نفس المادة فى النسخة الإنجليزية من "ويكيبيديا" نقرأ أنه كان هناك فى الهند القديمة ملاحدة، وكذلك فى الإغريق، ومن ملاحدتهم ديمقراطيس، وفى الرومان، ومن ملاحدتهم الفيلسوف سكتوس إمبريكاس، وأن الثورة الفرنسية كان لها أثر كبير فى بروز الإلحاد بإعلائها من شأن العقل البشرى، وأن الملاحدة يدعون أن الإنسان يولد بدون الإيمان بإله، ومن ثم فعلى من يؤمنون بالإله يقع عبء الدفاع عن معتقداتهم لا على غير المؤمنين. ومن الملاحدة الغربيين المشاهير فى العصر الحديث جون ستيورات مِلْ ودولباخ وديفيد هيوم وفيورباخ وشوبنهاور وكارل ماركس ونيتشه صاحب مقولة "موت الإله" وبرتراند راسل وهايدجر وسارتر، أما غير المشاهير فهم كثر.

وعن الإلحاد المعاصر تقول المادة المخصصة له فى "الموسوعة العربية العالمية": "قد يكون الإلحاد بإنكار وجود الله تعالى... وقد انتشر خلال القرون الثلاثة الأخيرة (الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين)، وجاء نتيجة للصراع بين العلم والكنيسة فى أوروبا، ذلك الصراع الذى انتهى بانتصار العلم وانهزام دعاة الكنيسة. وقد اتخذ مفكرو تلك الفترة هذا الموقف ذريعة لرفض الدين جملةً وإنكار حقائقه، وعلى رأسها الإيمان

بالله . وقد انتشرت... ظاهرة الإلحاد انتشارًا واسعًا فى الدول الأوروبية بصفة خاصة، وأصبحت له فى بعض البلاد حكومات تحرسه ودول تحميه، وهو يتسلح ببعض النظريات العلمية المادية لتؤيده".

وبين العرب والمسلمين الآن ملاحدة كثيرون، ولهم أكثر من موقع على المشباك (الإنترنت). وقد وُجِّهَتْ لبعض العلماء والمفكرين والشعراء القدماء المسلمين اتهامات بالإلحاد صحيحةً كانت تلك الاتهاماتُ أو خاطئةً. ولعبد الرحمن بدوى كتاب بعنوان "من تاريخ الإلحاد فى الإسلام" يبحث الاتهامات التى وجهت إلى ابن المقفع وابن الراوندى وابن حيان والرازى، وإن كنت قد تقصيت الأمر بنفسى، فلم أجد الاتهامات مقنعة على الأقل فيما يخص ابن المقفع والرازى، وكتبت عن ابن المقفع دراسة مطولة تتبعت فيها كل ما وقع لى مما قيل عن زندقته، فألفيتها كلها متهافتة بينما كانت الدلائل على صحة إسلامه من وقائع حياته وتصرفاته ومواقفه وكتبه متوافرة وقوية وكافية. ويجد القارئ هذه الدراسة فى كتابى: "دراسات فى اللغة والأدب والدين". كما كتبتُ عن المعرى فى كتابى: "تاريخ الأدب العرب- العصر العباسى" أنفى إلحاده، وأقدم الأدلة على استقامة إسلامه.

أما قول الشيخ: "المطلوب منهم أن يتقوا... بأن ينفذوا أوامر هذا الرب الإله الذى خلقهم. وبالله أيجعل خلقهم علة إلا إذا كان مشهودا بها له؟ هو سبحانه يقول: "اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ" كأن خلقة ربنا لنا مشهود بها، وإلا لو كان مشكوكا فيها لقلنا له: إنك لم تخلقنا... إذن فقول الله: "يا أَيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ" فكأن خلق الله للناس ليس محل جدال ولا شك من أحد، فأراد سبحانه أن يجذبنا إليه ويأخذنا إلى جنابه بالشىء الذى نؤمن به جميعا، وهو أنه سبحانه خلقنا، إلى الشىء الذى يريده، وهو أن نتلقى من الله ما يقينا من صفات جلاله" فليس دليلا على ما ذهب إليه، فكثيرا ما تقابلنا مثل الآيات التالية فى مخاطبة الكفار: "أَلَمْ يرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ

قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦)؟" (الحِجْر)، "أَوَلَمْ يروْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ؟" (الرعد/ ٤١)، "أَوَلَمْ يرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيءٍ حَي أَفَلا يؤْمِنُونَ؟" (الأنبياء/ ٣٠)، "أَوَلَمْ يرَوْا كَيفَ يبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يسِيرٌ؟" (العنكبوت/ ١٩)، ومعروف أنه لا الكفار (ولا المؤمنون) قد رَأَوْا شيئا من ذلك. ومثل ذلك قوله تعالى عن الكفار: "وقالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق؟" (الفرقان/ ٧)، وهم لم يكونوا يؤمنون به رسولا البتة، بل القرآن هو الذى وصفه فى كلامهم بـ"الرسول" لا هم مثلما قالت اليهود للمشركين المكيين حين ذهب وفد منهم إلى مكة للتآمر على النبى ودينه فى المدينة: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلا؟" (النساء/ ٥١)، وبطبيعة الحال لا يمكن أن يسمى اليهود المسلمين بـ"الذين آمنوا"، بل القرآن هو الذى يقول هذا على لسانهم. ومن نفس الباب حكاية القرآن عنهم قولهم: "وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى بْنَ مَرْيمَ رَسُولَ اللَّهِ" (النساء/ ١٥٧)، ولا يمكن أن يصفوا عيسى ابن مريم بأنه رسول الله، فقد كانوا كافرين به، وقد قتلوه وصلبوه فى تصورهم، وكانوا فخورين بهذا.

وأرجح أن يكون من هذا الوادى أيضا قوله عز جلاله: "قالت نملةٌ: يا أيها النملُ، ادخلوا مساكنكم لا يحْطِمَنَّكم سليمانُ وجنودُه"، إذ لا أظنها كانت تعرف اسم سليمان، وإلا لكان معنى ذلك أنها كانت تعرف لغة البشر مثلما كان سليمان يعرف لغة النمل والطيور، وأنها كانت تتنصت على كلام سليمان وحاشيته. وكيف وهى كانت تعيش فى وادى النمل فى حين كان هو والحاشية يعيشون فى القصور، اللّهم إلا إذا قيل

إنها حفرت لنفسها سردابا من وادى النمل حتى القصر الملكى وله فوهة دقيقة تسمح لها بإتئار رأسها لتتسمع ما يدور من حديث فى القصر فعرفت اسم الملك وأنه "سليمان"؟ كذلك فلو كانت تسمع أصوات البشر لانخرقت "طبلة أذنها" بل لتمزقت لأنها ستكون بمثابة نفيرِ يومِ القيامة، الذى سيصْعَق بسببه من فى السماوات والأرض. بل أعتقد أن الصوت البشرى خارج نطاق سمعها. وأتخيل أن كل ما صنعته أنها قد حذرت زميلاتها تحذيرا عاما من أن تسحقهن الجموع الهائلة المقبلة نحوهن. وهذا كل ما هنالك، إلا أن القرآن قد استعمل بدلا من ذلك عبارة "سليمان وجنوده"، وهو هو المعنى العام لكلامها.

والآن أتساءل: كيف غاب هذا كله عن عالمنا الكبير فجزم بأن أحدا لا ينكر وجود الله؟ إلا أن الأمر لَمَّا يتمّ فصولا، فقد ذكر الشيخ بكل بساطة، كما ينبغى أن يكون الأمر، فى أكثر من موضع من تفسيره أن ثم ملاحدة وإلحادا، أى إنكارا لوجود الله، كما فى تفسيره للآية ٢٥٩ من سورة "البقرة"، والآية ١٩٠ من "آل عمران"، والآيات ١٨، ١٢٤، ١٦٣، ١٧١ من سورة "النساء"، والآيات الخامسة والخامسة عشرة والعشرين والخامسة والخمسين والخامسة والستين والسادسة والستين والثانية والسبعين والمائة والاثنتين من "المائدة"، والآية الأخيرة من سورة "التوبة"، والآية الأولى من سورة "يونس"، والآية ٦٨ من هود"، والآية ١١٥ من سورة "النحل"، والآية ٤٨ من "الإسراء"، والآيتين السابعة والخامسة والستين من سورة "مريم"، والآية ٦٦ من سورة "الحج"، والآية الأولى والحادية عشرة من "الفرقان"، والآيات ٤٦- ٦٥، ٦٩ من "العنكبوت". وهنا تكمن المفارقة، وأتصور أن الشيخ قد أخذته سهوة أدت به إلى أن يقول ما قال فى تفسير الآية.

ولفضيلة الشيخ الشعراوى رأى فى حشر الحيوانات يحسن أن نعرفه، وهو متاح فى تفسيره للآية التالية: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يطِيرُ بِجَنَاحَيهِ إِلا أُمَمٌ

أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ" (الأنعام/ ٣٨). قال غفر الله لـه: "إنـه سبحانه يوضـح لنـا: أنـا أعطـى الآيـات التـى أعلـم أن الفطـرة الـسليمة تـستقبلها كآيـة وتـؤمن بهـا، وأنزلـت لكـم القـرآن لتؤمنـوا بالرسـول الـذى يحمله منهجـا يصْلِح حياتكم. وقد جعلتكم سادة للكون تخدمكم كل الكائنات لأنكم بنو آدم، وكان الأجدر بكـم أن تتنبهـوا إلى أن الحيوان فى خـدمتكم، والنبات فى خدمة الحيوان وخدمة الإنـسان، وكـل كائنـات الوجـود تـصب جهـدها المـسخر لخدمتكم. فـإذا كنتُ قد جئتُ للأجناس كلهـا وجعلتُها دونكـم وأعطيتهـا مـا يـصلحها ويقيمهـا ووضـعت لهـا نظامـا، وأعطيتهـا مـن الغرائـز مـا يكفـى لـصلاح أمرهـا حتـى تـؤدى مهمتهـا معكـم عـلى صـورة تـريحكم، فـإذا كـان هـذا هـو شـأننا وعملنـا مع من يخدمكم فكيف يكون الحال معكم؟ إننى أنزلـت المـنهج الـذى يصلح حياة من استخلفتُه سيدا فى الأرض: "وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يطِيرُ بِجَنَاحَيهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى الكِتَابِ مِن شَىءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ" (الأنعام/ ٣٨).

وكـل الـدواب دون الإنـسان أعطاهـا الإلـه الإيـمان بـالفطرة، وهـداها إلى الـرزق بالغريزة. وميز الإنسان فوق كل الكائنات بالعقل، ولكـن الإنسان يستخدم عقله مرة استخداما سليما صحيحا فيصل إلى الإيمان، ويستخدمه مرة استخداما سيئا فيضل عـن الإيمان. وكان على الإنسان أن يعلم أنه تعلم محاكاة ما دونه من الكائنات: فقابيل تعلم مـن الغـراب كيـف يـوارى سـوأة أخيـه، ومـصمم الطـائرات تعلـم صـناعة الـطيران مـن دراسة الطيور. إذن كان يجب أن يتعلم الإنسان أن له خالقا جعل له من الأجناس ما تخدمه ليطور من حياته ومن رعاية كرامته بعد الموت. والمثال ما قالته نملة لبقية النمل: "حَتَّى إِذَآ أَتَـوْا عَـلَى وَادِ النَّمْـلِ قَالَـتْ نَمْلَـةٌ يآأَيهَـا النَّمْـلُ ادْخُلُـوا مَـسَاكِنَكُمْ لاَ يحْطِمَـنَّكُمْ سُـلَيمَانُ وَجُنُـودُهُ" (النمـل/ ١٨). إن النمـل أمـة لهـا حـرس، وقالـت حارسـة مـنهم هـذا

القول تحذيرا لبقية النمل. والله سبحانه يقول: "وَإِن مِّن شَيءٍ إِلَّا يسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ" (الإسراء/ ٤٤).

إذن فكل أمة من تلك الأمم الكثيرة التى خلقها الله فى الكون تسبح بحمده، ولكن لا يفهم أحد لغات تلك الأمم... ويقول الحق سبحانه وتعالى فى محكم آياته الكريمة: "مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يحْشَرُونَ" (الأنعام/ ٣٨). إذن كل شيء يحشر يوم القيامة. ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه: "لَتُؤَدُّنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقَادَ للشاة الجَلْحَاء من الشاة القَرْنَاء". أى أن الحق سبحانه يقتصّ من الشاة ذات القرون التى نطحت الشاة التى بلا قرون ويعوضها عن الألم الذى أصابها. وبعد أن يأخذ كل كائن من غير الإنس والجن حَقَّه يصير إلى تراب".

ويهمنى فى هذا النص أن الشيخ يقول إن الحيوانات ستحاسَب. وليس فى الآية أنها ستحاسب بل أن أمم الدواب الأرضية والطير سوف تحشر، ثم لا شىء آخر. وقد سبق أن قال الإمام الطبرى عميد المفسرين بحساب الحيوانات لدى تفسيره لهذه الآية، وإن كان قد عاد فى تفسيره للآية الخامسة من سورة "التكوير" فقال إن حشر الحيوانات والطيور لا يعنى إلا أنه سبحانه سوف يجمعها ثم يميتها، وهذا كل ما هنالك. وهو أيضا ما لاحظته فى تفسير "الكشاف" للزمخشرى، إذ قال فى تفسير آية "الأنعام" إنها ستحشر، ولكنه لما بلغ آية "التكوير" نكص عن رأيه السابق. وواضح أنه هو والطبرى قد نَسِيا ما كانا قد قالاه من قبل. وهذا قد يحدث لأى إنسان بوجه عام. لكنى كنت أتوقع أن تكون مثل تلك القضية حاضرة دوما فى ذهن العالمين الجليلين بحيث لا يفتيان فيها بفَتْوَيينِ متناقضتين.

ولْنَجْتَزِئْ بالطبرى، الذى نراه، فى تفسيره لقوله عز جلاله: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يطِيرُ بِجَنَاحَيهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيءٍ ثُمَّ إِلَى

رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ" (الأنعام/ ٣٨)، يقول بأنها سوف تحاسَب ويعذَّب منها ما اجترح ظلما فى حق أمثاله من العجماوات. وهذا نص كلامه: "يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل لهؤلاء المُعْرِضين عنك المكذّبين بآيات الله: أيها القوم، لا تَحْسَبُنّ الله غافلًا عما تعملون أو أنه غير مجازيكم على ما تكسبون. وكيف يغفل عن أعمالكم أو يترك مجازاتكم عليها، وهو غير غافل عن عمل شىء دبّ على الأرض صغير أو كبير ولا عمل طائر طار بجناحيه فى الهواء؟ بل جعل ذلك كله أجناسا مجنَّسة وأصنافا مصنَّفة، تعرف كما تعرفون وتتصرّف فيما سُخِّرتْ له كما تتصرّفون، ومحفوظ عليها ما عملت من عمل لها وعليها، ومُثْبَت كلّ ذلك من أعمالها فى أمّ الكتاب. ثم إنه، تعالى ذكره، مميتها ثم مُنْشِرها ومجازيها يوم القيامة جزاء أعمالها. يقول: فالربّ الذى لم يضيع حفظ أعمال البهائم والدوابّ فى الأرض والطير فى الهواء حتى حَفِظ عليها حركاتها وأفعالها وأثبت ذلك منها فى أمّ الكتاب وحَشَرها ثم جازاها على ما سلف منها فى دار البلاء أَحْرَى ألا يضيع أعمالكم ولا يفرّط فى حفظ أفعالكم التى تجترحونها أيها الناس حتى يحشركم فيجازيكم على جميعها: إنْ خيرًا فخيرًا وإنْ شرًّا فشرًّا، إذ كان قد خصكم من نعمه وبسط عليكم من فضله ما لم يعمّ به غيركم فى الدنيا، وكنتم بشكره أحقّ، وبمعرفة واجبه عليكم أولى لما أعطاكم من العقل الذى به بين الأشياء تميزون والفهم الذى لم يعطه البهائم والطير الذى به بين مصالحكم ومضارّكم تفرّقون".

وبعد أن أورد آثارا تقول بأنها ستُبْعَث وتحاسَب، منها ما ورد عن أبى هريرة: "قال: يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة: البهائم والدوابّ والطير وكلّ شىء، فيبلغ من عدل الله يومئذٍ أن يأخذ للجَمّاء من القرناء، ثم يقول: كونى ترابا. فلذلك يقول الكافر: يا لَيْتَنِى كُنْتُ تُرابا"، ومنها ما ورد عن أبى ذَرٍّ: "قال: انتطحت شاتان عند النبى صلى الله عليه وسلم، فقال لى: "يا أبا ذَرّ، أتَدْرِى فِيمَ انْتَطَحتَا؟". قلت: لا. قال: "لَكِنِ اللّهُ يدْرِى، وَسَيقْضِى بَينَهُما". قال أبو ذرّ: لقد تركَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما

يقلّب طائر جناحيه فى السماء إلاّ ذكرنا منه علما"، وبعد أن أورد الطبرى كذلك آثارا أخرى بأنها ستموت فقط ولا تُبْعَث، ينتهى إلى أن "الصواب من القول فى ذلك عندى أن يقال: إن الله تعالى أخبر أن كلّ دابة وطائر محشور إليه. وجائز أن يكون معنيا بذلك حشر القيامة، وجائز أن يكون معنيا به حشر الموت، وجائز أن يكون معنيا به الحشران جميعا. ولا دلالة فى ظاهر التنزيل ولا فى خبر عن النبى صلى الله عليه وسلم أى ذلك المراد بقوله: "ثُمّ إلى رَبّهِمْ يحْشَرُونَ"، إذ كان الحشر فى كلام العرب الجمع، ومن ذلك قول الله تعالى: "والطّيرَ مَحْشُورَةً كُلّ لَهُ أوّابٌ"، يعنى: "مجموعة"، فإذ كان الجمع هو الحشر، وكان الله تعالى جامعا خلقه إليه يوم القيامة وجامعهم بالموت كان أصوب القول فى ذلك أن يعَمّ بمعنى الآية ما عَمّه الله بظاهرها وأن يقال: "كلّ دابة وكلّ طائر محشور إلى الله بعد الفناء وبعد بعث القيامة"، إذ كان الله تعالى قد عمّ بقوله: "ثُمّ إلى رَبّهِمْ يحْشَرُونَ" ولم يخصص به حشرا دون حشر".

هذا ما قاله الطبرى وأكده لَدُنْ شَرْحِه لما جاء فى الآية المذكورة، وإن كان قد أورد أثناء تناوله للآية، كما رأينا، أثرين: أحدهما عن أبى هريرة، والآخر عن أبى ذر، ينصّان على أنها سوف تبعث وتحاسب. ولكنه لم يعتمد فيها اختاره من رأى على هذين الأثرين، بل على أنه لم يرد عن الرسول شىء فى ذلك، وأن كلمة الحشر كلمة عامة، فالأَوْلَى إذن حَمْلُها على كل ما تدل عليه من معان مختلفة. ومع هذا كله فإنه، حين تناول قوله تعالى فى الآية الخامسة من سورة "التكوير": "وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ"، وبعد أن ساق الآراء المختلفة فى تفسير "الحشر" فيها من أنه الموت والجمع والاختلاط والبعث والحساب، أنهى كلامه فى تلك القضية بقوله: "وأَوْلَى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال: "معنى حُشِرَتْ: جُمِعَتْ فأُمِيتَتْ" لأن المعروف فى كلام العرب من معنى الحشر الجمع. ومنه قول الله: "والطّيرَ مَحْشُورَةً (لمشاركة داود فى التأويب لربه)، يعنى:

مجموعة، وقوله: "فَحَشَرَ (أى حشر فرعونُ السحرةَ من كل أنحاء مصر) فَنادَى". وإنما يُحْمَل تأويل القرآن على الأغلب الظاهر من تأويله لا على الأنكر المجهول".

وهو ما يعنى أنه قد قال بالقول ونقيضه فى قضية واضحة تمام الوضوح لا تحتمل تناقضا. كما أنه، عندما اختار القول بأن الحشر معناه البعث والحساب، لم يستند إلى الآثار الواردة فى ذلك، بل إلى عقله وتحليله المنطقى واللغوى كما رأينا. كذلك كان عليه، عندما اختار القول بأن الحشر هو مجرد الجمع، إما أن يردّ الآثار الواردة بخلاف هذا المعنى والتى ذكرها هو نفسه ويبين أنها آثار غير مقبولة، وإما أن يقول إنها آثار صحيحة، لكن الكلام فيها على المجاز. بيد أنه للأسف لم يفعل هذا ولا ذاك. أى أنه فى كلا الحالين لم يصنع ما كان ينبغى أن يصنعه، وهو أمر غريب، وبخاصة أنه، نوَّر الله جَدَثه، ليس مفسرا ولا عالما عاديا، بل أحد كبار العلماء وعميد المفسرين فى كل العصور.

وأرى أننا إذا ما قبلنا الآثار الواردة فى حساب الحيوان فالأفضل عندئذ حملها على المجاز، والقرآن مفعم بالعبارات المجازية كقوله تعالى: "وبلغت القلوب الحناجر"، "نَسُوا الله فنَسِيهم"، "ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى"، "وقالوا: قلوبنا فى أَكِنَّةٌ مما تدعونا إليه، وفى آذاننا وَقْرٌ، ومن بيننا وبينك حجاب"، "هنّ (أى الزوجات) لباسٌ لكم، وأنتم لباسٌ لهنّ"، "إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيَصْلَوْن سعيرا"، "نساؤكم حرثٌ لكم"، "وأقرِضوا الله قرضا حسَنا". وإلا فهل ستعاقَب الحيوانات الظالمة فقط كما يفهم من نصوص هذه الآثار ولا تثاب الحيوانات الطيبة؟ فأى حساب هذا الذى لا يعرف غير العقاب؟ ثم ماذا عن الطيور؟ أليس هناك طيور تمارس قوتها وشراستها على غيرها من الطيور الضعيفة بل قد تأكلها هى وأولادها وتدمر أعشاشها؟ أم إن الحساب لا علاقة له بالطيور؟ وماذا عن الزواحف كالثعابين، والحشرات كالصراصير والخنافس، والهداهد وأباء قردان

والفتاتيح والفراش والنحل والزنابير والبعوض والذباب والبراغيث والبق والديدان والخنافس والعناكب وبنات آوى والفيران والقطط والكلاب والثعالب والأسود والنمور والدببة والفيلة والرنَّة، وغير ذلك كثير؟ أم إن الحساب لن يشمل سوى الجِدَاء؟ ولكن لماذا؟ وإذا كان الله سوف يقتص للشاة الجلحاء من القرناء من أجل نطحة لا راحت ولا جاءت، وتتكرر كثيرا جدا بين الشياه وكأنها تتنفس، فماذا عن الإنسان وما ينزله بالحيوان والطير من آلام حين يذبحه ليأكله؟

وإذا كانت الحيوانات والطيور تمارس حياتها ونشاطاتها بالغريزة التى ركبها الله فيها ولا تستطيع أن تسيطر عليها، بله أن تلغيها وتتخلص منها، وهو ما أكده فضيلة الشيخ الشعراوى حين قال: "وكل الدواب دون الإنسان أعطاها الإله الإيمان بالفطرة، وهداها إلى الرزق بالغريزة. وميز الإنسان فوق كل الكائنات بالعقل"، فكيف يحاسبها سبحانه وتعالى على أنها اتبعت ما ركَّبه فى كيانها ولا يمكنها تجاهله؟ أم إن مبدأ "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها" لا ينطبق على الحيوان والطير؟ لكن لماذا ما دام هناك حساب وثواب وعقاب؟ ثم أى حساب هذا الذى يحيى فيه الله سبحانه الحيوانات والطيور ليعاقب العدوانى منها ثم يصيرها للتو ترابا؟ ترى ما فائدة مثل هذا الحساب؟ ولماذا لم يتركهم الله عز وجل ترابا بدلا من أن يوقظهم من موتهم ثم يعقد لهم مجلس حساب ينظر فى كل عمل وفى كل مظلمة ليأتى سبحانه فى النهاية فيحول الحيوانات والطيور إلى تراب كما كانوا؟ جل سبحانه عن العبث! والطريف أن الطيور التى يفترض بناء على هذا أنها سوف تحاسَب ثم تصير ترابا وينتهى أمرها سوف تقابلنا فى الجنة طعاما شهيا لأهل الحظ والسعادة: "ولحم طير مما يشتهون". فكيف؟

وقبل ذلك كيف يحاسب الله الحيوانات ويعذبها، وهو سبحانه القائل: "وما كنا معذِّبين حتى نبعث رسولا"؟ ترى أيكون الله قد اصطفى من بين الخراف والحمير والجاموس والغربان والهداهد واليمام... إلخ رسلا كلفهم دعوة بنى جنسهم إلى عبادة

الله الواحد الأحد ونبذ الأصنام والتظالم؟ لكن لماذا لم يأت ذكر ذلك فى القرآن؟ وحتى لو تابعنا بعض علماء المسلمين فى فهمهم لـ"الرسول" هنا على أنه هو "العقل" فهل تتمتع الحيوانات والطيور مثلنا بالعقل؟ إن القرآن كلما تكلم عن عدم استخدام البشر للعقل الذى وهبه لهم شبههم بالحيوانات بما يعنى أنهم ليس عندهم عقل ولا فهم. كما أنه كلما تحدث عن التكليف والرسل والجنة والنار لا يذكر سوى الإنس والجان ولا يشير إلى الحيوانات والطيور من بعيد ولا من قريب.

الواقع أنه لو كان ثم حساب وعقاب يوم القيامة للحيوانات فلسوف يكون يوما على الأسود والنمور والفهود والفيول والتماسيح والثعابين والأفاعى والنسور والصقور أسود من قرن الخروب لأن حياة هذه المخلوقات تقوم على الافتراس والقتل منذ أن تفتح عينيها فى الصباح وتقول: يا فتاح ياعليم، يا رزاق يا كريم! وليس عندها "يا أمى، ارحمينى"! ولكن لم، وهى لم تأت بشىء من عندها بل كانت تتبع غريزتها التى بثها الله فى كيانها، والتى لو تخلت عنها، ولا أدرى كيف، إذ ليس لديها عقل ولا ضمير ولا ذاكرة ولا تخيل للمستقبل، لما استطاعت العيش لحظة واحدة؟ أيجبرها المولى على شىء ثم يستدير فيعاقبها عليه، ثم يحولها بعد ذلك إلى تراب؟ أمَا كان أغنى الضارب والمضروب والقاتل والمقتول والسارق والمسروق من الحيوانات والطيور وما أشبه عن الإحياء والحساب والإماتة والإعادة إلى التراب من جديد؟ وكله كوم، والثعلب كوم آخر. ترى كيف نصنفه؟ وأين نضعه؟ أتصور أنه ينبغى أن يوضع مع المنافقين رأسا برأس مع زعيمهم عبد الله بن أُبَىّ بن سلول. إنه يتسحَّب ويبدى لنا ما يخفى عكسه فى قلبه ولا يتحرك إلا فى الظلام ولا تأخذه شفقة ولا رحمة بالدجاج المسكين ويريد أن يحرمنا نحن البشر من هذا الطعام اللذيذ، وهذا فى حد ذاته جريمة بشعة قائمة بذاتها. وهو من ثم يناسبه أن يحشر ويوضع فى جهنم الحمراء مع المنافقين المكارين. ولكن هل أساء ثعلبنا الظريف إلى رسول الله أو تآمر على دينه وأتباعه؟ أبدا. فكيف يعذبه الله

بالنار؟ ثم إذا كان هذا هو حال الشاة القرناء التى نطحت زميلتها الجلحاء فما الذى سوف ينتظر بنى آدم يوم الحساب والعقاب، وهم لم ينطحوا الشاة فقط، بل أمسكوها هى والبقرة والجاموسة والأرنب والبطة والوزة وذبحوها وأكلوها وهضموها، وفى مواسير الصرف الصحى أفرغوها، وإلى البلاعات أرسلوها؟ وهذا هو رأيى فيما قاله شيخنا الشعراوى.

وفى أثناء تفسيره رحمه الله للآية ٥٣ من سورة "التوبة" يتطرق إلى قصةٍ كثيرا ما كنا نسمعها فى خطبة الجمعة ونحن صغار فيمصمص المصلون شفاههم ساخطين على صاحبها إن لم يلعنوه، وبخاصة أن اسمه "ثعلبة"، والثعلب، ذكرا كان أو أنثى، مشهور بالمكر والخداع والأذى. قال الشيخ المبجل إن "الحق سبحانه وتعالى يقول: "قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يتَقَبَّلَ مِنكُمْ". أى لن يقبل الله منكم ما تنفقونه. ولكن ما الفرق؟ لقد كان المنافقون يدفعون الزكاة ويقبلها الرسول منهم ولم يرفضها أدبا منه صلى الله عليه وسلم. فكل عمل يؤدَّى ثم يذهب إلى الرقيب الأعلى، وهو الحق سبحانه وتعالى. ولكن حدث أن واحدا من هؤلاء هو ثعلبةُ طَلَبَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو له بالغنى، فلما دعا له ورزقه الله الرزق الوفير بَخِل عن الزكاة، وحاول أن يتهرب من دفعها، فنزل القول الكريم: "وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّآ آتَاهُمْ مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُمْ مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَى يوْمِ يلْقَوْنَهُ بِمَآ أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يكْذِبُونَ " (التوبة/ ٧٥- ٧٧).

وعندما نزلت هذه الآيات جاء ثعلبة ليدفع الزكاة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يقبلها منه. وعندما تُوُفِّى رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ثعلبةُ إلى أبى بكر رضى الله عنه، فلم يقبل منه الزكاة. وبعد أبى بكر جاء إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فلم يقبلها منه. ومات ثعلبة فى عهد عثمان. هذا هو عدم القبول. ولكن هناك

فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من دفع الزكاة من المنافقين وقُبِلَتْ منه، ولكن الله لم يتقبلها منه. إذن فكل عمل قد يقْبَل من فاعله، ولكن الله سبحانه وتعالى قد يتقبله أو قد لا يتقبله. إذن فالآية معناها أن الله لن يتقبل من هؤلاء المنافقين إنفاقهم فى الخير ولو تقبله البشر. ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى السبب فى ذلك فيقول: "إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ"...".

وقد كنا نتلقى هذه القصة بالقبول والتصديق، فهكذا يقول الخطباء، وهى موجودة فى بعض كتب التفسير والتاريخ، ولم نسمع أن أحدا اعترض عليها أو تشكك فيها أو حتى توقف مجرد توقف إزاءها لأى سبب من الأسباب، إلى أن كنت فى الطائف فى النصف الأول من تسعينات القرن الماضى معارا إلى كلية التربية هناك، وهى تابعة لجامعة أم القرى بمكة المكرمة، وعلمت أن لزميلنا الأردنى د. عداب الحمش كتيبا يدافع فيه عن ثعلبة وينفى تماما ما يقال عنه، مؤكدا أنه لم يكُ من المنافقين، وليس هو الذى نزلت فيه الآيات المشهورة فى سورة "التوبة". ثم انطوى الأمر كله فى ركن من أركان الذاكرة لم يتعرض من يومها للنور حتى الليلة الحالية التى قرأت فيها ما قاله الشيخ الشعراوى عن ثعلبة، فأحببت أن أتناول الموضوع بدورى لأهميته.

وقبل مناقشة هذه القصة ينبغى أن نوردها بتمامها حسبما رواها صاحب "أُسْد الغابة فى معرفة الصحابة": "ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عبيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس الأنصارى شهد بدرا. قاله محمد بن إسحاق وموسى بن عقبة. وهو الذى سأل النبى صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله أن يرزقه مالا... عن أبى أمامة الباهلى قال: جاء ثعلبة بن حاطب الأنصارى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقنى مالا. فقال: "ويحك يا ثعلبة! قليلٌ تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه". ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقنى مالا. قال: "أمَا لكَ فِيَّ أسوةٌ حسنةٌ؟ والذى نفسى بيده

لو أردت أن تَسِير الجبال معى ذهبا وفضة لسارت". ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقنى مالا. والذى بعثك بالحق لإن رزقنى الله مالا لأُعْطِينَّ كلَّ ذى حقٍّ حَقَّه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللّهم ارزق ثعلبة مالا، اللّهم ارزق ثعلبة مالا". قال: فاتخذ غنما، فنَمَتْ كما ينْمِى الدود، فكان يصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر، ويصلى فى غنمه سائر الصلوات، ثم كثرت ونمت، فتقاعد أيضا حتى صار لا يشهد إلا الجمعة، ثم كثرت ونمت فتقاعد أيضا حتى كان لا يشهد جماعةً ولا جمعةً. وكان إذا كان يوم جمعة خرج يتلقى الناس يسألهم عن الأخبار، فذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال: "ما فعل ثعلبة؟". فقالوا: يا رسول الله، اتخذ ثعلبةُ غنمًا لا يسعها وادٍ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة!". وأنزل الله آية الصدقة، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من بنى سليم ورجلا من بنى جهينة، وكتب لهما أسنان الصدقة: كيف يأخذان، وقال لهما: "مُرَّا بثعلبة بن حاطب وبِرَجُلٍ من بنى سليم فخذا صدقاتهما". فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ما هذه إلا جزية! ما هذه إلا أخت الجزية! انطلِقا حتى تَفْرُغا ثم عُودَا إلى. فانطلَقا وسمع بهما السلمى، فنظر إلى خيار أسنان إبله فعَزَلها للصدقة، ثم استقبلهما بها، فلما رأياها قالا: ما هذا عليك. قال: خذاه، فإن نفسى بذلك طيبة. فمَرَّا على الناس وأخذا الصدقة، ثم رجعا إلى ثعلبة، فقال: أَرُونِى كتابكما. فقرأه فقال: ما هذه إلا جزية! ما هذه إلا أخت الجزية! اذهبا حتى أرى رأيى. فأقبلا، فلما رآهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلماه قال: "ويح ثعلبة!". ثم دعا للسلمى بخير، وأخبراه بالذى صنع ثعلبة، فأنزل الله عز وجل: "وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ

وبِمَا كَانُوا يكْذِبُون"، وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة سمع ذلك، فخرج حتى أتاه، فقال: ويحك يا ثعلبة! قد أنزل الله عز وجل فيك كذا وكذا. فخرج ثعلبة حتى أتى النبى صلى الله عليه وسلم، فسأله أن يقبل منه صدقته، فقال: "إن الله تبارك وتعالى منعنى أن أقبل منك صدقتك". فجعل يحثى التراب على رأسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذا عملك. قد أمرتُك فلم تطعنى". فلما أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبض صدقته رجع إلى منزله، وقُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقبض منه شيئا.

ثم أتى أبا بكر رضى الله عنه حين اسْتُخْلِف، فقال: قد علمتَ منزلتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضعى من الأنصار، فاقبل صدقتى. فقال أبو بكر: لم يقبلها رسول الله منك. أنا أقبلها؟ فقُبِض أبو بكر رضى الله عنه ولم يقبلها. فلما وَلِى عمرُ أتاه فقال: يا أمير المؤمنين، اقبل صدقتى. فقال: لم يقبلها منك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر. أنا أقبلها؟ فقُبِض ولم يقبلها. ثم ولى عثمان رضى الله عنه، فأتاه فسأله أن يقبل صدقته، فقال: لم يقبلها رسول الله ولا أبو بكر ولا عمر. أنا أقبلها؟ ولم يقبلها. وهلك ثعلبة فى خلافة عثمان رضى الله عنه. أخرجه الثلاثة، ونسبوه كما ذكرناه. وكلهم قالوا: إنه شهد بدرا، وقال ابن الكلبى: ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عبيد بن أمية، يعنى ابن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف الأنصارى من الأوس، شهد بدرا، وقُتِل يوم أحد. فإن كان هذا الذى فى الترجمة فإما أن يكون ابن الكلبى قد وهم فى قتله، أو تكون القصة غير صحيحة، أو يكون غيره، وهو هو لا شك فيه.

وأول كل شيء أن العلماء يذكرون ثعلبة بين من شهدوا بدرا. وبالفعل فابن إسحاق مثلا، فى السيرة النبوية، يورده ضمن البدريين. ويتفق هؤلاء العلماء على أن أهل بدر لا يمكن أن يتَدَهْدَوْا إلى النفاق على النحو الذى تصوِّر به القصةُ المذكورةُ ثعلبةَ بنَ حاطب الأنصارى. كما أن الرسول عليه السلام قد منع عمر بن الخطاب أن

يقتل حاطب بن أبى بلتعة، وكان بدريا، جراء إرساله خطابا لأهل مكة ينبههم فيه إلى أن النبى ينوى أن يغزوهم. وقد دفع ابنَ أبى بلتعة إلى هذا خوفُه على ما كان لديه فى مكة من مال، فأراد أن يتقرب بهذه اليد إليهم حتى لا يصادروه. ولما انكشف الأمر وقُبِض فى الطريق على المرأة حاملة الخطاب قبل وصولها إلى مكة اقترح ابن الخطاب أن يقتل الصحابىَّ البدرىَّ مرسلَ الخطاب، لكن النبى رفض رفضا باتا، وقال كلمته الخالدة: "لعل الله اطَّلَع على أهل بدر فقال لهم: افعلوا ما شئتم، فقد غفرت لكم"، وذلك لليد الكريمة التى أَوْلَوْها الإسلامَ فى تلك الآونة العصيبة قبل أن يستقر أمره فى المدينة وتقوى شكيمة المسلمين ويكثر عددهم ويصير للإسلام جاذبية.

ثم كيف يستعمل ثعلبةُ كلمة "الجزية" فى غير موضعها، وهى لم تستعمل حتى ذلك الحين إلا فى الرومان، الذى أرادوا أن يغزوا المدينة، فجيش لهم النبى جيشا أراد أن يريهم به أن المسلمين ليسوا بالصيد الهين نزولا على قوله تعالى فى سورة "التوبة": "قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآَخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)"، وهو وضع لا ينطبق بأى حال على ثعلبة، بل الأمر محتاج إلى حرب بين المسلمين وبين من لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ينتصر فيها المسلمون ويذِلّ فيها أعداؤهم؟ فأين هذا من وضع ثعلبة، وهو مهما يكن من إخلاصِه أو دَخَلِه مُوَاطِنٌ من مواطنى دولة المدينة؟ ثم هل كان ثعلبة ليفكر فى اتخاذ هذا الموقف الذى لا يستطيع أن ينهض بتبعاته؟ وهل كان الرسول ليتركه دون أن يستدعيه ويواجهه بعصيانه وتمرده؟ هل كل من يخرج على الدولة كان الرسول يتركه لحال سبيله؟ ألا إن هذا لغريب. ثم أين عمر المتحمس فلم يظهر فى الصورة مهددا متوعدا على عكس حالات أخرى كان متحمسا لأن يقتل أو يعاقب عقابا صارما من يحسبه من المنافقين أو الخائنين؟

كذلك فالإسلام لا يغلق باب التوبة أبدا فى وجه أى إنسان حتى يغرغر: "إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا" (النساء/ ١٧). وفى الحديث: "اجتمعَ أربعةٌ من أصحابِ النَّبى صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، فقالَ أحدُهُم: سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ: إنَّ اللَّهَ يقبلُ توبةَ العبدِ قبلَ أن يموتَ بيومٍ. فقالَ الآخرُ: أنتَ سمِعتَ هذا من رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ؟ قالَ: نعم. قالَ: وأَنا سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ: إنَّ اللَّهَ يقبلُ توبةَ العبدِ قبلَ أن يموتَ بنصفِ يومٍ. فقالَ الثَّالثُ: أنتَ سمِعتَ هذا من رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ؟ قالَ: نعم. قالَ: وأَنا سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ يقول إنَّ اللَّهَ يقبلُ توبةَ العبدِ قبلَ أن يموتَ بضحوةَ. قالَ الرَّابعُ: أنتَ سمِعتَ هذا من رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ؟ قالَ: نعم. قالَ: وأَنا سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ إنَّ اللَّهَ يقبلُ توبةَ العبدِ ما لم يغَرْغِرْ بنفسِهِ".

بل إن الله سبحانه لينادى عباده الذين أسرفوا على أنفسهم ألا يقنطوا من رحمة الله، لأنه يغفر الذنوب جميعا ولأنه هو الغفور الرحيم كما تقول الآية ٥٣ من سورة "الزُّمَر". ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أَيها الناسُ، توبوا إلى ربِّكم، فواللهِ إنى لأتوبُ إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ فى اليومِ مائةَ مَرَّةٍ"، "إنَّ اللهَ تعالى يبْسُطُ يدَهُ بالليلِ ليتوبَ مُسِيءُ النهارِ، ويبسطُ يدَهُ بالنَّهارِليتوبَ مُسِيءُ الليلِ، حتى تطلُعَ الشمسُ من مغرِبِها"، "إذا كان ثُلُثُ الليلِ أو شَطْرُه ينزِلُ اللهُ إلى سماءِ الدنيا فيقولُ: هل من سائلٍ فأُعْطِيه؟ هل من داعٍ فأستجيبَ له؟ هل من تائبٍ فأتوبَ عليه؟ هل من مستغفِرٍ فأغفرَ له؟ حتى يطْلُعَ الفجر"

وتوبة ثعلبة، حسب القصة التى بين أيدينا، توبة حارة بل لاهبة، إذ ما إن سمع بما نزل فى حقه من وحى حتى انطلق من فوره إلى النبى يعلن ندمه واستغفاره ومعه الزكاة

المطلوبة منه، ويضع التراب على رأسه تعبيرا عن الخوف من الله والندم على ما صنع والخجل مما فرط منه. ولم يعْهَد عن النبى أنه كان يرد تائبا. فماذا ننتظر من التائب حتى تكون توبته حقيقية ونقبلها؟ وهذا إن كان لنا أن نشكك فى صحة التوبة، أية توبة. ومعروف أن الإنسان فى الإسلام يؤخذ، فى مثل تلك الحالات، بظاهره دون محاولة التنقيب عما فى قلبه.

ولدينا هذا الحديث الجميل: "كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعةً وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلمِ أهلِ الأرضِ، فدُلَّ على راهبٍ، فأتاه فقال إنَّه قتل تسعةً وتسعين نفسًا، فهل له من توبةٍ؟ فقال: لا. فقتله فكمَّل به مائةً. ثمَّ سأل عن أعلمِ أهلِ الأرضِ فدُلَّ على رجلٍ عالمٍ، فقال إنَّه قتل مائةَ نفسٍ، فهل له من توبةٍ؟ فقال: نعم. ومن يحولُ بينه وبين التَّوبةِ؟ انطلق إلى أرضِ كذا وكذا، فإنَّ بها أُناسًا يعبدون اللهَ، فاعبُدِ اللهَ معهم، ولا ترجِعْ إلى أرضِك، فإنَّها أرضُ سوءٍ. فانطلق حتَّى إذا نصَف الطَّريقَ أتاه الموتُ، فاختصمت فيه ملائكةُ الرَّحمةِ وملائكةُ العذابِ، فقالت ملائكةُ الرَّحْمةِ: جاء تائبًا مقبلا بقلبِه إلى اللهِ. وقالت ملائكةُ العذابِ: إنَّه لم يعمَلْ خيرًا قطُّ. فأتاه ملَكٌ فى صورةِ آدمى، فجعلوه بينهم، فقال: قِيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتِهما كان أدنَى فهو له. فقاسُوه فوجدوه أدنَى إلى الأرضِ الَّتى أراد، فقبضتْه ملائكةُ الرَّحمةِ. قال قتادةُ: فقال الحسنُ: ذُكِر لنا أنَّه لمَّا أتاه الموتُ نأَى بصدرِه".

فانظر إلى هذا الحديث الرمزى البديع واسأل نفسك: أى الرجلين أعظم ذنبا؟ ولنلاحظ أيضا أنه فى الوقت الذى لم يصنع فيه قاتل المائة خيرا قط كان ثعلبة، طبقا للقصة، يحمل ما وجب عليه من صدقة ويحثو التراب على رأسه ندما وإيمانا وخوفا من الله وخجلا. كما أن ثعلبة كان فى عنفوان عافيته بخلاف القاتل، الذى مات فى منتصف الطريق. فهل يعقل أن يصور الرسول العظيم أمر التوبة هذا التصوير المفعم بالأمل والطمأنينة، ثم عند التطبيق يتراجع هذا التراجع غير المفهوم؟

ثـم لقـد رأينـا ثعلبـة فى القـصة يـأتى إلى أبـى بكـر وعمـر فيقـول لكـل منهما إنـه كـان صـاحب مكانـة عنـد رسـول الله. فهـل يعقـل أن يكـون بهـذه الـسذاجة فيظـن أنهـما سـوف يصدقان كذبته هذه، والجميع بقاصيهم ودانيهم يعلم أنه لم تكن له أية مكانة عند رسـول الله بـل لقـد رفـض الرسـول رفـضا باتـا أن يقبـل منـه الـصدقة ورده ردا شـديدا وقـال لـه مرارا: ويحك يا ثعلبة؟ ثم كيف يرفض النبى وصاحباه من بعده أن يتقبلا الصدقة منه؟ إنهـا حـق الفقـراء والمـساكين، فكيـف يحُرَم مـستحقوها منهـا؟ كـما أن الدولـة قـد حاربـت مـانعى الزكـاة بعـد مـوت النبـى ولم تتركهـم ومـا فعلـوا دون عقـاب. فلِمَ كـان هـذا الموقـف الغريب من ثعلبة وحده؟ أما كلام الآية أن الله لن يتقبل من المنافقين نفقاتهم فمعناه أنه لـن يأجرهـم عليهـا يـوم القيامـة. وأمـا إذا كـان قـد اسْتُشْهِد بأُحُد فقـد "قطعـتْ جَهِيزَةُ قـولَ كلِّ خطيب".

وهنـاك نقطـة مهمـة فى الموضـوع، فبقيـة الآيـات التـى يقـال إنهـا نزلـت فى ثعلبـة تقـول: "أَلَمْ يعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلامُ الْغُيوبِ (٧٨) الَّذِينَ يلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يجِدُونَ إِلا جُهْدَهُمْ فَيسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠)"، مما لا ينطبق على ثعلبة، إذ لم تذكر القصة أنه كان يسخر من المسلمين الـذين كـانوا لا يملكـون سـوى القليـل، ومـع هـذا كـانوا يخرجـون صـدقاتهم طيبـى الـنفس بها، أو أن النبى كان يستغفر له مرارا حتى نزلت الآيات بهذا الحسم الشديد تحرم عليه الاستغفار، بـل رفـض النبـى زكاتـه عـلى الفـور دون أى تـردد أو إبطـاء ولم يتقبـل منـه نـدما ولا توبة ولا تعاطَفَ معه بتاتا.

وكيف تقول الآيات الأولى إن الله قد أعقب امتناعَه عن الصدقة نفاقًا فى قلبه إلى يـوم يلقـاه، وقـد رأينـا ثعلبـة مـا إنْ عَلِـم بنـزول قـرآن فيـه حتـى انـتفض مـن فـوره قاصـدا

الرسول يناشده العفو ويبدى الندم والألم ويسلمه الزكاة ويكبش التراب ويضعه على رأسه، ثم لا ييأس من رَوْح الله فيظل يفِد على الخليفة الجديد طوال بضع عشرة سنة لا يكِلُّ ولا يمَلُّ طامعا أن يطووا معه تلك الصفحة السيئة؟ أهذا سلوكُ مَنْ تغلغلَ النفاقُ فى قلبه إلى الأبد فلا يخرج منه دَهْرَ الداهِرِين؟ كما وصفته الآية الأخيرة بأنه كَفَرَ بالله ورسوله. فأين الكفر هنا، وكل ما فعله الرجل بعد تنبيه أقاربه له يدل على أنها كانت نزغة من الشيطان سرعان ما ألقاها بعيدا عن قلبه واستقام؟

وإذا كان القرآن، قبل آيات ثعلبة المزعومة مباشرة، يقول فى حق فريق من المنافقين أشد على الإسلام وأخطر فى الذنب من ثعلبة: "يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يكُ خَيرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى الأَرْضِ مِنْ وَلِى وَلا نَصِيرٍ (٧٨)" واعدا إياهم أنهم إذا تابوا تاب الله عليهم وكان خيرا لهم فكيف نظن أن الرسول يرفض توبة ثعلبة؟

وفى سورة "الفتح" نقرأ الآيات التالية، وهى فى قبائل نكلت عن الخروج مع رسول الله تلبية لنداء الجهاد فى سبيل الله، ومع هذا لم يغلق الله فى وجهها الباب بل اشترط عليهم أن يثبتوا بسلوكهم الجديد أنهم تغيروا وتابوا، وهذا كل ما هنالك: "سَيقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ ينْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُينَ ذَلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَنْ لَمْ يؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يغْفِرُ لِمَنْ يشَاءُ وَيعَذِّبُ مَنْ يشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٤) سَيقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يرِيدُونَ أَنْ يبَدِّلُوا

كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يفْقَهُونَ إِلا قَلِيلا (١٥) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦)".

وفى سورة "الفرقان" لدى الحديث عن المؤمنين يثنى عليهم ربهم بأنهم "لا يشركون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون"، ثم تخرج الآية عن طريقها منعطفة إلى من يجترح تلك الكبائر فتتوعده قائلة "يضاعَفْ له العذابُ يوم القيامة ويخْلُدْ فيه مُهَانًا" لتعود فتستثنى التائب قائلة إن المولى سبحانه سوف يبدل سيئاته حسنات: "وَالَّذِينَ لَا يدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يزْنُونَ وَمَنْ يفْعَلْ ذَلِكَ يلْقَ أَثَامًا (٦٨) يضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يوْمَ الْقِيامَةِ وَيخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يبَدِّلُ اللَّهُ سَيئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١)". ومن صفات المتقين حسبما نقرأ فى سورة "آل عمران" أنهم هم الذين يفعلون كذا وكذا "وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)".

ولدينا أيضا قصة كعب بن مالك الشاعر المعروف ومرارة بن ربيعةَ العامرى وهلال بن أميةَ الواقفى، الذين تخلفوا فى المدينة عن غزوة تبوك، وتركوا الرسول والمسلمين فلم يخرجوا معهم للحرب ترددًا وتجنبًا للحر، وبخاصة أن الوقت كان وقت حصاد رغم أنه كان فى نيتهم الخروج مع الخارجين وتجهزوا لذلك فعلا، ثم لما عاد المسلمون من الغزو قاطعوهم، ثم انتهى الأمر بنزول آيات فى أواخر "التوبة" تتوب

عليهم وتفتح لهم الباب ليعودوا من جديد إلى صدر الإسلام الحنون بعدما عاقبوا أنفسهم بأنفسهم، وكأن شيئا لم يكن. قال تعالى فى شأنهم: "لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِى وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلا إِلَيهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ".

وإذا كان الله عز شأنه يقول جل شأنه فى المنافقين بوجه عام فى سورة "النساء": "إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦)" فماذا نريد من ثعلبة أكثر من هذا إن كانت حكايته صحيحة؟ إن الإصرار، بعد ذلك كله، على صحة قصة ثعلبة من شأنه بث اليأس فى قلوب المذنبين، وبخاصة من قد يبخلون بأموالهم ويسوِّل لهم الشيطان التوقف عن إخراج الزكاة. وهل يكون ثعلبة أشد ذنبا من رأس النفاق ابن أبى سلول، وقد كان النبى ينوى الصلاة عليه حين طلعت روحه رغم كل الذى عمل، وقد عمل الدواهى وسوَّى الهوائل، وخالف صلى الله عليه وسلم عُمَرَ فى موقفه منه حين اعترض الفاروق على صلاته عليه لولا أنْ نزل القرآن ينهاه عليه السلام نهيا قاطعا عن الصلاة والاستغفار له؟

وأخيرا كيف يصدِّق الشيخ الشعراوى القصة بكل ما فيها من ثغرات واسعة ولا يستغرب ما زعمه مؤلفوها عن رفض النبى وخلفائه توبة الرجل، وشيخنا يقول للمسلم العاصى فى مفتتح تفسيره عند تناوله للبسملة فى أول "الفاتحة": "بعض الناس يتساءل: كيف أبدأ باسم الله، وقد عصيتُ وقد خالفتُ؟ نقول: إياك أن تستحى أن تقرأ القرآن وأن تبدأ باسم الله إذا كنت قد عصيت. ولذلك أعطانا الله سبحانه وتعالى

الحيثية التى نبدأ بها قراءة القرآن فجعلنا نبدؤه باسم الله الرحمن الرحيم. فالله سبحانه وتعالى لا يتخلى عن العاصى بل يفتح له باب التوبة ويحثه عليها ويطلب منه أن يتوب وأن يعود الى الله، فيغفر له ذنبه لأن الله رحمن رحيم. فلا تقل: إننى أستحى أن أبدأ باسم الله لأننى عصيته. فالله سبحانه وتعالى يطلب من كل عاصٍ أن يعود الى حظيرة الايمان، وهو رحمن رحيم. فاذا قلت: كيف أقول: "باسم الله"، وقد وقعت فى معصية أمس؟ نقول لك: قل: "باسم الله الرحمن الرحيم"، فرحمة الله تسع كل ذنوب خلقه، وهو سبحانه وتعالى الذى يغفر الذنوب جميعا"؟

كما يورد شيخنا، فى تعليقه على آية "الرحمن الرحيم" من "الفاتحة" كذلك، هذا الحديث القدسى الذى تنبجس الرحمات منه انبجاسا، والذى قرأت أنه حديث ليس له إسناد، لكن له مع هذا دلالته الشديدة الأهمية فى سياقنا الحالى. يقول الشيخ الكريم: "واقرأ الحديث القدسى لتعرف شيئا عن رحمة الله بعباده. يقول الله عز وجل: "ما من يوم تطلع شمسه إلا وتنادى السماء تقول: يا رب، ائذن لى أن أسقط كِسَفًا على ابن آدم، فقد طَعِم خيرَك ومَنَعَ شكرَك. وتقول البحار: يا رب، ائذن لى أن أغرق ابن آدم، فقد طعم خيرك ومنع شكرك. وتقول الجبال: يا رب، ائذن لى أن أطبق على ابن آدم، فقد طعم خيرك ومنع شكرك. فيقول الله تعالى: دعوهم! دعوهم! لو خلقتموهم لرحمتوهم. إنهم عبادى: فإن تابوا إلى فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم".

وفى "الفتوحات المكية" لابن عربى أنه لما وَلِيَ عثمانُ الخلافةَ جاءه ثعلبةُ بالزكاة، فأخذها منه متأوّلا أنها حق الأصناف الذين أوجب الله لهم هذا القدر فى عين هذا المال، وإن كنت أستغرب هذا لأنه لا يعقل أن يقبل ما رفضه النبى عليه السلام. وقد سَوَّغَ ابنُ عربى تصرفَ عثمان بأنه اجتهاد منه، وبخاصة أن النبى لم يفْتِ بعدم قبول زكاته، بل اكتفى بأنه هو نفسه لم يقبلها، وللرسول خصوصيات ينفرد بها ولا تلزم غيره صلى الله عليه وسلم كما قال الصوفى الأندلسى المشهور.

وفى تفسير الآية الثامنة من سورة "الرعد"، وهى عن الحمل والجنين وما إلى ذلك، قال الشيخ الشعراوى ما نصه: "يقول الحق سبحانه: "اللَّهُ يعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ". وما المناسبة التى يقول فيها الحق ذلك؟ لقد شاء الحق سبحانه أن يؤكد مسألة أن لكل قوم هاديا، وأن رسوله صلى الله عليه وسلم هو منذر، وأن طلبهم للآيات المعجزة هو ابنٌ لرغبتهم فى تعجيز الرسول صلى الله عليه وسلم. ولو جاء لهم الرسول بآية مما طلبوا لأصرُّوا على الكفر، فهو سبحانه العَالِم بما سوف يفعلون، لأنه يعلم ما هو أخفى من ذلك. يعلم، على سبيل المثال، ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد. ونحن نعلم أن كُلَّ أنثى، حين يشاء الله لها أن تحبل، فهى تحمل الجنين فى رحمها لأن الرحم هو مُسْتقرُّ الجنين فى بطن الأم.

وقوله تعالى: "وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ" (الرعد/ ٨)، أى ما تُنْقِص وما تُذْهِب من السَّقْط فى أى إجهاض، أو ما ينقص من المواليد بالموت. فغاضت الأرحام، أى نزلتْ المواليد قبل أن تكتمل خِلْقَتُها كأن ينقص المولود عينا أو إصبعا، أو تحمل الخِلْقة زيادة تختلف عما نألفه من الخَلْق الطبيعى كأن يزيد إصبعا أو أن يكون برأسين، أو أن تكون الزيادة فى العدد، أى أن تلد المرأة تَوْأَمًا أو أكثر، أو أن تكون الزيادة متعلقة بزمن الحَمْل.

وهكذا نعلم أنه سبحانه يعلم ما تغيض الأرحام، أى ما تنقصه فى التكوين العادى أو تزيده، أو يكون النظر إلى الزمن كأن يحدث إجهاض للجنين وعمره يوم أو شهر أو شهران، ثم إلى ستة أشهر. وعند ذلك لا يقال: إجهاض، بل يقال: ولادة. وهناك مَنْ يولَد بعد ستة شهور من الحمل أو بعد سبعة شهور أو ثمانية شهور. وقد يمتد الميلاد لسنتين عند أبى حنيفة، وإلى أربع سنوات عند الشافعى، أو لخمس سنين عند الإمام مالك. ذلك أن مدة الحمل قد تنقص أو تزيد. ويقال إن الضحاك وُلِد

لسنتين فى بطن أمه، وهَرِم بن حيان وُلِد لأربع سنين، وظل أهل أمه يلاحظون كِبَر بطنها واختفاء الطَّمْث الشهرى طوال تلك المدة، ثم ولدتْ صاحبنا. ولذلك سَمَّوْه: "هَرِم"، أى شابَ وهو فى بطنها. وهكذا نفهم معنى "تَغِيض" نَقْصًا أو زيادة، سواء فى الخِلْقة أو للمدة الزمنية.

ويقول الحق سبحانه: "وَكُلُّ شَىءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ" (الرعد/ ٨). والمقدار هو الكمية أو الكيف: زمانًا أو مكانًا أو مواهب ومؤهلات. وقد عَدَّد الحق سبحانه مفاتيح الغيب الخمس حين قال: "إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيَنَزِّلُ الْغَيثَ وَيعْلَمُ مَا فِى الأَرْحَامِ..." (لقمان/ ٣٤). وقد حاول البعض أن يقيموا إشكالًا هنا، ونسبوه إلى الحضارة والتقدم العلمى، وهذا التقدم يتطرق إليه الاحتمال، وكل شىء يتطرق إليه الاحتمال يبطل به الاستدلال، وذلك بمعرفة نوعية الجنين قبل الميلاد: أهو ذكر أم أنثى؟ وتناسَوْا أن العلم لم يعرف أهو طويل أم قصير؟ ذكى أم غبى؟ شقى أم سعيد؟ وهذا ما أعجز الأطباءَ والباحثين إلى اليوم وما بعد اليوم. ثم إنْ سألتَ: كيف عرف الطبيب ذلك؟ إنه يعرف هذا الأمر من بعد أن يحدث الحَمْل ويأخذ عينة من السائل المحيط بالجنين ثم يقوم بتحليلها. لكن الله يعلم دون أخذ عينة، وهو سبحانه الذى قال لواحد من عباده: "يازَكَرِيآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى" (مريم/ ٧). وهكذا نعلم أن عِلْم الله لا ينتظر عينة أو تجربة، فعِلْمُه سبحانه أزلى منزَّهٌ عن القصور، وهو يعلم ما فى الأرحام على أى شكل هو أو لون أو جنس أو ذكاء أو سعادة أو شقاء أو عدد.

وشاء سبحانه أن يجلى طلاقة قدرته فى أنْ تحمل امرأة زكريا عليه السلام فى يحيى عليه السلام، وهو الذى خلق آدم بلا أب أو أم، ثم خلق حواء من أب دون أم، وخلق عيسى من أم دون أب، وخلقنا كلنا من أب وأم. وحين تشاء طلاقة القدرة يقول سبحانه: "كُن. فَيكُونُ" (يس/ ٨٢). والمَثَل، كما قلت، هو فى دخول زكريا المحرابَ

على مريم عليها السلام، فوجد عندها رزقًا، فسألها: "أَنَّى لَكِ هَـٰذَا؟" (آل عمران/ ٣٧). قالت: "هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ" (آل عمران/ ٣٧).

وكان زكريا يعلم أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب، ولكن هذا العلم كان فى حاشية شعوره، واستدعاه قولُ مريم إلى بُؤْرة الشعور. فزكريا يعلم عِلْم اليقين أن الله هو وحده مَنْ يرزق بغير حساب. وما إنْ يأتى هذا القول مُحرِّكًا لتلك الحقيقة الإيمانية من حافَة الشعور إلى بُؤْرة الشعور حتى يدعو زكريا ربه فى نفس المكان ليرزقه بالولد، فيبشره الحق بالولد. وحين يتذكر زكريا أنه قد بلغ من الكِبَر عِتِيا وأن امرأته عاقر فيذَكِّره الحق سبحانه بأن عطاء الولد أمرٌ هَينٌ عليه سبحانه: "قَالَ كَذلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَينٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيئًا" (مريم/ ٩).

هذا ما قاله الشيخ رحمه الله. ولى على كلامه فى تفسير قوله عز شأنه: "اللَّهُ يعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ" بعض الأشياء. لقد استأثر الله سبحانه بعلم الغيب. ذلك أن علمه سبحانه لا حد له، فهو خالق كل شىء من عدم. وكيف يغيب عن علمه شىء خلقه؟ أمَّا نحن البشر فعلمنا قاصر ومحدود، ولا تعلُّق له بأمر من أشياء الغيب. والغيب قد يكون غيبا زمانيا، وقد يكون غيبا مكانيا، إلى جانب الغيب الروحى كالملائكة والجن، ولسنا بصدده الآن. فالأمر الذى لم يحدث بعد هو من النوع الأول، أما الأمر الذى يحدث الآن ولكن يحول بيننا وبين الاطلاع عليه حائل هو من النوع الثانى. "وما فى الأرحام" هو من الغيب المكانى. ذلك أن حواسّ البشر لا تصل إليه. وعلى هذا فهو من الأمور التى لا يعلمها إلا الله سبحانه. ولكن إذا زال الحجاب الذى يمنع البشر أن يعرفوا ما فى الأرحام فعندئذ لا يعود من الغيب. ذلك أن العلم والطب قد تقدما وأصبح مستطاعا رؤية الجنين على شاشة المرناء وهو لا يزال فى بطن أمه. فهل يعَدّ هذا من باب العلم بالغيب؟ لا طبعا، لأن الحاجز الذى يفصل بيننا وبين الجنين قد زال.

وهذا مِثْل ما لو جئنا إلى جدار يفصل بيننا وبين غرفة مجاورة ويمنعنا أن نرى أو نسمع أو نعرف أى شيء يدور فيها، فهدمناه. فعندئذ نسمع ونرى ونعرف ما فيها لأن الحاجز قد زال. إن ما كان غيبا أصبح بهذا من علم الشهادة. ولماذا نذهب بعيدا، وعندنا المناظير الطبية التى يطلع بها الطبيب على المعدة والمثانة من الداخل ويعرف ما فيها ويعالج ما أصابها من القُرَح؟ كذلك فكلنا نعرف المرناء، الذى ينقل لنا لا ما يدور داخل الجسم البشرى الذى أمامنا، بل ما يدور فى البلاد الأخرى وقد يكون بيننا وبينها عشرات الآلاف من الكيلومترات، وتفصلنا عنها صحارَى وجبال وبحار ومحيطات، وكذلك ما يدور فى سفن الفضاء على سطح القمر. لقد تقدم العلم. هذا صحيح، ولكن ذلك كله هو بفضل الله ونعمته، ولولا الله سبحانه ما استطاع الإنسان أن يحرك إصبعه ولا أن يكْمِل نَفَسه. المهم أن نكون على بينة من أن هذا كله لا يدخل فى باب معرفة الغيب، إذ ما دامت هناك آلات توصلنا بها كان مُغَيَّبًا فإنه لا يظل غَيبًا، بل يصبح أمرا من أمور علم الشهادة.

يقول الطبيب د. عبد الله عبادة إن قوله تعالى: "ما فى الأرحام" قد فُسِّرَتْ خطأً فى الأجيال الماضية بأنه ذكر وأنثى، وإنه قد تكون هناك موجات فوق صوتيه أو موجات مرئية أو تحليلات كيميائية تؤدى إلى معرفة جنس الجنين ذكرا أو أنثى، ولكن كلمة "ما فى الأرحام "ستظل مع ذلك من علم الغيب الذى لا يعلمه إلا الله". هذا ما يقوله أحد المتخصصين فى الطب فى كتاب صدر له قبل عدة عقود، ولكن الأستاذ محمد أحمد جمال (فى كتابه: "على مائدة القرآن"، الذى نُشِر لأول مرة فى الخمسينات) يستبعد استطاعة العلم الحديث أن يكشف نوع الجنين وهو لا يزال فى بطن أمه، مؤكدا أنه سوف تظل هناك أشياء حوله مجهولة كلون البشرة ولون العينين والقدرات العقلية والميول النفسية والطول والوزن... إلخ، وإن كان ممكنا أن تتقلص بعض هذه المجهولات مع تقدم العلم، الذى هو من الله سبحانه وتعالى وبفضله.

إن بعض المتعجلين يظنون أن معرفة هذه الأشياء حول الجنين مثلا تُصَادِم ما ورد فى هذه الآية وفى آخر سورة "لقمان" وكذلك ما ورد فى أحد الأحاديث النبوية من أن هناك خمسا لا يعلمهن إلا الله، ومن بينها "ما فى الأرحام"، ولا مصادمة. ذلك أن أحدا لا يعلم فعلا ما فى الأرحام إذا ظل الحجاب الذى يفصل ما فى الأرحام عما هو خارج الأرحام قائما إذ يظل ما فى الأرحام عندئذ غيبا من الغيب، وحينئذ لا يعرفه إلا الله، الذى يعلم السر وأخفى.

وللشيخ محمد الطاهر بن عاشور هنا، عند تفسيره للآية فى كتابه: "تفسير التحرير والتنوير" ملاحظة أسلوبية، إذ قال ما مُفَاده أن استعمال القرآن كلمة "تحمل" بدلا من "تحبل" دلالة على أن المقصود أنثى الإنسان والحيوان على السواء لأن "الحبل" لا يستعمل إلا لأنثى البشر. وفاته أن القرآن قد تحدث فى بعض المواضع عن حمل المرأة فقط، وفى كل مرة كان يستعمل "الحمل"، ولم يحدث أن استخدم "الحبل" البتة. وهذه هى النصوص: "فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ"، "فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيا"، "حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ"، "حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا"، "وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عليهِنَّ حَتَّى يضَعْنَ حَمْلَهُنَّ". ومع ذلك فإنى أوافقه على أن المقصود أنثى الإنسان والحيوان جميعا، ولكن لاعتبار آخر، إذ ما دام القرآن لم ينص على أنها أنثى البشر، فلا داعى لقصر الكلام عليها، إلى جانب أن قوله تعالى "كل أنثى" يفيد التعميم.

وقد جاء فى بعض كتب التفسير أن الشافعى كان يقول إن أقصى مدة للحمل أربع سنين، أما مالك فكان يذهب إلى أنها خمس، على خلاف أبى حنيفة، الذى جعله سنتين (انظر الزمخشرى والألوسى فى تفسير الآية). كما جاء فى بعض الروايات أن هرم بن حيان قد بقى فى بطن أمه أربع سنين، ولذلك سمى: هرما (الزمخشرى فى تفسير الآية). وأشار القرطبى إلى أن مدة الحمل تصل إلى عشرة أعوام وزيادة. بيد أن محمد أسد (فى

ترجمته للقرآن إلى الإنجليزية) قد ذكر أن مدة الحمل قد تتجاوز ٢٨٠ يوما إلى ٣٠٥، ونَقَل عن بعض المتخصصين أنها قد تبلغ ٣٠٧ أيام (انظر الهامش الذى خصصه لهذه الآية فى ترجمته للقرآن). أما دائرة المعارف البريطانية (ط ١٥/ مجلد ١٤/ ٩٦٩) فقد ذكرت أن أقصى مدة للحمل هى من ٢٥٠ إلى ٢٨٥ يوما، وأن المحاكم مع ذلك قد تأخذ بأقل أو أكثر من هذه المدة كثيرا: فمثلا أخذت محكمة بولاية نيويورك ذات مرة بـ ٣٥٥ يوما (أى سنة شمسية تقريبا) على حين أن المحاكم البريطانية، بناء على استشارة أهل الاختصاص فى الطب، قد اعترفت فى بعض الحالات بـ٣٣١ يوما. كما ذكرت أن طفلا قد ولد تاما بعد ٢٢١ يوما محسوبة من اليوم التالى لا نقطاع آخر حيض لأمه.

ويوافق د. محمد على البار فى كتابه: "خلق الإنسان بين الطب والقرآن" (ط٤/ الدار السعودية للنشر والتوزيع/ ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م/ ٤٥١) ابن القيم على أن الشريعة والطبيعة قد تظاهرتا على أن أقل مدة للحمل هى ستة أشهر، ولكنه بالنسبة لأقصى مدة للحمل يقول إنه لا يزيد عند الأطباء عن شهر بعد موعده، وإلا مات الجنين فى بطن أمه، وإنهم يعدون ما زاد عن ذلك خطأ فى الحساب. وهو لهذا يرفض ما جاء فى كتب الفقه من حكايات عن مولودِين ذَوِى أسنان، وعن مولودِين لثلاث أو أربع سنين، مؤكدا أنها حكايات خرافية. وهو يسوق هنا رأى ابن حزم، الذى يستنبط من قولِه تعالى: "وحَمْلُه وفِصَالُه ثلاثون شهرا" وقولِه سبحانه: "والوالدات يرْضِعْن أولادَهن حَوْلَين كاملين لمن أراد أن يتِمّ الرَّضاعة" أنه لا يمكن أن تقل مدة الحمل عن ستة أشهر أو تزيد عن تسعة، ويكذّب من يقول بغير هذا.

وقد ذكر د. حسين محمد باجودة (فى كتابه: "تأملات فى سورة الرعد"/ ٧٤) أن علماء الغرب لا يعترفون فى الحمل بالزيادة عن تسعة أشهر، وأن زميلا له أخبره أن أستاذه القانونى قال له، بشأن الزيادة عن تسعة أشهر، إن مثل هذه الحالة ليست موجودة لديهم وليست معترفا بها. ومن الواضح أن هذا يخالف ما نقلتُه عن "دائرة

المعارف البريطانية". ويقول د. باجودة تعليقا على الموقف الغربى كما نمى إليه: "يبدو أن التحلل الذى يعيشه الغرب المادى هو الذى يجعله يفسر كل حالة زيادة بالمعنى السيئ الذى ينبغى فى نظره أن يفسر به". وقد رأينا أن ابن حزم هو أيضا لا يعترف بأكثر من تسعة أشهر. وها هو ذا دكتور مسلم متخصص فى الطب يرفض أيضا الحكايات التى وردت فى كتب الفقه عن ثلاث سنوات وأربع قائلا إنها حكايات خرافية لا صحة لها .

هذا، ومن عادة الشيخ الشعراوى، كلما تاحت له الفرصة، أن يشير إلى تشكيكات المستشرقين والمبشرين فى القرآن الكريم والشبهات التى يثيرونها حوله، وإن كان لا يذكر أحدا منهم بالاسم. لكنه عند تفسيره لآية سورة "الحجر" التى تتحدث عن "أصحاب الحجر" لا نسمع منه شيئا عن مستشرقين ولا مبشرين رغم أنهم كثيرا ما أجلبوا على القرآن فى هذا الموضوع زاعمين أنه، فى كلامه عن عاد وثمود، إنما يردد حكايات خرافية عارية عن أية قيمة تاريخية. ولهذا رأيتُ أن أُورِد حديث الشيخ وأُتْبِعه بما كتبه فى هذا الصدد د. زغلول النجار لتتبين للقارئ الكريم أهمية تناول القرآن الكريم لذلك الموضوع، وبخاصة أنه يشغلنى منذ وقت بعيد، وتناولته فى بعض كتاباتى، وإن لم آت فيه بشىء حاسم لأن معرفتى وقتذاك بما ورد فى حديث د. النجار كانت محدودة وشديدة الضيق، ولم أكن قد عرفت المشباك ولا كيفية التعامل معه بعد. أما بعد دخولى هذا العالم العجيب فقد صرت أسمع كثيرا عن قصور قوم صالح وبيوتهم ومدافنهم المزخرفة البديعة المنحوتة فى جسم الجبل نفسه، وهو ما لم أكن قبلئذ أستطيع أن أتخيله أو أفهم الآيات التى تتناوله بالحديث ولو فهما مقاربا.

لقد كنت أمر بالإشارات المتكررة فى القرآن الكريم إلى البيوت الفارهة التى كانت ثمود تنحتها من الجبال، فأتصورها مجرد كهوفٍ وغِيرَانٍ كان الثموديون يعيشون فيها كما يعيش البدائيون أو الخارجون على القانون فى مثل تلك المواضع إلى أن رأيت

على المشباك (الإنترنت) صورا لمبان رائعة الجمال والتصميم بارعة الهندسة والزخرفة نحتها الثموديون فى واجهات الجبال، فقلت فى نفسى: سبحان الله! وفهمتُ تلك الآيات من يومها الفهم اللائق بها، وعرفت مدى دقة القرآن وابتعاده عن إطلاق القول دون أساس.

قال الشيخ: "وأصحاب الحِجْر هم قوم صالح، وكانت المنطقة التى يقيمون فيها كلها من الحجارة، ولا يزال مُقَامهم معروفًا فى المسافة بين خيبر وتبوك. وقال فيهم الحق سبحانه: "أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ" (الشعراء/ ١٢٨– ١٢٩). وهم قد كذّبوا نبيهم صالحا... "وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيوتًا آمِنِينَ" (الحجر/ ٨٢). وهنا يمتنُّ عليهم بأنْ منحهم حضارةً، ووهبهم مهارة البناء والتقدُّم فى العمارة، وأخذوا فى بناء بيوتهم فى الأحجار ومن الأحجار التى كانت توجد بالوادى الذى يقيمون فيه، وقطعوا تلك الأحجار بطريقة تُتِيح لهم بناء البيوت والقصور الآمنة من أغيار التقلُّبات الجوية وغيرها.

ونعلم أن مَنْ يعيش فى خَيمة يعانى من قِلَّة الأمن، أما مَنْ يبنى بيته من الطوب اللَّبِن فهو اكثر أمْنًا مِمَّنْ فى الخيمة، وإنْ كان أقلَّ أمانًا من الذى يبنى بيته من الأسمنت المُسلَّح. وهكذا يكون أَمنْ النفس البشرية فى سكنها واستقرارها من قوة الشىء الذى يحيطها. وإذا كان قوم صالح قد أقاموا بيوتهم من الحجارة فهى بالتأكيد اكثر أَمْنًا من غيرهم. ونجد نبيهم صالحا، وقد قال لهم ما أورده الحق سبحانه فى كتابه الكريم: "وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيوتًا فَاذْكُرُوا آلآءَ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ" (الأعراف/ ٧٤). ولكنهم طَغَوْا وبَغَوْا وأنكروا ما جاء به صالح عليه السلام، فما كان من الحق سبحانه إلا أنْ أرسلَ عليهم صيحةً تأخذهم...: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيحَةُ مُصْبِحِينَ (الحجر/ ٨٣).

وهم إذا كانوا قد اتخذوا من جَبَلِية الموقع أَمْنا لهم فقد جاءت الصيحة من الحق سبحانه لِتَدُكَّ فوق رؤوسهم ما صنعوا. وقد قال الحق سبحانه عنهم من قبل فى سورة "هود": "وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَاثِمِينَ" (هود/ ٦٧). وقال سبحانه عنهم أيضًا: "فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ" (الأعراف/ ٧٨). والرَّجْفة هى الزلزلة، والصَّيحة هى بعض من توابع الزلزلة. ذلك أن الزلزلة تُحْدِث تموجا فى الهواء يؤدى إلى حدوث أصوات قوية تعصف بمَنْ يسمعها. وهم، حسب قَوْل الحق سبحانه، قد تمتَّعوا ثلاثة أيام قبل أنْ تأخذهم الصَّيحة كَوَعْد نبيهم صالح عليه السلام لهم: "فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيرُ مَكْذُوبٍ" (هود/ ٦٥). ويقول الحق سبحانه عن حالهم بعد أنْ أخذتهم الصَّيحة: "فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يكْسِبُونَ" (الحجر/ ٨٤)".

هذا ما قاله الشيخ الكريم، وقبل أن أسوق ما كتبه د. زغلول النجار أقف برهة إزاء ما قاله الشعراوى عن "الصيحة" التى يقول إنها دائما ما تصاحب الزلزال، وإنها تصعق من يسمعها. ولست أدرى من أين له بأن الصيحة تابع من توابع الزلزال. وقد حدث الزلزال فى حياتنا مرات فى بلادنا منذ كنا صغارا، ومرات ومرات ومرات فى بلاد أخرى من العالم ولم نسمع معه قط صيحة ولا ما يشبه الصيحة. بل لقد كنا نضحك أحيانا ونحن أطفال عند وقوعه، وحدث ذات مرة أن كنا صباحا فى الكُتَّاب مبكرين، وكنا نجلس فوق مسطبة فى وسط الكتاب كمن يجلس فوق حمار، فشعرنا وكأن المسطبة تتحرك بنا إلى الأمام، وكنا مغتبطين أشد الغبطة وقتذاك بهذا الشعور. ولو كانت الصيحة الصاعقة من توابع الزلازل لمات كل من يقع الزلزال فى منطقتهم ولم ينج منهم أحد. نعم كان عقاب ثمود يشتمل على الصيحة، لكن الصيحة لا تصاحب أى زلزال من الزلازل التى نعرفها.

وإلى القارئ ما قرأته فى مادة "الزلزال" فى "الموسوعة العربية العالمية" عن المخاطر التى تنتج عن الزلزال وتصاحبه، وها هى ذى: "تنهار الأبنية الأرضية أثناء الزلزلة، وذلك إن كانت ضعيفة جدا أو كانت صلبة إلى درجة لا تستطيع معها الثبات والصمود أمام القوى الكبيرة المطبقة على الصخور. وبالإضافة لهذا فقد تهتز المبانى فوق مساحات واسعة وتتصادم بعضها ببعض. وتعتبر النار سببًا رئيسيا فى الوَفَيات وتدمير الممتلكات أثناء الزلازل. وقد تنشب النيران إذا ما دمر الزلزال خطوط الغاز والكهرباء. ويعتبر زلزال سان فرانسيسكو عام ١٩٠٦م واحدًا من أسوإ الكوارث فى تاريخ الولايات المتحدة، وذلك بسبب النيران التى اتقدت بقوة لمدة ثلاثة أيام بعد وقوع الزلزال. وتشمل المخاطر الأخرى أثناء الزلزال اندلاق مواد كيميائية سامة وسقوط أجسام كفروع الأشجار وطوب وزجاج المبانى. كما قد تتحطم خطوط الصرف الصحى وينساب ماء المجارى إلى مصادر مياه الشرب العذبة. وقد يسبب شرب مثل هذا الماء غير النقى الكوليرا والتيفوئيد والدوسنتاريا وأمراضًا خطيرة أخرى. (كما أن) تعطل وتوقف القدرة الكهربائية ووسائل الاتصال وعمليات الانتقال والنقل الحاصلة بعد وقوع الزلزال تعيق عمل فرق الإنقاذ وسيارات الإسعاف، الأمر الذى يؤدى إلى مزيد من الوَفَيات والإصابات. ثم إن مكاتب الأعمال والمكاتب الحكومية قد تفقد سجلاتها ومواردها، الأمر الذى يبطِّئ عمليات الانتعاش والإغاثة بعد الكارثة". وكما يرى القارئ لا كلام عن صيحة أو صاعقة.

ثم ننتقل الآن إلى ما كتبه د. النجار، وفيه أشياء كثيرة جدا لم يتعرض لها الشيخ الجليل. وهذا طبيعى، فالدكتور النجار خريج كلية العلوم، فهو إذن متخصص فى العلوم الطبيعية، ومن ثم كان أقمن أن يكون كلامه فى هذا الموضوع أدق وأعمق وأوسع. قال: "لم يرد ذكر لقوم ثمود ولا لنبيهم صالح عليه السلام فى أى من العهدين القديم أوالجديد ولا فى أى من كتب التاريخ، وكذلك الأمر بالنسبة لأسلافهم قوم عاد

ونبيهم هود عليه السلام، بينما جاء ذكرهم فى هذه الآية الكريمة وفى أربع وعشرين آية قرآنية أخرى بمجموع ست وعشرين مرة فى خمس وعشرين آية وإحدى وعشرين سورة... كذلك جاء اسم نبى الله صالح عليه السلام عشر مرات فى القرآن الكريم. وكل ذلك من الحقائق التاريخية التى تشهد للقرآن الكريم بالصدق، وبأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية.

وتؤكد هذه الآيات أن قوم ثمود سكنوا منطقة الحِجْر وما حولها، ولذلك سماهم القرآن الكريم باسم "أصحاب الحِجْر"، وأنزل سورة باسم سورة "الحِجْر"، وأكدت الآيات أنهم كذبوا رسالات ربهم، وجاءت بالعديد من أوصافهم وصور عقابهم وإفنائهم. وفى ذلك يقول ربنا تبارك وتعالى: "وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ * وآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" (الحجر/ ٨٠- ٨٤).

وتؤكد الآيات القرآنية كذلك أن قوم ثمود جاءوا بعد هلاك قوم عاد، وهم قوم نبى الله هود عليه السلام، الذين أهلكهم الله تعالى بكفرهم بعد هلاك الكافرين من قوم نبى الله نوح على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. وفى ذلك يقول القرآن الكريم: "وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِى آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ

جَاثِمِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ" (الأعراف/ ٧٣ ٧٦)...

وكان من ذرية هؤلاء الناجين من قوم عاد مَنْ سكن منطقة "الحِجْر" فى أقصى الشمال الغربى من شبه الجزيرة العربية على الطريق القديم المؤدى من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مدينة تبوك، فى إقليم العلا، وكوَّنوُا قبيلة ثمود، التى عاشت على التوحيد فترة، ثم اجتالتهم الشياطين، فأشركوا بالله تعالى وعبدوا الأصنام والأوثان فبعث الله تعالى فيهم نبيه صالحا عليه السلام يدعوهم إلى التوحيد الخالص لله تعالى، فكذبوه وأنكروا نبوته وقاوموا دعوته، ثم طلبوا منه آيةً تشهدُ له بالنبوة، فأرسل الله تعالى إليهم آية "الناقة" كما طلبوها. وفى ذلك يقول القرآن الكريم على لسان نبيهم: "يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (الأعراف/ ٧٣).

وذكَّرهم نبيهم "صالح" عليه السلام بنعم الله تعالى عليهم، وفى ذلك تقول الآيات: "كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِى إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَا هُنَا آمِنِينَ * فِى جَنَّاتٍ وَعُيونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ وَلَا يصْلِحُونَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يوْمٍ مَعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" (الشعراء/ ١٤١- ١٥٩)...

والآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة تربط بين قومَى "عاد" و"ثمود"، وتؤكد أن ثمود هم خلفاء عاد... ولذلك فكثيرا ما يطْلَق على قوم ثمود اسم "عاد الثانية"، ليبقى اسم "عاد الأولى" خاصا بقوم نبى الله هود عليه السلام. كذلك تؤكد أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذين نَجَوْا مع نبى الله صالح عليه السلام لجأوا إلى مكة المكرمة، وأنه كان من ذراريهم قبيلة ثقيف، التى سكنت منطقة الطائف... وتفصيل القرآن الكريم لكل من قصتى عاد وثمود يعتبر وجها من أوجه الإعجاز التاريخى فى كتاب الله خاصة مع إغفال كل من "العهدين القديم والجديد" وكتب التاريخ لهاتين الأمتين إغفالا تاما، مع ذكر أمم أسبق منهما تاريخا كالفراعنة الذين أقاموا حضارة وادى النيل (من ٥٠٠٠ ق.م إلى ٣٠٠م، وكل من السومريين والأكاديين والبابليين والآشوريين والكلدانيين، الذين أقاموا حضارات ما بين النهرين من ٤٠٠٠ ق.م- ٥٠٠ق.م، وذكر حضارات مزامنة لهما كالحضارتين الهندية والصينية القديمتين (٢٥٠٠ ق.م- ٢٥٠ ق.م)، ومع ذكر كل الحضارات التالية لهما بشىء من التفصيل.

وهذا الإعجاز التاريخى فى القرآن الكريم يجسده وجود "مدائن صالح" فى منطقة "الحِجْر" قائمة على هيئة العديد من القصور والبيوت ودواوين الدولة والمقابر المنحوته فى صخور جوانب وادى القرى، وفى كتل صخرية هائلة جلبت إلى بطن الوادى تماما كما وصف القرآن الكريم مما يؤكد أن هؤلاء القوم كانوا عمالقة جبارين ابتلاهم الله تعالى ببسطة فى الجسم وسعة فى الرزق، فأصابهم ذلك بشىء من الاستعلاء فى الأرض، فكانوا يقطعون قطعا ضخمة من الصخور ويأتون بها إلى بطن الوادى لنحتها وتشكيلها على هيئة القصور والدواوين والبيوت التى تشكل بعضها من أكثر من طابقين بالبوابات والدَّرَج الخارجى والداخلى والمداخل والنوافذ والشرفات والأعمدة

المنقوشة بالزخارف المتقنة الصنع إلى درجة مذهلة. كذلك قاموا بنحت كل ذلك فى الجبال المحيطة بوادى القُرَى من جانبيه تماما كما وصف القرآن الكريم.

وفى سنة ١٩٧٥م تم اكتشاف آثار لمدينة قديمة فى شمال غربى سوريا باسم مدينة إبلا (Ebla)، وتم تحديد تاريخها بحوالى ٤٥٠٠ سنة مضت. وفى بقايا مكتبة قصر الحكم فى هذه المدينة القديمة وجدت مجموعة كبيرة من الألواح الصلصالية (حوالى ١٥٠٠٠ لوح) ووجد أن هذه الألواح تحمل كتابات بإحدى اللغات القديمة التى تم معرفة مفاتيحها، وبالتالى تمت قراءة الكتابات المدونة على تلك الألواح.

وفى عددها الصادر بتاريخ ديسمبر ١٩٧٨م نشرت المجلة الجغرافية (National Geographic Magazine vol. 154, no.6, p. 731759) مقالا بعنوان: "Ebla: Splendour of an unknown Empire" لكاتب باسم هوارد لافاى (Howard La Fay)، وفى هذا المقال جاءت الإشارة إلى أن من الأسماء التى وجدت على ألواح مدينة إبلا الاسم: "إِرَم" على أنه اسم لمدينة غير معروفة جاء ذكرها فى السورة رقم ٨٩ من القرآن الكريم. وفى سنة ١٩٧٩م صدر كتاب بعنوان " Ebla: A Revelation in Archaeology" للمؤلفين C Bermant & M. Wetzman، وجاء فى الكتاب أن من الاكتشافات فى ألواح إبلا أسماء ثلاثة هى شاموتو (أو ثمود) وعاد وإِرَم. وذكر الكاتبان أن هذه الأسماء الثلاثة ذكرت فى السورة رقم ٨٩ من القرآن الكريم. وأشارا إلى أن الاسم: "ثمود"، وهو اسم إحدى القبائل العربية، وجدت إشارة له فى آثار الملك الأشورى سارجون الثانى فى القرن الثامن قبل الميلاد (٧٢٢- ٧٠٥ ق.م.). كل ذلك يشير إلى المعجزة التاريخية للقرآن الكريم فى ذكر تفاصيل قصة قوم "ثمود"، الذين عاشوا من قبل ٤٥٠٠ سنة، ولم يكن أحد من الخلق يعلم شيئا عنهم قبل بعثة المصطفى صلى الله عليه وسلم...

وتقع مدائن صالح، عاصمة قوم ثمود، فى منطقة "الحِجْر" بوادى القرى على الطريق القديم بين المدينة المنورة وتبوك فى إقليم العلا. والمنطقة تتكون أساسًا من صخور رملية عالية المسامية والنفاذية تتبع متكون جبل الساق، الذى يمثل أهم خزان للمياه تحت السطحية فى شبه الجزيرة العربية، وتَحُدّ المنطقةَ من الغرب حَرَّةُ عويرض المكونة من الصخور البازلتية والتى ينتج عن تعريتها رواسب طينية غنية بالمواد اللازمة للإنبات تملأ الأودية العديدة التى تقطع أراضى المنطقة. ومن هنا كانت المنطقة مهيأة تهيئة كاملة للإعمار، كما كانت منطقة آمنة لإحاطتها بالجبال من كل جانب. ويشير القرآن الكريم إلى ذلك بقول ربنا تبارك وتعالى على لسان نبيهم صالح عليه السلام: "أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَا هُنَا آمِنِينَ * فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ وَلَا يصْلِحُونَ" (الشعراء/ ١٤٦- ١٥٢). وكان القوم عمالقة جبارين فى الأرض، وكان الله تعالى قد ابتلاهم ببسطة فى الجسم وسعة فى الرزق، فأصابهم شىء من الغرور والبطر والاستعلاء فى الأرض، فأشركوا بالله تعالى بعد أن كانوا موحدين... وفى قول ربنا تبارك وتعالى: "وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ" (الفجر/ ٩) ومضة تاريخية وعلمية معجزة لأنه لم يكن أحد من الخلق فى زمن الوحى وإلى أواخر القرن العشرين يعلم شيئا عن قوم ثمود غير ما جاء فى القرآن الكريم وفى أحاديث سيد المرسلين صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين.

و "الجَوْب" فى اللغة هو القَطْع والتجويف والخَرْق، وهى عمليات قام بها قوم ثمود فى الجبال المحيطة بوادى القرى على الجانبين، فنحتوا فيها القصور والبيوت والقبور، ولم يكتفوا بذلك، فكانوا يقطعون كتلا ضخمة من صخور الجبال، ويأتون بها إلى بطن الوادى، ثم ينحتون منها القصور والدواوين والمساكن من طابقين وثلاث طوابق بالدَّرَج الخارجى والمداخل المُقَامة على الأعمدة المزدانة بأدق النقوش

والزخارف والدرج الداخلى وتجاويف كل من الغرف والممرات والأبواب والنوافذ والشرفات. وقد ساعدهم على ذلك قلة تماسك الصخور الرملية وسهولة تشكيلها، مع تباين ألوانها من البياض إلى الصفرة والحمرة. وقد وصف القرآن الكريم تلك الأعمال الخارقة للعادة بقول ربنا تبارك وتعالى: "وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ" (الفجر/ ٩). وقال عَزَّ مِنْ قائلٍ مخاطبا قوم ثمود على لسان نبيهم صالح عليه السلام: "وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ" (الأعراف/ ٧٤). وكذلك قال ربنا، وقوله الحق، على لسان نبيه "صالح" مخاطبا قومه: "وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ" (الشعراء/ ١٤٩).

ومدائن صالح بقصورها ودواوينها ومساكنها وقبورها المنحوتة فى الجبال المكونة لجانبى وادى القرى، وفى الكتل الصخرية الهائلة المجلوبة إلى بطن الوادى، تمثل نموذجا معماريا فريدا مقسما بعدد من الشوارع الفسيحة المستقيمة والمنظمة تنظيما دقيقا والمقطوعة فى الكتل الجبلية المكونة للمنطقة مما يدل على الجهود الجبارة التى بذلت فى تخطيط وإنشاء تلك المدينة الفريدة من نوعها، وإن كان الأنباط من بعد ذلك قد أقاموا مدينة البترا (مدينة الصخر) أو المدينة الوردية أو سلع، أو رقيمو (باللغة النبطية) على منوال مدائن صالح فى سنة ٤٠٠ ق.م وتم اكتشافها سنة ١٨١٢م على يد الآثارى السويدى يوهان بيركاردت، ثم انتهت دولة الأنباط سنة ١٠٥ ق.م بواسطة الغزو الرومانى للمنطقة العربية.

ودراسة منطقة الحِجْر تؤكد أن بعض جبال مدائن صالح مفرغة من الداخل تفريغا هندسيا رائعا يجعل منها السكن والستر والحصن والوقاية ومناطق الدفاع عن المدينة ومتعة التحرك والتنزه فيها. والأودية التى تقطع جبال المنطقة تم حفر الآبار فيها، وإن كان أغلبها مطمورا الآن. وبذلك تم تهيئتها للزراعة. ولا يمكن لزائر المنطقة

أن يتخيل كيفية نقل الكتل الصخرية الهائلة إلى بطن الوادى ولا إمكانية تشكيل تلك القصور والدواوين والمساكن والقبور بالحفر فى ذلك الزمن البعيد ولا إمكانية تزيينها بهذا القدر من الأعمدة والزخارف والنقوش المتقنة أشد الإتقان.

ومن ومضات الإعجاز العلمى والتاريخى فى القرآن الكريم تمييزه بين النحت فى الجبال والنحت فى الكتل الصخرية المجلوبة إلى بطن الوادى، وهو ما لا يقدر على تمييزه إلا الخبراء فى علوم الأرض، خاصة وأن أغلب الآيات التى تتحدث عن قوم ثمود وعن نبيهم صالح عليه السلام هى من الآيات المكية، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمر بمدائن صالح إلا وهو فى طريقه لغزوة تبوك فى السنة التاسعة بعد الهجرة... وفى استعراض القرآن الكريم لقصة نبى الله صالح عليه السلام مع قومه ثمود، الذين أغفلتهم كتب التاريخ القديم إغفالا كاملا كما أغفلتهم كتب العهدين القديم والجديد".

وعندما وصل الشيخ الشعراوى إلى قوله جل شأنه فى الآية ٨٦ من سورة "الكهف": "حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا" قال رحمه الله إن "بلوغ ذى القرنين مغرب الشمس دليل على أنه لم يكُنْ بهذا المكان، بل كان قادمًا إليه من المشرق. ومعنى "مَغْرِبَ الشَّمْسِ": هل الشمس تغرب؟ هى تغرب فى عين الرائى فى مكان واحد. فلو لاحظتَ الشمس ساعة الغروب لوجدتها تغربُ مثلًا فى الجيزة، فإذا ذهبت إلى الجيزة وجدتها تغرب فى مكان آخر... وهكذا. إذن غروبها بمعنى غيابها من مرأى عينك أنت لأن الشمس لا تغيب أبدًا، فهى دائمًا شارقة غاربة، بمعنى أنها حين تغرب على قوم تشرق على آخرين. لذلك تتعدد المشارق والمغارب.

وهذه أعطتنا دوام ذكر الله ودورانه على الألسنة فى كل الأوقات. فحين نصلى نحن الظهر مثلًا يصلى غيرنا العصر، ويصلى غيرهم المغرب... وهكذا. فالحق سبحانه

مذكور فى كل وقت بكل لسان، فلا ينتهى الظهر لله، ولا ينتهى العصر لله، ولا ينتهى المغرب لله، بل لا ينتهى الإعلام بواحدة منها طوال الوقت وعلى مَرِّ الزمن. لذلك يقول أهل المعرفة: "يا زمن، وفيك كل الزمن". ثم يقول تعالى: "وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ" (الكهف/ ٨٦)، أى فى عين فيها ماء. وقلنا: إن الحمأ المسنون هو الطين الذى اسودّ لكثرة وجوده فى الماء. وفى تحقيق هذه المسألة قال عالم الهند أبو الكلام آزاد، ووافقه فضيلة المرحوم الشيخ عبد الجليل عيسى، قال: عند موضع يسمى: "أزمير". وقوله: "وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا" (الكهف/ ٨٦) أى عند هذه العين".

هذا ما قاله شيخنا الكريم، وهو شديد الإيجاز ولا يتعرض للشبهة التى يعمل أعداء القرآن على إثارتها. ولسوف أتناول، فيما يلى، الشبهة التى تثار حول هذه الآية وأناقشها وأبين ما فيها من ضعف وتهافت. وأَدْخُل فى الموضوع على الفور فأقول: من المعروف فى كتب اللغة أن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض، بمعنى أن هناك توسعا فى استعمالها، بل إن فى اللغة توسعات كثيرة فى غير حروف الجر أيضا. وقد تُسَمَّى هذه التوسعات بـ"المجاز"، وهو ما يعنى أن الكلام لا ينبغى أن يؤخذ على ظاهره أو حرفيته. ولْنأخذ حرف الجرّ: "فى" (الموجود فى الآية) لنرى ماذا يقول النحاة فى استعمالاته. فهم يقولون إنه يسْتَخْدَم فى عشرة مكعانٍ: الأول الظرفية، زمانًا أو مكانًا، حقيقةً أو مجازًا، ومن الزمانية "حضرتُ إلى الاجتماع فى العاشرة مساء"، ومن المكانية "سكنتُ فى هذا البيت أعواما طوالا". الثانى المصاحبة، نحو قوله تعالى: "ادخلوا فى أُمَمٍ"، أى بمصاحبتها (الأعراف/ ٣٨). الثالث التعليل، نحو: "فذَلِكُمُ الذى لُمْتُنَّنى فيه"، أى بسببه (يوسف/ ٣٢). الرابع الاستعلاء، نحو قوله تعالى: "ولأُصَلِّبَنَّكم فى جذوع النخل"، أى عليها (طه/ ٧١). الخامس مرادفة الباء، نحو: "فلان بصير فى الموضوع الفلانى"، أى بصير به. السادس مرادفة "إلى" نحو قوله تعالى: "فرَدّوا أيديهم فى أفواههم"، أى مَدَّ الكفار أيديهم إلى أفواه الرسل ليمنعوهم من الدعوة إلى الهدى والنور

(إبراهيم/ ٩). السابع مرادفة "مِنْ". الثامن المقايسة، وهى الداخلة بين مفضولٍ سابقٍ وفاضلٍ لاحقٍ، كما فى قوله سبحانه: "فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل"، أى أن متاع الحياة الدنيا بالقياس إلى الآخرة قليل (التوبة/ ٣٨). التاسع التعويض، كما فى قولنا: "دفعتُ فى هذا الكتاب عشرين جنيها". العاشر التوكيد، وأجازه بعضهم فى قوله تعالى: "وقال: اركبوا فيها"، أى أن الركوب لا يكون إلا فى السفينة، ولذلك لا ضرورة للنص على ذلك إلا من باب التوكيد (انظر فى ذلك مثلا "مغنى اللبيب" لابن هشام).

وفى القرآن الكريم نقرأ قوله عز وجل: "يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حَذَرَ الموت" (البقرة/ ١٩)، والمقصود أن كلا منهم يضع طرف إصبع واحدة من أصابعه عند فتحة الأذن، لا فى داخلها. ونقرأ: "وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة" (البقرة/ ٣٠)، وطبعا لم يجعل المولى الإنسان خليفة فى الأرض، أى فى باطنها، بل على سطحها. ونقرأ: "وأُشْرِبوا فى قلوبهم العِجْل بكفرهم" (البقرة/ ٩٣)، وليس المقصود العجل نفسه بل عبادته، وهى لا تُشْرَب ولا تدخل فى القلب بالمعنى الذى نعرفه. ونقرأ: "وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقلِّلكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا" (الأنفال/ ٤٤)، أى أمام أعينكم وأعينهم. ونقرأ: "لقد كان لسبإٍ فى مسكنهم آيةٌ: جنتان عن يمينٍ وشِمال" (سبأ/ ١٥)، والجنتان لم تكونا فى مساكن سبإ، بل حولها أو قريبا منها. "أَوَمَنْ ينَشَّأ فى الحِلْية وهو فى الخصام غير مُبِين؟" (الزخرف/ ١٨). ونقرأ: "فى سِدْرٍ مخضود" (الواقعة/ ٢٨)، وهم لن يكونوا فى الجنة فى شجر السِّدْر، بل سيأكلون منه. ونقرأ: "أولئك كَتَب فى قلوبهم الإيمان" (المجادلة/ ٢٢)، ولا كتابة فى القلوب بالمعنى الظاهرى بطبيعة الحال ولا حتى فوقها... وهكذا.

وفى الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى أمثلة كثيرة على ما نقول، وهو أمر طبيعى، فهذه هى طبيعة اللغة، سواء فى كتاب الله أو فى كلام أهل الكتاب أو فى أى كلام آخر. وهذه بعض الأمثلة من الكتاب المذكور: "وأما نوح فوجد نعمة فى عينى

الرب" (تكوين/ ٦/ ٨)، "فوضعت الخزامة فى أنفها" (تكوين/ ٢٤/ ٤٧)، "وحمل بنو إسرائيل يعقوب أباهم وأولادهم ونساءهم فى العجلات التى أرسل فرعون لحمله" (تكوين/ ٤٦/ ٥)، "فذهب والتقاه فى جبل الله وقبّله" (خروج/ ٤/ ٢٧)، "الدمامل كانت فى العرّافين وفى كل المصريين" (خروج/ ٩/ ١١)... إلخ، وهى بالمئات، إن لم تكن بالألوف. ومن هنا كان من السهل أن ندرك معنى قول القرطبى مثلا فى الآية المذكورة: "وَيجُوز أَنْ تَكُون الشَّمْس تَغِيب وَرَاءَهَا (أى وراء العَين الحَمِئَة) أَوْ مَعَهَا أَوْ عِنْدهَا، فَيَقَام حَرْف الصِّفَة مَقَام صَاحِبه". يقصد أن حروف الجر قد ينوب بعضها عن بعض، بمعنى أن يسْتَعْمَل بعضها فى مكان بعضها الآخر. وفى نفس المجرى يجرى ما نجده عند البغوى وأبى حيان، إذ نقرأ فى تفسير الأول نقلا عن القتيبى أنه بجوز أن يكون المعنى هو أنه كان "عند الشمس" أو "فى رأى العين" عين حمئة، أما الثانى فقد ذكر أن بعض البغداديين يفسر قوله تعالى: "فى عين حمئة" بمعنى "عند عين حمئة".

بل إن فى الكتاب المقدس عبارات كثيرة من نوع الآية القرآنية التى بين أيدينا بل أَوْغَل فى مضمار الاستخدامات المجازية، ويقرؤها هؤلاء الذين يرددون تخطئة القرآن دون فهم أو تمييز. هكذا كانت اللغة، وهكذا ستظل إلى يوم يبعثون. لنأخذ مثلا الشواهد التالية: "هما فى عبر الأردن وراء طريق غروب الشمس فى أرض الكنعانيين..." (تثنية/ ١١/ ٣٠)، "هكذا قال الرب: هأنذا أقيم عليك الشر من بيتك وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهنّ لقريبك فيضطجع مع نسائك فى عين هذه الشمس" (صموئيل ٢/ ١٢/ ١١)، "قدام الشمس يمتد اسمه" (مزامير/ ٧٢/ ١٧)، "ثم رجعت ورأيت كل المظالم التى تجرى تحت الشمس" (الجامعة/ ٤/ ١)، "فوجدها ملاك الرب على عين الماء فى البرية. على العين التى فى طريق شور" (تكوين/ ١٦/ ٧).

ومن الواضح أن هذا كله على خلاف الواقع وينبغى ألا يأخذه القارئ مأخذا حرفيا، وإلا لم يكن للكلام معنى: فمثلا ليس هناك للشمس تحتٌ ولا فوقٌ، وإنما هو

تعبير بشرى، فنحن أينما كنا على الأرض نتصور أن الشمس فوقنا، ومن ثم فنحن تحتها، على حين أنه لو كان الأمر كذلك لكان ينبغى إذن أن نكون "فوق" الشمس بعد ستة أشهر من ذلك حين تدور الأرض نصف دورتها السنوية، وهذا لا يصير. كذلك فليس للشمس عين (ولا أذن ولا أنف) أصلا حتى نكون أوْ لا نكون فى عينها، كما أنها ليس لها طريق تسير فيه على الأرض، ودَعْك من أننا يمكن أن نسير نحن فيه أيضا. وبالنسبة لقول قابيل إنه هرب فى الأرض، فهو مجرد تعبير بشرىّ، وإلا فقولنا: "فى الأرض" إنما يعنى حرفيا: "داخل الأرض"، وهو ما لا يقصده قابيل ولا أى إنسان آخر فى مثل وضعه... وهكذا.

وقبل كل ذلك فإن الكلام هنا ليس كلاما فى علم الطبيعة أو الجغرافيا أو الجيولوجيا، بل هو كلام أدبى يقوم فى جانب منه على التعبيرات المجازية والتجسيدية والتشخيصية وما إلى ذلك. وعلى هذا فليس هناك أى متعلَّق لأى إنسان كائنا من كان كى ينتقد الآية القرآنية إلا إذا كان يريد النباح والعضّ والسلام، ولا يبغى فهما أو معرفة. فالحرف "فى" فى الآية الكريمة لا يعنى "داخل العين الحمئة" لأن الآيات القرآنية التى تذكر الشمس، كما سنوضح لاحقا، تتحدث عنها على أنها جِرْمٌ موجودٌ فى الفضاء لا يغادره أبدا، بل يعنى أنه قد تصادف وقوع غروب الشمس حين كان ذو القرنين فى ذلك المكان عند العين الحمئة، وإن كان ما شاهده بعينه يوحى أنها قد غربت فى تلك العين. وحتى لو قيل إنها لم تغرب فى العين بل وراء العين أو عند العين أو ما إلى ذلك، فإن هذا كله لا يصح من الناحية العلمية، فالشمس لا تبتعد ولا تختفى، بل الأرض هى التى تتحرك حولها، فتبدو الشمس وكأنها هى التى تغيب. لكنى قد عثرت أثناء تقليبى فى المشباك بمن يقول معترضا على الآية إن مثل هذا التوجيه كان يمكن أن يكون مقبولا لو أن الآية قالت إن ذا القرنين "رأى" أو "شاهد" الشمس تغرب فى العين، أمّا والآية تقول إنه "وجدها" تغرب فى عينٍ حمئةٍ فمعنى هذا أن المقصود هو أنها

كانت تغرب فى العين فعلا. وقد جعلنى هذا أفكر فى استعمال هذا الفعل فى مثل ذلك السياق فى العربية لأرى أهو حقا لا يعنى إلا أن الأمر هو كذلك فى الواقع لا فى حسبان الشخص وإدراكه بغضّ النظر عما إذا كان هذا هو الواقع فعلا أو لا. وقد تبين لى أن الأمر ليس كما ذهب إليه ذلك المعترض. فالمتنبى فى قوله:

ومـن يَـكُ ذا فـمٍ مُـرٍّ مـريضٍ   يجـدْ مُـرًّا بـه المـاءَ الـزُّلالا

قد كفانا مؤنة التوضيح بأنّ وِجْداننا الشيء على وضعٍ ما لا يعنى بالضرورة أنه على هذا الوضع فى الحقيقة والواقع. وفى القرآن مثلا: "فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقضّ فأقامه" (الكهف/ ٧٧)، وليس هناك فى أى مكان فى الدنيا جدار عنده إرادة: لا للانقضاض ولا للبقاء على وضعه الذى هو عليه، لأن الجدران من الجمادات لا من البشر أُولِى الإرادة. كذلك فعندنا أيضا قوله عز شأنه: "والذين كفروا أعمالُهم كسَرابٍ بقِيعَةٍ يحسَبُه الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءه لم يجدْه شيئا ووجد اللهَ عنده فوفَّاه حسابَه" (النور/ ٣٩)، ولا يمكن القول أبدا بأن الآية على معناها الحرفى، فالله سبحانه لا ينحصر وجوده فى مكان من الأمكنة، بل الكون كله مكانا وزمانا وكائنات فى قبضته عز وجل، ومن ثم لا يمكن أن ينحصر وجوده عند السراب، وهذا من البداهة بمكان لأنه سبحانه وتعالى هو المطلق الذى لا يحده حد.

وفى الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى شيء مثل ذلك، ومنه هذان الشاهدان: "وأما نوح فوجد نعمة فى عينى الرب" (تكوين/ ٦/ ٨)، "فوجدها ملاك الرب على عين الماء فى البرية، على العين التى فى طريق شور" (تكوين/ ١٦/ ٧). فالنعمة لا توجد فى عين الرب على سبيل الحقيقة، فضلا عن أن الله لا يمكن أن يرَى ولا أن تُرَى عينه (إن قلنا إن له سبحانه عينا لكنها ليست كأعيننا). كما أن المرأة التى وجدها ملاك الرب لم تكن "على" العين، بل "عند" العين. أى أن الحقيقة الخارجية فى كلا الشاهدين لم تكن على حَرْفِية ما جاء فى العبارتين.

ولقد كفانا مؤنة المضيّ أبعد من ذلك (على كفايته فى حد ذاته) كاتبان ألّفا بحثا عثرت عليه فى المشباك بعنوان: "Islam and the Setting of the Sun: Examining the traditional Muslim View of the Sun's Orbit" يهاجمان فيه القرآن ويزعمان أن الرسول حين قال ما قال فى الآية التى نحن بإزائها هنا إنما كان يقصد فعلا أن الشمس تغرب فى عينٍ حمئةٍ على حرفية معناها، ومع هذا فقد بدءا كلامهما بالقول بما معناه أن تعبيرا مثل التعبير الذى فى الآية الكريمة لا يدل بالضرورة على أن صاحبه قد اجترح خطأ علميا أو أنه يعتقد أن الشمس تغرب فعلا فى العين. ثم أضافا أننا، حتى فى عصرنا هذا حيث يعرف الجميع تمامًا أن الشمس فى الواقع لا تشرق ولا تغرب، ما زلنا نقول إنها تشرق وتغرب. والكاتبان هما Sam Shamounn وJochen Katz.

كما عثرتُ على طائفة من الشواهد النثرية والشعرية بالإنجليزية والفرنسية يتحدث فيها أصحابها لا على أن الشمس تشرق وتغرب فحسب، بل عن سقوطها أو غوصها أو غروبها فى البحر أو فى السهل أو ما إلى هذا. وإلى القارئ عينةً مما وجدته من تلك النصوص: "Alone stood I atop a little hill, And beheld the light-blue sea lying still, And saw the sun go down into the sea" (من قصيدة بعنوان: "AN EPISTLE" لـ Numaldasan)، "The sun sinks down into the sea" (من رواية "The Water-Babies" لـCharles Kingsley)، "The Sun came up upon the left, out of the sea came he! And he shone bright, and on the right Went down into the sea" (من قصيدة "The Rime of the Ancient Mariner" لكوليردج)، "The sun sank slowly into the sea" (من مقال "The Light Of The Setting Sun" لـRocky)، " Just then the sun plunged into the sea it popped out from behind

(من مقال) "the gray cloud screen that had obscured the fiery disk
le soleil descendre dans "Taps for three war buddies" بعنوان
Le " ،(لأناتول فرانس) "L'ILE DES PINGOUINS" (من) "...l'ocean
soleil, disparu dans la mer, avait laissé le ciel tout rouge, et cette
En " (من) "lueur saignait aussi sur les grandes pierres, nos voisines
Spectacle saisissant, que le soleil " ،(لجى دى موباسان) "Bretagne
RAID EN " (من مقال) "couchant dans ces dunes impressionnantes
On comprend aussi que la blessure " ،(Roger Vacheresse لـ) "LIBYE
(من) "de Réginald a quelque chose du Soleil plongeant dans la mer
.(le comte de Lautréamont لـ) "LES CHANTS DE MALDOROR"

ومع هذا كله يريد الكاتبان المذكوران آنفا (Sam Shamoun و Jochen Katz) أن يعيدانا مرة أخرى إلى المربع رقم واحد، إذ يقولان إن مؤلف القرآن (يقصدان بالطبع الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام) قد ذكر أن ذا القرنين وجد الشمس تغرب فى عين حمئة، ولم يقل إنها كانت تبدو له كذلك. وهذا رغم قولهما إننا لا نزال حتى الآن، ورغم كل التقدم العلمى والفلكى والجغرافى، نقول إن الشمس تشرق وتغرب، ولم يقولا إن على الواحد منا أن يوضح أن الأمر إنما يبدو فقط كذلك. فلماذا الكيلُ بمِكْيالَين هنا؟

ثم يمضيان فيقولان إن القرآن يؤكد أن ذا القرنين قد بلغ فعلا المكان الذى تغرب فيه الشمس، وهو ما لا وجود له على الأرض، مما لا معنى له البتة إلا أن مؤلف القرآن قد ارتكب خطأ علميا فاحشا بظنِّه أن القصة الخرافية التى وصلت إلى سمعه هى حقيقة تاريخية: "However, the Quran goes beyond what is possible in phenomenological language when it states that Zul-Qarnain reached the place where the sun sets, i.e. the Quran is speaking of

a human being who traveled to the place of the setting of the sun. Such a statement is wrong in any kind of language, since such a place does not exist on this earth. This is a serious error that was introduced into the Quran because the author mistook a legend to be literal and historical truth". أى أنهما يريان أن كلمة "مغرب الشمس" لا تعنى إلا مكان غروب الشمس، وأن معنى الكلام لا يمكن أن يكون إلا ما رأياه هما. فأما أن "غروب الشمس" لا يعنى هنا إلا المكان الذى تغرب فيه الشمس فهو كلامٌ غبىٌّ، إذ إن صيغة "مَفْعِل" (التى جاءت عليها كلمة "مغرب") قد تعنى المكان، أو قد تعنى الزمان، بل وقد تعنى المصدرية. أى أن الآية قد يكون معناها أن ذا القرنين قد بلغ مكان غروب الشمس أو أن يكون قد بلغ زمان غروبها، إذ البلوغ كما يقع على المكان فإنه يقع على الزمان أيضا (فضلًا عن الأشياء والأشخاص).

فإذا كان بلوغ الزمان (أو حتى بلوغ الحدث، أى المصدر) هو المقصود فى الآية الكريمة فلا مشكلة، إذ سيقال حينئذ إن ذا القرنين حين أتى عليه وقت المغرب قد وجد كذا وكذا. لكن ماذا لو كان مكان غروب الشمس هو المراد؟ والجواب هو أن الكاتبين أنفسهما قد ذكرا ما معناه أنه لا غضاضة فى أن يقول المتكلم حتى فى عصرنا هذا إن الشمس قد غربت فى البحر أو فى السهل أو فيما وراء الجبل... إلخ. فهذا إذن هو مغرب الشمس طبقا لما تجيزه اللغة الظاهراتية (phenomenological language) حسب تعبيرهما، وعليه فإنه يجوز أيضا أن يقال إن فلانا أو علانا أو ترتانا قد بلغ مغرب الشمس، أى وصل إلى البحر أو الجبل أو السهل الذى رآها تغرب عنده. وعلى هذا أيضا فلا مشكلة!

والعجيب أنهما يورِدان بعد ذلك عددا من النصوص القرآنية التى تتحدث عن لزوم الشمس والقمر مسارا سماويا دائما لا يخرجان عنه، وهو ما يعضد ما قلناه من أن الأمر فى قصة ذى القرنين إنما هو استعمالٌ مجازىٌّ أو وَصْفٌ لما كان يظنه ذلك الرجل فى

نفسه بخصوص غروب الشمس لا لما وقع فعلا خارج ذاته لأن القرآن يؤكد وجود مسارات سماوية دائمة لهذين الجِرْمَين، بَيدَ أنهما كعادتهما يحاولان عبثا لَى الآيات الكريمة عن معناها كى تدل على ما يريدان هما على سبيل القسر والتعنت! وعلى هذا فقول المؤلفين إنه إذا كان المفسرون المسلمون يشرحون الآية القرآنية بما يصرفها عن معناها الحرفى فذلك لأنهم يعرفون أن الشمس أكبر من الأرض، ومن ثم يستحيل أن تسعها أى عين فيها، ولأنهم أيضا يؤمنون بعصمة القرآن مما يدفعهم من البداية إلى تأويل الآية بحيث لا تدل على أن ثمة خطأ علميا قد ارتُكِب هنا، قول المؤلفين هذا هو قول متهافت بناء على ما أورداه هما أنفسهما من آيات قرآنية تنص على أن لكل من الشمس والقمر مسارا فلكيا دائما لا يفارقه، ومن ثم فمن المضحك أن نتمسك بحرفية المعنى فى الآية المذكورة بعد كل الذى قلناه وقالاه هما أيضا.

وإلى القارئ شيئا من النصوص القرآنية التى تبين أن هناك مسارا سماويا دائما للشمس والقمر: "فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا" (أى بنظام وحساب دقيق: الأنعام/ ٩٦)، "هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ" (يونس/ ٥)، "وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَينِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيلَ وَالنَّهَار" (إبراهيم/ ٣٣)، "وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يجْرِى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى" (لقمان/ ٢٩)، "لا الشَّمْسُ ينْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيلُ سَابِقُ النَّهَار" (يس/ ٤٠)، "وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا" (أى فى السماوات السبع)، "إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ" (أى خُلِعَتْ من مسارها يوم القيامة، بما يعنى أنها لا تفارق هذا المسار قبل ذلك الحين: التكوير/ ١). وقد صادفتُ بحثا فى المشباك بعنوان " Orbits of Earth, Moon, & Sun: 18 RELEVANT VERSES REGARDING "THE SUN'S & MOON'S: ORBIT, ROTATION AND LIFE لكاتب وقَّع باسم "Frank" يستشهد بهذه الآيات وأمثالها على ما قلناه هنا، ويردّ من

خلالها على من يتهمون القرآن بأن ثمة أخطاء علمية فى حديثه عن الشمس والقمر والأجرام السماوية، فضلا عن تأكيده أيضا أننا ما زلنا نقول حتى الآن إن "الشمس غربت فى البحر" كما جاء فى الآية التى يدور حولها هذا المقال: " we still use expressions such as the sun set into the sea, as is used in verse 18:86".

وفى النهاية أحب أن أقول للقارئ إن هناك وجها آخر فى تفسير الآية الكريمة يجنِّبها كل هذا اللغط رأيت ابن حزم فى كتابه العبقرى العظيم: "الفِصَل فى المِلَل والنِّحَل" يقول به ويرفض كل ما سواه، وهو أن الذى كان فى "عينٍ حمئةٍ" ليس هو الشمس، بل ذو القرنين نفسه. والمعنى حينئذ هو أن الرجل قد أدركه المغرب (أو أدرك هو المغرب) وهو فى العين الحمئة. وتركيب الجملة يسمح بهذا بشىء غير قليل من الوجاهة، وإن لم يكن هو المعنى الذى يتبادر للذهن للوهلة الأولى. وشِبْه جملة "فى عين حمئة" فى هذه الحالة سيكون ظرفًا متعلقًا بفاعل "وجدها" وليس بالمفعول، أى أنه يصور حال ذى القرنين لا الشمس، وإن كان من المفسرين من يرفض هذا التوجيه كأبى حيان فى "البحر المحيط"، إذ يرى فيه لونا من التعسف. وسأضرب لهذا التركيب مثلا أَبْسَط يوضح ما أقول، فمثلا لو قلنا: "ضرب سعيدٌ رشادًا واقفا" لجاز أن يكون المعنى هو أن سعيدا ضرب رشادا، وسعيد واقف، أو أن يكون المعنى هو أن سعيدا ضرب رشادا، ورشاد واقف. والسياق هو الذى يوضح ما يراد.

ولدى قول سبحانه فى الآية ١٨ من سورة "مريم": "يا أخت هارون" يعلق الشيخ قائلا: "ومريم هى ابنة عمران، وقد قال القرآن فى خطابها: "يا أُخْتَ هَارُونَ" (مريم/ ٢٨). ولذلك حدث لَبْسٌ عند كثير من الناس، فظنوها أخت نبى الله موسى بن عمران وأخت هارون أخى موسى عليهما السلام. والحقيقة أن هذه المسألة جاءتْ مصادفة اتفقتْ فيها الأسماء. لذلك لما ذهب بعض الصحابة إلى اليمن قال لهم أهلها:

إنكم تقولون إن مريم هى أخت موسى وهارون مع أن بين مريم وعمران أبى موسى أحد عشر جيلًا! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما ذكرتُمْ لهم أن الناس كانوا يتفاءلون بذِكرِ الأسماء، خاصة الأنبياء، فيسَمُّون على أسمائهم: "عمران"، ويسمون على أسمائهم: "هارون" حتى ذكروا أنهم فى جنازة بعض العلماء سار فيها أربعة آلاف رجل اسمهم هارون.

إذن فالأسماء هنا مصادفة: فهى ابنة عمران، لكن ليس أبا موسى، وأخت هارون، لكن ليس هو أخو موسى. وقد أفرد القرآن سورة كاملة باسم "مريم" وخصَّها وشخَّصها باسمها واسم أبيها، وسبق أنْ أوضحنا أن التشخيص فى قصة مريم جاء لأنها فذَّة ومفردة بين نساء العالم بشىء لا يحدث ولن يحدث إلا لها. فهذا أمر شخصى لن يتكرر فى واحدة أخرى من بنات حواء. أما إنْ كان الأمر عاما يصح أنْ يتكرّر فتأتى القصة دون تشخيص كما فى حديث القرآن عن زوجة نوح وزوجة لوط كمثال للكفر، وهما زوجتان لنبيين كريمين، وعن زوجة فرعون كمثال للإيمان الذى قام فى بيت الكفر وفى عُقْر داره. فالمراد هنا ليس الأشخاص، بل المراد بيان حرية العقيدة، وأن المرأة لها فى الإسلام حريةٌ عقدية مستقلة ذاتية، وأنها غيرُ تابعة فى عقيدتها لأحد، سواء أكانت زوجة نبى أم زوجة إمام من أئمة الكفر".

هذا ما قاله الشيخ، وهو يحتاج إلى بعض الاستدراكات وبعض الإضافات وبعض التوضيحات وبعض الاقتباسات. فأما الاستدراكات فمنها قوله إنه كان لمريم أخ اسمه هارون سمى بهذا الاسم تبركا بهارون أخى موسى عليهما السلام. ذلك أن مريم لم يكن لها، فيما نعرف، أخ. ولو كان لها هذا الأخ لأرسلته أمه إلى المحراب بدلا من أخته لكونها أنثى، وليس الذكر كالأنثى كما قالت الأم. ثم إن أباها وأمها قد ماتا سريعا ولم نسمع أنهما أنجبا طفلا سواها. فمن أين للشيخ أنه كان لمريم أخ؟ استدراك آخر: قال الشيخ إنه فى جنازة أحد الصالحين كان فى وداعه أربعة آلاف رجل اسمهم

هارون. وهى مبالغة لا معنى لها، فلم يكن هناك يوما إحصائيون يعدون الموّدعين طبقا لأسمائهم. كما أن المصادفة العجيبة الخارجة عن نطاق العقل والمنطق والواقع والتاريخ فى أن يكون اسمهم جميعا "هارون" هى مبالغة لا معنى لها. ثم لماذا هارون بالذات؟ أليخرجنا من ورطة عبارة "أخت هارون"؟ لكن من قال إنها ورطة؟

أولا ليس القرآن هو الذى نادى مريم بذلك بل قومها. فإذا كان هناك خطأ فهو خطأ القوم، وما القرآن إلا ناقل للحوار كما نطق به أصحابه. ولو كان فى الأمر أدنى خطإ فكيف سكت اليهود فى عهده صلى الله عليه وسلم، وكانت بين الفريقين خصومات، فلم يهتبلوا هذه السانحة لضرب القرآن فى مقتل؟ ألا إن سكوتهم لأكبر دليل على أنهم لم يجدوا فى الأمر شيئا. صحيح أن أعضاء وفد نجران قد أبدَوْا أمام المغيرة بن شعبة وبعض الصحابة استغرابهم من أن تكون مريم أخت هارون رغم المدة الزمنية الطويلة التى تفصل بينهما. لكن لا بد أن نتنبه إلى أنهم، لو كانوا صادقين، لاعترضوا على هذا فى وجه النبى لا أمام بعض الصحابة، إذ حين قابلوه صلى الله عليه وسلم ودارت بين الطرفين المناقشات لم تكن تلك المسألة منها بتاتا. كما أنهم قد اكتفَوْا بهذا الاستغراب ثم أكفأوا على الخبر ماجورا، فلم يفتحوا بابه بعد ذلك قط. فلو كانوا صادقين فى استغرابهم لانطلقوا يطنطنون بهذا الاستغراب ولحولوه إلى اعتراض وفضيحة. إلا أننا لم نسمع لهم فى هذا الموضوع بعد ذلك حِسًّا. فعلام يدل هذا؟

أتصور أنهم إنما أرادوا إثارة الشبهات فى عقول من قابلوهم من الصحابة على عادة أمثالهم ممن نعرفهم فى عصرنا، إذ يحاولون إثارة الشبهات مع من يظنونهم عاجزين عن الرد، ويغلقون أفواههم تماما فى حضور من يتيقنون أنه قادر على نسف شبهاتهم. وعلى كل حال لقد قدَّم النبى صلى الله عليه وسلم الجواب فوضع حدا لذلك اللغط السخيف. عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه: "لما قَدِمْتُ نجرانَ سألونى فقالوا: إنكم تقرأونَ "يا أُخْتَ هَارُونَ"، وموسى قَبْلَ عيسى بكذا وكذا. فلما قدمتُ على رسولِ اللهِ

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سألتُه عن ذلك، فقال: إنهم كانوا يسَمُّونَ بأنبيائِهم والصالحينَ قبلهم". أى أنهم كانوا يسمون أولادهم وبناتهم بأسماء الصالحين السابقين أو يضيفون أسماء أولادهم وبناتهم إليهم تيمنا وتبركا. فكأنهم يقولون على سبيل التبكيت والتقريع: "كيف تجترحين إثم الزنا يا من تنتسبين إلى هذا النبى الصالح بالخدمة والعبادة والانقطاع للهيكل؟" باعتبار أن هارون وذريته (اللاويين) كانوا هم كهنة الهيكل كما هو معروف. وواضح أنه صلى الله عليه وسلم يعزو الأمر إلى بنى إسرائيل لا إلى القرآن، الذى لم يصنع أكثر من إيراد عبارتهم بنصها دون أن ينشئها. كذلك لا ينبغى أن نمر مرور الكرام على تفسيره هذا من حيث دلالته على أن الأمر ليس أمر خطإ تاريخى كما يريد المشككون أن يزرعوا فى رُوعنا.

ولا ينبغى أن ننسى أن عبارة "يا أخت هارون" نزلت ضمن سورة "مريم" فى مكة سنة أربع للبعثة، وزار وفد نجران المدينة سنة تسع أو عشر للهجرة. فكيف سكت النجرانيون وغيرهم من النصارى طوال تلك المدة فلم يتخذوا من تلك العبارة مادة للتشنيع على الإسلام؟ ليس ذلك فقط، بل لقد تلا المسلمون صدر سورة "مريم"، وفيه تلك العبارة، على نجاشى الحبشة، الذى كانوا أيامذاك لاجئين فى بلاده احتماء من أذى القرشيين، ولم نسمع لا من النجاشى ولا من كبار رجال دينه الذين كانوا حاضرين ذلك اللقاء وسمعوا كما سمع هو ما تلاه المسلمون أى اعتراض على قول القرآن بلسان بنى إسرائيل: "يا أخت هارون". ولقد كان اليهود، وهم المعنيون قبل غيرهم بهذه المسألة، يساكنون النبى بالمدينة وعلى مقربة منها طوال الوقت منذ الهجرة، ولكن لم يحدث أن اعترض أحدهم على تلك الكلمة أو جعلها موضع سؤال.

ولسوف نرى، من خلال الكتاب المقدس ذاته، أن اليهود والنصارى كانوا يتوسعون فى استعمال كلمة "أخ" و"أخت" توسعا شديدا بحيث يدخل فيها هذا الاعتبار بمنتهى السهولة والسلاسة. ومن المضحك أن يظَنّ بالقرآن ارتكاب هذا الخطإ

التاريخى الأبلق رغم ما كرره من أن المسيح (ابن مريم، التى لُقِّبَتْ بأنها "أخت هارون") قد أتى بعد موسى وهارون ومن تبعهما من الأنبياء بزمن طويل، بما يدل على أنه لا يقصد أبدا أن تكون مريم أخت هارون أخوّة جسدية. ومرة أخرى حتى لو كان هذا التلقيب رغم ذلك كله خطأ لكان الخطأ خطأ بنى إسرائيل لا خطأه هو كما سبق القول.

كما أننا نجد فى أول سطر من إنجيل متى هذا العنوان: "كِتَابُ مِيلاَدِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِ دَاوُدَ ابْنِ إِبْراهِيمَ" مع ما يفصل بينه وبين كل منهما، وبخاصة ثانيهما، من الأزمان الطويلة، وكذلك رغم أن المسيح لا ينتمى إلى داود، لأنه من جهة الأب لم يكن له أب، ومن جهة الأم لم تكن أمه من سلالة ذلك النبى الكريم، بل الذى ينتسب إلى داود هو يوسف النجار، ويوسف النجار ليست له أية علاقة نَسَبِية بالسيد المسيح عليه السلام، وإن ذُكِر فى الأناجيل أحيانا على أنه أبوه رغم أنه ليس أباه، وهى أشد من "يا أخت هارون". بل إن المسيح عليه السلام قد دعا زكا رئيس العشارين: "ابن إبراهيم" (لوقا/ ١٦/ ٩). وبالمثل قال عن امرأة ممسوسة شَفَاها من مرضها إنها "ابنة إبراهيم" (لوقا/ ١٣/ ١٦). كذلك نسمع أحد الأغنياء يستغيث من الجحيم بإبراهيم عليه السلام أن يخف لنجدته مما يقاسيه من أهوال العطش قائلا: "يا أَبِى إِبْرَاهِيمَ"، فيؤمِّن إبراهيم على ذلك بقوله: "يا ابْنِى" (لوقا/ ١٦/ ٢٤). كما أشار جيفرى لانج الأستاذ الجامعى الأمريكى المسلم، فى كتابه: "Struggle to Surrender" إلى وصف العهد الجديد لأليصابات قريبة مريم ومعاصرتها بأنها "ابنة هارون" مع ما يفصل بينها وبينه من نفس المسافة الزمنية. وما دام النصارى يقبلون هذا فكيف يقيمون الدنيا ويقعدونها بسبب ما جاء فى القرآن رغم أن الأمرين واحد؟ الحق أن هذا رد مفحم كما يرى القارئ.

ولماذا نذهب بعيدا، وعندنا الكتاب المقدس نفسه يستخدم كلمة "أخ" و"أخت" بتوسع شديد لا تُعَدّ عبارة "يا أخت هارون" بالقياس إليه شيئا مذكورا؟ تعالَوْا نطالع معا "قاموس الكتاب المقدس" ونقرأ ما يقوله فى مادة "أخ": "١- لفظ أُطْلِق على الابن فى علاقته بأبناء أو بنات نفس الوالدين (تك٢٧: ٦) أو نفس الأب فقط (تك٢٨: ٢) أو نفس الأم فقط (قض٨: ١٩).

٢- كذلك أطلق على قريب من الأسرة الواحدة، ابن الأخ مثلا (تك١٤: ١٦)، أو من نفس الجنس (نح٥: ٧) أو من أُمَّة قريبة (تث٢٣: ٧) أو من أمة حليفة (عا١: ٩).

٣- وأطلق أيضا على إنسان من نفس الدين الواحد (أع٩: ١٧). وكثيرا ما دُعِى المسيحيون: إخوة (مت٢٣: ٨).

٤- كما أطلق أيضا على الصديق المحبوب. فقد دعا داود يوناثان: أَخًا (٢صم١: ٢٦). وكذلك أطلق على إنسان غريب كنوع من حسن الخطاب، فقد دعا آخاب بنهدد: أخا (١ مل ٢٠: ٣٢).

٥- وكذلك أطلق على أى إنسان من الجنس البشرى مراعاة لأُخُوّة البشر (تك٩: ٥).

إِخْوَةَ الْرَّبَ: ذكر العهد الجديد أسماء أربعة، وهم يعقوب ويوسى وسمعان ويهوذا. وقد ذكر أنهم إخوة الرب (مت١٣: ٥٥). وقد ذكر أيضا انتقالهم إلى كفر ناحوم مع مريم ويسوع فى بدء كرازته (يو٢: ١٢). ومرة فيما كان يسوع يكلم الجمع جاءت أمه وإخوته طالبين أن يكلموه (مت١٢: ٤٧). وحتى نهاية خدمته لم يكونوا قد آمنوا به بعد (يو٧: ٣ و٥). ولكن بعد القيامة نقرأ أنهم كانوا يجتمعون مع التلاميذ (أع١: ١٤). ويذكرهم الرسول بولس كقادة فى الكنيسة المسيحية (١ كو٩: ٥). وقد أصبح أحدهم، وهو يعقوب، قائدا ممتازا فى كنيسة أورشليم (أع١٥: ١٣ وغلا١:

١٩)، وهو كاتب الرسالة التى تحمل اسمه (يع١ : ١). وقد تشعبت الآراء فى نسبهم إلى المسيح ودرجة قرابتهم له:

١ – فقال قوم إنهم إخوته بالجسد من مريم. أى أن مريم، بعد أن ولدت المسيح الذى حُبِل به فيها من الروح القدس وولدته وهى عذراء، ولدت هؤلاء الإخوة من يوسف. ويقولون إن هذا هو التفسير البسيط الطبيعى للأقوال الواردة فى (مت١ : ٢٥، ١٣ : ٥٥). وقد قال بهذا الرأى ترتليانوس فى القرن الثانى، وهلفديوس فى القرن الرابع، ومعظم رجال الطوائف الإنجيلية. ولكن هناك من يعارضون هذا الرأى ويقولون: لو أنه كان لمريم أولاد لما عهد المسيح بها إلى يوحنا تلميذه كما نجد هذا فى يو١٩ : ٢٦ و٢٧. ويرد عليهم أصحاب الرأى بالقول إن إخوة المسيح لم يكونوا بعد قد آمنوا به. ولذلك فضل المسيح أن يضعها فى عهدة يوحنا تلميذه. ويرجح أنه كان أيضا قريبها.

٢ – أما الرأى الثانى فيقول إنهم كانوا أيضا أولاد يوسف من زوجة سابقة. ومن بعدها اتخذ مريم العذراء زوجة ثانية. ويستدلون على ذلك من أن الكتاب المقدس لا يذكر شيئا عن حياة يوسف بعد أن بلغ يسوع السنة الثانية عشرة من العمر، ويقولون: لا بد أن يوسف مات بعد ذلك، ويرجحون أنه تزوج العذراء وهو متقدم فى السن. وقد ورد هذا الرأى فى بعض الأسفار غير القانونية، وقال به أوريجانوس فى القرن الثالث، وإبيفانيوس فى القرن الرابع الميلادى. وكذلك تعتنق كنيسة الروم الأرثوذكس هذا الرأى.

٣– وهناك رأى ثالث يقول إن هؤلاء الإخوة هم أولاد كلوبا، وكانت أمهم أخت أم المسيح، فهم أولاد خالته (انظر يو١٩ : ٢٥). ويقول أصحاب هذا الرأى إن (مت٢٧ : ٥٦ ومر١٥ : ٤٠) يذكر وجود مريم أم يعقوب ويوسى عند الصليب، ويقول إن مريم هذه كانت أخت مريم أم يسوع وإن يعقوب ويوسى هما اللذان ذُكِر عنهما أنهما

أخوان. وأول من قال بهذا الرأى هو أيرونيموس فى القرن الرابع، واتبعته كنيسة رومية ولوثر وبعض أتباعه. أما معارضو هذا الرأى فيقولون إنه من المستبعد أن يكون لأختين اسم واحد. كما يقولون إن الكتاب المقدس يفرق بين التلاميذ وإخوة الرب ويجعلهما فريقين يختلف أحدهما عن الآخر (قارن أع١: ١٣ و١٤)". ويرى القارئ بنفسه مدى التضارب فى تفسير كلمة "إخوة المسيح" هنا. ألا يكفى هذا وحده دون بقية الحجج الأخرى الكاسحة كى نضع نهاية للضجة المفتعلة حول عبارة "يا أخت هارون"؟

وفى "معجم اللاهوت الكتابى" أن "لفظ "أخ" يدل، فى أقوى معانيه، على الأشخاص المنحدرين من أم واحدة (تكوين ٤: ٢). ولكن فى العبرانية وفى العديد من اللغات الأخرى ينطبق هذا اللفظ على أعضاء الأسرة نفسها (تكوين ١٣: ٨، أحبار ١٠: ٤، راجع مرقس ٦: ٣)، أو على أعضاء القبيلة نفسها (٢ ملوك ١٩: ١٣)، أو حتى على أعضاء الشعب نفسه (تثنية ٢٥: ٣، قضاة ١: ٣) تمييزا لهم عن الغرباء (تثنية ١: ١٦، ١٥: ٢- ٣). وهو يشير أخيرا إلى الشعوب المنحدرة من الجدّ الأصلى نفسه، مثل آدوم وإسرائيل (تثنية ٢: ٤، عاموس ١: ١١). وبجانب هذه الأخوّة القائمة على الجسد يشير الكتاب إلى أخوّة أخرى ذات طابع روحى هى أخوّة الإيمان (٢: ٢٩)، فى التعاطف (٢ صموئيل ١: ٢٦)، فى الوظيفة المتماثلة (٢ أيام ٣١: ١٥، ٢ ملوك ٩: ٢)، فى العهد المعقود (عاموس ١: ٩، ١ ملوك ٢٠: ٣٢، ١ مكابيين ١٢: ١٠). وهذا الاستعمال المجازى للكلمة يدل على أن الأخوّة الإنسانية هى، كاختيار حياتى، لا تقتصر فقط على القرابة الدموية رغم أن هذه الأخيرة تشكّل دعامتها الطبيعية".

ويقول القس بولس فغالى فى قاموس "المحيط الجامع فى الكتاب المقدس والشرق القديم": "أخ- أخت: أولاد أب وأم (تك ٤: ٢)، أولاد أب وأمّهات عديدات (تك ٢٠:١٢)، أولاد أم وآباء عديدين (تك ٤٣:٧؛ لا ١٨:٩؛ ٢٠:١٧). فى معنى واسع الإخوة هم أيضًا العم وابن الأخ (تك ١٣:٨؛ ١٤:١٤)، وأناس من العشيرة الواحدة

(لا ١٠:٢١)، أو من العشيرة المجاورة (تث ٤:٢، ٨؛ ٨:٢٣). فى الرسائل يخاطب الملكُ ملكًا مثله باسم أخ (١ مل ٩:١٣؛ ٣٢:٢٠-٣٣). وقد يسَمِّى الرجل زوجته: "يا أختى"، وتسمّى المرأة زوجها: "يا أخى" (نش ٤:٩-١٢؛ ٥:١-١٦). فى العهد الجديد، يسَمَّى المسيحيون: "الإخوة" قرابة ١٦٠ مرّة، ويسمّى يسوع تلاميذه: "الإخوة" (يو ٢٠:١٧؛ رج عب ٢:١١-١٢). ويقول بولس الرسول إنّ ابن الله هو بكر إخوة كثيرين (رو ٨:٢٩)".

أما ما كتبته "دائرة المعارف الكتابية" تحت عنوان "أخ" و"أخت" على الترتيب فهو، كما يقول المثل: "قَطَعَتْ جَهِيزَةُ قولَ كل خطيب"، إذ يمثل ضربة ماحقة لكل الضجيج المثار حول عبارة "يا أخت هارون":

- "يطلق لفظ الأخ على:

١- الابن فى علاقته بأبناء أو بنات نفس الوالدين (تك ٤: ٨، ٤٢: ٤، مت ١٠: ٢).

٢- الابن لنفس الأب فقط دون الأم (تك ٢٠: ١٢، ٤٢: ٣) أو لنفس الأم فقط دون الأب (قض ٨: ١٩).

٣- على قريب من الأسرة الواحدة، كابن الأخ مثلا، فقد قال أبرام عن لوط ابن أخيه إنه "أخوه" (تك ١٤: ١٢ و١٦).

٤- على أفراد السبط الواحد (٢ صم ١٩: ١٢).

٥- أطلق اسم "إخوة" على الأفراد من الشعب الواحد (خر ٢: ١١، أع ٣: ٢٢، عب ٧: ٥).

٦- على حليف أو أحد أفراد شعب حليف (عدد ٢٠: ١٤، تث ٢٣: ٧، عاموس ١: ٩).

٧- على شخص يشابه شخصا آخر فى صفة من الصفات (أم ١٨: ٩).

٨- على الأصدقاء (أيوب ٦: ١٥).

٩- على شخص يماثل شخصا آخر فى المرتبة أو المكانة (١ مل ٩: ١٣).

١٠- على شخص من نفس العقيدة الواحدة (أع ١١: ٢٩، ١ كو ٥: ١١).

١١- تستخدم مجازيا للدلالة على المشابهة كما يقول أيوب: "صرت أخا للذئاب" (أيوب ٣٠: ٢٩).

١٢- على زميل فى العمل أو فى الخدمة (عزرا ٣: ٢).

١٣- أى إنسان من الجنس البشرى للدلالة على الأخوة البشرية (مت ٧: ٣ - ٥، أع ١٧: ٢٦، عب ٨: ١١، ١ يو ٢: ٩، ٤: ٢٠).

١٤- للدلالة على القرابة الروحية (مت ١٢: ٥٠).

١٥- قال الرب للتلاميذ: "أنتم جميعا إخوة" (مت ٢٣: ٨). كما استخدم الرسل والتلاميذ لفظ "إخوة" للتعبير عن بنوتهم المشتركة لله، وأن كلا منهم أخ للآخر فى المسيح (أع ٩: ١٧، ١٥: ١ ... الخ)، فالمؤمنون جميعا إخوة لأنهم صاروا "رعية مع القديسين وأهل بيت الله" (أف ٢: ٩). وقد كان الربيون اليهود يفرقون بين "أخ" و"قريب"، فيستخدمون لفظة "أخ" لمن يجرى فى عروقهم الدم الإسرائيلى، أما لفظ "قريب" فيطلقونه على الدخلاء، ولكنهم لم يكونوا يطلقون أى لفظ من اللفظين على الأمم. أما الرب يسوع والرسل فقد أطلقوا لفظة "أخ" على كل المؤمنين، ولفظة "قريب" على كل البشر (١ كو ٥: ١١، لو ١٠: ٢٩). وكل المجهودات الكرازية وأعمال الخير إنما هى من منطلق هذا المفهوم المسيحى لعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان.

١٦- للدلالة على المحبة القوية المتبادلة (٢ صم ١: ٢٦، كو ٤: ٧و ٩ و١٥ و٢ بط ٣: ١٥)". وهو نفسه ما تقوله " International Standard Bible Encyclopedia" تحت عنوان "Brother".

- "أخت: تستخدم هذه الكلمة كثيرا فى العهد القديم... للإشارة إلى:

١ – أخت شقيقة من نفس الأبوين.

٢ – أخت من أحد الأبوين (تك ٢٠: ١٢، لا ١٨: ٩).

٣– امرأة من نفس العائلة أو العشيرة (تك ٢٤: ٦٠، أى ٤٢: ١١).

٤ – امرأة من نفس البلد أو الناحية (عدد ٢٥: ٢٨).

٥ – يقال مجازيا عن مملكتى إسرائيل ويهوذا إنهما أختان (حز ٢٣: ٤).

٦ – تعتبر المدن المتحالفة أخوات (حز ١٦: ٤٥).

٧– تستخدم نفس الكلمة العبرية لوصف أشياء ذات شقين أو أشياء مزدوجة، مثل الستائر أو الشقق التى يقال عنها: "بعضها موصول ببعض" (وفى العبرية "موصول بأخته"– خر ٢٦: ٣ و٦)، كما تطلق أيضا على أزواج الأجنحة (حز ١: ٩، ٣: ١٣).

٨ – لوصف بعض الفضائل المرتبطة بالشخص مثل: "قل للحكمة: أنت أختى" (أم ٧: ٤، أى ١٧: ١٤).

٩ – لوصف العلاقة بين محب وعروسه كتعبير عن الإعزاز (نش ٤: ٩، ٥: ١، ٨: ٨).

وفى العهد الجديد تستخدم... "أخت" فى المعانى الآتية:

١ – لوصف القرابة بالجسد أو بالدم (مت ١٢: ٥، ١٣: ٥٦، ١٩: ٢٩، لو ١٠: ٣٩، لو ١٤: ٢٦، يو ١١: ١، ١٩: ٢٥، أع ٢٣: ١٦).

٢ – أخت فى المسيح: "أختنا فيبى" (رو ١٦: ١، انظر أيضا ١ كو ٧: ١٥، ١ تى ٥: ١، يع ٢: ١٥).

٣– قد تشير إلى كنيسة: "أختك المختارة" (٢ يو ١٣)". وهو نفسه ما تقوله "International Standard Bible Encyclopedia" تحت عنوان "Brother".

والآن أتركك، يا قارئى العزيز، تقوم بنفسك بتسكين أُخُوّة مريم لهارون تحت ما تراه مناسبا من هذه البنود، وكثير جدا منها ملائم تماما لهذا الاستعمال. وبالمناسبة لا

يقتصر ذلك التوسع فى الاستعمال على كلمة "أخ" و"أخت" وحدهما بل يمتد إلى ألفاظ القرابة الأخرى ككلمة "ابن" و"أب". وبالمناسبة فواضعو هذه الموسوعة ليسوا مجرد كتاب نصارى، بل من كبار رجال الدين والمتخصصين فى الدراسات الدينية الكتابية.

وأمام قوله تعالى فى سورة "الحج": "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِي إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيطَانُ فِي أُمْنِيتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يلْقِي الشَّيطَانُ ثُمَّ يحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)" يعلق الشيخ المفضال بقوله: "أثارت هذه الآية جَدلًا طويلًا بين العلماء، ودخل فيه كثير من الحشْو والإسرائيليات، خاصة حول معنى "تَمَنَّى" (الحج/ ٥٢) وهى تَرِد فى اللغة بمعنيين، وما دام اللفظ يحتمل معنيين فليس أحدهما أَوْلَى من الآخر إلا بمدى استعماله وشيوعه بين جمهور العربية، ويأتى التمنى فى اللغة بمعنى القراءة، كما ورد فى قول حسان بن ثابت فى رثاء عثمان بن عفان رضى الله عنهما:

تمنَّى كِتابَ الله أوَّلَ لَيلةٍ وآخِرَهَا وَافَاهُ حَتْمُ المقَادِرِ

يعنى: قُتِل عثمان وهو يقرأ القرآن. وهذا المعنى غريب فى حَمْل القرآن عليه لعدم شيوعه. وتأتى "تمنى" بمعنى "أحب أن يكون الشيء"، وهذا هو القول المشهور فى لغة العرب. أما بمعنى "قرأ" فهو غير شائع، ويرُدّ هذا القول وينقضه نَقْضا أوليا مبدئيا قوله تعالى: "وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِى" (الحج/ ٥٢). ومعلوم أن الرسول ينزل عليه كتاب يمكن أن يقرأه، أمّا النبى فلا ينزل عليه كتاب، بل يعمل بشرع مَنْ سبقه من الرسل. إذن فما دام الرسول والنبى مشتركين فى إلقاء الشيطان فلا بُدَّ أن تكون الأمنية هنا بمعنى "أحب أن يكون الشيء"، لا بمعنى "قرأ"، فأى شيء سيقرأ النبى، وليس معه كتاب؟

والذين فهموا "التمنى" فى قوله تعالى: "وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِى إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيطَانُ فِي أُمْنِيتِهِ" (الحج/ ٥٢) أنه بمعنى "قرأ"، سواء أكانوا من العلماء المتعمِّقين أو السطحيين، قالوا: المعنى إذا قرأ رسولُ الله القرآنَ تدخّل الشيطان

فى القراءة حتى يدْخِل فيها ما ليس منها. وذكروا دليلًا على ذلك فى قوله تعالى: "أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى" (النجم/ ١٩- ٢٠)، ثم أضافوا "والغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لتُرْتَجَى"، وكأن الشيطان أدخل فى القرآن هذا الكلام، ثم نسخه الله بعد ذلك وأحكم الله آياته. لكن هذا القول يشكِّك فى قضية القرآن. وكيف نقول به بعد أن قال تعالى فى القرآن: "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ" (الشعراء/ ١٩٣- ١٩٤). وقال: "وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ" (الحاقة/ ٤٤- ٤٧).

إذن الحق سبحانه وتعالى حفظ قرآنه وكلامه من أمثال هذا العبث. وكيف نُدْخِل فى القرآن هذه الكفريات؟ وكيف تستقيم عبارتهم "والغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى" مع قول الله تعالى: "أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى" (النجم/ ١٩- ٢٢)؟ كيف ينسجم هذا وذاك؟ فهذا الفهم فى تفسير الآية لا يستقيم، ولا يمكن للشيطان أنْ يدْخِل فى القرآن ما ليس منه، لكن يحتمل تدخُّل الشيطان على وجه آخر: فحين يقرأ رسول الله القرآن، وفيه هداية للناس، وفيه مواعظ وأحكام ومعجزات، أتنتظر من عدو الله أنْ يخْلِى الجو للناس حتى يسمعوا هذا الكلام دون أنْ يشوِّش عليهم، ويبلبل أفكارهم، ويحُول بينهم وبين سماعه؟

فإذا تمنّى الرسول، يعنى "قرأ"، ألقى الشيطان فى أُمنيته، وسلَّط أتباعه من البشر يقولون فى القرآن: سِحْر وشِعْر وإفْك وأساطير الأولين. فدَوْر الشيطان إذن لا أنْ يدخِلَ فى كلام الله ما ليس منه، فهذا أمر لا يقدر عليه ولا يمَكِّنه الله من كتابه أبدًا، إنما يمكن أنْ يلقِى فى طريق القرآن وفَهْمه والتأثر به العقبات والعراقيل التى تصدُّ الناس عن فَهْمه والتأثر به، وتُفسِد القرآن فى نظر مَنْ يريد أن يؤمن به.

لكن هل محاولة تشويه القرآن هذه وصَدّ الناس عنه جاءت بنتيجة وصرفتْ الناس فعلاً عن كتاب الله؟ لقد خيبَ الله سَعيه، ولم تقف محاولاته عقبة فى سبيل الإيمان بالقرآن والتأثر به لأن القرآن وجد قلوبًا وآذانًا استمعتْ وتأملتْ فآمنت وانهارتْ لجلاله وعظمته وخضعتْ لأسلوبه وبلاغته، فآمنوا به واحدًا بعد الآخر. ثم يقول تعالى: "فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" (الحج/ ٥٢) يعنى: ألغى وأبطل ما ألقاه الشيطان من الأباطيل والعقبات التى أراد بها أنْ يصدَّ الناس عن القرآن، وأحكمَ الله آياته، وأوضح أنها منه سبحانه وأنه كلام الله المعْجز الذى لو اجتمعتْ الإنسُ والجنُّ على أنْ يأتوا بمثله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

هذا على قول مَنِ اعتبر أن "تَمَنَّى" (الحج/ ٥٢) بمعنى "قرأ". أما على معنى أنها الشيء المحبوب الذى نتمناه فنقول: الرسول الذى أرسله الله تعالى بمنهج الحق إلى الخَلْق، فإنْ كان قادرًا على تطبيق المنهج فى نفسه فإنَّ أُمنيته أنْ يصدَّق وأنْ يطاع فيما جاء به، أمنيته أنْ يسودَ منهجه ويسيطر ويسُوس به حركة الحياة فى الناس. والنبى أو الرسول هو أَوْلى الناس بقومه، وهو أحرصهم على نَفْعهم وهدايتهم، والقرآن خير يحب للناس أن يأخذوا به عملًا بقوله صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمنُ أحدُكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه". لكن هل يترك الشيطان لرسول الله أنْ تتحقق أُمنيته فى قومه أَمْ يضع فى طريقه العقبات، ويحرِّك ضده النفوس، فيتمرّد عليه قومه حيث يذكِّرهم الشيطان بما كان لهم من سيادة ومكانة سيفقدونها بالإسلام؟

وهكذا يلْقِى الشيطان فى أُمنية الرسول "إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيطَانُ فِي أُمْنِيتِهِ" (الحج/ ٥٢)، وما كان الشيطان ليدع القرآنَ ينفذ إلى قلوب الناس أو حتى آذانهم. أليس هو صاحب فكرة "لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ" (فصلت/ ٢٦)؟ إن الشيطان لو لم يلْقِ العراقيل فى سبيل سماع القرآن ويشكّك فيه لآمن به كل مَنْ سمعه لأن للقرآن حلاوةً لا تُقَاوم، وأثرًا ينفذ إلى القلوب مباشرة. ومع ذلك لم يفُتّ ما ألقى

الشيطان فى عَضُد القرآن ولا فى عَضُد الدعوة، فأخذت تزداد يومًا بعد يوم، ويزداد عدد المؤمنين بالقرآن المصدِّقين به. المهم أن نتنبه: كيف نستقبل القرآن؟ وكيف نتلقاه؟ لا بد أن نستقبله استقبالَ الخالى من هوى، فالذى يفسد الأحكام أنْ تُسْتَقْبَل وتَدْخُل على هوى سابق...".

وهذا كلام جيد، ونضيف إليه أن القرآن يعلن أنه ما من رسول ولا نبى سبق الرسول وتمنى إلا ألقى الشيطان فى أمنيته. فلو كان المقصود أن الشيطان لم يترك رسولا ولا نبيا ممن سبقوا النبى عليه السلام إلا ألقى فى قراءته أشياء من عنده لكان هذا مصادما لحقائق التاريخ، إذ لم نسمع أن نبيا أو رسولا ألقى الشيطان فى قراءته شيئا، وإلا فليقل لنا من فسروا "التمنى" بمعنى "القراءة" متى وكيف حدث هذا لكل رسول ولكل نبى؟ ويستحيل أن يثبتوا ذلك لأنه لم يقع، وإلا لذكره القرآن، وبخاصة فى هذا السياق. بل لقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام قمينا أن يذكر هو نفسه للمسلمين وغير المسلمين حوادث إلقاء الشيطان فى قراءات إخوانه السابقين من المرسلين والنبيين مثلما ذكر أشياء أخرى كثيرة عنهم.

وعودة إلى الروايات الخاصة بـ"قصة الغرانيق"، وخلاصتها أن سورة "النجم" كانت تحتوى فى البداية على آيتين تمدحان الأصنام الثلاثة: "اللات والعُزَّى ومَنَاة"، ثم حُذِفتا منها فيما بعد، إذ كان محمد عليه الصلاة والسلام يتمنى أن يصالح القرشيين حتى يكسبهم إلى صفه بدلا من استمرارهم فى عداوتهم لدعوته وإيذائهم له ولأتباعه، ومن ثَمَّ أقدم سهوا على تضمين سورة "النجم" تَينِك الآيتين عقب قوله: "أفرأيتم اللاتَ والعُزَّى * ومناةَ الثالثةَ الأخرى؟" على النحو التالى: "إنهنّ الغرانيق العُلَا * وإن شفاعتهن لَتُرْتَجَى"، أو دسهما الشيطان فى تلاوته وهو لا يشعر، فلسوف نجد أن سورة "النجم" نفسها وسيرة حياته صلى الله عليه وسلم كافيتان للقطع بأن تلك القصة لا

يمكن أن تكون قد حدثت على هذا النحو الذى اخترعه بعض الزنادقة قديما وأخذ أعداء الإسلام يرددونها منذئذ! وإلى القارئ الكريم البيان:

إن سورة "النجم" من أولها إلى آخرها عبارة عن حملة مدمدمة على المشركين وما يعبدون من أصنام بحيث لا يعْقَل إمكان احتوائها على هاتين الآيتين المزعومتين، وإلا فكيف يمكن أن يتجاور فيها الذمُّ العنيف للأوثان والمدحُ الشديد لها؟ ترى هل يمكن تصوُّر انخراط شخص فى فاصل من التقريظ لشخص آخر لينتقل بعدها مباشرة لسبه وإهانته؟ ترى هل يعْقَل ابتلاعُ العرب مثل هاتين الآيتين اللتين تمدحان آلهتهم، وهم يسمعون عقيب ذلك قوله تعالى: "ألكم الذَّكَر وله الأنثى؟ * تلك إذن قسمةٌ ضِيزَى * إنْ هى إلا أسماءٌ سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان. إنْ تتَّبِعون إلا الظن وما تَهْوَى الأنفس. ولقد جاءهم من ربهم الهدى"؟ إن هذا أمر لا يمكن تصوره!

كما أن وقائع حياته صلى الله عليه وسلم تجعلنا نستبعد تمام الاستبعاد أن تكون عزيمته قد ضعفت يوما، فقد كان مثال الصبر والإيمان بنصرة ربه له ولدعوته. ومواقفه من الكفار طوال ثلاثة وعشرين عاما وعدم استجابته فى مكة لوساطة عمه مرارا بينه وبينهم رغم ما كان يشعر به من حب واحترام عميق نحوه، ورغم الإيذاء الرهيب الذى كان يتعرض له هو وأتباعه، وكذلك رفضه لما عرضوه عليه من المال والرئاسة، هى أقوى برهان على أنه ليس ذلك الشخص الذى يمكن أن يقع فى هذا الضعف والتخاذل!

ولقد أضفتُ طريقةً جديدةً للتحقق من أمر هاتين الآيتين هى الطريقة الأسلوبية، إذ نظرتُ فى الآيتين المذكورتين لأرى مدى مشابهتهما لسائر آيات القرآن فوجدت أنهما لا تمتان إليهما بأية صلةٍ. ذلك أن الآيتين المزعومتين تجعلان الأصنام الثلاثة مناطا للشفاعة يوم القيامة دون تعليقها على إذن الله، وهو ما لم يسنده القرآن فى أى موضع منه إلى أى كائن مهما تكن منزلته عنده سبحانه. ولن نذهب بعيدا للاستشهاد على ما

نقول، فبعد هاتين الآيتين بخمس آيات فقط نقرأ قوله تعالى: "وكم مِنْ مَلَكٍ فى السماوات لا تُغْنِى شفاعتُهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرْضَى". فكيف يقال هذا عن الملائكة فى ذات الوقت الذى تؤكد إحدى الآيتين المزعومتين أن شفاعة الأصنام الثلاثة جديرة بالرجاء من غير تعليق لها على إذن الله؟

ثم إنه قد ورد فى الآية الثانية من آيتى الغرانيق كلمة "تُرْتَجَى"، وهى أيضا غريبة على الأسلوب القرآنى، إذ ليس فى القرآن المجيد أى فعل من مادة "ر ج و" على صيغة "افتعل". أما ما جاء فى إحدى الروايات من أن نص الآية هو: "وإنّ شفاعتهن لتُرْتَضَى"، فالرد عليه هو أن هذا الفعل بهذه الصيغة، وإن ورد فى القرآن ثلاث مرات، لم يقع فى أى منها على "الشفاعة"، وإنما تُسْتَخْدَم مع الشفاعة عادةً الأفعال التالية: "تنفع، تُغْنِى، يملك".

كذلك بدأت مجموعةُ الآيات التى تتحدث عن اللات والعُزَّى ومناة بقوله عَزَّ شأنُه: "أفرأيتم...؟"، وهذا التركيب (بالفاء أو بدونها) قد ورد فى القرآن إحدى وعشرين مرة كلها فى مخاصمة الكفار والتهكم العنيف بهم كما فى الشواهد التالية: "قل: أرأيتم إن أتاكم عذابُه بَيَاتًا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون؟"، "قل: أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزقٍ فجعلتم منه حلالا وحراما؟ قل: آللهُ أَذِنَ لكم أم على الله تفترون؟"، "قل: أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشَهِد شاهدٌ من بنى إسرائيل على مِثلِهْ فآمن واستكبرتم؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين"، "أفرأيتم الماء الذى تشربون؟ * أأنتم أنزلتموه من المُزْن أم نحن المُنْزِلون؟ * لو نشاء جعلناه أُجَاجًا، فلولا تشكرون". فكيف يمكن إذن أن يجىء هذا التركيب فى سورة "النجم" بالذات فى سياق ملاطفة الكفار ومراضاتهم بمدح آلهتهم؟ وفوق هذا لم يحدث أن أُضيفت كلمة "شفاعة" فى القرآن الكريم (فى حال مجيئها مضافة) إلا إلى الضمير "هم" على خلاف ما أتت عليه فى آيتى الغرانيق من إضافتها إلى الضمير "هُنّ".

وفضلا عن ذلك فتركيب الآية الأولى من الآيتين المزعومتين يتكون من "إنّ (وهى مؤكِّدة كما نعرف) + ضمير (اسمها) + اسم معرّف بالألف واللام (خبرها)". وهذا التركيب لم يسْتَعْمَل لـ"ذاتٍ عاقلةٍ" فى أى من المواضع التى ورد فيها فى القرآن الكريم (وهى تبلغ العشرات) دون تأكيد اسم "إنّ" الضمير بضميرٍ مثله، كما فى الأمثلة التالية: "ألا إنهم هم المفسدون/ ألا إنهم هم السفهاء/ إنه هو التواب الرحيم/ إنك أنت السميع العليم/ إنك أنت التواب الرحيم/ إنه هو السميع العليم/ إنه هو العليم الحكيم/ إنه هو الغفور الرحيم/ إنى أنا النذير المبين/ إنه هو السميع البصير/ إننى أنا الله/ إنك أنت الأعلى/ إنا لنحن الغالبون/ إنه هو العزيز الحكيم/ وإنا لنحن الصافّون/ وإنا لنحن المسبِّحون/ إنهم لهم المنصورون/ إنك أنت الوهاب/ إنه هو السميع البصير/ إنه هو العزيز الرحيم/ إنك أنت العزيز الكريم/إنه هو الحكيم العليم/ إنه هو البَرُّ الرحيم/ ألا إنهم هم الكاذبون/ فإن الله هو الغنى الحميد". أما فى المرة الوحيدة التى ورد التركيب المذكور دون تأكيد اسم "إنّ" الضمير بضميرٍ مثله (وذلك فى قوله تعالى: "إنه الحق من ربك") فلم يكن الضمير عائدا على ذات عاقلة. وعلى ذلك فإن التركيب فى أُولَى آيتَيِ الغرانيق هو أيضا تركيب غريب على أسلوب القرآن الكريم.

مما سبق يتأكد لنا على نحوٍ قاطعٍ أن الآيتين المذكورتين ليستا من القرآن، وليس القرآن منهما، فى قليل أو كثير. ثم إن كلمة "الغرانيق" لا وجود لها فى القرآن، بل إنى لأستبعد أن تكون قد وردت فى أى من الأحاديث التى قالها النبى عليه الصلاة والسلام. وينبغى أن نضيف إلى ما مرّ أن كُتُب الصحاح لم يرد فيها أى ذكر لهذه الرواية، ومثلها فى ذلك ما كتبه ابن هشام وأمثاله فى السيرة النبوية.

ولقد قرأت فى كتاب "الأصنام" لابن الكلبى أن المشركين كانوا يرددون هاتين العبارتين فى الجاهلية تعظيما للأصنام الثلاثة، ومن ثَمَّ فإنى لا أستبعد ما طرحه الكاتب

الهندى سيد أمير على فى كتابه: "The Spirit of Islam" من تفسير لما يمكن أن يكون قد حدث بناءً على ما ورد من روايات فى هذا الموضوع، إذ يرى أن النبى، عندما كان يقرأ سورة "النجم" وبلغ الآيات التى تهاجم الأصنام الثلاثة، توقَّع بعض المشركين ما سيتلوه عليه السلام بعد هذا فسارع إلى ترديد هاتين العبارتين فى محاولة لصرف مسار الحديث إلى المدح بدلا من الذم والتوبيخ. وقد كان الكفار فى كثير من الأحيان إذا سمعوا القرآن أحدثوا لَغْطًا ولَغْوًا كى يصرفوا الحاضرين عما تقوله آياته الكريمة كما تقول الآية السادسة والعشرون من سورة "فُصِّلَتْ". فهذا الذى يقوله الكاتب الهندى هو من ذلك الباب.

ولدن تناول الشيخ لقوله تعالى من سورة الحج: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِى إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيطَانُ فِى أُمْنِيتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يلْقِى الشَّيطَانُ ثُمَّ يحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)" يستطرد فيقول: "ومن بشريته صلى الله عليه وسلم أنه تعرّض للسحر، وهذه واقعة لا تُنْكَر، وقد ورد فيها أحاديث صحيحة. وقد كاد الكفار لرسول الله بكل أنواع الكيد: استهزاءً وسبابًا واضطهادًا وإهانةً، ثم تآمروا عليه بلَيلٍ ليقتلوه، وبيتوا له فلم يفْلِحوا. قال تعالى: "وَإِذْ يمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيثْبِتُوكَ أَوْ يقْتُلُوكَ أَوْ يخْرِجُوكَ وَيمْكُرُونَ وَيمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيرُ الْمَاكِرِينَ" (الأنفال/ ٣٠). وكاد الله لرسوله وأخرجه من بينهم سالمًا، وهكذا فضح الله تبييتهم وخيب سَعْيهم، وفشلَتْ محاولاتهم الجهرية والسرية، فلجأوا إلى السحرة ليفعلوا برسول الله ما عجزوا هم عنه، وعملوا لرسول الله سحرًا فى مُشْطٍ ومُشَاطةٍ من شعره صلى الله عليه وسلم وطَلْع نخلة ذكَر، ففضحهم الله وأخبر رسوله بذلك فأرسل الإمام عليا فأتى به من بئر ذروان. وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يبين لنا بشرية الرسول، وأنه يجرى عليه ما يجرى على البشر، لكن ربه لا يترك بشريته وحدها، وإنما يعصمه بقيوميته".

وواضح أن الشيخ يؤمن بالسحر وبأن النبى قد أصيب به. وهذه مسألة فيها خلاف. والعبد لله لا يستطيع الاقتناع بقصة سحر النبى بتاتا. وملخص تلك القصة أن رجلا من المنافقين قد سحر النبى عليه الصلاة والسلام حتى لقد كان يتوهم أنه يأتى نساءه دون أن يأتيهن. وبادئ ذى بدء أسوق الحديث الخاص بذلك، وهو من رواية البخارى: "كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سُحِرَ حتى كان يرَى أنه يأتى النساءَ ولا يأتيهِنَّ. قال سفيانُ: وهذا أشدُّ ما يكونُ من السِّحْرِ إذا كان كذا. فقال: يا عائشةُ، أعَلِمْتِ أن اللهَ قد أفتانى فيما استفتَيْتُه فيه؟ أتانى رجلانِ: فقعَد أحدُهما عند رأسى، والآخَرُ عند رِجْلى، فقال الذى عند رأسى للآخَرِ: ما بالُ الرجلِ؟ قال: مَطْبوبٌ. قال: ومَنْ طَبَّه؟ قال: لَبِيدُ بن أعْصَمَ (رجلٌ من بنى زُرَيقٍ حَلِيفٌ ليهُودَ كان منافقًا). قال: وفيمَ؟ قال: فى مُشْطٍ ومُشَاقَةٍ. قال: وأينَ؟ قال: فى جُفِّ طلعةٍ ذكَرٍ تحت رَعُوفَةٍ فى بئرِ ذَرْوانَ. قالتْ: فأتى النبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم البئرَ حتى استخرجه، فقال: هذه البئرُ التى أُرِيتُها، وكأن ماءَها نُقَاعَةُ الحِنَّاءِ، وكأن نخلَها رُؤوسُ الشياطين. قال: فاستُخْرِجَ. قالتْ: فقلتُ: أفَلا (أى تنَشَّرَتْ)؟ فقال: أمَا واللهِ فقد شفانى اللهُ، وأكرَهُ أن أُثِيرَ على أحدٍ من الناسِ شَرًّا ".

وهناك، كما هو معروف، من ينكر وقوع السحر للنبى لأنه يناقض رد القرآن على متهميه بالسحر، إذ كانوا يقولون: "إنْ تتَّبعون إلا رجلا مسحورا". وأنا معهم فى إنكار السحر، وأرى أنه لا يليق بنبوته أن يكون أعداؤه قد تسلطوا عليه بالسحر حتى وصل إلى تلك الحالة التى تثير الشفقة والرثاء من جانب محبيه، والشماتة والابتهاج من جانب شانئيه، ويظهر فيها عاجزا لا يمكنه هو أو غيره أن يصنع إزاءها شيئا. بل إنه ليبدو وكأنه غير واع بالأمر أصلا. وهذه معضلة أخرى أنكى وأشد. وفوق هذا ففى النص أشياء جديرة بالملاحظة: فمثلا تقول القصة إنه عليه السلام بعد أن سُحِرَ كان يرى أنه يأتى نساءه ولا يأتيهن. ولا أدرى كيف يكون ذلك. لو قيل إنه كان يريد إتيانهن لكنه لا

يستطيع لكان الكلام مفهوما بغض النظر عن موافقتنا على صحته أو لا. أما القول بأنه كان يرى أنه يأتيهن لكنه لا يأتيهن فأمر لا يقبل التصور أساسا.

على أن الأمر لا يقف عند هذا الحد، بل هناك روايات أخرى تقول إن شعر رسول الله قد تساقط، وكان يخيل له أنه يأتي الشيء ولا يأتيه، وإنه كان يذوب ذوبا، واستمر ذلك مدة. ومعناه أن أحواله كلها قد اضطربت، والعياذ بالله، وكأن النبوة لعب عيال يستطيع اليهود الأدناس أن يؤثروا فى صاحبها كل هذا التأثير الشنيع، وهو الذى أدبهم الأدب الشرعى وأراهم حجمهم الصحيح وجعلهم يمشون على العجين فلا يلخبطونه أبدا، وطهر منهم ومن إجرامهم وتآمراتهم وفتنهم بلاد العرب.

ثم تمضى القصة قائلة إن مَلَكَين قد أتياه وهو نائم، فسأل أحدهما الآخر: ما بال الرجل؟ وكأن ملكين قد أرسلهما الله لمعالجة رسوله يمكن أن يجهلاه إلى هذا الحد فلا يعرفا أنه رسول الله بل مجرد رجل من ملايين نكرات الرجال. إن ذلك لا يمكن أن يحدث إلا إذا تخيلنا أن الملكين كانا مدلجين ذات ليلة على غير هدى فصادفا رجلا مجهولا نائما تحت شجرة، فقالا ما قالا. كذلك نفهم من القصة أن أحدهما لم يكن يعرف ماذا أصاب الرسول، إذ يسأل زميله: ما بال الرجل؟ فلماذا إذن كان مجيئهما إليه صلى الله عليه وسلم؟

كذلك لم وضع الساحر سحره فى بئر ولم يضعه فى بيته مثلا حتى يطمئن إلى أن أحدا لن يمكنه الوصول إليه، فضلا عن أنه سوف يكون أسهل عليه من تكلف الذهاب إلى البئر المذكورة والنزول فى الماء والطين لإخفاء العمل السحرى الذى جهزه واحتمال رؤية أحد من الناس له وهو يفعل ذلك؟ ولماذا لم تشف السماء النبى مباشرة بدلا من هذا السبيل المعقد الذى قرأناه؟ وتقول القصة إن النبى، بعد استخراجه السحر، لم يشأ أن يثير على أحد من الناس شرا. وهى عبارة غامضة: فهل المقصود بالناس هنا هم المسلمون؟ لكن أى شر يمكن أن يصيبهم جراء ذلك؟ هل هو الخوف

من الفتنة؟ لكن الفتنة وقعت وانتهى الأمر، إذ علم المسلمون أنه صلى الله عليه وسلم مسحور وعاجز عن فعل أى شىء ينقذه من الحالة السيئة التى كان عليها. بل إن الروايات الأخرى فى البخارى ومسلم وابن حبان تقول إنه صلى الله عليه وسلم، حين قصد البئر ليستخرج منها السحر، قصدها فى جماعة من أصحابه، بالإضافة إلى أنهم لا بد أن يكون قد ثار فى أذهانهم السؤال التالى: كيف ينفى القرآن عن الرسول السحر، وهو ذا أمامنا مسحور بلا أى جدال؟ أم هل المقصود بأحد من الناس هو الساحر؟ لكن ألم يأت فى الأحاديث أن الساحر يجب أن يقْتَل؟ فلماذا لم يطبَّق هذا الحكم عليه؟ ثم من استخرج السحر من الماء؟ أهو الرسول؟ فهل يليق به صلى الله عليه وسلم، وهو النبى والحاكم والقائد والمشرع والقاضى، أن ينزل بئرا ليبحث فيها عن عمل من أعمال السحر؟ أم هو واحد من الصحابة؟ فمن هو يا ترى؟ ولماذا لم يقدم لنا تقريرا عما رأى وسمع؟ وهل اكتفى الساحر بسحره مرة واحدة فقط؟ وأين تفاصيل معاناة الرسول عليه السلام؟

وفى الرواية الموجودة فى "لباب النقول" للسيوطى يأمر الرسول صحابته بأن يذهبوا إلى البئر المذكورة فينزحوا ماءها حتى تظهر الصخرة التى وُضِع السحر تحتها فيستخرجوه ويحرقوه. وهو عمل مرهق يأخذ وقتا ويلفت الأنظار، ولا يتسق مع قول الرسول إنه لا يريد أن يثير بين الناس فتنة، إذ لا بد أن يعلم به القاصى والدانى من أهل المدينة على الأقل. بل هل يمكن نزح بئر أصلا؟ وهذا نص رواية "لباب النقول: "مَرِض رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضا شديدا، فأتاه ملَكان: فقعد أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه، فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه: ما ترى؟ قال: طُبَّ. قال: وما طُبّ؟ قال: سُحِر. قال: ومن سحره؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودى. قال: أين هو؟ قال: فى بئر آل فلان تحت صخرة فى كرية. فأْتُوا الركية فانزحوا ماءها وارفعوا الصخرة ثم خذوا الكرية واحرقوها. فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه

وسلم بعث عمار بن ياسر فى نفر، فأَتَوُا الركية فإذا ماؤها مثل ماء الحناء، فنزحوا الماء ثم رفعوا الصخرة، وأخرجوا الكرية وأحرقوها، فإذا فيها وتر فيه إحدى عشرة عقدة. وأنزلت عليه هاتان السورتان، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة: قل أعوذ برب الفلق، قل أعوذ برب الناس". ولنلاحظ أن أحد الرجلين اللذين أتيا النبى فى الرؤيا، والمفروض أنهما ملكان، لا يعرف معنى "طُبّ" كما هو واضح. فهل يعقل هذا؟ ثم إن هذه الرواية تتحدث عن إحراق السحر، بينما فى رواية أخرى للبخارى غير الرواية السابقة لا إحراق للسحر ولا حتى استخراج له، علاوة على أن لبيد بن الأعصم فيها يهودى وليس من الموالسين معهم.

وفى رواية أخرى فى "فتح البارى" لابن حجر نقرأ ما يلى: "فقالت أختُ لبيدِ بنِ الأعصمِ: إن يكن نبيا فسيخْبَرُ، وإلا فسيذْهِلُهُ هذا السِّحْرُ حتَّى يذْهِبَ عقلَه". وها هو ذا قد أخبر الله نبيه بالسحر وشفاه منه وأبطل كيد ابن الأعصم، فماذا فعلت أخته؟ ولماذا لم يحاجّها المسلمون بشفاء رسول الله ويطالبوها هى وأخاها باعتناق الإسلام؟ لكننا ننظر فنجد أن الأمر قد أُكْفِئَ عليه ماجور وأُهْمِل تماما بعد ذلك، وكأنه لم يكن. بل إن لبيد بن الأعصم، فيما لاحظتُ، لا يأتى له ذكر فى غير هذا الحديث. أفلم يكن للرجل أى دور فى الحياة غير سحر النبى عليه السلام؟ لكأنه ممثل من من ممثلى الكومبارس ممن يظهرون فى المسرحية أو الفلم فى لقطة خاطفة يقولون فيها جملة سريعة ثم يختفون تماما حتى نهاية القصة، وهم مع ذلك سعداء أن قُدِّر لهم الظهور فى عمل فنى جماهيرى مع الممثلين الكبار. كذلك من الصعب جدا أن نتصور نازحى البئر من الصحابة الكرام وقد سكتوا تماما بعد الحادثة فلم يتعرضوا هم ولا غيرهم من المسلمين للبيد بن الأعصم هذا ولو بتقريع.

إن أمرا كهذا لا يمكن أن يكون قد مر مرور الكرام على النحو الذى رأينا وكأننا قبالة موضوع نظرى مجرد بارد لا موضوع حياة يومية فيها معاناة وحيرة وألم

ومؤامرات وصراعات؟ ألم يكن للصحابة رد فعل على ما يرَوْنَه فى رسولهم الكريم؟ أين عمر مثلا فلم يهتم بتمحيص المسألة حتى يضع يده على الفاعل الشرير ويعاقبه العقاب اللازم؟ لقد رأينا فى حادثة الإفك وغيرها عالما موارا من الوقائع والمشاعر والاتهامات والردود والتقصى والتمحيص، أما هنا فكلمتان سريعتان أقرب إلى عالم التنظير والتجريد البارد لا تشفيان غليل الباحث. هل يعقل أن يحدث هذا لزعيم دولة وحاكمها وقائدها العسكرى وقاضيها وموجهها، وقبل ذلك كله رسولها، ثم لا نسمع شيئا عن موقف أهل المدينة تجاه هذا الأمر سواء من المسلمين المؤمنين، أو خصومه من اليهود والمنافقين والكافرين؟ وقبل ذلك كله كيف يرضى الله سبحانه وتعالى تعريض نبيه لهذا الاضطراب القبيح المُذْهِب للوعى فى أمر علاقته مع زوجاته وغيره من الأمور على يد واحد من أعدائه؟ ثم إن الرواية تتحدث عن نسائه جميعا رضوان الله عليهن، فلماذا لم نر فى الصورة ونسمع غير عائشة؟ أين رد فعل حفصة؟ أين رد فعل زينب؟ أين رد فعل أم سلمة؟ أين رد فعل ميمونة؟ وأين رد فعل بقية أمهات المؤمنين؟ بل أين رد فعل صفية بالذات، وهى يهودية الأصل، وكان ينبغى أن يكون لها تعليق على ما صنعه الساحر المنتسب لدين قومها؟

وهناك آية فى سورة "لقمان" يستند إليها كثير ممن يحرمون الغناء هى قوله تعالى: "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٦)". وفى تفسيرها يقول شيخنا الجليل: "بعد أن ذكر الحقُّ سبحانه الكتابَ وآياتِه وأن فيه هدى ورحمة لمن اتبعه، وفلاحًا لمن سار على هديه يبين لنا أن هناك نوعًا آخر من الناس ينتفعون بالضلال ويستفيدون منه، وإلا ما راجتْ سوقه ولما انتشر بين الناس أشكالًا وألوانًا. لذلك نرى للضلال فئة مخصوصة حظهم أن يستمر وأن ينتشر لتظل مكاسبهم ولتظل لهم سيادتهم على الخَلْق وعبوديتهم لهم واستنزاف خيراتهم. وطبيعى إنْ وُجِد قانون يعيد توازن الصلاح للمجتمع لا يقف فى

وجهـه إلا هـؤلاء: يحاربونـه ويحـاربون أهلـه ويتهمـونهم ويـشككون فى نوايـاهم، بـل ويوا جهـونهم بالـسخرية والاسـتهزاء مـرة، وبالتعـدى مـرة أخـرى. وربـما قطعـوا علـيهـم سبل الحياة كما عزلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شِعْب أبى طالب، ثم يكْرِهون أهل الحق على الهجرة والخروج من أموالهم وأهلهـم إلى الحبشة مرة، وإلى المدينة مرة أخرى. لماذا؟ لأن حياتهم تقوم على هذا الضلال، فلا بُدَّ أنْ يحافظوا عليه.

والحق سبحانه يبين لنا أن هؤلاء الذين يحاربون الحق ويقفون فى وجه الدعوة إلى الإيـمان يعرفـون تمامًـا أنهـم لـو تركـوا النـاس يـسمعون منـهج الله وداعـى الخير لا بُـدَّ أنْ يميلوا إليه. لـذلك يحُولُـون بين آذان النـاس ومنطـق الحـق. فهـم الـذين قـالوا للنـاس: "لاَ تَسْمَعُوا لِهَـذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيه" (فُصِّلَتْ/ ٢٦)، ومـا ذلـك إلا أنهـم واثقـون مـن لغـة القرآن وجمال أسلوبه واستمالته للقلوب بحلو بيانه، فلو سمعتْه الأذن العربية لا بُدَّ وأنْ تتـأثر بـه، وتقـف عـلى وجـوه إعجـازه، وتنتهـى إلى الإيـمان. فـإذا مـا أفلـتَ مـنهم أحـد وانصرف إلى سماع الحق أَتَوْهُ بصَوَارِفَ أخرى وأصواتٍ تصرفه عن الحق إلى الباطل.

وقولـه: "وَمِنَ النَّاسِ" (لقمان/ ٦): "مِنْ" هنـا للتبعيض، أى النـاس المـستفيدون من الضلال، والذين يسوؤهم أنْ يأتمَّ الناس جميعًا بمنطق واحد وهدف واحد وهدى واحـد لأن هـذه الوحـدة تقـضى عـلى تميـزهم وجـبروتهم وظلمهـم فى الأرض. لـذلك يبذلون قصارى جهدهم فى الضلال: "وَمِنَ النَّاسِ مَن يشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ" (لقمان/ ٦)...

إذن هؤلاء الذين يريدون أن يصدوا عن سبيل الله تحملوا مشقة الطلب، وتحملوا غُرْم الثمن، ثم وُصِفوا بالخيبة لأنهم رَضُوا بسلعة خسيسة. والأدهى من ذلك والأمرّ منه أن يضعوا هذا فى مقابل الحق الذى جاءهم من عند الله على يد رسوله بلا تعب وبلا مـشقة وبـلا ثمـن، جـاءهم فـضلًا مـن عنـد الله وتكرمًـا: "قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى" (الشورى/ ٢٣). فأى حمق هذا الذى يوصفون به؟ وكلمة "اللهو":

ذكر القرآن "اللهو" وذكر "اللعب" فى عدة آيات قدَّمت اللعب على اللهو فى قوله تعالى: "وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ" (الأنعام/ ٣٢) وفى قوله تعالى: "اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ" (الحديد/ ٢٠)، وقدمت اللهو فى قوله تعالى: "وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ" (العنكبوت/ ٦٤). فقدمت الآيات اللعب فى آيتين لأن اللعب أن تصنع حركة غير مقصودة لمصلحة كما يلعب الأطفال. يعنى حركة لا هدفَ لها، ونقول عنها: "لعب عيال" وسُمِّيت: "لَعِبًا" لأن الطفل يلعب قبل أنْ يكلَّف بشيء، فلم يشْغَل باللعب عن غيره من المهمات. لكن إذا انتقل إلى مرحلة التكليف فإن اللعب يشغله عن شيء طُلِب منه، ويسمَّى فى هذه الحالة: "لهوًا". ومنه قوله تعالى: "وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا" (الجمعة/ ١١). إذن فاللهو هو الشيء الذى لا مصلحة فيه، ويشغلك عن مطلوب منك.

فآية سورة "العنكبوت" التى قدمت اللهو على اللعب تعنى أن أمور الاشتغال بغير الدين قد بلغت مبلغًا وأن الفساد قد طَمَّ، واستشرى الانشغال بغير المطلوب عن المطلوب. فهذه أبلغ فى المعنى من تقديم اللعب لأن اللعب لم يلْهِه عن شيء. لكن ما اللهو الذى اشترَوْه ليصرفوا الناس به عن الحق وعن دعوة الإسلام؟ إنهم لما سمعوا فى القرآن قصصًا عن عاد وثمود، وعن مدين وفرعون... إلخ أرادوا أنْ يشغلوا الناس بمثل هذه القصص. وقد ذهب واحد منهم، وهو النضر بن الحارث، إلى بلاد فارس، وجاءهم من هناك بقصص مسلية عن رستم وعن الأكاسرة وعن ملوك حِمْير، اشتراها وجاء بها، وجعل له مجلسًا يجتمع الناس فيه ليقصّها عليهم ويصرفهم بسماعها عن سماع منطق الحق فى رسول الله. وآخر يقول: بل جاء أحدهم بمغنية تغنيهم أغانى ماجنة متكسرة.

ومعنى "لَهْو الْحَدِيثِ" (لقمان/ ٦) قال العلماء: هو كل ما يلْهِى عن مطلوب لله، وإنْ لم يكُنْ فى ذاته فى غير مطلوب الله لَهْوًا. وعليه فالعمل الذى يلهى صاحبه من صناعة أو زراعة... إلخ يعَدُّ من اللهو إنْ شغله مثلًا عن الصلاة أو عن أداء واجب لله تعالى. ومن التصرفات ما يعَدُّ لهوًا، وإنْ لم يشغلك عن شيء كالغناء. وللعلماء فيه كلام كثير خاصة بعد أنْ صاحبته الموسيقى وآلات الطرب والحركات الخليعة الماجنة. ولفقهائنا القدامى رأيهم فى هذا الموضوع، لكن العلماء المحدثين والذين يريدون أنْ يجِيزوا هذه المسألة يأخذون من كلام القدماء زاوية ويطبِّقونها على غير كلامهم.

نعم أباح علماؤنا الأُنْس بالغناء فى الأفراح وفى الأعياد اعتمادًا على قول النبى صلى الله عليه وسلم لأبى بكر الصديق، الذى رأى جاريتين تغنيان فى بيت رسول الله فنهرهما، وقال: أمزمار الشيطان فى بيت رسول الله؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "دعهما، فإننا فى يوم عيد". وكذلك أباحوا الأناشيد التى تقال لتلهب حماس الجنود فى الحرب أو التى ينشدها العمال ليطربوا بها أنفسهم وينشغلوا بها عن متاعب العمل أو المرأة التى تهدهد ولدها لينام. ومن ذلك حُدَاء الإبل لتسرع فى سيرها. وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لأنجشة: "رفقًا بالقوارير"، فشبَّه النساء فى لطفهن ورقّتهن بالقوارير، فإذا ما أسرعتْ بهن الإبل هُزَّت بهن الهوادج، وهذا يشقُّ على النساء. إذن لا مانع من كل نصٍّ له غرض نبيل، أما إنْ أهاج الغرائز فهو حرام، والكلام هنا عن مجرد النص، لأن الخالق سبحانه يعلم طبيعة الغرائز فى البشر. لذلك نسميها: "غريزة" لأن لها عملًا وتفاعلًا فى نفسك بدون أى مؤثرات خارجية، ولها طاقة لا بُدَّ أنْ تتحرك. فإنْ أَثَرْتَها أنت ثارتْ ونزعتْ إلى ما لا تُحْمَد عُقْباه.

وسبق أن أوضحنا أن مراتب الشعور ثلاث: يدرك بحواسه، ثم وجدان يتكوَّن فى النفس نتيجة للإدراك، ثم النزوع والعمل الذى يترجم هذا الوجدان. ومن رحمة الله بنا أن الشرع لا يتدخل فى هذه المسألة إلا فى مرحلة النزوع، فيقول لك: قِفْ! لا تمدّ

يدك إلى ما ليس لك. ومثَّلنا لهذه المسألة بالوردة تراها فى البستان ويعجبك منظرها وتجذبك رائحتها فتعشقها، وهذا لك. فإن مددْتَ يدك لتقطفها يقول لك الشارع: قِفْ! ليس من حقك.

إذن فالشارع الحكيم لا يتدخَّل فى مرحلة الإدراك ولا فى المواجيد إلا فى مسألة واحدة لا يمكن الفصل فيها بين الإدراك والوجدان والنزوع لأنها جميعها شيء واحد. إنها عملية نظر الرجل إلى المرأة التى لا تحل له. لماذا هذه المسألة بالذات؟ قالوا: لأنها لا تقف عند حَدِّ الإعجاب بالمنظر. إنها يورِثك هذا الإعجابُ انفعالا خاصا فى نفسك، ويورِثك تشكلا خاصا لا يهدأ إلا بأن تنزع. فرحمة بك يا عبدى أنا سأتدخل فى هذا الأمر بالذات من أوله، وأمنعك من مجرد الإدراك لأنك إنْ أدركتَ وجدتَ، وإنْ وجدتَ نزعتَ إلى ما تجد، فأثمت فى أعراض الناس أو كَبَتَّ فى نفسك فأضررتَ بها. وربك يريد أنْ يبْرِئك من الإثم ومن الإضرار بالنفس. فالأسلم لكم أنْ تغضّوا أبصاركم.

إذن لا تقُل: "الغناء" لكن قُلْ: "النص نفسه". إنْ حثَّ على فضيلة فهو حلال، وإنْ أهاج الغرائز فهو حرام وباطل كالذى يشبِّب بالمرأة ويذكر مفاتنها. فهذا حرام حتى فى غير الغناء، فإذا ما أضفتَ إليه الموسيقى والألحان والتكسر والميوعة ازدادت حرمته وتضاعف إثمه. أما ما نراه الآن وما نسمعه مما يسَمُّونه: "غناء" وما يصاحبه من حركات ورقصات وخلاعات وموسيقى صاخبة فلا شكّ فى حرمته. فكل ما يخرج الإنسان عن وقاره ورزانته وكل ما يجرح المشاعر المهذبة فهو حرام. ثم إن الغناء صوت. فإنْ خرج عن الصوت إلى أداء آخر مُهيج تستعمل فيه الأيدى والأرجل والعينان والوسط... إلخ فهذا كله باطل ومحرم.

ولا ينبغى للمؤمن الذى يملك زمام نفسه أن يقول: "إنهم يفرضون ذلك علينا"، فالمؤمن له بصيرة يهتدى بها، ويميز بين الغثِّ والسمين، والحق والباطل، فكُنْ أنت

حكمًا على ما ترى وما تسمع، بل ما يرى وما يسمع أهلك وأولادك، وبيدك أنت الزمام: إنْ شئتَ سمعتَ، وإنْ شئتَ أغلقتَ الجهاز. فلا حجة لك لأن أحدًا لا يستطيع أنْ يجبرك على سماعٍ أو رؤيةٍ ما تكره. ففى رمضان مثلًا، وهو شهر للعبادة نصوم يومه، ونقوم ليله، وينبغى أن نكرمه، ونحتفظ فيه بالوقار والروحانية، ومع ذلك يخرجون علينا بألوان اللهو الذى يتنافى والصيام. فإنْ سألتهم قالوا: الناس مختلفو الأمزجة، وواجبنا أن نوفر لهم أمزجتهم، لكن للمؤمن ولاية على نفسه، وهو يملك زمامها، فلا داعى أن تتهم أحدًا ما دام الأمر فى يدك، وعليك أن تنفذ الولاية التى ولاك الله، فإنْ فعلتَ ففى يدك خمسة وتسعون بالمائة من حركة الحياة، ولغيرك الخمسة الباقية. ثم إن ما يحلّ من الغناء مشروط بوقت لا يكون سمة عامة ولا عادة مُلِحّة على الإنسان يجعلها ديدنه. لذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم: "روِّحوا القَلوب ساعة بعد ساعة".

وهؤلاء المغنون والمغنيات الذين يدْخِلون فى الغناء ما ليس منه من الحركات والرقصات لا يدرون أنهم يثيرون الغرائز، ويسْتَعْدُون على الشباب غير القادر على الزواج، ويلهبون مشاعر الناس ويثيرون الغيرة... إلخ. إذن القضية واضحة لا تحتاج منا إلى فلسفة حول حكم الغناء أو الموسيقى. فكل ما يثير الغرائز ويخْرِجك عن سَمْت الاعتدال والوقار فهو باطل وحرام، سواء أكان نصا بلا لحن أو لحنًا بدون أداء أو أداء مصحوبًا بما لا دخلَ له بالغناء. لكن لماذا يكلفون أنفسهم ويشترون لهو الحديث؟ العلة كما قال الحق سبحانه: "لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" (لقمان/ ٦). وفرْق بين مَنْ يشترى اللهو لنفسه يتسلى به ويقصر ضلاله على نفسه وبين مَنْ يقصد أن يضِلَّ ويضِلّ غيره. لذلك فعليه تبعة الضَّلالَين: ضلاله فى نفسه، وإضلاله لغيره".

وواضح من نص الآية الكريمة أن المشكلة تكمن فى الغاية التى يضعها نُصْبَ عينيه مشترى لهو الحديث: قصصا كان أو غناء، إذ هو يريد أن يضِلّ عن سبيل الله ويتخذ سبيل الله هُزْءًا لا أن يستمتع بقراءة القصص أو بسماع الغناء يجِمّ نفسه بذلك،

والنفس بحاجة إلى الجَمَام والتنشيط حتى لا تضيق بالجِدّ. فاللهو إن أُخِذ بمقدار ولم يجُرْ على تأدية الواجب فما المشكلة؟ وقد وضح الشيخ نفسه، رحمه الله، أن ممارسة الزراعة والصناعة مثلا لو منعت صاحبها من تأدية واجب أهمَّ وأشد إلحاحا منها لكانت إثما. فالعبرة إذن ليست فى اللهو بل فى الغاية منه. ونحن محتاجون إلى اللهو أحيانا ليلهينا عن أحزاننا ومخاوفنا وقلقنا ومللنا وضيق صدورنا وما نشعر به من إرهاق جراء الجد الصارم الذى نأخذ به أنفسنا فى كثير من الأحيان. كما نحتاج إلى اللعب لتصريف الطاقة المخزونة ولننشط أجسامنا ونفوسنا ونتقوى بدنيا ونفسيا. والكبار والصغار يمارسون الرياضة، وهى نوع من اللعب، وهو لعب كالجِدّ بل هو الجد بعينه، إذ له لوائحه وقوانينه ولاعبوه ومدربوه وجمهوره ومسؤولوه وحكامه وهيئاته ومنافساته وجوائزه وعقوباته. والأطباء ينصحوننا بممارسة الرياضة. ومن الرياضة المشى والعدو والكرة بأنواعها المختلفة والمسايفة والفروسية ورمى الجُلَّة وقذف القرص والضرب بالمسدس والرمى بالسهام والسباحة والقفز وتسلق الجبال والتزلج على الجليد والتزحلق على الماء والانسياب فى الهواء وشد الحبل وسباق السيارات والدراجات والقوارب والشطرنج والمصارعة والملاكمة والجودو... إلخ. فاللعب، كما نرى، ليس "لعب عيال" كما يقول الشيخ، بل لعب عيال، ولعب صبيان، ولعب شبان، ولعب رجال، ولعب كهول، ولعب شيوخ. ولكلِّ عمرٍ لَعِبُه. والشيخ نفسه قد تحدث، فى سيرته الذاتية المسماة: "مذكرات إمام الدعاة"، عما كان يمارسه من ألعاب وهو طفل، ومنها تشكيله للطين على هيئة بشر وحيوانات وآلات مع دهنه بلبن شجرة الجميز كى يعطيه لونا لامعا جميلا. وكان، وهو يتذكر ألعاب الطفولة، مبتهجا مسرورا فخورا، مؤكدا أنها أفادته فائدة كبيرة (مذكرات إمام الدعاة/ إعداد محمد زايد/ دار الشروق/ القاهرة وبيروت/ ١٩٩٣/ ٤٨. وانظر كذلك أحمد فرغلى/ الشعراوى- روحانيات وذكريات يرويها الأبناء والأصدقاء/ مؤسسة أبو المجد للطباعة/ ٢٠٠٠/ ١٠٧- ١٠٨).

وعند إجابته على السؤال السادس والثلاثين من كتابه: "١٠٠ سؤال وجواب فى الفقه الإسلامى"، وهو "هل لعب الورق والشطرنج والطاولة من الكبائر؟"، يجيب رحمه الله قائلا: "لا ليس من الكبائر، ولكنه من اللهو. فإن كان يلهو به عن واجب فهو حرام. فإننا نشاهد برامج التلفزيون أحيانا أو الحلقة المسلسلة، ولا بأس بهذا. ولكن إذا أذَّن الأذان أصبح النظر إليه لهوا لأنه يؤخرك عن أداء واجب الصلاة فى وقتها، وهذا حرام. ولذلك لم يبَح من اللعب إلا ما لا يلهى عن واجب مما ينفعنا فى الجِدّ. فمثلا تعليمنا السباحة والرماية وركوب الخيل رياضة ولعب، ولكنها بحيث لا تلهى عن واجب، وبشرط أن تنفعنا فى أوقات الجِدّ". هذا ما قاله الشيخ، ونحب أن نعقب بكلمة سريعة هنا فنقول إن وقت الصلاة واسع بحمد الله. والشيخ إنما يتكلم هنا عما يسميه الفقهاء بـ"وقت الفضيلة"، أى الوقت الذى يحرز فيه المصلى أعلى الدرجات. لكن ليس معنى هذا أنه إذا صلاها فى وقت آخر داخل الحيز الزمانىّ المخصَّص لها يكون قد أَثِم، بل يكون أجره أقل. وهذا كل ما هنالك.

إذن فليس فى اللعب ولا فى اللهو فى ذاته ما يشين، إنما العبرة بنوع اللعب واللهو: فإذا كانا فى حرام فهما حرام، وإلا فحلال. ولو كان اللعب واللهو سيئين فى حد ذاتهما لكانت الدنيا كلها مرفوضة ولكان ينبغى أن يعمل كل منا جهده على مغادرتها فى أقرب فرصة وبأية وسيلة متاحة. ألا يقول القرآن الكريم: "وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب"؟ وقد لعبت الحبشة بحرابها فى مسجد رسول الله بالمدينة، وأراد عمر منعهم، فنهاه الرسول عن ذلك. وكان هو وعائشة يتفرجان على ذلك اللعب. بل إنه هو الذى عرض عليها الفرجة، فوافقت. ولو كان اللعب معيبا ما سمح لهم به، وبخاصة فى المسجد، ولما وقف ينظر هو وعائشة إليهم وهم يلعبون حتى شبعت. كذلك كان للأنصار قبل الإسلام يومان يلعبون فيهما، فلم ينههم الرسول عن اللعب، بل نهاهم عن الاحتفال بهذين اليومين بعد أن استبدل الإسلام بهما عِيدَىِ الفطر والأضحى.

واسمع قصة نوع آخر من اللعب، وهى قصة ظريفة غاية الظرافة للحوار الظريف الجميل الذى دار بين رسول الله وزوجته عائشة. تقول الصِّدِّيقة بنت الصديق: "قدِمَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم من غزوةِ تبوكٍ، أو خيبرٍ، وفى سهوتِها سترٌ، فهَبَّتْ ريحٌ فكَشَفَتْ ناحيةَ السِّتْرِ عن بناتٍ لعائشة، لُعَبٍ، فقال: ما هذا يا عائشةُ؟ قالت: بناتى! ورأى بينَهُنَّ فرسًا له جَناحانِ مِن رِقاعٍ، فقال: ما هذا الذى أرى وَسْطَهُنَّ؟ قالت: فَرَسٌ. قال: وما هذا الذى عليه؟ قالت: جَناحان. قال: فرسٌ له جَناحانِ؟ قالت: أما سَمِعْتَ أن لسليمانَ خيلا لها أجنحة؟ قالت: فضَحِكَ حتى رَأَيتُ نواجذَه". الله أكبر!

ولا بأس بأن ننقل هنا ما تحويه مادة "اللعب" فى "الموسوعة العربية العالمية": "اللعب نشاط يمارَس للترويح عن النفس، ويشمل أى نشاط من أجل التسلية. ورغم أن الناس يلعبون بشكل أساسى لكى يرفِّهوا عن أنفسهم فإنّ اللعب يساهم أيضًا فى تأمين الصحة الجسدية والعقلية. فكثير من الناس مثلًا يحصلون على اللياقة البدنية عن طريق السباحة أو النزهة سيرًا على الأقدام، كما أن أناسًا آخرين يقومون بتنمية قدراتهم الذهنية بحل الكلمات المتقاطعة أو حل الألغاز.

وترتبط أنشطة اللعب كافة بإحدى المجموعات العامة الثلاث وهى: ١- الألعاب الحركية ٢- الألعاب الذهنية ٣- الألعاب الحسية. فالألعاب الحركية تنضوى تحتها التمارين الجسمانية كالتزلج ولعبة الكرة الطائرة. والألعاب الذهنية تتضمن مبدئيا الفعاليات العقلية كالشطرنج، وهو لعبة شائعة من الألعاب الذهنية. أما الألعاب الحسية فتشمل فعاليات المشاهدة كالحضور لمشاهدة الألعاب الرياضية.

ويتخذ اللعب أشكالا كثيرة: فبإمكان الشخص أن يلعب بالكرة منفردًا أو أن ينضم إلى فريق لكرة السلة. وقد يجرى اللعب دون ترتيب مسبق وفى أى مكان بقرار

من شخص واحد أو فى ساحات مخصصة للعب كالحفر الرملية وساحات اللعب وغرف الترويح والساحات الرياضية.

وتشيع بعض الأنشطة الرياضية بين الصغار والكبار على السواء. وهناك ألعاب أخرى تكون خاصة بمجموعات من الأشخاص من أعمار معينة. وكثيرًا ما يشترك الأطفال فى ألعاب تتطلب كثيرًا من الخيال كاللعب مع الدُّمَى وتقليد الكبار فى اللبس. وأنشطة اللعب الخاصة بالبالغين عادة ذات صفة ترويحية وأكثر تنظيمًا كالهوايات وضروب الرياضة والألعاب المختلفة.

واللعب للأطفال شكل من أشكال التعبير عن النفس، ويؤلّف جانبًا مهمًّا من النمو الاجتماعى. ويبدأ الطفل باللعب قبل أن يستطيع التعبير عن نفسه بالكلمات، كما يعبر الأطفال أثناء اللعب عن أفكارهم وأمزجتهم ومشاكلهم وشخصياتهم أمام الأشخاص الآخرين. ويتعلم الأطفال كيفية التفاعل مع أقرانهم الذين يشاركونهم فى اللعب بالدمى أو المشاركة فى الألعاب التى تحث على التعاون كلعبة المطاردة والغميضة (الاستغماية). وعندما يكبرون تنمو لديهم قدرات خاصة للعمل كفريق واحد كالاشتراك فى المسابقات الرياضية، فى لعبة الكرة الطائرة مثلًا.

وللبالغين يعتبر اللعب وسيلة للاسترخاء خلال وقت الفراغ من عناء العمل. ويساعد اللعب على التخفيف من الضغط والتوتر الذى يتعرض له الإنسان فى حياته اليومية".

وقد تكلم الشيخ عن نصوص الأغانى ومضمونها، وهى نقطة مهمة. ومعنى ذلك أن الأغانى ليست حراما عَمَّالا على بَطَّال، بل لا بد أن ننظر فى مضمون الغناء: فإن كان سيئا فالغناء سيئ، وإن كان حسنا فلا ملامة. ومما يفد على ذهنى الآن بشأن موضوع الغناء ما دار بينى، وأنا فى الثانوية العامة منذ نحو ٥٢ سنة، وبين أحد الوعاظ ذات مساء فى مسجد السيد البدوى عن حكم الغناء، فقد كنت وما زلت أحب الاستماع

إليه وإلى قارئى القرآن، فكان جوابه بسيطا وعبقريا فى آن: أن الأغانى كلام. فإذا كان كلام الأغنية سيئا فهى سيئة، وإلا فلا. وأتصور أنها فتوى بسيطة وواقعية وتصيب المحَزَّ كما يقولون، وإن كنت أعى أنه قد يكون فى الغناء عنصر آخر إلى جانب الكلمات ينبغى التحرز فيه، وهو الطريقة التى تؤدى بها المغنيات أغانيهن، فالمفروض أن يبتعدن عن التكسر السخيف المثير. وهو ما نشارك الشيخ الشعراوى فى الزراية عليه والتنفير منه. ومعظم الأغانى بالمناسبة لا نشاهدها وهى تؤدَّى بل نستمع إليها فقط فى المذياع أو فى جهاز التسجيل الصوتى. كما أن كثيرا من المغنين والمغنيات يؤدى عمله بدون أى ميوعة أو عبث أو إثارة. وبطبيعة الحال هناك من يرى أن الاستماع إلى الغناء حرام حتى لو لم يصاحبه ميوعة ولا تكسر ولا إثارة شهوات. وهؤلاء أحرار فيما يرَوْن، ولهم مطلق الحق فى ألا يستمعوا إليه ما داموا يستحرمونه، على ألا يصل الحال إلى الصدام مع مخالفيهم فى الرأى دون داع، فالأمر أمر فهوم وأذواق مختلفة.

وبعض من ينفرون من الغناء الصافى الذى لا تصاحبه مثيرات للغرائز ويحرّمونه يتصورون أنه مظنة إثارة الشهوة، وهذه تقود إلى ارتكاب الزنا، غير دارين أن الأغانى بوجه عام لا علاقة لها بالإثارة الجنسية، بل قد يبكى مستمعها فى بعض الحالات شجنا ووجدا، لا مع الأغانى العاطفية وحدها، التى لا تحتوى فى الغالب إلا على ألفاظ الحرمان والألم دون أى لفظ موقظ للشهوة، بل لدى استماعه إلى الأغانى الوطنية أيضا، إذ تثير وجده وتهيج أشواقه نحو الماضى والطفولة والشباب أيام كان كل شىء بكرا طازجا لم يتلوث بعد كل هذا التلوث، وأيام كانت الآمال الوطنية والقومية تحلق فى الفضاء وتصل إلى السماء السابعة قبل أن ينكشف الأمر عن زيف كل شىء فى ذلك الحين وأن الأمر لم يكن يتعدى الكلام الكبير الفاضى والخطب الرنانة التى لا تقدم ولا تؤخر. وإذا ما دخل الإنسان اليوتيوب ورأى تعليقات المشاهدين على الأغانى

العاطفية وجدها كلها تعليقات حزينة مفعمة بالأسى، وبخاصة على الصبا والشباب وأيامهما التى انصرمت ولم يعد إلى عودتها من سبيل.

ومعلوم أن هناك أغانِىَ اجتماعية للزوج وللولد وللأخ والأخت والأم، وعن النجاح فى الامتحان، وعن دخول الجامعة، وعن تطلع الصغار إلى ما يطمعون فى أن يكونوا عليه حينما يكبرون، وعن السعى على المعاش والرزق الحلال، فضلا عن الأغانى الدينية، إلى جانب أغانى التسلية والأغانى الفكاهية والأغانى الأخلاقية وأغانى الطبيعة وأغانى الأطفال، مما لا علاقة له بالمرأة والتعلق بها، وهذا إن كان التعلق بالنساء فى حد ذاته حراما، وما هو بحرام. وكيف يكون حراما، وقد أكد القرآن أنه أمر فطرى مركوز بل مغروز فى القلب غرزًا لا فكاك لأى إنسان منه؟ بل الحرام فى الزنا وما يقود إليه، وإلا فالعواطف ليست فى أيدينا حتى نحاسَب عليها ونعاقَب بسببها، وهو ما لا يمكن أن يكون، فإن الله لا يكلف، دَعْكَ من أن يعاقب، نفسا إلا بناء على وسعها.

وتصوير الأمر وكأن الإنسان مجرد شهوة جنسية، فما إن يسمع أغنية من الأغانى حتى ينهض مسعورا وينتهك عِرْض أية امرأة تقابله فى الطريق، هو تصوير ساذج. نعم هناك غناء فاجر فى الكباريهات وبعض الأفراح وما أشبه، والمغنية فى هذه الحالة لا تغنى بل تشعل الغرائز بتأودها وتراقصها وعريها وغنجها حسبما يرى المشاهدون فى الأفلام والتلفاز، لكنْ ليس هذا هو الغناء الذى نحبه، بل ليس هو الغناء مجردا. إنما هو غناء وإثارة شهوات، بل قل إنه إثارة شهوات أولا وقبل كل شىء، وما مصاحبة الغناء له إلا ذَرٌّ للرماد فى العيون. وهذا اللون من الغناء هو الذى يخطر على بال من يَرَوْنَ الغناء حراما. أما الغناء ذاته فهو استجابة فطرية لما يشعر به الإنسان فى قلبه وخياله وعقله من مشاعر وأفكار وتصورات يريد أن يعبر عنها أو يسمع من يعبر عنها ويغنيها بصوته الجميل على إيقاع آلة موسيقية تزيد الصوت الجميل جمالا على جماله. وهل نحن

أقل من الطيور التى تغنى على أغصانها وفى أوكارها وفى أجواز الفضاء استجابة لجمال الطبيعة من حولها، وبخاصة فى فصل الربيع؟ أم يريد بعض المتنطعين أن يحيلوا حياتنا جحيما لا يطاق، وكأننا قطع من الجماد، الذى لا يشعر ولا يفكر ولا يخال؟

من حق من يرى الغناء حراما أن يحرمه على نفسه، أما أن يفرض ذلك على سواه فليس له الحق فى ذلك. وبهذا يتعايش المحبون والكارهون للغناء فى سلام وتفاهم واحترام متبادل، وتدور عجلة الحياة فى انسجام. وكم وقفتُ إزاء هذه المغنية أو تلك وهى تشدو بقصيدة دينية تستجيش منا كل إحساس نبيل نقى، متسائلا: أيمكن أن يكون قلب تلك المغنية قد خلا تماما من كل أثر للإيمان؟ إن كثيرات منهن يشتهرن بما هو بعيد كل البعد عن التدين بل بما يناقضه، لكن هل يعقل أن مثلها، وقد تربت فى بيئة مسلمة وكثيرا ما سمعت القرآن وأنصتت فى بعض الأحيان إلى بعض المواعظ والدروس الدينية، لا يمكن أن تشعر بأى شعور دينى؟ إننى كثيرا ما تغلبنى الدموع وأنا أنصت مثلا إلى قصيدة "قل: ادع الله"، التى تغنيها نجاة الصغيرة، وأستغرب كيف قد يظن الواحد منا أن نجاة إنما تغنى فقط بدافع الشهرة الفنية ليس إلا دون أن يكون فى فؤادها أى خشوع أو رغبة فى رضا الله، ولو فى ركن من أركان قلبها. والله أعلم!

وهناك كتاب أغانٍ ومطربون وملحنون معروف عنهم التدين وحب الإسلام، منهم أحمد صدقى، الذى حج بيت الله الحرام وعمل عمرة مرات متعددة، وكان يصلى ويصوم كثيرا، ومحمد قنديل، الذى ذكر الأستاذ ميكى ماوس فى حديث تلفازى له أنه كان يصلى مع لا أدرى مَنْ مِنَ الملحنين حين يذهب إلى بيته ليحفِّظه اللحن. ورأيت ذات مرة الملحن حلمى بكر فى حلقة من حلقات التلفاز التى يحلل فيها الأغانى والألحان للمستمعين يمسح دموعه، التى خانته ونزلت رغما عنه وهو يستمع إلى أغنية أسمهان الشاهقة الجمال والجلال عن المحمل النبوى. ذلك أن الأغنية فعلا مشجية مبكية رغم أن الرجل لم يشتهر بتدين خاص. وأنا لا أذكر أننى سمعتها إلا وجاشت

نفسي وأرادت دموعى أن تفر من مآقىَّ لولا مغالبتى لها. وبالمناسبة فقد كانت أسمهان معروفة بسلوكياتها المثيرة للأقاويل، علاوة على ما اتُّهِمَتْ به من عمالتها لبعض القوى الأجنبية مما انتهى بها فى آخر المطاف إلى اغتيالها إغراقا فى البحر حسبما تقول بعض الروايات. لكن هذا شيء، وكون الأغنية بصوتها العبقرى مشجية مبكية شيء آخر. كما قرأت عن عبد اللطيف التلبانى، فيما كُتِب عنه من مقالات عقب ميتته المأساوية عام ١٩٨٩م، أنه رحمه الله كان دائما ما يمد يد المساعدة للطلاب المحتاجين. ولدينا كذلك المرحوم عبد الفتاح مصطفى، الذى كتب لنا طائفة من الأغانى والقصائد المبدعة، ولحنها وغناها كبار الملحنين والمطربين، وكان متدينا، وأطلق لحيته فى أواخر عمره أيام لم تكن اللحية قد انتشرت انتشارها هذه الأيام.

وغَنِيةٌ عن الذكر ياسمين الخيام (إفراج الحصرى)، التى ظلت تغنى رغم عودتها إلى الحجاب بعد أن خلعته زمنا، وذلك قبل أن تهجر الغناء كلية. والمعروف أن د. عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر الأسبق كان يشجعها على الغناء: النظيف منه طبعا، وناله هجوم شديد من بعض المجلات الدينية وقتئذ فيما أذكر. وقد اختتمت شادية حياتها الغنائية بأغنية تتضرع فيها من أعماق الفؤاد رغم أنها كانت قد عزمتْ قبلا على مغادرة الساحة الفنية: غناءً ومسرحًا وأفلامًا. وكان الشيخ محمد الغزالى يستمع أحيانا إلى الغناء فى المذياع، وذكر ذلك فى بعض كتبه مستشهدا ببعض الأغانى الخالية مما يعاب ويذَمّ... إلخ. بل إنه، فى كتابه: "من معالم الحق فى كفاحنا الإسلامى الحديث"، ليرى أن حب الاستماع إلى الغناء هو جزء من الفطرة التى لا ينبغى ولا يمكن أن تحارَب، بل يحسن الاستفادة منه فى تجديد النشاط الهامد ومحاربة الإحساس بالملل وإيقاظ المشاعر الغافية ودعم الأخلاق القويمة واستنهاض همم العاملين ومساعدتهم على مواجهة الإرهاق والتعب وتحميس الناس للدفاع عن أوطانهم ودينهم بدلا من ترك الشباب يصغون إلى الأغانى الهابطة المستفزة للشهوات وأمثالها.

وفى كتـاب عـماد ناصـف: "فنانـات تائبـات ونجـمات الإثـارة" (ط٩/ مطبعـة خطاب/ القاهرة/ ١٩٩١/ ١٠٣- ١٠٤) تقول ياسمين الخيام (إفراج الحصرى) إنها فى الغناء على مذهب الشيخ محمد الغزالى، أما فى تفسير القرآن فتتجه للشيخ الشعراوى (انظر أيضا كتاب سعيد أبو العينين: "الشعراوى والفنانات"/ كتاب اليوم/ دار أخبار اليوم/ عدد نوفمبر ١٩٩٩/ ٦٤- ٦٦). ورغم ذلك كان الشعراوى نفسه من محبى الغناء، وما أكثر ما سمع ليلى مراد وهو طالب، وكان يستطيب غناءها أكثر مما يستطيب غناء أم كلثوم كما ذكر هو بلسانه (انظر سعيد أبو العينين/ الشعراوى والفنانات/ ٢٣). ويذكر ابنه عبد الرحيم أن أباه كان مدعوا ذات مرة، وهو شيخ وداعية مشهور، عند أحد الأعيان بالإسكندرية فى حفل خاص، فاشتبك مع الشبان هناك فى حديث عن عبد الحليم حافظ وصالح سليم لاعب الكرة الشهير بالنادى الأهلى فى خمسينات القرن الماضى وستيناته قائلا لهم إن عنده أغانى عبد الحليم كلها ما عدا أغنية "جبار"، التى كانت آخر أغنيات العندليب الأسمر آنذاك (انظر أحمد فرغلى/ الشعراوى- روحانيات وذكريات يرويها الأبناء والأصدقاء/ ٢٠٠٠/ ٥٢). بل لقد كان مغرما بالمسرح حتى إنه ذهب، أيام طلبه العلم فى القاهرة، عشرين مرة لمشاهدة فاطمة رشدى فى عز شبابها، وهى تمثل مسرحية "مجنون ليلى"، إعجابا بأدائها كما يقول (المرجع السابق/ ١٨٣ وما بعدها). مرة أخرى أنا أتحدث عن الغناء وحده، أما ما قد يصاحب الغناء من أمور خارجة عن الذوق واللياقة أو الخلق والدين فلا يدخل فى كلامى، ولست مسؤولا عنه.

ثم هأنذا أستمع إلى أغنية "فستان العيد"، التى يغنيها الثلاثى المرح مع جماعة من البنات الصغيرات، والتى لا أسمعها أبدا إلا وَعُدْتُ من فورى على أجنحة الفن البديع إلى صباى حين كنت أسمع هذه الأغنية الرائعة دائما يوم العيد، فأتخيل سلوى حين كانت صغيرة تلبس فستان العيد الجديد والدنيا لا تسعها من الفرحة، ولا تريد أن

تغادر موقفها أمام المرآة تتطلع فيها إلى فستانها الجميل، وكذلك حفيدتى لالة، التى لا أكف عن إطراء جمال فستانها الذى اشترته لها ماما بفلوس بابا، وأرى على وجهها علائم السعادة. فهل هناك "بنى أدوم" يمكن أن يرى فى تلك الأغنية إثما يردى صاحبه (مؤلفا وملحنا ومطربات، ومستمعا منحرفا فاسدا مثلى فوق البيعة) فى جهنم الحمراء؟ كل واحد حر، وقد خلقنا الله مختلفين، وخلق من البشر من لا يرتاح ولا يقرّ له قرار إلا إذا نكد على عباد الله المساكين، بينما ترى كثيرا من هؤلاء المنكّدين على غيرهم يعيشون دنياهم بالطول والعرض والتهافت المقيت والتدنى الذليل، وبالمخالفة التامة لما ينادون ويتفيقهون ويتنطعون به أمام الناس، وهو ما يجعلهم محط السخرية والتهكم والتشنيع والتصوير الكاريكاتيرى فى الأفلام والأغانى والمونولوجات والمسرحيات والروايات بغض النظر عن نية المهاجمين، وهل هم يحبون دينهم فعلا أو يهتبلونها فرصة لتسوية حساباتهم مع الدين نفسه متظاهرين بأنهم إنما يبغضون التنطع ويسخرون من التفيهق. أما نحن، عباد الله المساكين، فنؤمن برب كريم رحيم خلق عباده وسخَّر لهم الدنيا وخلق لهم أفراحا ومسرات حلالا زلالا ليس عليهم حرج فى هُفُوِّ أرواحهم إليها، وشرع لهم دينا يقوم على التيسير، ويكره التنكيد. آمنت بالله ربا، وبمحمد نبيا ورسولا ليس هناك نبى ولا رسول فى قامته السامقة، وبالإسلام دينا عبقريا ليس كمثله دين.

هذا، ولم أقل شيئا عما تحويه تلك الأغنية من القيم الإنسانية الجميلة كالفرحة التى أمرنا الرسول أن ندخلها على قلوب أهلينا فى العيد، وبخاصة الأطفال، الذين كان صلى الله عليه وسلم، يحبهم ويحنو عليهم ويعمل بكل سبيل على إبهاجهم وإسعادهم، وكالدعاء الذى تبتهل به الصغيرة لربها كى يطيل عمر بابا، الذى اشترى لها فستانها الجميل من خيره، وكالذوق البديع المتمثل فى الفستان الفاتن الذى تباهى به البنت لداتها حتى إن الدنيا لا تسعها من الفرحة. ثم هناك الكلمات الرائعة واللحن الساحر والغناء الفريد، وهذه كلها حسنات سوف يجزى بها الله كل واحد منهم جزاء حسنا

بعشرة أمثال ما عملوا إلى سبعمائة ضعف، بل إلى ما شاء الله بغير حساب. إن الأغنية لتطفح بالمرح والبهجة بدءا من كلماتها التى تجسد سعادة البنات بفساتينهن تجسيدا، ومرورا باللحن المرح بإيقاعه السريع، وانتهاء بصوت الثلاثى المرح والبنات الصغيرات اللاتى لقنهن الملحن كلمات وأصواتا يرددنها لم يكن لها موضع فى الأغنية، فزادتها رغم ذلك فتنة فوق فتنتها الأولى. ولو كان الجاحظ حيا بيننا الآن وسمعها وسمع قول البنت الصغيرة السعيدة فيها عن فستانها الجديد: "ما بتشبعشى مِنُّه عنَيه" لقال عن الأغنية المرحة التى تكاد تطير فى الجو من شدة ما فيها من البهجة وحلاوة اللحن الراقص على دقات قلوب الصبايا الفرحات ما قاله أبو شعيب القَلَّال عن قصيدة النواسى: "لو نُقِرَ هذا الشِّعْر لَطَنَّ". لكنْ للأسف قد مات الجاحظ منذ قرون. فوا خسارتاه ألَّا تجد تلك الأغنية البديعة من يقدِّر لطفها وروعتها بعد أن فقدنا عمنا الكبير أبا عثمان!

إن الأغانى، كما قلت، ليست فقط الصوت الذى نسمعه ولا الكلام الذى يغنيه هذا الصوت، بل هى أيضا الماضى الذى ينتفض حينئذ ويتجسد رَأْيَ العين ومِلْءَ الكيان فى أَسًى جياش وحنين غلاب كثيرا ما يثير الدمع فى المآقى. وهو بلسم للقلب المتعب والبال الحيران. وهو، للجند فى القتال، بطولة وعزيمة مضافة إلى بطولتهم وعزيمتهم، وليس عبثا ولعبا كما قد يظن بعض الناس. والنبى عليه الصلاة والسلام قد سمح لجارية بالغناء فى بيت عائشة، وطلب من زوجته أن ترسل مع عروس من عرائس المسلمين من تغنى لها ليلة الدُّخْلَة على زوجها... وعلى كل حال فأقصى ما يمكن قوله فى الغناء أنه موضوعٌ خلافىٌّ بين الفقهاء. ولابن حزم مثلا والإمام الغزالى وعبد الغنى النابلسى وشلتوت والقرضاوى بحوث فى هذا الموضوع لا ترى فيه مذمة أو معابة أو مأثما، بل متعة حلالا ما دامت لا تخرج عن الدين.

وأنا أزيد على ذلك أن الأغانى قد تُكْتَب، كما يكْتَب أىُّ عمل بشرى آخر، فى صحائف حسنات الشعراء والملحنين والمغنين الذين تعاونوا فى إبداعها على هذا النحو. ألم يتقنوا عملهم، والإتقان قيمة حضارية وإسلامية ألح عليها سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ ألم يتيحوا لنا أسباب البهجة والرضا بما أبدعوه وعرضوه علينا وأدخلوا به السعادة على نفوسنا؟ إن هناك من عباد الله "الصالحين" من يريدون أن يظل الناس طول الوقت مُقَطِّبَة لا تنفرج شفاهها عن بسمة ولا أفواهها عن كلمة سرور وابتهاج، وكأنهم أَعْطَوْا من أنفسهم عهدا لله ألا يدَعُوا أحدا سعيدا وأن يعملوا كل ما فى طاقتهم للتنكيد على البشر. ترى كيف كان لنا أن نقطع طريق الحياة الطويل المرهق لو أنها خلت من هذه المسرات الجميلة البريئة من أغان عاطفية ودينية ووطنية واجتماعية وعائلية وفكاهية ووصفية وأطفالية؟ إن الحياة، فى جانب منها غير صغير، مملة وحزينة وقلقة وتدعو إلى الرثاء والبكاء، وكثير من أحداثها يعصر القلب عصرا، فماذا نفعل إزاء ذلك؟ هل نطقُّ من أجنابنا حتى ينبسط بعض عباد الله النَّكِدِيين أم نسمع الأغانى، التى تربِّتُ على الكتف المرهق، وتبتسم للعيون الحزينة، وتبث الطمأنينة فى القلوب المرتجفة، وتدهن بالبلسم الشافى الأكباد المقروحة، وترسم الفرحة على الشفاه المكتئبة المزمومة؟ لا يا عم، نسمع الأغانى أفضل، فالحياة لا تنقصها الكآبة والتعاسة حتى نزيدها شقاء وإحباطا.

وقد تناول الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر الأسبق هذا الموضوع فى كتابه: "الفتاوى" فقال ما نصه: "الأصل الذى أرجو أن يتَنَبَّه إليه فى هذا الشأن وأمثاله مما يختلفون فى حِلِّهِ وحُرْمَته هو أن الله خلَق الإنسان بغريزة يميل بها إلى المستلذات والطيبات التى يجِدُ لها أثرًا طيبًا فى نفسه، به يهدأ، وبه يرتاح، وبه ينشط، وبه تسكن جوارحه. فتراه ينشرح بالمناظر الجميلة، كالخُضرة المُنَسَّقَة والماء الصافى الذى تلعب أمواجه والوجه الحسَن الذى تنْبسط أساريرُه، وينشرح صدرُه بالروائح الزكية التى

تُحْدِث خِفَّةً فى الجسم والروح، وينشرح صدره بلَمْسِ النُّعومة التى لا خشونة فيها، وينشرح صدره بلذَّة المعرفة فى الكشف عن مجهول مَخْبُوءٍ، وتراه بعد هذا مطبوعًا على غريزة الحب لمشتهيات الحياة وزينتها من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرْث.

الشرائع لا تَقضى على الغرائز بل تنظمها: ولعلَّ قيام الإنسان بمُهِمّته فى هذه الحياة ما كانت لِتَتِمَّ على الوجه الذى لأجله خلَقه الله إلا إذا كان ذا عاطفة غريزية تُوجهه نحو المشتهيات وتلك المُتَع التى خلقها الله معه فى الحياة، فيأخذ منها القدْر الذى يحتاجه وينفعه. ومن هنا قضت الحِكمة الإلهية أن يُخْلَق الإنسان بتلك العاطفة، وصار من غير المعقول أن يطلب الله منه، بعد أن خلَقه هذا الخَلْق وأودع فيه لحِكمته السامية هذه العاطفة، نزْعها أو إمَاتتها أو مُكافحتها فى أصلها. وبذلك لا يمْكِن أن يكون من أهداف الشرائع السماوية فى أى مرحلة من مراحل الإنسانية طلبُ القضاء على هذه الغريزة الطبيعية التى لابد منها فى هذه الحياة. نعم للشرائع السماوية بإزاءِ هذه العاطفة مطلب آخر يتلخص فى كَبْح الجِمَاح، ومعناه مكافحة الغريزة عن الحدِّ الذى ينسى به الإنسان واجباتِه، أو يفسد عليه أخلاقه، أو يحول بينه وبين أعمال هى له فى الحياة ألزم، وعليه أوجب.

التوسُّط أصلٌ عظيم فى الإسلام: ذلك هو موقفُ الشرائع السماوية مِن الغريزة، وهو موقف الاعتدال والقَصْد لا موقف الإفْراط ولا موقف التفريط، هو موقف التنظيم لا موقف الإماتة والانتزاع. هذا أصلٌ يجب أن يفْهَم، ويجب أن تُوزَن به أهداف الشريعة السماوية. وقد أشار إليه القرآن فى كثير من الجزئيات: "ولا تَجْعَلْ يدَكَ مَغْلُولَةً إلَى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ". "يا بَنِى آدمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا"، "واقْصِدْ فِى مَشْيكَ واغْضُضْ مِن صَوْتِكَ".

وإذنْ فالشريعة تُوجِّه الإنسان فى مُقتضيات الغريزة إلى الحدِّ الوسَط: فهى لم تنزل لانتزاع غريزة حُبِّ المال، إنما نزلت بتَعديلها على الوجه الذى لا جشَع فيه ولا إسراف. وهى لم تنزل لانتزاع الغريزة فى حُبِّ المناظر الطيبة ولا المسموعات المستلذة، وإنما نزلت بتهذيبها وتعديلها على ما لا ضرر فيه ولا شر. وهى لم تنزل لانتزاع غريزة الحُزْن، وإنما نزلت بتعديلها على الوجه الذى لا هلَع فيه ولا جزَع. وهكذا وقفت الشريعة السماوية بالنسبة لسائر الغرائز. وقد كلَّف الله العقل، الذى هو حُجته على عباده، بتنظيمها على الوجه الذى جاء به شرعه ودينه. فإذا مال الإنسان إلى سماع الصوت الحسن أو النغم المستلذ من حيوان أو إنسان أو آلة كيفما كانت، أو مالَ إلى تعلُّم شىء من ذلك، فقد أدَّى للعاطفة حقَّها. وإذا ما وقف بها مع هذا عند الحدِّ الذى لا يصرفه عن الواجبات الدينية أو الأخلاق الكريمة أو المكانة التى تتَّفِق ومركزه كان بذلك مُنظمًا لغريزته، سائرًا بها فى الطريق السوى، وكان مَرْضِيا عند الله وعند الناس. بهذا البيان يتَّضِح أن موقف الشاب فى تعلُّم الموسيقى مع حرصه الشديد على أداء الصلوات الخمس فى أوقاتها وعلى أعماله المكلف بها موقف، كما قلنا، نابعٌ من الغريزة التى حكَمها العقل بشرع الله وحكمه، فنزلت على إرادته. وهذا هو أسمى ما تطلبه الشرائع السماوية من الناس فى هذه الحياة.

رأْى الفقهاء فى السماع: ولقد كنتُ أرى أن هذا القدْر كافٍ فى معرفة حكم الشرع فى الموسيقى وفى سائر ما يحب الإنسان ويهْوَى بمقتضى غريزته لولا أن كثيرًا من الناس لا يكتفون، بل ربما لا يؤمنون، بهذا النوع من التوجيه فى معرفة الحلال والحرام، وإنما يقنعهم عرض ما قيل فى الكتب وأُثِر عن الفقهاء. وإذا كان ولا بد فليعلموا أن الفقهاء اتفقوا على إباحة السماع فى إثارة الشوق إلى الحج، وفى تحريض الغُزَاة على القتال، وفى مناسبات السرور المألوفة كالعيد والعُرْس وقُدُوم الغائب وما إليها. ورأيناهم، فيما وراء ذلك، على رأيينِ: يقرر أحدهما الحُرْمة، ويستند إلى أحاديث وآثار. ويقرر الآخر

الحِلِّ، ويستند كذلك إلى أحاديث وآثار. وكان من قول القائلين بالحِلِّ: "إنه ليس فى كتاب الله ولا سُنَّة رسوله ولا فى معقولهما من القياس والاستدلال ما يقتضى تحريم مجرد سماع الأصوات الطيبة الموزونة مع آلة من الآلات". وقد تعقَّبوا جميع أدلة القائلين بالحُرْمَة وقالوا: إنه لم يصحَّ منها شىء.

رأْى الشيخ النابلسى: وقد قرأت فى هذا الموضوع لأحد فقهاء القرن الحادى عشر المعروفين بالورَع والتقوى رسالة هى "إيضاح الدلالات فى سماع الآلات" للشيخ عبد الغنى النابلسى الحنفى قرر فيها أن الأحاديث التى استدل بها القائلون بالتحريم، على فرض صحتها، مُقَيدَة بذكر الملاهى وبذكر الخمر والقينات والفسوق والفجور، ولا يكاد حديث يخلو من ذلك. وعليه كان الحُكْم عنده فى سماع الأصوات والآلات المُطرِبة أنه إذا اقترن بشىء من المُحرَّمات أو اتُّخِذ وسيلةً للمُحرَّمات أو أَوقعَ فى المحرمات كان حرامًا، وأنه إذا سلِم من كل ذلك كان مباحًا فى حضوره وسماعه وتعلُّمه. وقد نُقِل عن النبى صلى الله عليه وسلم ثم عن كثير من الصحابة والتابعين والأئمة والفقهاء أنهم كانوا يسمعون ويحضرون مجالس السماع البريئة من المجون والمُحرَّم. وذهب إلى مثل هذا كثير من الفقهاء. وهو يوافِق تمامًا، فى المغزى والنتيجة، الأصل الذى قرَّرناهُ فى موقف الشريعة بالنسبة للغرائز الطبيعية.

الأصل فى السماع الحِلُّ والحُرْمة عارضة: وإذن فسماع الآلات ذات النغمات أو الأصوات الجميلة لا يمكن أن يحرم باعتباره صوت آلة أو صوت إنسان أو صوت حيوان، وإنما يَحَرَّم إذا اسْتُعِين به على محرَّم أو اتُّخِذ وسيلةً إلى محرَّم أو أَلْهَى عن واجب. وهكذا يجب أن يعلم الناس حُكْم الله فى مثل هذه الشؤون. ونرجو بعد ذلك ألا نسمع القول يلْقَى جزافًا فى التحليل والتحريم، فإن تحريم ما لم يُحَرِّمه الله أو تحليل ما حرَّمه الله كلاهما افتراءٌ وقَوْلٌ على الله بغير علم: "قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّى الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا

ومَا بَطَنَ والإثْمَ والبَغْى بِغَيرِ الحَقِّ وأنْ تُشْرِكُوا باللهِ مَا لمْ ينَزِّلْ بِهِ سُلطَانًا وأنْ تَقُولُوا علَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ" (الأعراف/ ٣٣). والله أعلم". حلوة جدا "والله أعلم" هذه!

وفى التعرض لتفسير الآية ٣٤ من سورة "ص"، وهى "وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيمَانَ وَأَلْقَينَا عَلَى كُرْسِيهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ" يقول الشيخ: "الفتنة معناها الاختبار، والفتنة فى ذاتها ليست مكروهة. إنما المكروه أنْ تُخْفِق فيها وتفشل فى خوضها، فماذا عليك لو فتناك، يعنى: اختبرناك، ونجحتَ فى الاختبار؟ وأصل "الفتنة" من "فتنة الذهب" لتنقيته. فالذهب منه المخلوط بمواد أخرى، ونريده ذهبًا إبريزًا صافيا، فماذا نفعل؟ نصهر الذهب فى النار ليخرج منه الخَبَثُ إلى أن يصير خالصا نقيا. كذلك تفعل الفتنة بالناس: تمحِّصهم لتبين الجيد من الردىء. وقد فتن الله سليمان كما فتن من قَبْلُ أباه داود، عليهما السلام، فى مسألة المحراب.

ومعنى "وَأَلْقَينَا عَلَىٰ كُرْسِيهِ جَسَدًا" (ص/ ٣٤): الكرسى هو العرش الذى يجلس عليه الملك، والجسد هو قالب الكائن الحى. ويقال لهذا القالب: "جسد" إذا كان خاليا من الروح. وللمفسرين فى هذه الآية عدة أقوال: قالوا: إن سيدنا داود كان له ولد آخر غير سليمان، إلا أنه كان ولدًا فاسدًا مثل ولد نوح، فاحتال هذا الولدُ وقام بانقلاب على سليمان، حتى أخذ المُلْكَ منه، وظل مَلِكًا مدة طويلة. فلما أراد الحق سبحانه أن يعيد سليمان إلى مُلْكه ألقى هذا الولد الفَاسِد على كرسى عرشه جسدًا هامدًا لا حركة فيه. يعنى بعد أنْ كان مَلِكًا مُطاعًا مُسيطرًا صار لا يسيطر حتى على نفسه وجوارحه. بعد ذلك خرجتْ عليه رعيته فقتلوه، وجاء بعده سليمان.

وقالوا: إن سيدنا سليمان كان لديه جَوَارٍ كثيرات، فقال: سأطوف الليلة على سبعين جارية، وآتِى من كل واحدة بولد فارس يركب فرسه فى سبيل الله. يعنى المسألة كلها كانت فى الخير وفى الله، إلا أنه لم يقدم المشيئة ولم يقُلْ: "إنْ شاء الله"، فلم تَلِدْ منهن إلا جارية واحدة، ولدتْ له جسدًا لا حركةَ فيه ولا تصرُّفَ لأن المؤمن مُطالَبٌ

بأنْ يقدم مشيئة الله إذا عزم على شيء فى المستقبل، كما قال سبحانه: "وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّـى فَاعِـلٌ ذَٰلِـكَ غَـدًا * إِلَّا أَن يَـشَآءَ ٱللَّهُ" (الكهـف/ ٢٣- ٢٤) لأنـك حين تقـول: "سأفعل غدًا كذا وكذا" فقد حكمتَ على فعل لا تملك عنصرًا واحدًا من عناصره، فأنت لا تضمن بقاء نفسك إلى أنْ تفعل، ولا تضمن تغير الأحوال وتغير الأسباب، فحين تعلِّق فعلَك على مشيئة الله إنما تحفظ كرامتك وتبرئ نفسك من الكذب، فقد شئتَ ولكن الله لم يشَأْ. ويبدو أن المُلْكَ أغرى سليمان، فداخله شيء من الزَّهْو لأنه متحكم فى عوالم الإنس والجن والطير والحيوان ومُطَاع من الكون كله من حوله. لذلك لم يقُلْ: "إنْ شاء الله"، فجازاه الله بذلك.

وقال آخرون: إن سليمان عليه السلام أنجب ولدًا، وإن الجن أرادتْ به سوءا لأنها خافت أنْ يفعل بها كما يفعل سليمان، فأرادوا قتله، فما كان من سليمان إلا أنْ رفعه فوق السحاب يرضع من المُزْن، فكأنه عليه السلام أراد أنْ يفرّ من قدر الله. وقالوا: إن الجسد هو سليمان نفسه لأن الإنسان العادى يجعله الله يتحكَّم فى جوارح نفسه حين يريد اللهُ ذلك، فيقوم بمجرد أنْ يريد القيام، ويتحرك بمجرد أنْ يريدَ الحركةَ دون أنْ يعرفَ هو نفسه ماذا يجرى فى أعضائه ومفاصله، فكأن الله تعالى يعطى الإنسان مثلًا فى نفسه ليقرب له المسائل المتعلقة بالحق فى إطار "لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ" (الشورى/ ١١). فإذا كنتَ أنت أيها المخلوق تفعل ما تشاء، وتنفعل لك جوارحك وتطاوعك بمجرد الإرادة، ودون أنْ تأمرها بشيء، فهل تستبعد هذا فى حقِّ الخالق سبحانه، حين يقول: "إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ" (يس/ ٨٢).

إن الحق سبحانه يقول للشيء: كُنْ. أما أنت فلا تقول: "كُنْ"، وقد أراحك الله منها، وجعل الأعضاء تطاوعك دون أمر منك لأنك لو أمرتَها ما استجابتْ لك. هى تستجيب للخالق سبحانه، فإذا أراد الخالق سبحانه سَلَبَك هذه القدرة، فتريد أنْ تحرك يدك فلا تستطيع، لينبهك إلى أنها موهوبة لك، ليستْ ذاتية فيك. الحق سبحانه وهب

سيدنا سليمان القدرةَ على السيطرة على جوارح ذاته، ثم عَدَّى هذه القدرة إلى السيطرة على الآخرين من جنسه ومن غير جنسه، وجعل له سيطرةً على الكون كله: ينفعل له ويجاوبه. يعنى المسألةُ كانت استعلاءً فى التسلُّط على جنود الله. ويبدو أن سليمان عليه السلام داخله شيء فى نفسه، فأراد الحق سبحانه أنْ يلفته إلى أن هذه القدرة ليستْ ذاتية فيك، إنما هى موهوبة لك، أسلبها حين أشاء، فلا تستطيع السيطرة على جوارحك ولا السيطرة على الآخرين، وألقاه الله فترة جسدًا على كرسيه لا يقدر على شيء، ولا يأمر بشيء. فما دامتْ هذه النعمة موهوبةً من الله الذى أعطاك مُلْكًا لا ينبغى لأحد من بعدك فلا بُدَّ أنْ تظل مُتمسِّكًا بحبله، لاجئًا دائمًا إلى مَنْ ملَّكك هذا المُلْكَ.

لذلك يرْوَى أنه عليه السلام ركب مرة البساط، وسارتْ به الريح كما يشاء، وفجأة مال به البساط، وكاد أنْ يوقِعه، فأمره أنْ يستوى به. فقال له البساط: أُمِرْنَا أنْ نطيعك ما أطعتَ الله. إذن فتنَّاه لأننا مَلَّكناه مُلْكًا لا ينبغى لأحد من بعده، لكن لا نريد له أنْ يطغى أو يتعالى. والحق سبحانه لا يكذب كلامه، وقد قال سبحانه: "كَلَّا إِنَّ ٱلإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ ٱسْتَغْنَىٰ" (العَلَق/ ٦-٧).

وسليمان عليه السلام إنسان، فأراد الحق سبحانه أنْ يثْبِت لنا أن الإنسان تملَّك فى جوارحه، وتملَّك فيمن حوله، وتملَّك فى جنس آخر غير جنسه، لكن هذا كله ليس ذاتيا فيه، بل هو موهوب له بدليل أن الله سلبه هذا المُلْك فى لحظة ما، وألقاه على كُرسيه جسدًا لا أمرَ له ولا نهى ولا سلطانَ على شيء. فلما فهم سليمان المسألة آبَ ورجع "ثُمَّ أَنَابَ" (ص/ ٢٤). يعنى رجع إلى ما كان عليه قبل التجربة التى مَرَّ بها. يعنى رجع وعاد إلى الجسد الذى فيه روح، أو أناب ورجع إلى الله وعرف السبب. فالمعنى يحتمل المعنيين: أناب فى السبب، أو أناب فى المسبب. والجسد هو الجِرْم والهيكل الظاهرى الذى لا روحَ فيه، والذى قال الله عنه: "فَإِذَا سَوَّيْتُهُ" (الحِجْر/ ٢٩)، أى الجسد، ومنه قوله تعالى فى قصة السامرى: "فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ" (طه/ ٨٨). يعنى:

هيكل العجل وصورته الظاهرية، لكن بدون روح. فإنْ قَلْتَ: فهل يحدث هذا من الرسل؟ يعنى: هل يخطئ الرسول ويصحَّح له؟ نعم. العيب أنْ يصحح لك المُسَاوِى لك، إنما ليس عيبًا أنْ يصحح لك الأعلى. فماذا فيها إنْ كان الذى يصحِّح لسليمان ربه عز وجل لا أنت؟ إذن من الشرف أنَّ الله يعَدِّل لسليمان".

وفى النص كلام عن أخى سليمان، الذى قام بانقلاب على أبيه، وعن الجن ورغبتهم فى قتل ابنه، وعن زهو النبى الكريم وثقته الزائدة فى قدرته على فعل ما يريد فى الوقت الذى يريد وعلى النحو الذى يريد، وعن بساط الريح الذى كاد أن يسقطه من فوقه، ولا أدرى من أين أتى الشيخ به، وبخاصة أنها أمور لا تليق بالأنبياء الكرام. والواقع أن فى الآية شيئا لا يسهل تفسيره. إلا أن ما قاله الشيخ لا يقنع العقل.

وهو نفسه قال فى شرحه للآية ٨١ من سورة "الأنبياء": "وَلِسُلَيمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىءٍ عَالِمِينَ" ما يلى: "وليس تسخير الريح لسليمان أنها تحمله مثلًا كما رأينا فى السينما بساط الريح، الذى نراه يحمل شيئًا ويسير به فى الهواء، أو أنها كانت تُسَير المراكب فى البحار. إنما المراد بتسخيرها له أن تكون تحت مراده وتأتمر بأمره، فتسير حيث شاء يمينًا أو شِمَالًا. فهى لا تهُبّ على مرادات الطبيعة التى خلقها الله عليها، ولكن على مراده هو. وإنْ كانت هذه الريح الرُّخَاء تحمله فى رحلة داخلية فى مملكته فهناك من الرياح ما يحمله فى رحلات وأسفار خارجية كالتى قال الله تعالى عنها: "وَلِسُلَيمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ" (سبأ/ ١٢)، فيجوب بها فى الكون كيف يشاء "حَيثُ أَصَابَ" (ص/ ٣٦)". وهو، كما نرى، ينسف ما قاله عن بساط الريح تماما، وإن لم يكن فى آيتى "سبأ" و"ص" اللتين استشهد بهما هنا ما يفهم منه أنه كان يركب متنها. لقد سخرها الله له تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، وجعل غُدُوَّها شهرا، ورواحَها شهرا. وهذا كل ما هنالك.

لكن هناك الحديث التالى الذى أورده الشيخ ضمن محاولاته التوصل لتفسير الآية: "عن أبى هريرةَ قال: قال سليمانُ بنُ داودَ عليهما السلامُ: لَأَطُوفَنَّ الليلةَ بمائةِ امرأةٍ تَلِدُ كلُّ امرأةٍ غلامًا يقاتِلُ فى سبيلِ اللهِ. فقال له المَلَكُ: قل: إن شاء اللهُ. فلم يقُلْ ونَسِيَ، فأطاف بهن، ولم تَلِدْ منهن إلا امرأةٌ نِصْفَ إنسانٍ. قال النبى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم: لو قال إن شاء اللهُ لم يَحْنَثْ، وكان أَرْجَى لحاجتِهِ". والحديث من رواية البخارى رضى الله عنه، ولكنه يحتاج إلى وقفة.

وأول شيء أحب أن أقوله هو أن عالمنا الكبير البخارى قد بذل جهده فى تمحيص أحاديث "صحيحه"، وسجل هذا الحديث باعتباره حديثا صحيحا طبقا للمقاييس والشروط التى وضعها. لكن هذا لا يعنى أنه معصوم أو أن الأحاديث التى يشتمل عليها كتابه كلها صحيحة مائة فى المائة ولا يخرّ من أى منها الماء، فالكمال لربنا وحده سبحانه. أما نحن البشر فما علينا سوى الاجتهاد والإخلاص فى عملنا، والباقى على الله، وقد نصيب وقد نخطئ، وليس هناك ضمان مطلق لأن يأتى عملنا كله صوابا لا شائبة فيه.

وأنا دائما ما أقول: إننى أجلس بكل احترام تحت أقدام العلماء مبجلا لهم محترما إياهم، لكننى فى ذات الوقت أُعْمِل عقلى الذى وضعه الله فى رأسى، وإن لم يكن ثَمَّ ضمان بأن يكون ما أصل إليه صوابا بالضرورة. إنما هو بدوره اجتهاد، والمهم أن أبذل كل ما فى وسعى وأن أكون مخلصا فى عملى ونيتى وأن أترك عقلى مفتوحا بعد الوصول إلى ما وصلت إليه من نتائج، فلربما يتضح لى أنى قَصَّرْتُ أو سهوتُ أو أخطأتُ أو نَسِيتُ أو فاتنى الاطّلاع على شيء أو أشياء.

والآن إذا توقفنا أمام الحديث الذى أوردناه فسوف نلاحظ الآتى: أن الروايات تختلف فى عدد النساء اللاتى صرح سليمان عليه السلام بأنه سوف يمر بهن فى تلك الليلة ويعاشرهن: ففى رواية أخرى فى البخارى أنهن ستون فقط، وفى رواية ثالثة أنهن

تسعون، وفى رابعة أنهن سبعون، وفى خامسة أنهن تسع وتسعون. ودَعُونا من روايات المحدِّثين الآخرين. ثم ما معنى أن يطوف الواحد بعشرات النساء فى ليلة واحدة؟ هل سيلقى على كل منهن تحية المساء ثم ينطلق إلى غيرها؟ إن الكلام هنا عن معاشرة جنسية وعاطفية تأخذ وقتا فى التهيؤ الجسدى والنفسى والعقلى بحيث تحتاج إلى زمن غير قصير. كما أن الإنسان يحتاج إلى فترة انتظار بعد المعاشرة حتى تعود إليه رغبته وقدرته وتحمسه لمعاشرة أخرى، وإلا تحول الإنسان فى هذه الحالة إلى آلة لا تشعر ولا تفكر ولا تحتاج إلى راحة واستجمام وتهيؤ من جديد. لا بل إن الآلات نفسها لتحتاج إلى راحة وصيانة ومراجعة وتزييت وتشحيم وإصلاح وتغيير لبعض القطع التالفة حتى تستمر فى العمل.

ثم هل باستطاعة الإنسان معاشرة كل هذا العدد فى ليلة واحدة؟ إن الله سبحانه وتعالى يأمر رسوله الكريم بأن يقول: "إنما أنا بشر مثلكم يوحى إِلَيَّ". فهو إذن بشر كسائر البشر إلا فى النبوة: إنه يأكل ويشرب، ويجوع ويشبع، وينام ويستيقظ، ويصحّ ويمرض، ويتعب ويرتاح، ويمشى فى الأسواق ويستكنّ فى المنزل، ويعبد ربه ويدبر أمور أمته وينهض بحاجات أسرته... إلى آخره كما يحدث لكل البشر وكما يحدث منهم، ولم يقل إنه يتميز عنهم بقوة جنسية تخوِّل له أن يعاشر مائة امرأة فى ليلة واحدة. فهل استثنى سليمان عليه السلام فى ذلك الجانب؟

وقبل ذلك كله كيف تصور ذلك النبى الكريم أن نسوته المائة لا بد أن يحملن جمعاوات فى تلك الليلة، وكأنهن كلهن أوّلا ولودات لا عاقرَ منهن البتة، وكلهن ثانيا خاليات من موانع الحمل الشهرية؟ فيا لها من مصادفة عجيبة! الغريب أن ثم حديثا يزعم رواته أن الشيطان قد حل محله عليه السلام ذات مرة، فكان الرجيمُ الزنيمُ يعاشر زوجاته وهُنَّ حُيضٌ، وكأن الشيطان له جسد مثلنا، وكأن زوجات سليمان قد قبلن تلك المعاشرة الشاذة فلم ينكرن عليه! أو كأنهن قد طمس الله على آذانهن وأبصارهن

وبصائرهن فلم يعرفن أن هذا الكائن الذى يجامعهن ليس هو زوجهن. وهل يمكن أن يترك الله نساء نَبِيه للشيطان يجامعهن؟ ألا إن ذلك لغريب. ثم لِمَ طرأ على خاطره عليه السلام فى تلك الليلة بالذات أن يقوم بهذا العمل؟ كان يمكن فهم هذا لو أن أولاده تَوَّ نزولِهم إلى الحياة سوف يصيرون فرسانا مجاهدين فى سبيل الله، فيرسلهم فى الحال إلى خط النار لأن المعارك الطاحنة مشتعلة على كل الجبهات ولا تستطيع الانتظار. أمّا وَهُمْ لن يكونوا مستعدين للحرب فى سبيل الله إلا بعد بضعة عشر عاما على الأقل فلم يكن هناك أى داع للعجلة، ولْيمُرّ عليه السلام إذن على نسائه فى كل ليلةٍ واحدةٌ، ويأتى الأولاد عندئذ براحتهم كما يأتى أولاد البشر.

وفوق هذا فالحديث معناه أنه لن يكون عنده وقت لعمل أى شىء آخر، فلا صلاة ولا ذكر ولا نوم ولا راحة ولا تشاور مع وزرائه ورجال دولته فى أمور الدولة ولا حتى استماع لما يمكن أن تحكيه له زوجته مثلا من مشاكل بينها وبين ضَرَّاتها كما يقع فى كل البيوت التى تضم عددا من الزوجات لرجل واحد ولا سؤال عن أى ولد من أولاده ولا أكل ولا شرب ولا قضاء حاجة ولا اغتسال ولا ملل ولا إرهاق. ذلك أن أمامه مائة امرأة لا بد من المرور عليهن والفراغ منهن واحدة واحدة بالتمام والكمال فى تلك الليلة.

كذلك يلفت النظر أن المَلَك قد نبهه إلى وجوب تقديمه المشيئة حتى يحقق الله له مطلبه، لكنه نَسِيَ. ويتساءل الواحد منا: كيف ينسى أى إنسان، فضلا عن أن يكون هذا الإنسان رسولا من لدن رب العالمين، أن يردد وراء الملك فى الحال كلمة "إن شاء الله"؟ لقد قال له الملك: قل: إن شاء الله. فكان ينبغى أن يقول فى الحال: إن شاء الله. هل هذه معضلة؟ فكيف نَسِيَ أن يقول ذلك؟ إن هذا قد يصح لو كان ينوى معاشرة زوجاته بعد ليلة أو ليلتين أو أسبوع أو أسبوعين مثلا. أمّا والمَلَك ينبهه إلى ترديد هذه

الكلمة البسيطة فى الحال فكان المتوقع أن يقول وراءه فى التو واللحظة: لأطوفن الليلة إن شاء الله بنسائى... إلخ، وتنتهى المشكلة.

إن المصريين الآن قد لحست الوسوسة عقولهم، فصار الواحد منهم يقول بلا عقل ولا معنى: لقد أكلت أمس كذا وكذا إن شاء الله، أو اسمى كذا إن شاء الله، أو أنا من الشرقية إن شاء الله، أو نجحت وتخرجت إن شاء الله... إلى آخر ألوان تقديم المشيئة على هذا النحو المضحك وسوسةً وتنطُّعا، إذ المشيئة تتعلق بالمستقبل لا بالماضى على طريقة جحا حين قال فى القصة المشهورة: الحمار ضاع إن شاء الله. أفيعقل أن ينسى سليمان عليه السلام، وهو النبى الكريم الذى اصطفاه الله على عينه، تقديم المشيئة فى موضعها رغم تنبيه المَلَك له؟

وكيف لم تحمل أية من نساء سليمان عليه السلام من معاشرته لهن بعد ذلك؟ ترى هل جامعهن تلك المرة الواحدة ثم أهملهن مدى الحياة؟ وإلا فكيف عرف أن ذلك الولد المشوه هو ثمرة لقاء تلك الليلة بالذات؟ ثم ما معنى أن امرأة من نسائه قد ولدت له شق غلام؟ معنى ذلك أنه كانت له عين واحدة وحاجب واحد وساق واحدة وقدم واحدة وكُلْية واحدة وفتحة أنف واحدة ورئة واحدة ونصف جمجمة ونصف مخ ونصف فم وست عشرة سنا ونصف بطن ونصف أمعاء، ثم يتبقى القلب والكبد مثلا، وسوف يتوقف وجود كل منهما على الشق الذى ولد به الغلام، فلو كان الشق هو الشق الأيمن مثلا فمعنى هذا أنه لن يكون له قلب. فكيف يعيش يا ترى؟ على أن المسألة لا تتوقف هنا، بل كيف سيأكل ذلك الغلام؟ وكيف يمشى؟ وكيف يتكلم؟ وكيف يجلس؟ وكيف يقضى حاجته؟ وكيف يفكر؟ وكيف يشعر؟ وهذا إن كان قد بقى على قيد الحياة. أم هل تراه مات أو نزل ميتا؟ لكن ليس فى الرواية شىء عن ذلك الموضوع. لقد سكتت الأحاديث عن هذا تماما. أفيعقل أن أمرا كهذا يتم تناوله فى حديث واحد ثم ينْسَى فلا يأتى له ذكر بعد ذلك قط؟ وبالمناسبة فإننا لا نعرف من الأحاديث شيئا

عن أبناء سليمان رغم كثرة عدد زوجاته كما رأينا، بل لا نعرف منها أكان له أولاد أصلا أم لا. لقد صمتت الروايات عن ذلك، بخلاف شِقّ الولد الذى تكلم عنه الحديث المذكور. وهذا عجيب!

ثم كيف كان سليمان وزوجته يتعاملان مع هذا الابتلاء؟ لقد سكتت الأحاديث أيضا عن رد فعل الأم حين ابتلاها الله بطفل مشوه غاية التشويه ليس له نظير بين البشر. وبالمثل سكتت عن وصف مشاعر سليمان نفسه. أَوَيمْكِن أن يكون الأبوان قد استقبلا هذا المولود العجيب دون أى استغراب أو تألم أو معاناة؟ ألا إن هذا لأمر غريب غاية الغرابة، وبخاصة أن سليمان عليه السلام كان يمَنِّى نفسَه بأن يجاهد أولادُه فى سبيل الله.

ثم إن لدينا فى القرآن قوله تعالى لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام فى سورة "الكهف" حين سأله الكفار عن شىء ما فوعدهم أن يأتيهم بخبره فى الغد دون أن يقدم المشيئة، فنهاه الله عز وجل قائلا: "ولا تقولنَّ لشىءٍ إنى فاعلٌ ذلك غدًا إلا أَنْ يشاءَ الله. واذكرْ ربَّك إذا نَسِيتَ"، وهذا كل ما هنالك، فلم يعاقبه الله بشىء، إذ هو لم يرتكب جرما يعاقَب بسببه، بل سها عن شىء كان يحسن الالتفات إليه إذ إن الأمر الذى وعد به المشركين لم يكن فى يده، بل سوف ينزل به الوحى. فكيف يكون رد السماء على نسيان سليمان لتقديم المشيئة ردا عنيفا على هذا النحو العنيف؟ ولقد كرم الله نبيه سليمان فسخَّر له الريح وعَلَّمه منطق الطير وأخدمه الجن. فكيف يتسق هذا الإكرام العظيم مع العقوبة الرهيبة على مثل تلك الهفوة التى لا تُذْكَر؟

على أن هذه الملاحظات لا تنال من مكانة البخارى، فقد اجتهد ذلك العالم الجليل وأدى ما عليه، ولا يضيره أن نجد له، وسط هذه الآلاف من الأحاديث التى محصها وانتقاها من الآلاف المؤلفة من أمثالها، طائفة من الأحاديث التى نرى أنها لا تستقيم. وقد نكون نحن المخطئين مع هذا. لقد حفظ لنا الرجل ثروة من أقوال رسولنا

العظيم لا تقدَّر بكنوز الدنيا ولا ينهض الدين على ساقيه بدونها، فهى المذكرة التفسيرية والتطبيقات العملية والإضافات الأساسية للقرآن الكريم.

لكن هناك من يرى وجوب الصمت عن مناقشة الأحاديث النبوية اعتمادا على أن هذا إعمال للعقل، والدين عند هؤلاء لا يؤخذ بالعقل. فبأى شيء يؤخذ يا ترى؟ بالجهل مثلا أو الحفظ والترديد بدون فهم؟ إن الإسلام هو دين العقل بامتياز، ولا تجد فى أى دين آخر هذه السمة العظيمة. والآيات القرآنية تدعو دائما إلى استعمال العقل فى أمر الدين والنبوة، إذ كيف يمكن معرفة صدقية النبى محمد وصلاحية الدين الذى جاء به لتنظيم حياة البشر وتوصيلهم إلى الآفاق العالية التى وعدهم بها ما لم نختبر هذا الذى أتانا به لنعرف مدى صدق دعواه من عدمها؟ وكيف يا ترى سيتم هذا الاختبار إلا بالعقل والتفكر والتدبر والتأمل؟

ويقول بعض المعترضين إن العلماء قد سَبَقُوا إلى تمحيص هذا الأحاديث وانتهَوْا إلى صدق هذه الأحاديث، فليس لنا إلا أن نخرّ عُمْيا وبُكْمًا وصُمًّا عليها دون أن نفتح أفواهنا إلا بالموافقة والتأمين على ما يقولون. ولكن السؤال الذى يبرز للتو من أذهاننا ويفرض نفسه علينا ويريد منا الجواب العاجل المُلِحّ هو: وكيف نعرف أن هؤلاء العلماء قد أصابوا الحق فى كل ما قالوه من الأحاديث النبوية، وكل كتاب حديث يشتمل على الآلاف من نصوصها؟ سيقال لك: لقد تلقت الأمة حكمهم بالقبول، فماذا تريد أكثر من ذلك؟ لكن ألم يسمعوا قول الرسول عليه الصلاة والسلام: "لا يكن أحدكم إِمَّعَةً يقول: أنا مع الناس. إن أحسن الناس أحسنتُ، وإن أساؤوا أسأتُ"؟ ألا يعرفون أن العصمة ليست من صفات البشر، اللّهم إلا فى تبليغ الأنبياء رسالات ربهم وفى عظمة أخلاقهم؟ ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يختلفون فى أمر الحديث ويطالبون من يأتيهم منهم بحديث لم يسمعوه أن يوافيهم بالبرهان على صحته؟ كما أن علماء الحديث لم يقبلوا الآلاف المؤلفة من الأحاديث التى وصلتهم بل غربلوها فلم

يصححوا منها سوى نسبة جد ضئيلة؟ فلِمَ يطْلَب منا أن نخرس فلا نحاول التحقق من صحة ما صححوه؟ ترى هل سيحاسبهم الله بدلا منا، ويوم القيامة نعتذر لمولانا الكبير المتعال بأننا لسنا سوى تابعين؟ لكن القرآن قد حسم المسألة موضحا أن التابعين والمتبوعين سوف يحاسبون جميعا، وسوف يكون الحساب عسيرا، وربما كان المصير تعيسا.

إن مثل ذلك الحديث يثير السخرية لدى الملاحدة والعلمانيين، ويسخرون بسببه منا نحن المؤمنين، ولهم الحق، فهو يناقض العقل ويتنكر لطبيعة الطاقات البشرية ولا يتمشى مع ما نعرفه من قوانين الحياة البيولوجية والنفسية والاجتماعية، فضلا عن مدابرته لحقائق الرياضيات التى متى ما استعنا بها فيها من جمع وطرح وضرب وقسمة فلسوف نجد أن الأمر لا يستقيم لأن مجامعة مائة امرأة لا يمكن أن تكفيه ساعات الليل حتى لو لم يكن للمجامِع من عمل سوى الجماع. ولكن على من تلقى مزاميرك يا داود؟

قد ينبرى من يقول إن الأمر كله معجزة فلا ينبغى أن يقاس بمقاييسنا العادية. لكن نَسِيَ من يمكن أن يقول هذا أن المعجزة لون من التكريم الإلهى للرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهذا معناه أنه سبحانه راضٍ عما يفعلون، فهو لذلك يعضدهم ويكرمهم ويجعل الآية التى يعضدهم بها دليلا على أنه راض عنهم وعن سلوكهم وأنه معهم. لكن لو كان الله راضيا عما فعل سليمان لحقق له مراده وجعل كل نسائه يحملن فى تلك الليلة تحقيقا لرغبته. ومع هذا فنحن إذا نظرنا وجدنا أنه عز وجل لم يكن راضيا عما صنع رسوله عليه السلام، إذ لم يقدم المشيئة، فضلا عن عدم تنفيذه ما نبهه إليه الملاك حين ذكَّره بما ينبغى أن يقول، لكنه لم يقل. من هنا نرى أن الأمر ليس فيه من المعجزة قليل أو كثير، وإلا فأين المعجزة فى أن يهَب الله له شق ولد؟ إنه عقاب لا تكريم كما هو واضح.

وفى قول الله تعالى فى الآية ١٢ من سورة "فاطر": "وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"، التى تنص، كما هو واضح، على أننا نستخرج الحلية من "كل" من البحر والنهر نجد الشيخ، بعد أن قال إن البحر فى الأصل هو البحر الملح، لكن إذا جمع البحر والنهر قلنا: "البحران" على التغليب، وبعد أن ذكر صراحة أن السمك كما يخرج من البحر يخرج من النهر لا فرق فى ذلك، يتجنب الوقوف عند كلمة "مِنْ كلٍّ" بالنسبة لاستخراج الحلىّ، فقال: "والحلية ما يتَزَين به من اللؤلؤ والمرجان وغيرهما مما يخرج من البحر (يقصد بطبيعة الحال البحر المِلْح حسبما وضحنا معنى البحر فى كلامه، لكنه ساق الكلام مختصرا دون الدخول فى التفاصيل تجنبا، فيما يبدو لى، للاصطدام بـ"وَمِنْ كلٍّ"). وهذه زينة عامة للرجال وللنساء على خلاف حلية الذهب التى تحرم على الرجال. فللرجل أن يتحلى بما يشاء من حلية البحر (يقصد البحر الملح. وحلية البحر الملح، حسبما ذكر مما مر بنا، هى اللؤلؤ والمرجان)، فلا نهى عن شيء منها...". وبهذا خرج الشيخ بذكائه وقفزه فوق العبارة المذكورة عن "لا" و"نعم".

لكنه لما بلغ قوله تعالى عن البحرين فى الآية ٢٢ من سورة "الرحمن": "يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان" قال: "معنى "يخرج منهما" (الرحمن/ ٢٢)، أى من البحرين: العذب والمالح، مع أن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من الماء المالح". ثم ضرب الشيخ المثل التالى، وهو مثل فى الغاية من الظَّرْف وخفة الظل التى تجعلنى الآن وأنا أكتب هذه السطور أفطس على نفسى من الضحك رغم وقار المقام: "وهذه المسألة حَلَّها لنا حاجب المحكمة الذى ذهب لخِطْبة سَنِية بنت مَحْضِية، فسألوه: ماذا تعمل؟ قال: أنا حاجب المحكمة. قالوا: كم راتبك من هذا العمل؟ قال: أنا والقاضى نأخذ

مائة جنيه. فقوله تعالى: "يخرج منهما" (الرحمن/ ٢٢)، أى من مجموعهما معا. والآن يقول العلماء إن اللؤلؤ والمرجان لا يوجدان إلا فى مصب الماء العذب".

ثم نقرأ فى الهامش السطور التالية: "حتى العلماء القدامى نقلوا هذا، فقد نقل القرطبى فى تفسيره (٩/ ٦٥٦٤) هذا القول فى سياق حديثه عن اللؤلؤ، فقال: إن العذب والملح قد يلتقيان، فيكون العذب كاللقاح للملح، فنُسِب إليهما كما يُنْسَب الولد إلى الذكر والأنثى، وإن ولدته الأنثى، ثم قال: لذلك قيل إنه لا يخرج اللؤلؤ إلا من موضع يلتقى فيه العذب والملح".

يريد عالمنا المفضال أن يقول إن اللؤلؤ والمرجان لا يستخرجان إلا من البحر الملح. ومن هنا لا مانع أن يقال إنهما يخرجان من مجموع البحرين: الملح والعذب، على أساس أن البحر العذب لا يستخرج منه شىء، أى صفر، والبحر الملح تستخرج منه النسبة كلها كاملة، أى ١٠٠٪. لكن هذا معناه فى مَثَل صاحبنا الحاجب الظريف الذى تقدم لخطبة سنية بنت محضية أنه لم يكن يقبض من الحكومة شيئا، وأن المائة جنيه هى كلها مرتب القاضى وحده. ولا أظن المسألة تمشى هكذا رغم خفة ظل المثل التى لا تضاهَى، فليس هناك حاجب محكمة يعمل لدى الحكومة دون مقابل.

وقد ضربت أنا منذ بضعة عقود مثلا آخر يؤدى هذا المعنى، ولكن مَنْ لى بخفة ظل الشيخ وروحه الظريفة؟ وأَنَّى لى بـ"سنية بنت محضية" هذه؟ هذا مثال لا يمكن أن يخطر على بال أحد آخر ولو كان من الجن الأزرق. وسوف يأتى المثال الذى ضربته أنا عما قليل، وأنا متيقن أنكم ستجدونه مثالا سخيفا ثقيل الظل. وهو موجود فى النص الطويل التالى الذى أقتبسه هنا من كتابى: "موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم"، الذى صدر أول مرة عام ١٩٨٦، والكلام فيه أيضا عن قوله تعالى فى الآية الثانية عشرة من سورة "فاطر": "وما يستوى البحران: هذا عذبٌ فراتٌ سائغٌ شرابُه،

وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ. ومِنْ كُلٍّ تأكلون لحمًا طريا، وتستخرجون حِلْيةً تلبَسونها..."، وهى هى الآية التى نحن بصددها.

قلت: "ما أكثر ما قرأت هذه الآية، ولكن لم ألتفت إلى ما تنبهت إليه وأفزعنى منذ فترة ليست بالبعيدة، إذ تؤكد الآية الكريمة أن الحلى تستخرج من النهر والبحر كليهما، ولم أكن أعرف حتى ذلك الوقت إلا أن اللؤلؤ والمرجان (المذكورين فى آية مشابهة فى سورة "الرحمن") إنما يوجدان فى البحار. وقفز السؤال إلى عقلى على الفور مفزعا: "أيمكن أن يكون القرآن قد أخطأ؟". إن هناك عدة آيات مشابهة فى سورة "الرحمن"، ولكنها لا تثير أية مشاكل، فنصها هو "مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأى آلاء ربكما تكذبان * يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان"، ويمكن أن نفهم من النص أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من مجموع البحرين لا من كل منهما، كما تقول: "إن فى يدى هاتين مائة جنيه"، ويكون المبلغ كله فى اليد الأولى بينما الثانية خلو تماما من أى نقود، ولا تكون قد عدوت الحقيقة.

أما آية سورة "فاطر" فإنها تقول بصريح العبارة: "ومن كل... تستخرجون حلية تلبسونها". ولم يسعفنى ما عندى من تفاسير قديمة، فأخذت أقلب نظرى فى أرفف مكتبتى وأنا حائر ضائق، وإذا بى ألمح ترجمة يوسف على للقرآن فأفتحها فأجد فيها شفاء نفسى، إذ يذكر المترجم رحمه الله (فى تعليقه على هذه الآية فى الهامش) من الحلى البحرى اللؤلؤ والمرجان، ومن الحلى النهرى العقيق وبرادة الذهب وغيرهما. ثم رجعت بعد ذلك إلى "دائرة المعارف البريطانية" (مادة "Pearl") و"الموسوعة العربية العالمية" (مادة "اللؤلؤ") و"المنتخب فى تفسير القرآن الكريم" (عند تفسير هذه الآية) فوجدت أن اللؤلؤ يوجد أيضا فى المياه العذبة. وكأن الكتاب الأخير يرد على حيرتى، إذ يقول: "وقد يستبعد بعض الناس أن تكون المياه العذبة مصدرا للحلى، ولكن العلم والواقع أثبتا غير ذلك: أما اللؤلؤ فإنه، كما يستخرج من أنواع معينة من البحر،

يستخرج أيضا من أنواع معينة أخرى من الأنهار، فتوجد اللآلئ فى المياه العذبة فى إنجلترا وأسكتلندا وويلز وتشيكوسلوفاكيا واليابان... إلخ، بالإضافة إلى مصايد اللؤلؤ البحرية المشهورة، ويدخل فى ذلك ما تحمله المياه العذبة من المعادن العالية الصلادة كالماس، الذى يستخرج من رواسب الأنهار الجافة المعروفة بـ"البرقة". ويوجد الياقوت كذلك فى الرواسب النهرية فى موجوك بالقرب من باندالاس فى بورما العليا. أما فى سيام وفى سيلان فيوجد الياقوت غالبا فى الرواسب النهرية. ومن الأحجار شبه الكريمة التى تستعمل فى الزينة حجر التوباز، ويوجد فى الرواسب النهرية فى مواقع كثيرة منتشرة فى البرازيل وروسيا (الأورال وسيبيريا)، وهو فلورسيليكات الألمونيوم، ويغلب أن يكون أصفرَ أو بُنِّيا. والزيركون (CIRCON) حجر كريم جذاب تتقارب خواصه من خواص الماس، ومعظم أنواعه الكريمة تستخرج من الرواسب النهرية".

وحتى يقدِّر القارئُ ردَّ فعلى الأولَ حَقَّ قَدْرِه أذكر له أن بعض المترجمين الأوربيين فى العصر الحديث أيضا قد استبعدوا أن تكون الأنهار مصدرا من مصادر الحلى. وقد تجلى هذا فى ترجمتهم لهذه الآية: فمثلا نرى رودويل الإنجليزى يترجم الجزء الخاص بالحلى منها هكذا: " Yet from both ye eat fresh fish, and take forth for you ornaments to wear". فعبارة "from both" تصلح لترجمة آية سورة "الرحمن" لا هذه الآية، وتذكرنا بحاجب المحكمة الذى ذهب لِخِطْبَة سنية بنت محضية قائلا إنه يأخذ فى الشهر هو والقاضى مائة جنيه. كذلك ينقل رودى باريت هذه العبارة إلى الألمانية على النحو التالى: "Aus beiden ebt ihr frishes feisch". إلى هنا والترجمة صحيحة، فهذه العبارة تقابل بالضبط قوله تعالى: "ومن كل تأكلون لحما طريا" وإن كان استخدم فى مقابل "طريا" كلمة "frish" ومعناها الدقيق "طازج". لكن تنبه لترجمته للجزء الآتى الذى يقول فيه: " Und (aus dem Salzmeer) geurnnt ihr scmuck... um ihm euch anzulegen." والذى ترجمته: "وتستخرجون

(من البحر الملح) حلية تلبسونها". ويرى القارئ أن المترجم قد أضاف من عنده بين قوسين عبارة: "من البحر الملح: aus dem Salzmeer"، وهو ما يوحى باستبعاده أن تكون الأنهار مصدرا من مصادر اللؤلؤ والعقيق وغيرهما من أنواع الحلى على ما تقول الآية الكريمة. أما ترجمة سيل وبالمر (الإنجليزيتان) وترجمتا كازيمريسكى وماسون (الفرنسيتان)، وكذلك ترجمتا ماكس هننج ومولانا صدر الدين (الألمانيتان) على سبيل المثال فقد ترجمت كلها النص القرآنى كما هو، ولكنها لزمت الصمت فلم تعلق بشىء.

ويرى القارئ من هذه الآية كيف أن القرآن قبل أربعة عشر قرنا قد أشار إلى حقيقة يستبعدها واحد مثلى يعيش فى القرن العشرين وآخرون مثل المستشرق الإنجليزى رودويل ونظيره الألمانى رودى باريت، فكيف عرفها الرسول عليه الصلاة والسلام إذن وأداها بهذه البساطة لو كان هو مؤلف القرآن، وبخاصة أن الأنهار التى ذكر أن اللؤلؤ وغيره من الأحجار الكريمة وشبه الكريمة تستخرج منها تقع فى بلاد سحيقة بالنسبة للجزيرة العربية، بل إن بعضها كالبرازيل مثلا لم تكتشف إلا فى العصور الحديثة؟".

نبذة عن المؤلف

إبراهيم محمود عوض

من مواليد قرية كتامة الغابة - غربية - مصر فى ٦/ ١/ ١٩٤٨م

تخرج من آداب القاهرة عام ١٩٧٠م

حصل على الدكتورية من جامعة أكسفورد عام ١٩٨٢م

أستاذ النقد الأدبى بجامعة عين شمس

البريد الضوئى: (ibrahim_awad9@yahoo.com)

المؤلفات:

معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين

المتنبى - دراسة جديدة لحياته وشخصيته

لغة المتنبى - دراسة تحليلية

المتنبى بإزاء القرن الإسماعيلى فى تاريخ الإسلام (مترجم عن الفرنسية مع تعليقات ودراسة)

المستشرقون والقرآن

ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية

الترجمة من الإنجليزية - منهج جديد

عنترة بن شداد- قضايا إنسانية وفنية

النابغة الجعدى وشعره

من ذخائر المكتبة العربية

السجع فى القرآن (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)

جمال الدين الأفغانى – مراسلات ووثائق لم تنشر من قبل (مترجم عن الفرنسية)

فصول من النقد القصصى

سورة طه – دراسة لغوية وأسلوبية مقارنة

أصول الشعر العربى (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)

افتراءات الكاتبة البنجلاديشية تسليمة نسرين على الإسلام والمسلمين– دراسة نقدية لرواية "العار"

مصدر القرآن– دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى

نقد القصة فى مصر من بداياته حتى ١٩٨٠م

د. محمد حسين هيكل أديبا وناقدا ومفكرا إسلاميا

ثورة الإسلام– أستاذ جامعى يزعم أن محمدا لم يكن إلا تاجرا (ترجمة وتفنيد)

مع الجاحظ فى رسالة "الرد على النصارى"

كاتب من جيل العمالقة: محمد لطفى جمعة– قراءة فى فكره الإسلامى

إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية– خطاب مفتوح إلى الدكتور محمود على مراد فى الدفاع عن سيرة ابن إسحاق

سورة يوسف– دراسة أسلوبية فنية مقارنة

سورة المائدة– دراسة أسلوبية فقهية مقارنة

المرايا المشوِّهة– دراسة حول الشعر العربى فى ضوء الاتجاهات النقدية الجديدة

القصاص محمود طاهر لاشين– حياته وفنه

فى الشعر الجاهلى– تحليل وتذوق

فى الشعر الإسلامى والأموى– تحليل وتذوق

فى الشعر العباسى– تحليل وتذوق

فى الشعر العربى الحديث– تحليل وتذوق

موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم

سورة النورين التى يزعم فريق من الشيعة أنها من القرآن الكريم– دراسة تحليلية

منكرو المجاز فى القرآن والأسس الفكرية التى يستندون إليها

أدباء سعوديون

شعر عبد الله الفيصل– دراسة فنية تحليلية

دراسات فى المسرح

دراسات دينية مترجمة عن الإنجليزية

د. محمد مندور بين أوهام الادعاء العريضة وحقائق الواقع الصلبة

دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية– أضاليل وأباطيل

شعراء عباسيون

من الطبرى إلى سيد قطب– دراسات فى مناهج التفسير ومذاهبه

القرآن والحديث– مقارنة أسلوبية

اليسار الإسلامى وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة

محمد لطفى جمعة وجيمس جويس

"وليمة لأعشاب البحر" بين قيم الإسلام وحرية الإبداع - قراءة نقدية

لكن محمدا لا بواكى له- الرسول يهان فى مصر ونحن نائمون

مناهج النقد العربى الحديث

دفاع عن النحو والفصحى- الدعوة إلى العامية تطل برأسها من جديد

عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين

الفرقان الحق- فضيحة العصر

لتحيا اللغة العربية يعيش سيبويه

التذوق الأدبى

الروض البهيج فى دراسة "لامية الخليج"

المهزلة الأركونية فى المسألة القرآنية

سهل بن هارون وقصة النمر والثعلب- فصول مترجمة ومؤلفة

"تاريخ الأدب العربى" للدكتور خورشيد أحمد فارق: عرض وتحليل ومناقشة (مع النص الإنجليزى)

الأسلوب هو الرجل- شخصية زكى مبارك من خلال أسلوبه

فنون الأدب فى لغة العرب

الإسلام فى خمس موسوعات إنجليزية (نصوص ودراسات)

فى الأدب المقارن- مباحث واجتهادات

مختارات إنجليزية استشراقية عن الإسلام

نظرة على فن الكتابة عند العرب فى القرن الثالث الهجرى (مترجم عن الفرنسية)

فصول فى ثقافة العرب قبل الإسلام

بعد الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ماذا يقولون عن الإسلام؟ (نصوص وردود)

دراسات فى النثر العربى الحديث

"مدخل إلى الأدب العربى" لهاملتون جب- قراءة نقدية (مع النص الإنجليزى)

مسير التفسير- الضوابط والمناهج والاتجاهات

"الأدب العربى- نظرة عامة" لبيير كاكيا: عرض ومناقشة (مع النص الإنجليزى)

بشار بن بُرْد- الشخصية والفن

الحضارة الإسلامية- نصوص من القرآن والحديث ولمحات من التاريخ

فى التصوف وأدب المتصوفة

النساء فى الإسلام- نَسْخ التفسير البطرياركى للقرآن (النص الإنجليزى مع دراسة موازية)

الإسلام الديمقراطى المدنى- الشركاء والموارد والإستراتيجيات (ترجمة تقرير مؤسسة راند الأمريكية لعام ٢٠٠٣م عن الإسلام والمسلمين فى أرجاء العالم)

محاضرات فى الأدب المقارن

من قضايا الدراسة الأدبية المقارنة

ست روايات مصرية مثيرة للجدل

هوامش على "تاريخ العرب" لفيليب حتى

أفكار مارقة- قراءة فى كتابات بعض العلمانيين العرب

"لو كان البحر مدادا" للصحفية الأمريكية كارلا باور (حوار مع الشيخ أكرم ندوى)- عرض وتحليل د. إبراهيم عوض

الإسلام والتنافس الحضارى

تاريخ الأدب العربى- العصر العباسى

مباحث فى التشريع الإسلامى

دراستان فى الأدب المقارن

روايات أخذت أكثر من حقها—ثمانى روايات عربية (رؤية جديدة)

"محمد ونهاية العالم" لبول كازانوفا—عرض ومناقشة وتفنيد

علاوة على الدراسات والكتب المنشورة فى المواقع المشباكية المختلفة

الفهرست